

ضياء الدين زين الدين



دراسة إسلامية في دلائل الاصطفاء الإلهي لعلي ع وذريته

الكتاب الفائز بالجائزة الأولى في مهرجان الإمام علي

بمناسبة مرور ١٤ قرناً على يوم الغدير

ذو الحجة ١٤١٠هـ تموز ١٩٩٠م لندن

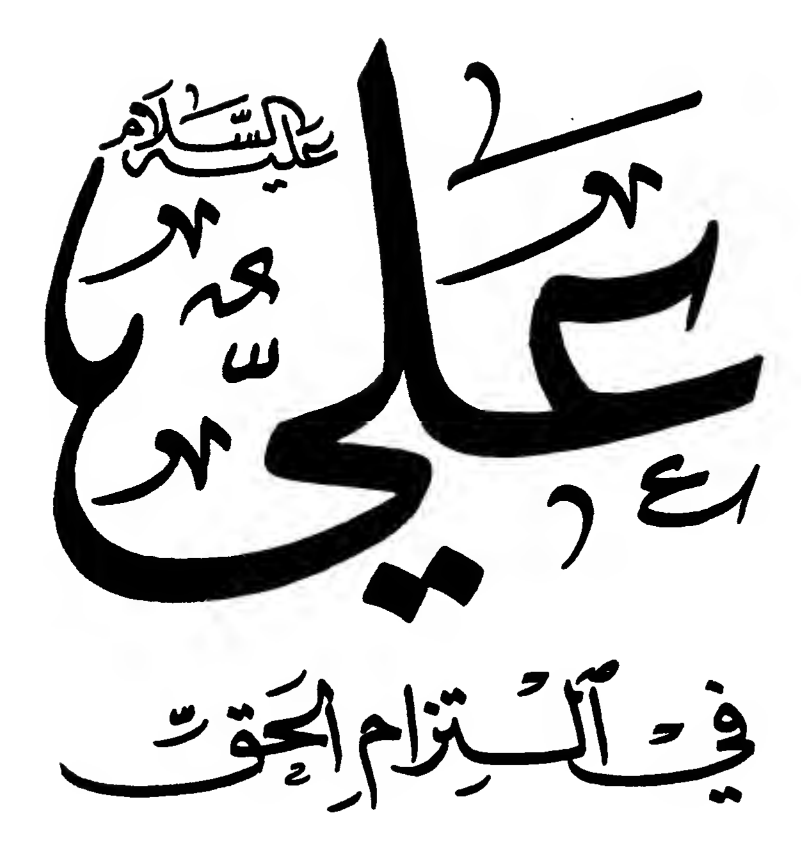
زيد للنشر
بغداد - العراق

دار الزهراء
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان




علي عليه السلام
في التزام الحق

ضياء الدين زين الدين



دراسة إسلامية في دلائل الاصطفاء الإلهي لعلي وولايته

الكتاب الفائز بالجائزة الأولى في مهرجان الإمام علي
بمناسبة مرور ١٤ قرناً على يوم الغدير

ذو الحجة ١٤١٠هـ تموز ١٩٩٠م لندن

زيد للنشر
بغداد - العراق

دار الزهراء
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

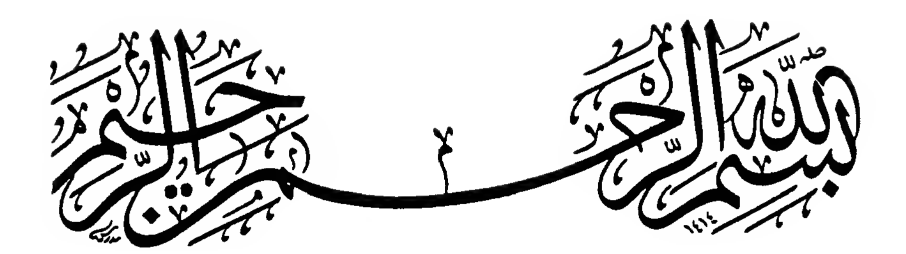
الطبعة الأولى

1416 هـ

الطبعة الثانية مزيدة ومنقحة

1428 هـ – 2007 م

ISBN: 1-874464-16-2


بسم الله الرحمن الرحيم



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي يسّر لعباده سبل مرضاته ، ودلّهم على موجبات عفوه وأسباب نقماته ، ووفّر الجزاء لمن أطاع بمنّه ، وأرصد العقاب لمن عصاه بعدله

والصلاة والسلام على محمّد وآله سادة الهداة من أصفيائه ، وقادة الأتقياء من نجبائه ، ودعاتهم إلى الغايات العظمى من معالم الهدى ، ومنقذيهم من الوقوع في مهالك الردى .

يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ .

رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ .

رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ .

في رحاب مهرجان يوم الغدير الأغر في لندن [1]

سماحة العلامة الدكتور السيد محمد بحر العلوم

علي بن أبي طالب عملاق من عمالقة الدنيا الخيرة ، ومثل رفيع من المثل العليا للقيمة الإنسانية ، وشموخ يعجز الإنسان أن يستوفي حقه فيصل الى كينونته الواقعية ، ولنا من باب المتابعة أن نسمع رسول الله ﷺ – وهو الصادق الأمين ، ولا ينطق عن الهوى – يقول: (ياعلي أنا وأنت أبوا هذه الأمة). ثم يقول عنه بوضح النهار ليسمعه كل الناس ، وفي كل زمان (علي مع القران ، يدور معه حيثما دار).

ومن يؤمن بالله سبحانه وتعالى يؤمن بالقران: إنه كلام الله الخالد ، ومعجزة الدين الحنيف ، ورسالة تحمل في ثناياها قيم تلك الدعوة للدين الحنيف ، والرسول الكريم هو المبلغ لهذه الرسالة السماوية ، فهو لا يمكن بحال من الأحوال أن ينطق عن الهوى ، انما هو وحي يوحى بأن يقرن عليا مع القرأن الخالد خلود الدهر إلا لكونه يحمل السمات العليا إلتي ترشحه ليكون بصف القران الذي هو رسالة السماء ، أما بواسطة الوحي ، أو بواسطة الرسول المبلغ الذي لا يأتيه الباطل بكل حال ، والنتيجة واحدة ، واستغفر الله عدد نجوم السماء ان يتسرب

---

[1] – في ذي الحجة ١٤١٠عام هجرية، الموافق تموز ١٩٩٠ميلادي، وبمناسبة مرور ١٤ قرنا على يوم الغدير الأغر أقيم مهرجان رائع في لندن بهذه المناسبة الخالدة،وقد أعلن بهذه المناسبة ثلاثة جوائز مالية لأحسن كتاب يكتب عن الإمام علي عليه السلام في مسابقة أدبية أعلن عن الكتب الفائز بالمسابقة في اليوم الثالث للمهرجان

شك في صدق محمد ﷺ لحظة ما ، او في رسالته المعجزة ﴿انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون﴾.

ومن هنا فقول الرسول الحديث الشريف المتقدم (علي مع القرآن يدور معه حيث دار) مسند لا يُطعن به إلا من هو خال الوفاض من كل جو عقائدي ، يدفع به -لا معتقده - إلى التخبط العاطفي أو الطائفي أو الانحطاط الخلقي ، فالرسول الصادق الأمين يقول ذلك ، وفوق كل ذي علم عليم ، وقد منّ الله عليهما أن يكونا ابوي هذه الأمة..

صحيح نحن عشاق علي بن ابي طالب ولكن دون مغالاة ، وليفهمنا أي إنسان قد يختلف معنا في المضمون فله الحرية وتمام الحرية فيما يقتنع فيه ، هذا شأنه وليس شاننا ، ولنا شأننا وعقيدتنا. وعليه أن يتحمل كل منا المسالة بكل أبعادها ، وهو ونحن احرار في تصورنا وفيما نحب ونكره ، ولكن علينا ان نحكم عقولنا ومنطقنا وضمائرنا ، ثم لكل منا بعد ذلك ان يختار ما يشاء ، فالناس أحرار ولا أكراه في الدين.

المهم أن نرضي الله سبحانه وضميرنا وعقلنا فيما نعتقد ، فعلي عليه السلام الذي يكون مع القران لا يتأثر بقبول زيد ، أو رفض آخر ، فالله عز وجل قرنه بقرأنه ، وعلي ذلك العملاق الشاخص والمثل الكامل للإنسانية جمعاء ، وموضع ثقة الله وربيب محمد ، وأضخم شخصية كان له في حساب الزمن ما يعجز الغور في الوصول إلى لباب حقيقة ذاته ونحن نعشقه ونتفانى له .

وحين لفتنا (الغربة الرعناء) ، وابتعدنا عن وطننا الغالي ، ودارت بنا الأيام دورتها المأساوية ، واستغرقتنا أماسي اللقاءات في بلد الضباب تمنينا أن نهيء جاهزيتنا ليوم فريد في العقيدة ، وقررنا ان نكون على أهبة الاستعداد لأداء مهمة تذكرنا بالعقيدة والوطن بما يسعنا الامر ودون رتوش مملة ، وحسن اختيار في الاختيار ونحن في بلد الضباب. ولاشك أن الكثيرين هنا من أتباع مدرسة الإسلام الصافي تهزهم القضية ، وتُسخن اجوائهم ذكرى الغدير الأغر ، وأي قضية تتعلق بمحمد وآل محمد أهم من هذه القضية ، اذن مطلوب اختيارها ، من هنا وهناك اتفقنا أن نستذكر يوم من نحن عشاقه ، وعلي ابن ابي طالب عليه السلام من لا نبدل بحبه حباً مهما كانت صفته ولا نختار عليه ولاءً مهما كانت قوة تأثير

الولاء فيه ، وهل يمكن لقلوبنا ان ينسلخ عنها هذا الحب الراسخ المتجذر ، لا والف لا ، وكلا ومليون كلا.

خير لنا أن يفهمنا الآخرون بأن إيماننا بعلي نابع من إيماننا بمحمد ، وتمسكنا بمحمد أساسي نكفر لو تجاوزناه ، وعليه نحيا ونموت ، مهما قالوا ويقال عنا ، والعاشق عن قناعة لا يلام ، وقررنا بمناسبة إطلالة مرور أربعة عشر قرنا على يوم (غديره الأغر) يوم تتويج علي عليه السلام أميراً للمؤمنين المسلمين بأمر من الله سبحانه حيث قال بعد التبليغ ﴿اليوم أكملت لكم دينكم ، ورضيت لكم الإسلام دينا﴾ وبه أتم الدين وفيه أكمل النعمة.

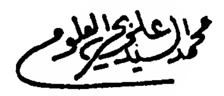
فلنستذكره بمهرجان يتناسب وأهمية هذا اليوم ، ولا ضير أن يكون في بلد الضباب ، لندن ذات الصدر الواسع لاجتماع الحضارات المتنوعة فيها ، ولندن قطعاً سوف تفصح عن رغبتها باحتضان مثل هذا المهرجان العالمي كما تحتضن المهرجانات الأخرى بقلب ودود وبروح ديمقراطية عالية ، طالما لا مساس بشأنها السياسي او الاجتماعي أو الديني ، وفعلا كان ذلك وكانت يدا مساعدة في تحقيق الهدف الأسمى ، وكانت الجماهير المؤيدة للفكرة على موعد للمشاركة في هذا المهرجان الذي افتتح في القاعة الكبرى في فندق(نوفتيل) صباح يوم ٢٠ ذي الحجة ١٤١٠هـ المصادف ١٣تموز ١٩٩٠م.

وكان من جملة أعمال المؤتمر إعلان مسابقة أدبية لأحسن كتاب يؤلف بالمناسبة ، وعلي عليه السلام كتبت فيه المجلدات الضخام ولم ينضب ، وليكن لنا نصيب في هذا المضمار ، وكانت النتيجة أن حصلت لجنة المهرجان على كتب لمؤلفين متنوعين شاركوا في المسابقة ، وحددت جوائز ثلاث لها ، واختارت لجنة التحكيم خمسة مؤلفات من بين الكتب التي وصلت إليها ، ونال كتاب (علي في التزام الحق) الذي مع القارئ العزيز الجائزة الأولى.

ومؤلف الكتاب ابن الحوزة العلمية الدينية النجفية البار ، ومن ترعرع في حضن النجف ، وحب صاحب المدينة ، التي عرّفها الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله بقوله (أنا مدينة العلم وعلي بابها) سماحة حجة الإسلام الشيخ محمد ضياء نجل المرحوم المرجع الديني آية الله الشيخ محمد أمين زين الدين ، العالم الثبت والمفكر الإسلامي ، والذي تخرج على يده نخبة من طلاب العلم والفضيلة والأدب ،

وأحسب ان القارئ الكريم حين يتم قراءة الكتاب هذا سوف يقف إلى صف اللجنة في حكمها السليم بأحقية هذا الكتاب للفوز بالجائزة الأولى ، وأملنا من العلي القدير أن يتقبل هذا العمل بالأجر والثواب.

النجف الاشرف – ١ ربيع الاول ١٤٢٨



عضو اللجنة التحضيرية
للمهرجان العالمي الاول للامام علي عليه السلام
بمناسبة الذكرى المئوية الرابعة عشرة ليوم الغدير الخالد
ذي الحجة ١٤١٠- تموز ١٩٩٠

مُقَدِّمَة

إنها لأمنية قديمة لدي في أن أجد الدراسة الإسلامية لحياة الرسول ﷺ وعترته المنتجبين من أئمة أهل البيت عليهم السلام ، من خلال ما يعنيه الاصطفاء الإلهي في ذواتهم المطهّرة من دلالات خاصة ، تميزهم عمن عداهم من الناس .

.. الدراسة الإسلامية التي توحّد -في مبادئها وأولياتها ، ثم في خطواتها ومنهجتها واستنتاجاتها-، بين مقتضيات هذا الاصطفاء ، وما تجلّت به في شخصيات أولئك المنتجبين من السمات المعجزة ، وما تراءت به في مواقفهم وأحوالهم وكلماتهم من خصائص عظمى ، لم ينلها احد من الناس ، بالرغم من أنها مطمح سام للبشرية جميعاً .

أمنية قديمة لدي .. نشأت معي منذ أن وعيت بعض مستلزمات الاصطفاء الإلهي في تلك الشخصيات ، وأدركت بعض ضروراته في موارده الزكية -من جهة-، كما شاهدت -من جهة ثانية- تلك المستلزمات والضرورات ، وهي تميز كل فرد منهم في واقع الإنسان ، ورأيتها فيهم بكل وضوح ، ودون أدنى لبس أو ريب ، في وقت لاحظت أن المكتبة الإسلامية قد افتقدت مثل هذه الدراسة ، إذ لم أجد شيئاً من المصادر التي تعينني في الوصول إلى فكرة واضحة ومتكاملة في هذا السبيل .

وطبيعي أن تزداد أهمية مثل هذه الدراسة مع مرور الزمن ، حيث تتنامى الثقافة الإنسانية في آفاقها العامة ، وتنفتح آفاق الوعي الإنساني

على الإسلام ، وتتطلع إلى ملاحظة العظمة في آثاره في النفوس الإنسانية ، وإدراكها لإعجاز تأثيره في الألباب ، بل وفي كل جانب من جوانب الحياة .

فصحيح أن هنالك جهوداً مشكورة بحثت في موضوع الاصطفاء الإلهي، وما يعنيه هذا الاصطفاء من معنى ودلالات ، وما يستوجبه من شرائط في موارده .

وأن هناك جهوداً مخلصة بحثت في دلائل اختيار الله (تعالى) لتلك الذوات المطهرة ، وارتضائه إياها مبلّغة لدينه القويم ، وحجة بالغة له ، وقدوة لتربيته ، حيث تتمثل بها قيمه العليا ، وتتجسد بها تعاليمه السامية ، ليرتفع -بنتائج تلك الجهود- أي شك أو ريب من النفوس ، وترشد البصائر المتطلعة إلى الحق ، والى حجة الله (تعالى) فيه .

وان هناك جهوداً أخرى تابعت سيرة أولئك النجباء العظماء من البشر، وتتبعت كل ما ورد عنهم ، وما خلّده التاريخ من أحوالهم ، ومواقفهم ، وكلماتهم ، وبشكل يأخذ بأيدي المخلصين من الناس إلى كل رشد ، من الاستمساك بعروة الله الوثقى في كل مسلك من مسالك الحياة ، وفي كل صعيد من أصعدتها .

وان هناك جهوداً حاولت التعمق في تلك المواقف والكلمات ، لاكتشاف منابع النور الإلهي ، واقتباس هديها في بناء حياة الإنسان ، وتقرير مناهج واضحة المعالم ، محددة الأبعاد ، تتجلى فيها عظمة الإسلام نفسه ، ويستبين هديه للعقول ، ومدى كفاءته في قيادة البشرية في طريق الرقي والكمال مع العصور ، وفي شتى الميادين .

وأن هناك جهوداً أخرى عرضت لنواحي أخرى ، في هذا المضمار أو ذاك ، يراها المتتبع في أي من الميادين التي يتناولها اصطفاؤهم ..

كل هذا حق لا ريب فيه ، ولا يمكن لأحد من العقلاء أن ينكره .

وأنا لا أغمط أيا من هذه الجهود حقه ، فليس من الإنصاف أن ينكر حق مثلها ، وأنا أعلم أن على أساس منها تجلى الكثير من منابع النور والهدى للعقول ، وكانت من العوامل الكبرى في قيام حجة الله على العباد خلال هذه العصور المتمادية من حياة البشرية ، كما كان لكل منها دوره المهم في سداد حاجتها لإتباع بصائر الهدى ... ولكن ..

لا بد من القول أيضاً : إن أياً من هذه الجهود وما يؤمل له من نتائج وآثار تبقى في أمسّ الحاجة إلى النقطة التي أشرنا إليها ..

.. إلى فهم ما يعنيه الاصطفاء الإلهي في أولئك النجباء ، وإلى معرفة ما يتطلبه من دلالات تمتد إلى كل مقوم من مقومات شخصياتهم ، وكل سمة من سماتها ، وكل حال من حالاتها ، بل وبها يصطبغ كل موقف يصدر منها ، وكل كلمة تنطقها ، إذ لا يمكن استيضاح أي من الشرائط الإسلامية ذاتها -وبما لها من حدّية الحق ووضوحه- دون اعتماد تلك الدلالات وتجلياتها فيهم عليهم السلام ، وفيما يصدر عنهم من فعل أو قول .

بمعنى أنه يجب علينا أن نعلم أن هذا الاصطفاء إنما هو حقيقة وجودهم ، ومقوّم كيانهم ، ومصدر الروح في حياتهم .

كما أنهم -في الوقت نفسه- شواهد الحق الشاخصة في هذه الأرض ، وتجلياته القائمة في واقع الإنسان ، وهم مظاهر إعجاز الإسلام في هذا الواقع ، وهم المثل الحية لقِيَمه في الحياة .

ولهذا السبب فما لم يؤخذ هذا الاصطفاء الإلهي وشرائطه ودلالاته قيداً مبدئياً في أي جهد يبذل في التعرف على شخصية أي من موارده الزكية ، أو في فهم ما يصدر عنها من مواقف وكلمات ، لا يمكن لذلك الجهد أن يكتسب الطابع الإسلامي المطلوب ، أو يؤتي ثماره اليانعة ،

المبتغاة ضمن موارده السليمة ، والتي تقرها الحقيقة لنفسها ، ويعترف بها الإسلام في التعامل معه ، أو مع أي من موارده ، وان سما هذا الجهد - كل السمو- في مجال المتابعة والدقة ، واتصف بالمنهجية التي تفضّله على غيره في جوانب أخرى .

ومن هنا ، فيمكن القول بأن افتقاد المكتبة الإسلامية لتلك الدراسات المتكاملة الأصول والمناهج ، الواضحة الأسس والنتائج ، التي تأخذ بزمام الأفهام البشرية إلى إدراك طبيعة التمازج ، والتوحد بين ذلك الاصطفاء الإلهي ومنتجبيه ، من خلال آفاقه الإسلامية القويمة ، كان من الأسباب المهمة في عجز الناس عن إدراك المعنى الصحيح للاصطفاء الإلهي ذاته ، وفي قصورهم المشهود عن وعي تجلياته العظمى في ذويه ، بالرغم من الحاجة الكبرى إلى مثل هذا الوعي ، وبالرغم من تزايد هذه الحاجة مع تنامي الثقافة الإسلامية .

ولهذا السبب فإن عامة الناس -وبالرغم من بلوغ الكثيرين منهم شأواً بعيداً في الثقافة الإسلامية-، لا يزالون -غير ذوي الاختصاص منهم طبعاً- بعيدين كل البعد عن فهم دلائل الاصطفاء الإلهي وشرائطه في منتجبيه ، وعن فهم جوانب العظمة في هؤلاء المثل الرفيعة ، وهو نقص فادح ، وله سلبياته الكبرى حتى على علاقة المؤمن بدينه القويم ، وعلى طبيعة التزامه به وبأصوله الثابتة ، واستقامته مع تراث مصادره الأولى ، وإتباعه لنهجها .

ويفترض أن لا تغيب هذه الناحية المهمة عن وعي المخلصين من قادة الفكر الإسلامي في مختلف العصور ، فأهميتها أكبر من أن تخفى على أحد منهم ، ولاسيما في هذه العصور المتأخرة ، التي أصبحت الثقافة فيها والمنهجة العلمية هي الطابع الشائع في شتى جوانب الحياة

الإنسانية وميادينها ، مما أبرز الحاجة إلى الإسلام كمنهج للحياة ، وإلى الثقافة الإسلامية الرائدة المتكاملة كمطمح ترنو إليه البشرية ، بشكل لم يكن معهوداً في العصور السابقة .

وهكذا كان جديراً بحماة الفكر الإسلامي أن يبادروا إلى سداد هذه الحاجة من كل وجه ، وإغنائها في الدراسة والبحث ، وإيضاح متطلباتها للأذهان بما يتناسب وحاجة المثقفين ، وعلى اختلاف مستويات المعرفة ، واتجاهاتها السائدة بينهم .

فالكل يعلم -ومن خلال الأوليات العامة لدين الله (تعالى) ، من جهة ، ومن خلال ما هو الثابت من سيرة أولئك الأصفياء عليهم السلام ، من جهة أخرى-، أن للاصطفاء الإلهي ضرورات ومميزات مبدئية ، تقوم عليها شخصيات المصطفين الربانيين ، ويجب أن يكون لتلك الضرورات والمميزات أحكامها المطلقة في تلك الشخصيات ، حيث لابد أن يبنى عليها كيانها ، وتنتظم بها كل مقومات وجودها ، لتتمكن من الانصهار في الحق، وتتوحد مع قضاياه كافة، وبشكل مطلق تتجلى فيها استقامته، وتتحقق فيها مُثله وقِيمُه ، وتستقيم بها شريعته ، وتقام بها حجته دون أدنى خلل في قول ، أو فعل .

❁ ❁ ❁

ومن جهة ثانية ، فإن الكل يقرأ من قرآن الله قوله (تعالى) :

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً.[1]﴾ .

وقوله (تعالى) : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً.[2]﴾ .

---

(١) الأحزاب: ٤٥ .

(٢) الأحزاب: ٣٣ .

وقوله (عز من قائل) : ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ .(١)﴾ .

إلى غير ذلك من الآيات التي ترد ضمن هذه السياقات ، وهي تعني -فيما تعنيه- أن هذه الأصول والشرائط وأمثالها هي مما يقتضيه الاصطفاء الإلهي في موارده إذ أن هبات الله لا تكال جزافا ، فهي -من ثم- بعض أصول شخصيات المصطفين ، وأركان وجودهم وحياتهم.

وهذا يعني ضرورة أن يكون هذا الاصطفاء -وبكل ما يستلزمه من أمثال هذه الشرائط والتجليات الثابتة له-، الأساس الذي تقوم عليه جميع الدراسات التي تتناول هذا الجانب من القضايا الإسلامية الأولى أيضا .

❁ ❁ ❁

وناحية أخرى مهمة ، وهي أن الكل يعلم -حق العلم- أن أحدا من غير ذوي الاختصاص في المعارف الإسلامية -وبالرغم من تلك الحاجة العامة التي ذكرناها-، يستحيل عليه أن يبلغ إلى درجة فهم هذه الأمور ، أو إدراك حدودها بسهولة تمكّنه من اتخاذها أسساً واضحة المعالم في التعامل مع تلك القضايا ، ما لم يكن لديه إطلاع واسع في المعرفة الإسلامية ، وقدرة كبيرة على متابعة جزئيات الأمور فيها ، وفهم دقيق لأبعادها .

ولا أعتقد أن سبب هذا العجز بخفيه على احد ، لان فهم دلائل الاصطفاء الإلهي ، وتجلياتها في شخصيات المصطفين ، مما يحتاج إلى إحاطة واسعة بشتات متفرق من العناصر ، التي لا تستكمل وضوحها دون منهجة خاصة، وترتيب جلي ، يظهر للعقول ما تعتمده من أصول،

---

(١) آل عمران: ٣٣ .

وما تحتاجه من استقامة في المقدمات والنتائج .

وهذا القصور ، وتلك الحاجة ، تستدعيان -ولا ريب- جهوداً مناسبة من قادة الفكر الإسلامي تعين طلبة الحقيقة في تبصّرهم للأمور ، وإدراكهم لطبيعة الحاجة في علاقتهم مع الله -سبحانه وتعالى- ومع دينه القويم ، ومع حججه الأصفياء عليهم السلام ، وفي انتهاجهم -بعد هذا- لسبيلهم الرشيد .

هذا كله بينما لم أجد -مع كل الأسف ، وفي حدود إطلاعي القاصر- ولو واحدة من الدراسات المتكاملة ، التي يمكنني أن أعتمدها في هذا المجال ، أو أرشد إليها أحداً من إخوتي الذين إسترشدوني فيه ، ليتخذها المثقف المؤمن دستوراً واضح الحدود والمعالم في رؤيته للاصطفاء الإلهي ، وفهمه لتجلياته الكبرى في شخصياته العظيمة ، وما يعنيه ارتضاء الله إياهم هداة للبشرية ، وقادة لها في سبيل كمالها الأعلى ، وحججاً لدينه القويم .

❁ ❁ ❁

متطلبات الاصطفاء الإلهي

ولكي نستوضح القضية السابقة بشكل أجلى ، وأدق ، ينبغي لنا أن نلتفت إلى مسألة مهمة ، يختص بها الإسلام (دين الله) من بين الأديان ، والاصطفاء الإلهي له من بين أنواع الاصطفاء .

فنحن نعلم -ومن البدائه الأولى للإسلام- أنه دين الحق الذي لا ريب فيه، وانه هدى الله الذي أنزله للإنسان في سعيه الاختياري نحو الاستكمال الذاتي -وهذا ما استوفينا الحديث فيه مفصلاً في الحلقة الأولى من المبادئ العامة للتدبر القرآني بكلا جزأيها الأول والثاني- .

وهذه الحقيقة تعني أن يكون لهذا الدين والهدى ركائزه الواقعية في

كيان هذا الإنسان نفسه ، وفي توجهاته العميقة التي أنشئت عليها طبيعة ذاته ، والمقومات الأولى لفطرته -في جميع أبعادها وآفاقها النفسية والعقلية والسلوكية وغيرها- :

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ[(١)]﴾ .

صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدونَ[(٢)]﴾ .

وهذا يعني -بدوره- ضرورة أن لا يقف الإسلام -في أي حقيقة من حقائقه ، وفي أي أصل من أصوله ، وأي منهج من مناهجه-، عند حدود الاعتبار خاصة ، أو في حدود التشريع الذي لا يستند إلى ذلك الواقع العميق، وإلى تلك التوجهات الفطرية الذاتية ، إذ ما كان لمثل هذا الاعتبار أن يرقى إلى الوفاء بمتطلبات حكمة الله (تعالى) ، أو بمستلزمات غايته في تشريع الإسلام ، وإنزال هداه ، وبث شواهده -كما هو واضح- .

ومن هنا كان من المستحيل أن يقف الاصطفاء الإلهي ، في أي مورد من موارد منتجبيه -وهم بعض أصول الإسلام الأولى ، وشواهد حجته البالغة في البشرية- عند حدود اختيار بعض الناس ، ليقوم بشيء من هذه المهمات العظمى ، دون ضمان من الله (تعالى) ، وتعهد منه ، يكفلان تحقيق ما تتطلبه هذه الاستقامة في شخصية المصطفى ، كأكمل وأوضح ما يتحقق به الوفاء بتلك الحاجات كافة ، سواء في تكوين تلك الشخصية ، أم في الأرصدة الذاتية التي تحملها ، أم في الاستقامة المطلقة مع غايات ذلك الاصطفاء في كل مظهر من مظاهر سلوكها ، أم في

---

(١) الروم : ٣٠ .

(٢) البقرة : ١٣٨ .

الشرائط العامة لذلك السلوك وجزئياته ، ليبقى منارا للبشرية ، في المدى الـذي تعنيـه مهماتهـا في الحيـاة ، والحـدود الـتي يقتـضيها نفـس ذلـك الاصطفاء .

وهكذا ، فما كان لدرجات كبرى جعلها الله -جل شـأنه- لـصفيه الأعظم محمد بن عبد الله خاتم رسله ﷺ في البشرية -مـثلاً- كـشهادته على الناس :

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّـاسِ وَيَكُـونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ..[1]﴾ .

أو أولويته بالمؤمنين من أنفسهم : ﴿النَّبِيُّ أَوْلَـى بِـالْمُؤْمِنِينَ مِـنْ أَنفُسِهِمْ ..[2]﴾ .

أو الأسوة الحسنة للإنسان في طريقه إلى الله (تعالى)، وإتباع بصائره:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَـسَنَةٌ لِّمَـن كَـانَ يَرْجُـو اللَّـهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً .[3]﴾ .

وما كان لأوامر إلهية مطلقة يلزم بها عامة الناس ، كـالأمر بالإيمـان بالرسول -بعـد الإيمـان بـالله- دون أدنـى ريـب ، أو شـك في أي مـن دخائل العقول :

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَـابُوا وَجَاهَـدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ .[4]﴾ .

---

(١) البقرة : ١٤٣ .

(٢) الأحزاب : ٦ .

(٣) الأحزاب : ٢١ .

(٤) الحجرات : ١٥ .

أو الأمر بإتباعه فيما يقول ، وفيما يفعل ، وإطاعة أمره دون تهاون أو تلكؤ :

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ، قُلْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ فإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ .[1]﴾ .

أو الأمر للمؤمنين بتحكيمه في مختلف القضايا التي تحدث بينهم ، وقبول ما يقضي به ، دون أدنى حرج في النفوس :

﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً .[2]﴾ .

وما كان لنواهٍ إلهية شديدة عن تقديم شيء بين يديه ، أو رفع الصوت فوق صوته ، أو الجهر له كالجهر لغيره من الناس :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ.[3]﴾ .

أو النهي عن الذهاب والتفرق عنه -مع وجود الأمر الجامع معه- دون استئذانه ، أو النهي عن جعل دعائه كدعاء الآخرين في مدى الامتثال والاستجابة :

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ

---

(١) آل عمران : ٣١-٣٢ .

(٢) النساء : ٦٥ .

(٣) الحجرات : ١-٢ .

يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

لا تَجْعَلُوا دُعَاء الرَّسُول بَيْنَكُمْ كَدُعَاء بَعْضِكُم بَعْضاً قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذاً فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .[(١)]﴾ .

وما كان لغايات إلهية كبرى أن تتحقق في حياة الإنسان نتيجة لإنزال القران ، وتشريع هدى الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ ، وبيان حقائقه .. تلك الغايات الواردة في مثل قوله (تعالى) :

﴿الَر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ .[(٢)]﴾ .

وقوله ﷻ : ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ.[(٣)]﴾ .

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ .[(٤)]﴾ .

وما كان هناك معنى للحسن الواقعي للمصير -الذي سينتهي إليه الإنسان في حياته الدنيا أو في الآخرة- حين يتبع نهج هذا الرسول العظيم ﷺ ، أو للسوء الواقعي لهذا المصير -الذي سينتهي إليه الإنسان كذلك في حياته الدنيا أو الآخرة- عند النكول عنه ، أو الانحراف عن

---

(١) النور :٦٢-٦٣.

(٢) إبراهيم : ١.

(٣) الجمعة : ٢.

(٤) الصف : ٩.

نهجه ، أو التقصير في حقه :

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ .[1]﴾.

أقول : ما كان كل هذا وأمثاله ليرد في قرآن الله (سبحانه) مع الرسول محمد ﷺ ، دون ضمان كامل منه ، بأن يكون محمد ﷺ سراجه المنير ، وسبيله القويم ، ورحمته إلى العباد ، كما كان بشيره بأمره، ونذيره بنهيه ، والداعي إليه بإذنه ، والهادي إلى سبيله ، فلا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ .[2]﴾ .

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ، وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى .[3]﴾ .

نعم ، وما كان محمد ﷺ ليمتاز في أي في هذه الشرائط عن غيره من أصفياء الله (تعالى) ، فهي من ضرورات الاصطفاء الإلهي ذاته ، ومن ضرورات غاياته ، واستقامة الحق في مظاهره ، السابقة منها على محمد ﷺ أم اللاحقة له ، كما سنراه ضمن الحديث -بعون الله- .

إذن ، فهي مسألة تكوينية قبل أن تكون قضية اعتبارية ، والضامن لها هو الله (تعالى) ، خالق الإنسان ، ومشرّع الإسلام ، ومصطفي أصفيائه المطهرين .

---

(١) محمد : ٢.

(٢) الأنبياء : ١٠٧ .

(٣) النجم : ٢-٤ .

ولا مناص من قبول هذه الحقيقة ، ما دام الإنسان يؤمن بأن الإسلام هو دين الله (تعالى) ، ويعلم انه في رعايته المباشرة ، وفي عنايته الدائمة .

بل ، ويكفي للإنسان أن يلقي نظرة فاحصة على أي من الحقائق الأولى لهذا الدين ، ويتأمل موارد تلك الرعاية فيها ، بدءاً من القران ، وما فيه من مظاهر إعجازية ، وانتهاء بكل حكم ثابت أورده في تشريعه، مروراً بمصطفيه العظام ، وأصوله الإعتقادية المكينة ، ليدرك أن كلا منها حقيقة واقعية قبل أن تكون مسألة نظرية أو اعتبارية .

وينبغي أن نعلم أن هذه الناحية تعتبر من الفوارق المهمة بين الإسلام وغيره من الأديان والمذاهب التي تملأ الساحة الإنسانية ..

فبينما يعتمد الإسلام هذه الأسس التكوينية ذاتها ، وما تعنيه من دلائل واقعية في وجود الكون والإنسان ، لبلوغ أهدافه في حياته الدنيا وفي الآخرة ، لا نرى أياً من الأديان المذاهب الأخرى يطمح إلى نيل ولو بعض هذه الدرجة ، أو استطاع أن يبني عليها شيئاً من أولياته ، أو مناهجه .

بل كل ما في المذاهب والأديان الأخرى لا يتعدى ما يعنيه الاعتبار الذي تمليه ظواهر الأمور ، ومجرياتها الآنيّة ، وما يستحسنه أصحابها في بناء الحياة ، أو في معالجة شؤونها ، أو الأخذ بها إلى ما تراه الأجدى من المواقف أو النتائج .

إذن ، فهناك حلقات مهمة ، ذات أبعاد واقعية ، وأسس عميقة تجمع بين التكوين والتشريع ، وتلك الحلقات وهذه الأسس هي التي تُحكِم الرابطة بين ذلك الاصطفاء الرباني لأيّ من منتجبيه وهذه الأوامر بطاعة الرسول ﷺ أو الأصفياء الآخرين ، وإتباع هديهم في كل

خطوة من خطواتهم ، والمنازل التي جعلت لكل منهم في البشرية ..

ولهذا ، ومن أجل أن يكون المسلم على بصيرة تامة في التزامه السليم بدين الله القويم ، يجب أن يكون على درجة كافية من العلم بتلك الحلقات -ولو في خطوطها العامة-، قبل أن يستقيم في إيمانه بالله (تعالى) ، ويسلم إلى دينه زمام نفسه ، ويمضي معه حتى النقطة النهائية المطلوبة منه في هذا الدين ، والاستهداء بنوره في جنبات الحياة .

فبتلك الحلقات -التي تتجلى بها حقيقة الاصطفاء الإلهي في الذوات التي يرد عليها- وحدها يستكمل الحق شرائطه ، التي سنعلم بعضاً منها فيما بعد -إن شاء الله (تعالى) - في هدى الإنسان ، وقيام حجة الله عليه .

وبتلك الحلقات -وحدها كذلك- تستقيم للحكمة الربانية ما تريده من مقتضيات في تلك النفوس السامية ..

وبها -وحدها أيضا- تنتظم لسلسلة الهدى بصائرها ، دون أدنى غموض أو خفاء .

وبها أيضاً يتضح لدين الله برهانه كحقيقة فعلية ، وكنظام واقعي تكويني قائم في عالم الإنسان ، قبل أن تتضح حجته كتشريع إلهي يحكم هذا العالم ، ينظم شؤونه في الحياة الاختيارية .

❁ ❁ ❁

فرق ما بين الجهد الإنساني والرعاية الربانية الخاصة

ومن الثمار المهمة في دراسة هذا التمازج الحقيقي بين الاصطفاء الإلهي ومنتجبيه ، فهم الفوارق الكبيرة بين الجهد الإنساني وهو يتطلع للكمال ، ويدأب ساعياً لبلوغه ، وتلك المجالي الرفيعة للاصطفاء الإلهي من المنتجبين .

فالإنسان -وهو يطمح لنيل كماله المنشود- لا يمكنه السعي نحوه إلا بعد أن يضع لنفسه فكرة خاصة عن الكمال الذي يسعى إليه ، وقد تكون هذه الفكرة سليمة ، وقد لا تكون ..

ثم يمضي في سبيل يراها جديرة بالسلوك لتنتظم بها مسيرته تلك ، وقد تستقيم هذه السبيل مع تلك الفكرة التي يرنو إليها، وقد لا تستقيم.

لينتهي معها -من ثم- إلى نتائج معينة ، قد تحقّق له الغاية ، وقد لا تحقق .

هذا كله -من جهة-، بينما تتجلى -في الجهة الأخرى- دلائل الكمال الإلهي ، ومظاهر الحكمة الربانية ، وهي تستكمل غاياتها في كل مورد من موارد ذلك الاصطفاء ، وفي كل بعد من أبعاد شخصياته المرتضاة ، وفي كل شأن من شؤونها .

أجل .. فالإنسان في سعيه نحو الحق ، ونحو الكمال الذي يجسّده ، -كما هو شأنه في أي غاية يسعى إليها- إنما ينطلق على أساس من صورة خاصة يراها هو لمفهومهما ، وهذه الصورة هي المبدأ التصوري لسعيه -بشكل عام- ، ولتعامله مع الأشياء كافة .

وطبيعي أن تخضع هذه الصورة لكل ما يحكم الجهد الإنساني من عوامل .

ومن هذه العوامل -طبعا- ذلك القصور المعهود في القابليات المحدودة للإنسان ، والضيق المعلوم في خبرته ، وفي فهمه الذي لا يرقى -وفي أحسن الاحتمالات- إلى درجة الإحاطة التامة بشؤون الواقع ودلائله ، وموازينه الكبرى ، إلا حيث ينتهل البصائر والهدى من حجة ربانية بالغة ، وإلا حيث يتم استمساكه بما تمليه عليه بيّناتها ، ويستقيم معها بشكل مطلق ، دون أن يحيد عنها في فكرة ، أو ينحرف عنها في

مسلك .

كما أن الإنسان -في مسعاه نحو مبتغاه من درجات الكمال- إنما ينتهج سبيلاً معينة ، يراها جديرة بالسلوك ، ويؤمن بأنها هي التي تبلغ به إلى تلك الغاية ، ولا ريب أن إدراكه هذا -وهو يفتقد الإحاطة المطلوبة بمستلزمات الحق -مما يقصر بتلك السبيل -حين يستقل بتشريعها لنفسه- عن نيل الحقائق من درجات ذلك الكمال ، ما لم يعتمد فيها كذلك مدداً مناسباً من هدى الله (جل شأنه) من بينات وبصائر .

ومن ناحية ثانية ؛ فان الإنسان -وان اعتمد دلائل البصائر الربانية التي ترشده إلى مكامن الحق في المواقف والأمور ، واتبع من سبل الهدى ما يمكّنه من الوصول إلى مبتغاه منها ، دون قصور أو انحراف-، لا يستطيع أن يبلغ في مسعاه مع بصائر الحق ، أو مع سبل الهدى إليه ، إلى الدرجة التي يصبح وإياها وحدة تامة من جميع آفاقها ، متكاملة في الأبعاد والمظاهر ، ما لم تسنده رعاية إلهية خاصة .

إذ للذاتيات الشخصية للإنسان ، وحدوده القاصرة في طاقاته المعهودة -وكما يعلمه الجميع- أحكامها في مدى استجابته لهذا الهدى .

فطبيعة الوعي الإنساني ذاته ، وتأثره بما يكتنفه من ظروف ، وما يحدّده من زوايا الملاحظة وظروفها لها آثارها الكبيرة في كيفية اقتباسه من تلك البصائر الربانية ، ومدى هذا الاقتباس .

مما يعني -بالتالي- عدم قدرة الإنسان على أن يحقق من ذلك الهدى في مجال تصوره ، أو في مجال سلوكه ، تلك الدرجة المطلقة التي يمكنها أن تستوعب جميع آفاق نفسه ، وتهيمن على جميع مقومات إيمانه بالحق ، وتستوعب كل دوافعه إلى العمل في سبيله ، أو المثابرة في العمل على

تحقيق متطلباته ، دون أدنى تفاوت أو اختلاف حتى -في أعماقها- ، وحيث يعنيه ذلك التوحد التام مع الحق .

فلا ريب أن للأهواء ، أو الغايات الجانبية ، ولصوارف الحياة المختلفة، من الآثار على شخصية الإنسان -ولو في المراحل الأولى من مراحل نضجه- ما قد يعيقه عن الخلوص المطلق للحق ، والتجرد الكامل للهدى ، -وكما تقتضيه ذلك التوحد معه ، والاستقامة المطلقة في خطه أيضاً-، وان اكتملت لدى الإنسان جميع الشرائط الأخرى التي تهيئه لنيل هذه الدرجة .

وهو أمر يراه كل إنسان من نفسه قبل أن يراه من الآخرين ، وعملية استيطانية سريعة ، يراجع الإنسان فيها دخائل نفسه ، ومواقفه تجاه مختلف القضايا والحوادث ، تقف به عند هذه الحقيقة .

أما في مورد الاصطفاء الإلهي من الناس ، فهناك كمال إلهي مطلق لابد أن يتجلى فيه من هذه الناحية ، وهناك حكمة ربانية شاملة تحكم اختياره ، وهناك علم نافذ في دقائق الأمور هو الأساس لتحققه ، وهناك رعاية خاصة يجب أن تواكب وجوده وحياته ، منذ المبدأ وحتى المنتهى .

وكما كانت هذه الأسس هي الرصيد الأول لذلك الاصطفاء في مبدئه، وفي شرائطه كافة ، يجب أن تكون نفسها الضمانة الثابتة لاستكمال متطلباته، وتحقيق نتائجه في تلك الذوات كذلك .

وحينئذ ، فمن الطبيعي أن تكون لهذه التجليات الربانية دلالاتها في أي من مواردها ، سواء في وضوح القيم العليا التي يترسمها مورد الاصطفاء، أم في السبل التي ينتهجها لنيل تلك القيم ، أم في الدرجة التي يحققها منها في حياته ، وفي أي بعد من أبعاد شخصيته ، وفي أي موقف من مواقفه .

فمثـل هـذه الـدلالات حتميـة ، لا محيـد عـن تحققهـا ، ولا عـن الالتزام بها، بعد افتراض انه اصطفاء إلهي ، وأنه من قِبَـل الله (تعـالى) ، وأنه مـن أجـل تحقيـق الغايـات الكـبرى لحكمتـه في الخلـق والتـدبير ، فالقـصور والانحـراف ممـا يـستحيل تـصورهما حينئـذ ، لأن الكمـال المتصور هنا ليس جهداً إنسانياً محدود الأصول أو النتائج ، بقدر مـا هـو تجـلٍّ لتلـك الرعايـة الربانيـة العظمـى ، الـتي اختـارت هـذا الإنـسان المصطفى من بين البشر ، وارتضته لتحقيق غاياتها في الحياة ، وتعهّـدت أن يكون المثل الشاخص لهداها ، والحجة لبيناتها في هذا الوجود .

ومن هنا انبثقت الضرورة السابقة في أن لا يقـف ذلـك الاصـطفاء الرباني مع تلك الذوات في حدود اختيارها للتبليـغ والبيـان فحسب - كما ذهب إليه رعيل من الناس-، ليهتموا -من ثم- بخصوص الشرائط التي تتطلبها هذه المهمة وحدها ومدى توفرها فيها .

بل لابد من أن يبدأ الاصـطفاء -في دلالاتـه وشـرائطه- مـع تلـك الذوات منذ الأسس الأولى لتكوينها ، ليمـضي معهـا حتـى آخـر حالـة تكـون عليهـا ، أو سـجية تتـصف بهـا ، أو موقـف تتخـذه ، فبهـذا الاستيعاب -وحده- تستكمل الحكمة الربانيـة فيهـا غاياتهـا ، وتـستتم للاصطفاء مقتضياته ، حيث يستحيل الشذوذ والانحراف والقصور .

نعم ، في هذا الاصطفاء تقف الحدود الإنـسانية القاصـرة ، لتتخـذ الرعاية الربانية الخاصة دورهـا في بنـاء تلـك الشخـصيات ، وفي تـدبير شؤونها كما يقتضيه الحق في واقع الإنـسان ، وكمـا يـستوجبه الهـدى ، وكما يعنيه الإسلام المطلق لله (تعالى) ، والانقياد الشامل لبصائره .

ومن الطبيعي أن تستكمل الرعاية الربانية دورها هذا بأدق وأسمى ما للاستكمال من معنى ، ودون أدنـى خلـل أو تفـاوت ، لأن الكمـال

الذي تستند إليه هذه الرعاية كمال مطلق ، والقدرة التي تعتمدها قدرة مطلقة ، لا عجز فيها ولا ضعف .

ولهذا فإن التعرف على ملامح تلك الذوات المطهرة من خلال هذه النقطة بالخصوص ، واستيضاح دلالاتها فيهم ، وآثارها في شخصياتهم، هو الذي يضع الإنسان في الطريق الصحيح لفهم السمات المعجزة التي يتميزون بها ومعرفة المدى الذي تمضي فيه هذه السمات معهم ، وهي -كما نرى- نتيجة لا يصل فهم الإنسان إليها دون ملاحظة هذا العنصر المهم ، ودون استيضاح دوره في كيانهم .

ولا يخفى ما لهذه النتيجة من آثار إيجابية كبرى ، سواء في تصور المسلم لحقيقة ذلك الاصطفاء ، أم في تعرّفه على ملامح تلك الذوات الزكية ، وفهم ما يصدر عنهم من كلمة أو موقف ، أم في طبيعة التزامه بهم كهداة له في إسلامه لله ﷻ ، وإقتدائه بأنوارهم لدى سلوكه في السبيل التي شرعها للوصول إليه .

❁ ❁ ❁

مقياس الدراسة للمصطفَين

وناحية أخرى لا تقل أهمية عما سبق ، وهي ضرورة أن تكون ملاحظة تلك الذوات المطهرة -من خلال هذه النقطة بالخصوص- هي المقياس الذي تقوّم على أساسه جميع الدراسات التي تتناول شيئاً من شؤونهم ، أو تحاول أن تستعرض جانباً من حياتهم ومواقفهم بالبحث .

إذ من خلال هذه النقطة -وحدها- تستبين معالم ومدى الكمال أو النقص الذي يمكن أن تتسم به كل واحدة من تلك الدراسات ، لأن ما لا يعتمد هذا الخط أساساً إرتكازياً منها أدنى من أن يحيط بشيء من

أمرهم ، أو يحتوي جانباً من حقيقتهم .

ولهذا السبب كانت هذه النقطة -بالذات- هي الأساس الذي تعتمده نصوص الإسلام كافة ، في عرضها لأي شأن من شؤون تلك الشخصيات المصطفاة ، وبيان بعض جوانبها وأحوالها ، مما يعني أن أي تقصير من حملة الفكر الإسلامي في تجاهل هذه النقطة أكبر من أن يعتذر عنه بعذر .

❁ ❁ ❁

وهكذا رأيت أن أستغل هذه المناسبة العظمى في احتفال الأمة الإسلامية بمرور أربعة عشر قرناً على موقف الرسول ﷺ في غدير خم، وإعلانه ولاية علي بن أبي طالب عليه السلام على الأشهاد فيه ، وأخذ البيعة له بها من الناس .

.. كما رأيت أن أستغل هذا المهرجان الإسلامي المبارك في إقامة هذه الذكرى الخالدة ، كمنبر أطرح فيه أمنيتي هذه أمام المخلصين من حماة الفكر الإسلامي الأبرار ، بدعوتي الصريحة لتلافي هذا النقص غير المبرر في الثقافة الإسلامية الرائدة ، قبل أطرحها بجهدي المتواضع هذا ، وأنا أستشرف الولاية وصاحبها العظيم عليه السلام ، عسى أن تجد دعوتي هذه صداها المناسب لدى أولئك المخلصين فيتخذوا منها موقفاً يتناسب وأهمية القضية التي لا تخفى على لبيب .

والله (تعالى) أسال لي ولهم كل عون ومدد ، ورعاية تسدد منا الخطى، وتيسّر لنا المسعى نحو مرضاته انه سميع مجيب ..

❁ ❁ ❁

وختاماً أقدم شكري لإخوة أعزة ، كان لهم الفضل في توجهي نحو هذا الجهد ، وتهيئة ظروف مناسبة للشروع فيه ، وإنجازه بهذا الشكل

الذي أرجو أن يجد فيه القارئ ولو بعض ما ينشده في مثل هذه الأحاديث .

كما أشكر إخوة أعزة كان لهم الفضل في إيصال ما كتبته إلى لجنة التحكيم قبل فوات الأوان بالرغم من ضيق الوقت وعسر الطريق .

كما أشكر لجنة التحكيم من فضلاء الأمة، ورعاة الفكر الإسلامي، التي أولته بعناية فائقة قد تكون أكثر مما يستحق ..

ولا أنسى أن اعتذر لقارئي الكريم عن السرعة التي جرى فيها الحديث في كثير من نقاط البحث ، إذ سيشعر القارئ اللبيب -معي- أنها بحاجة إلى مزيد من البيان أو التفصيل ، فضيق المجال هو الذي حتّم علي مثل هذه السرعة والاختصار .

كما أعتذر كذلك عن متابعة الكثير من الروايات التي أوردتها في البحث من مصادرها الأولى ، والاكتفاء بما نقلته منه من المصادر ، إذ لم تتوفر لدي الآن تلك المصادر الأولى ، أو أن تحصيلها كان مما يصعب علي ، حيث لم أجد في الوقت فسحة كافية لمثل هذا التحصيل ، ولا سيما أنني لم أجد تلك الضرورة التي تلجئني للمتابعة ، بعد أن وجدت في المصادر -التي أخذت منها تلك الأحاديث- دقة في النقل اطمأنت إليها نفسي في صحة نسبتها إلى مصادرها الأولى ..

هذا مع أنني قد أشرت في أكثر هوامش البحث إلى كل من المصادر التي اقتبست منه الأحاديث ، والمصادر التي نقلت عنها تلك المصادر ، ليتسنى لمن يروم التحقق من صحة النسبة الرجوع إلى تلك المصادر الأولى حيث توجد لديه .

والله (تعالى) أسأل أن يهيئ لي في المستقبل من القدرة والوقت ما يكفيني لتلافي هذا النقص وغيره ، مما أطلع أنا عليه ، أو يرشدني إليه

إخوتي في الله ..

ومنه -سبحانه- استمد التوفيق والسداد للجميع انه سميع مجيب .

﴿رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ .

٢٠ رمضان المبارك سنة ١٤١٠ للهجرة

ضياء الدين زين الدين

بين يدي البحث

تمهيد

يوم غدير خُم ، والمشهد الذي جَرى فيه ، يعتبر من الوقائع المتواترة بين المسلمِين عامة ، ولا يرتاب في هذا التواتر ذو بصيرة منهم ، وهو يعلم من شأنه ما ينبغي علمه ، وإنكار المنكرين له ، أو تنكر المتنكرين لصاحبه ، لا يغير من الحقيقة شيئا ..

وموقف الرسول ﷺ فيه لا يزال مشهوداً ، بالرغم من مرور هذه الحقب المتمادية من الزمان .

وإعلانه الولاية الإسلامية الكبرى لعلي بن أبي طالب عليه السلام واضح البيان ، خالد الحجة ، أبديّ البلوغ مع بقاء الإسلام وخلوده ، وتكاد تتفق الأحاديث الواردة فيه حتى على الألفاظ التي تم بها هذا الإعلان ، وهي موجودة في معظم مصادر السنة النبوية الشريفة ، وكتب التفسير ، والتاريخ، والأدب ، وغيرها مما عرض لشيء من حياة الرسول ﷺ ، ومواقفه وكلماته .

كما أن الحوادث -التي واكبت ذلك الموقف- لها صداها المعروف في تأريخ الأمة المسلمة ، حيث يستحيل تجريد هذا التاريخ من آثارها ونتائجها،سواء في سابق الزمان أم في حاضره ، بل وفي مستقبله كذلك .

وكل هذه النواحي واضحة كل الوضوح ، ولا يرتاب فيها أحد اطلع على الحقائق منها ، وسيأتي -إن شاء الله (تعالى)- بعض شواهدها ضمن هذا الحديث .

إلا أننا ونحن نحاول دراسة مشهد الغدير والولاية وشؤونهما كالتزام

إسلامي ، وفهمهما كحقائق تتراءى فيها حدود الإسلام وقيمه وشرائطه كافة ، -وكأي حقيقة إسلامية أخرى-، لا بد لنا من أن نقف -أولاً - عند بعض الأوليات المهمة التي يعتمدها الحديث في مجرياته .. وهي أوليات يجب استحضارها في كل مرحلة من مراحل البحث ، وفي كل نتيجة من نتائجه التي يمكن أن نصل إليها .

حيث لا بد لنا -في البدء- من استحضار ما يعنيه مفهوم الالتزام ذاته ، وما يتطلبه -في معناه العام- من شرائط مبدئية ، سواء في نفسه ، أم في منشئه الأول ، أم في المتطلبات والحدود التي يتراءى به التزام الملتزم بالشيء الذي يلتزمه ، واستمساكه بـه .

ولا بد لنا -بعد هذه المرحلة- من استحضار ما يعنيه الالتزام الإسلامي -خاصة- من شرائط إضافية ، وحدود تستوجبها طبيعة الإسلام ذاته ، لما أشرنا إليه من مزايا يمتاز به هذا الدين العظيم ، وضرورات يستوجبها في قيام وجوده ، وبناء كيانه ، مما لا ترقى إلى نيله الأديان والمذاهب الأخرى كافة .

كما لابد من الوقوف -كذلك- على صورة واضحة لمشهد الغدير نفسه .. صورة فيها نوع من تكامل الملامح ، وجلاء الخطوط ، إضافة إلى أحداث وجزئيات واكبت هذا المشهد ، فكان لها دور مهم في اكتمال ملامح تلك الصورة التي يجب أن تؤخذ عنه ، ومن ثم في قيام الحجة الإلهية به ، وبلوغها فيه ..

فبمثل هذه الصورة المتكاملة تتم الدلالات المطلوبة في جلاء الالتزام الإسلامي لهذا المشهد ، وللولاية التي أعلنت فيه ، وللشخص المرتضى الذي أسندت إليه مهماتها ، وبالتالي في تعيين مسؤولية المسلم تجاه ذلك الالتزام الإسلامي و حدوده .

﴿١﴾

شـــرائط الالتزام

لابد من الإشارة -في البداية- إلى القاعدة العقلائية المعروفة ، وهي أن الالتزام إنما هو شأن الملتزم وحده ، دون أي مصدر آخر لا يرد ضمن التزامه هو ..

وهي قضية واضحة في أي التزام يصدر من أي ملتزم ، و في أي شان من الشؤون الفكرية أو القانونية أو الأخلاقية أو غيرها ، سواء في تعيين الملتزم به ، أم في تحديد موقعه و مهمته ، أم في غير هذه النواحي..

ولا اعتقد أن أحدا يناقش في هذه القضية المبدئية ، لما لها من أصول عقلية يقينية مسلّمة ، ولما لها من مستلزمات عقلائية جرت عليها الحياة الإنسانية في قوانينها ، ومعرفتها ، وتعارفاتها الشائعة بين الناس .

ومن الطبيعي أن يجري الإسلام عليها كذلك وهو يقدم للبشرية حقائقه ، ويقرر لها مصادره التي يعترف بها لنفسه ، ويشرع لها مناهجه وتعاليمه ويقيم لها مثله وقيمه التربوية والأخلاقية .

ولمعرفة حدود وآفاق أي التزام ، يصدر من أي ملتزم ، لا بد للباحث من أن يلاحظ جميع ما يمكن أن يدخل في هذا الالتزام من أصول وكيفيات ، وموارد وغايات وشرائط ، لاختلاف الاعتبارات التي لها مدخلية في بلورة تلك الحدود والآفاق -كما هو المتبع لدى العقلاء في هذا المجال- .

فمن الالتزام ما لا يتجاوز شخص الملتزم ذاته -فحسب- وفي

حدود أقواله وأفعاله الخاصة ، و منه ما يشمل آخرين من الناس معه ، بدءاً من الدائرة الاجتماعية الضيقة ، وانتهاء بالبشرية كافة ، في مختلف الأزمنة والأمكنة ، بل وقد يتسع ليشمل مبدأ الوجود (تعالى شأنه) ذاته ، كما هو الشأن في الالتزامات الربانية لشرائع خاصة ، أو لشخصيات معينة ناطقة بحجتها .

فمع الالتزام الشخصي (مثلاً) -وحيث يستوفي الفرد شرائط هذا الالتزام طبعاً-، فان هذا الفرد لا يسند إليه ولا يحاسب إلا بما أخذه هو على نفسه من عهد، أو أقرّ به من عمل ، أو نسبه لذاته من شيء يلزمه.

كما لا يؤاخذ بهذا الالتزام شخص آخر سواه ، أو يضفى عليه ، وإن كان هذا الشخص من أقرب الناس إليه ، وأمسهم علقة به .

نعم ، قد يكون صدور هذا الالتزام منه سبيلاً لظهور واقع تؤيده القرائن .. أو يكون سبيلاً لإقرار الشخص الآخر على نفسه بالتزام مماثل ، أو غير ذلك .. و هذه نواح أخرى لا علاقة لها بما ذكرناه .

كما أن التزام الملتزم ، أو إقراره بشيء على نفسه ، إنما يحدد في الحدود التي يعينها ضمن التزامه وإقراره ، دون أدنى تجاوز أو قصور .. فما وراء تلك الحدود لا يلزمه ، وهي -كذلك- مسألة واضحة ، وأمثلتها مما لا تخفى على أحد ..

وهكذا، فانا إنما يلزمني بشيء من الأشياء، أو بعهد من العهود، هو ما آخذه أنا على نفسي ، وأقرّ به عليها ، ضمن الحدود التي التزمتها ، ولا أؤاخذ بما أقرّ به غيري على نفسه ، أو حتى عليّ ، ما لم يكن هذا الغير ضمن إقراري أنا ، كما لا أؤاخذ أنا -كذلك- بأوسع أو أدنى مما التزمت به على نفسي من الأمور ..

❖ ❖ ❖

ولكن دائرة الملتزم هذه قد تتسع مع اتساع دوره في مورد ذلك الالتزام، حين يصبح مؤهلاً له ، وحين يعترف له بذلك نفس المورد وأتباعه ، ليصبح التزامه -من ثم- التزاماً لذلك المورد كله ومن ينتسب إليه ، وفي حدود الموقع الذي أقر له فيه .

فالقائم على هيئة من الهيئات ، أو المتولي لأمر جماعة من الجماعات، أو المتنفذ في دولة من الدول ، يتسع التزامه ليشمل ما تناله مسؤوليته من تلك الهيئات أو الجماعات أو الدول ، بل ويشمل كل فرد ينتسب إليها .. فكلمات ذوي هذه المناصب وأشباههم لا تلزم أصحابها كأشخاص -فحسب-، بل تشمل كل ما ومن يتزعمونه ضمن مناصبهم تلك .

أما حين لا يعترف لهؤلاء بمناصبهم تلك ، فلا إلزام بأي من قرارات أولئك المتنفذين ، أو التزاماتهم ، مهما كانت درجاتهم في تلك الهيئات أو الجماعات أو الدول .

وفي هذا الخط -أيضاً- يرد الالتزام الفكري أو المذهبي أو الديني.

فهو إنما يصبح له اعتبار إذا صدر ممن أهّلتهم مواقعهم الخاصة في المدرسة الفكرية ، أو المذهب ، أو الدين الذي ينتمي إليه ، لاتخاذ ذلك القرار أو الالتزام ، وفي الحدود التي يقتضيها موقع كل منهم في مجاله ، وفي مدى متطلباته ، دون أي مصدر آخر لا تعترف به تلك المدرسة ، أو يقر له المذهب أو الدين ، ولا يؤهله احدها لاتخاذ هذا الالتزام ، وان كان من أكثر الناس قناعة به ، وأشدهم تحمساً له ، أو تمسكاً بقضاياه وحقائقه .

ولا أعتقد أن هناك من يناقش في هذه الأوليات العقلائية الثابتة .

❖ ❖ ❖

المناصب الإسلامية لا تعدو القاعدة

ولا ريب أن المناصب الإلهية والإسلامية الكبرى ، كالرسالة، والنبوة ، والإمامة ، والولاية العامة ، وإسناد أي منها إلى شخص معين من الناس -كما هو الشأن في غيرها من الالتزامات الإلهية والإسلامية- إنما ترد ضمن هذه الحقيقة الواضحة أيضا .

فهذه المناصب -كالتزام إلهي وإسلامي- يجب أن تصدر من الله (تعالى) وحده ، وأن تؤخذ مما جعله الله سبيلا لمعرفة هذا الالتزام منه -سبحانه- ، ومما يعترف به الإسلام لنفسه من الحجج والبينات فحسب ، وأن تكتسب مما يقرّه لذاته من المصادر ، وفي الحدود التي تصرح بها تلك الحجج ، وتبينها هذه المصادر خاصة ، وبهذا وردت النصوص القرآنية أيضاً ، قال (تعالى) :

﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ .[1]﴾ .

﴿وَلَكِنَّ اللّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ .[2]﴾ .

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ .[3]﴾ .

﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ ، إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ .[4]﴾ .

---

(١) البقرة : ١٢٤.

(٢) آل عمران : ١٧٩ .

(٣) الأنبياء : ٧٣ .

(٤) الحج : ٧٥ .

وفي المقابل ، فان الإسلام لا يلزم بأي مفهوم أو منصب لا يرد ضمن تلك البينات ، ولا يحتسب عليه أي شخص لم يضفِهِ هو على نفسه من بين الناس، وإن سمت معالم ذلك المنصب في التصور البشري، ومهما استقام ذلك الشخص في حياته وسلوكه مع حقائق الإسلام ومرتكزاته ..

وهذا -بدوره- أمر واضح كذلك ، وقد تواترت فيه النصوص الإسلامية من القرآن وسنة المعصومين للتأكيد عليه ، قال (تعالى) :

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً ، أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ ، وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنَزلَ اللّهُ ، وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ .[1]﴾ .

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ .[2]﴾ .

﴿وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَـذَا حَلاَلٌ وَهَـذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ ، إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ.[3]﴾.

إلى غير هذه الآيات المباركات ..

---

(١) الأنعام : ٩٣.

(٢) الأعراف : ٣٣.

(٣) النحل : ١١٦.

ومن الطبيعي أن ترد مسؤولية الإنسان المسلم تجاه تلك المناصب الإسلامية ، أو تجاه مدعيها من الناس على أساس من هذه الحقيقة كذلك، فما أقرته مصادر الإسلام منها التزمه ، وفي حدود ما بينته له من مسؤولية ، وما لم ترد فيه حجة شرعية واضحة نبذه ، وإن أعطته وسائل الدعاية والإعلام درجات عليا في التاريخ .

❁ ❁ ❁

تناسب ما بين الالتزام والملتزم

ومما يستتبع الحديث في القضية السابقة : مسألة مهمة أخرى ، تتفرع عنها ..

وهي : ضرورة التناسب ما بين الملتزم والتزامه ، وما يعتمده هذا الالتزام من شرائط وأصول ، إذ لابد أن يستقيم مع ما للملتزم من خصائص ومميزات .

ولهذه القضية أساسها العقلي المعروف في قانون السببية ، إذ العقل يحكم بضرورة التناسب أو ما يسمى -بالاصطلاح الفلسفي- بالسنخية بين السبب و المسبب ، و ضرورة أن تبرز خصائص المسبب ومميزاته في كل ما يصدر عنه من آثار ، فالنار إنما تصدر عنها الحرارة والضوء ، دون البرودة والظلام ، وهكذا ..

ولهذه القضية -كذلك- أساسها العقلائي في حكمة الملتزم كعاقل مختار، فما يصدر عن احد العقلاء من الأعمال لابد أن تتراءى فيه سجاياه وكفاءاته وقابلياته وأصوله الأخلاقية ، و قيمة التي يسعى إليها في الحياة .

ومن هنا كان هذا التناسب أحد الأوليات الأساسية التي ارتكزت عليها الحياة الإنسانية كلها ، وجرى عليها التعامل بين الناس ، في

الصعيد الفردي أو الاجتماعي ، وفي مختلف مجالات السلوك العملي والفكري والأخلاقي وغيرها.

❖ ❖ ❖

وفي صعيد المذاهب والأديان -خاصة- ، يعتبر هذا التناسب من الشرائط الأساسية لوحدة المذهب أو الدين كهيكل قائم ، له كيانه ، وله أصوله وأهدافه الموحدة .

فالتزام دين من الأديان ، أو مذهب من المذاهب الاجتماعية أو الفكرية، لنظرية من النظريات ، أو لحكم من الأحكام التشريعية ، أو لشخص من الأشخاص ، لابد أن يستقيم -بدوره- مع أولياته المبدئية التي يستند إليها ، ومع القيم التي يرتكز عليها في إقامة كيانه ، وفي تعامله مع الإنسان ، وأن ينطلق في كل ذلك من الأهداف التي يرنو إلى تحقيقها في قيادته للحياة ، وإلا لم تستقم له وحدة، ولم يتماسك له كيان ، أو تنتظم له مفاهيم وأحكام وقيم ضمن خط واحد ، يمكن أن يجمعها في هيكل سليم الأركان والمقومات ..

وطبيعي أن لا يعدو الإسلام هذه القاعدة أيضا .

فما يلتزمه من الحقائق ، وما يشرّعه من المناهج ، ومن ينتجبه من الأشخاص أو يختاره من الأشياء ، يجب أن لا يقصر -بدوره- عن أي من الأسس المبدئية التي ينطلق منها ام في وجوده ذاته ، و أن لا يخرج عن الخطوط العامة التي ينتظم بها كيانه وقيمه كافة ، فبدون هذه الوحدة بين تلك الأسس وهذه الخطوط ، وامتدادها جميعاً فيما يلتزمه يستحيل أن يقوم له كيان متكامل أو تنهض له بنية قائمة .

وكما تصدق هذه الضرورة في الحقائق الإسلامية -غير الولاية- حيث لا تستثنى منها حقيقة ، فيجب أن تصدق كذلك -و بما لها من

شمولية ، وما لها من مستلزمات- في الولاية الإسلامية الكبرى ، ولا سيما أنها واحدة من أعظم تلك الحقائق وأكبرها أهمية في كيان الإسلام -كما سنعرفه إن شاء الله-.

كما تصدق -في الوقت نفسه- في ذات الشخص الذي اصطفي لهذه الولاية ، وأسندت إليه مهماتها ، وألقيت عليه مسؤولية الوفاء بمتطلباتها ، لأنه -بهذا الاصطفاء- لا يصبح واحداً من تلك الحقائق الإسلامية الكبرى فحسب ، وإنما هو يصبح المثل الإنساني الذي تتجسد به جميع تلك الحقائق ، والسبيل المنتجب للوصول إليها ، والحجة الربانية فيها .

ولهذه النواحي فإن الضرورة فيه ستكون آكد ، لما تعنيه هذه الدرجات من شأن رفيع في كيان الإسلام كله ، ولتأثيرها -من ثم- على كل حقيقة إسلامية أخرى .

ولا ريب أن علياً وولايته إنما يردان مع الإسلام ضمن هذه القاعدة أيضاً ، بعد أن تحقق تشريعه لها ، واصطفاء الله (تعالى) علياً لها .

وحينئذٍ كان لا بد من أن تدرس الولاية من خلال هذا الالتزام الإسلامي -خاصة-، ويدرس علي عليه السلام من خلال ذلك الاصطفاء ، ومن خلال ما يعنيه من شرائط وحدود ، فعلى أساس هذه الشرائط والحدود -وحدها- تتبلور الملامح الحقيقية لهذه الشخصية العظمى ، وولايته الكبرى في دين الله .

والسؤال هنا -وقبل الدخول في هذه المرحلة- :

ما الذي يعنيه هذا الاصطفاء الإلهي في نفسه ؟ .

وما الذي يستوجبه من شرائط وحدود ؟ .

إذ أن دراسة ولاية علي عليه السلام من هذا المنطلق تستوجب -ولا

شك- استحضار شيء من هذه الجوانب ، ولاسيما تلك الحدود العامة التي يعتمدها الإسلام في وجوده ككل ، ويستند إليها في الفِكَر والمناهج والأهداف والشخصيات التي يتبنّاها ، و-باختصار- في كل ما يمتّ إليه بصلة ، فالوقوف على مثل هذه القضايا -وهي في الحقيقة بعض قيمه الإعجازية العليا- كما يوضح لنا طبيعة الإسلام ذاته ، يوضح لنا طبيعة أي شيء ينتسب إليه .

ومن هذه الأشياء -بالطبع- ولاية علي عليه السلام ، ومعالم شخصيته العظمى كولي لله ، منتجب لحمل أمانته الكبرى في هذه الأرض بعد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم .

لان القيم العليا لأي دين أو مذهب ، -وكما أشرت سابقاً- من الأسس التي يعتمد عليها في وجوده ، وتقوم عليها مختلف حقائقه ، وهي -في الوقت نفسه- الصبغة العامة التي تبرز من خلالها جميع ملامحه في كل ما ينتسب إليه ، وهي التوجّهات العامة في انتظام مناهجه وسننه، والسلك الرابط بين أولياته وتعاليمه وغاياته كافة -كما يظهر مع أدنى تأمل- .



القيم العليا في الإسلام

ما القيم العليا في الإسلام ؟ ..

وما الحدود التي بني عليها كيانه ، وأقيمت عليها حقائقه ؟..

ولا أعتقد أن أهمية هذا السؤال المبدئي مما تخفى على أحد ، ولاسيما من حملة الأيمان ، فالإجابة عنه من الأسس المهمة التي لا محيد عن اعتبارها في استمساك المسلم بدينه ، وإيمانه بأصوله وفروعه كافة .

بل ولا تقف عند الحدود العامة التي ذكرناها فحسب ، وإنما هي تمتد إلى فهم أي موضوع ، أوحقيقة ، أو حكم يرد في الإسلام ، وفي أي بعد من أبعاده ، وفي أي مجال من مجالاته .

وهناك العديد من السبل التي يمكن سلوكها للوصول إلى هذه الإجابة، وكل من هذه السبل ينتهي إلى بلورة ملامح معينة عنها ، وفي حدود خاصة قد يكون لها تعبير جيد عن الحقيقة ، وطبيعي أن يكون لكل من هذه السبل أصوله الخاصة ، واتجاهاته الفكرية المعروفة لدى الباحثين المسلمين .

وحيث أننا -في بحثنا التمهيدي هذا- لا نطمح إلى أكثر من الوصول إلى فكرة إجمالية عامة عن هذه القيم والحدود ، فلا نحاول أكثر من الوقوف على بعض الدلالات السريعة لنصوص إسلامية ، وفهم ما تمليه هذه الدلالات في بيان آفاق الفكرة التي نحتاجها هنا ، دون الدخول في أي من تفاصيلها ، لان هذه التفاصيل أوسع من أن يحاط بها في هذا الموقف المقتضب .

والملاحظ -في هذا المجال- أن النصوص الإسلامية الواردة في هذه الناحية تتخذ سبلاً سهلة وواضحة في بيان هذه القيم ، بعيدا عن المداخلات الفلسفية المشوشة والغامضة التي قد تعتمدها مذاهب أو أديان أخرى ، وإن كانت هذه السبل -في الوقت نفسه- تشكل الصورة المثلى التي يطمح إلى نيلها كل جهد إنساني يبذل في هذا المجال ، وهذه بعض آفاق الإعجاز الإسلامي في بيناته ودلائله ، ولا سيما في قرآنه العظيم .

فالبيان الإسلامي والقرآني منه -خاصة- يركز دائما على بناء تلك القيم كافة على مفهوم **(الحق)** ، ليجعل هذا المفهوم القاعدة الأساسية الأولى للبنية الإسلامية كلها ، وبكل ما تحتويه من حقائق وسنن ، ثم - ومن هذا المفهوم المبدئي- ينتزع جميع القيم والحدود الإسلامية الأخرى، ليصبح الحق -من ثم- هو المقوم الأساس ، والطابع العام في تلك القيم والحدود كافة .

فالقران الكريم مثلا -وهو المصدر الأول للبيان الإسلامي- في تقديمه لهذه الحقيقة ، يتخذ مختلف السبل التي يجعل منها ظاهرة إسلامية عامة تملأ كل وعي وتلفت كل بصيرة .

فهو يذكر في بعض آياته كلمة **(الحق)** صراحة ، ليجعلها الأساس الأول لقيام صرح الإسلام ، ونشأة حقائقه كافة ، والمحور الذي يستقطب جميع قضاياه ، قبل أن يعبّر بهذه الكلمة عن الإسلام ذاته ، ليكون -من ثم- هو **(الحق)** المتجسد في عالم التشريع ، فيقول (تعالى) مثلا :

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً .[١]﴾ .

(١) البقرة : ١١٩.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ..[٢]﴾ .

﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً.[١]﴾.

إلى غير هذه الآيات .

بينما هو في آيات أخرى يعبّر عن مفهوم هذه الكلمة من خلال بعض لوازمه ، كالبرهان ، والنور ، والصراط المستقيم ، والشريعة من الأمر ، كما في قوله تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً .[٢]﴾ .

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ .[٣]﴾.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ ..[٤]﴾ .

إلى آيات أخرى وردت في مثل هذه المضامين .

ولا نطيل في اقتباس مزيد من الآيات ، كما لا نفيض بمراجعة مصادر أخرى غير القران الكريم من جوامع النصوص الإسلامية ، لأن التزام الإسلام بهذا العنصر أجلى من أن يحتاج إلى مزيد من الشواهد .

❖ ❖ ❖

مفهـوم الحـق

وهذا الارتباط الإسلامي المطلق بعنصر الحق ، والتأكيد عليه في

---

(٢) يونس: ١٠٨.

(١) الإسراء :١٠٥.

(٢) النساء : ١٧٤.

(٣) المؤمنون : ٧٣.

(٤) الجاثية : ١٨.

مختلف النصوص ، يستوجب منا الوقوف على هذا العنصر بالذات ، و محاولة التعرف على ملامحه ومقتضياته في الدين أو المذهب الذي يلتزمه أساساً له ، أو قيمة عليا فيه ، لأن إدراك تلك الصبغة العامة في مختلف حقائق الإسلام و قضاياه مما تفتقر إلى مثل هذه المعرفة -كما هو واضح- .

ومع وضوح معنى (الحق) في الاستعمال اللغوي لهذه الكلمة ، إلا أن تكامل حلقات الحديث يستوجب منا الرجوع إلى ما كتبه اللغويون في معنى هذه الكلمة لعنايتهم -عادة- بموارد استعمال الألفاظ .

ومما ذكروه في معنى كلمة (الحق) : أنها ترد بمعنى المطابقة و الموافقة، كمطابقة رجل الباب في حقه ، لدورانه على الاستقامة -كما يقول الزبيدي في تاج العروس-، ثم يضيف أيضا :

(والحق يقال لموجد الشيء بحسب ما تقتضيه الحكمة ، ولهذا قيل في الله (تعالى) : هو الحق ، وللموجود بحسب مقتضى الحكمة ، ولذلك يقال : فعل الله كله حق، وللاعتقاد في الشيء المطابق لما عليه ذلك الشيء في نفسه ، نحو اعتقاد زيد في البعث حق ، وللفعل والقول الواقع بحسب ما يجب ، وقدر ما يجب في الوقت الذي يجب ، نحو : فعلك حق ، وقولك حق [1]) .

ومع تحليل بسيط لهذا النص ، نجد أن مفهوم (الحق) في الفعل أو الاعتقاد أو القول يستلزم وجود واقع معلوم وثابت ، تتجلى به معالم الحكمة ومتطلباتها، لتكون -من ثم- مطابقة فعل الفاعل ، أو اعتقاده ، أو قوله ، لذلك الواقع واستقامته معه حقا ، وإلا افتقد هذا المفهوم كل رصيد له في التحقق والمطابقة .

---

(١) تاج العروس : مادة (حقق).

إذن فوجود ذلك الواقع -في نفسه- ، ووجود الحكمة التي يركن إليها ، شرطان في وجود هذا المفهوم نفسه ، وهذه القضية -في آفاقها العامة- ليست مجالاً لريب أحد من الناس ، وعليها جروا في استعمالاتهم المختلفة لهذه الكلمة، حتى في محاوراتهم العرفية العامة .

فهم لا يسلّمون باتصاف قضية من القضايا، أو كلمة من الكلمات، بـ(الحق) ، إلا حين يكون لها واقع يناط به مفهومها ، وتستقيم هي معه، دون أدنى خلل أو تفاوت عنه .

ومن هنا أصبحت هذه الاستقامة من المقاييس المثلى والواضحة في تمحيص الأفكار والدعاوى ، وفي تقويم جوانب السلوك ، وبيان ما في كل منها من قوة أو وهن .

وهنا يتبدرنا سؤال مهم وهو : إلى أي مدى يستطيع الإنسان أن يجسد هذا المفهوم في تصوراته وأفعاله ؟ وما مدى توفيقه في هذا المجال؟..

ومنشأ هذا السؤال : هو بروز الفارق الكبير بين جلاء مفهوم كلمة (الحق) كفكرة تصورية ، قد لا يرتاب فيها عاقل -كما قلت-، وغموضه كرصيد مبدئي صعب المنال على الإنسان في المجال التطبيقي لهذه الكلمة في الكثير من جوانب الحياة ، وبناء سلوكه واعتقاده عليه ، ولاسيما في الالتزام الديني أو المذهبي ، إذ في مثل هذه الآفاق لا تكاد تتفق كلمة الناس على أساس ثابت يمكن الركون إليه .

إذن ، فلابد من الاعتراف بأن ذلك الوضوح الذي لمسناه لـ (الحق) -كمفهوم تصوّري في وعي الإنسان- لا يستتبعه وضوح مماثل في المجال التطبيقي لهذا المفهوم ، وفي مختلف الموارد السلوكية والفكرية ، لأسباب سنتعرف على بعضها فيما بعد-إن شاء الله-، وهو فارق اكبر من أن يخفى على أحد أيضا .

فما أبعد ما بين قناعات الناس وآرائهم ، حتى في المفاهيم العامة والبسيطة التي تعتمدها مجريات حياتهم اليومية !!.

وما أكبر التفاوت فيما بين وجهات أنظارهم حول ما يحيط بهم من شؤون ، أو حول أصوب السبل لبلوغ النتائج المناسبة في التعامل مع كل شأن منها ، أو حول طرائق هذا التعامل !! .

وما أكثر دعاوى الحق في النظريات والأعمال التي يقوم بها الناس في كل صعيد !! .. وهكذا .

بل ، وحتى لدى الشخص الواحد ، فما أكثر ما يقتنع المرء بفكرة خاصة حول أمر من الأمور ، ويجري معه على أساس من قناعته – هذه- لفترة من الزمن ، ثم يبرز له من نقاط الضعف فيها ما يجعله يميل إلى فكرة أخرى قد تكون على النقيض تماما من فكرته السابقة !!، و هو في كلتا الحالتين يرى أنه على حق ، و أنه يتطابق فيما يراه مع واقع الأمر الذي يتعامل معه ، وانه يتخذ السبيل الصائبة في هذا التعامل .

بل وهو -في أحيان كثيرة أخرى- قد ينتقل إلى حالة ثالثة ، يستبين له معها انه كان على خطا في الحالتين السابقتين معاً !! ..

كل هذا بالنسبة إلى المواقف الجزئية للفرد ، أما بالنسبة إلى الأصول العامة للمواقف ..

أما بالنسبة للمذاهب العامة ، وللأديان منها بالخصوص ، فان التفاوت فيها أجلى ، وأسباب الاختلاف فيها أعمق ، ونتائجه في حياة الإنسان أكبر تأثيراً ، كما يبدو مع قليل من التأمل ، وسيردنا مزيد من الإيضاح فيما بعد -إن شاء الله- .

❁ ❁ ❁

من أسباب القصور الإنساني

أما الأسباب التي ينشأ منها هذا الفارق في وضوح الحق ، بين المفهوم والتطبيق ، فيمكن تلخيص أكثرها أهمية في نقطتين جامعتين نشير إليهما بشكل سريع ..

أولاهما : إن الإنسان إنما يتعامل مع الأمور من خلال فكرته الخاصة حولها ، وعلى أساس مما يملكه من قابليات وأصول اختيار -شخصية أو نوعية-، وعلى رصيد مما بلغه من الخبرة العلمية فيها ، وثم بمعونة ما يتهيأ له من الوسائل التي تمكّنه من تحقيق أغراضه معها .

وتدبر سريع لأي من هذه الإعدادات يثبت أنها اقصر من أن ترقى بالإنسان إلى درجة الإحاطة الكاملة بواقع تلك الأمور ، وأنها لا تستطيع أن تسمو بالوعي إلى استيعاب أطراف ذلك الواقع ليتمكن الإنسان من التطابق معه بشكل مطلق .

فحدود هذه الإعدادات كلها لا تعدو في تناولها الظواهر البارزة من الأشياء ، إضافة إلى أنها محكومة بما تمليه عليها زاوية الملاحظة التي ينطلق منها الإنسان في ملاحظته للموضوع ، وفهمه لجرياته ، مما يقصر بها حتى عن الإحاطة بتلك الظواهر التي تقف عندها ، وهي -كما نرى- نقطة ضعف في الإنسان لا يستطيع تجاوزها إلا حيث يستطيع التجرد عن حدوده الإنسانية الذاتية ، وهذا محال .

هذا في حين أن مفهوم (الحق) لا يمكن نيله دون الغور إلى واقع الأمور كما هو ، والإحاطة بكل ما له من جذور وعلاقات يعتمدها في وجوده ، فبمثل ذلك العمق وهذه الإحاطة وحدهما يمكن تحقيق الموافقة المطلوبة ، والتطابق الذي يعنيه هذا المفهوم ، ولا أعتقد أن في هذه المسألة مجالاً للمناقشة أو الارتياب .

❁ ❁ ❁

الثانية : التداخل الكبير بين العوامل الذاتية والعوامل الموضوعية - أولاً- في تكوين فكرة الإنسان حول أي شيء من الأشياء ، وتجاه أي أمر من الأمور، و-ثانياً- في تعامله مع القضايا والوقائع المختلفة .

فكما أن لواقع الشيء دوره في تكوين تلك الفكرة ، أو هذا التعامل، كذلك لعواطف الإنسان ومصالحه وآماله ورغباته ، وسائر موجّهاته النفسية -فضلاً عن حدوده المختلفة في قابلياته وطاقاته الإدراكية وخبرته العلمية-أدوارها التي لا يمكن تجاهلها ، حتى في أوضح القضايا ذات الصبغة العلمية والموضوعية ، سواء في تحديد مدى الرؤية ، أو عمق الإدراك ، أم في توجيه طريقة التعامل ، أم غيرها ..

فهذه الموجهات هي لباب المكونات الشخصية الإنسانية ذاتها، ويستحيل على الفرد أن يتجرد عنها بحال من الأحوال ..

نعم ، يمكن للإنسان أن يدرك بعض جوانب هذا النقص ، ويتلافى النتائج السلبية التي تتأتى منه حين يلتفت إليها ، ويعي دور كل من هذه الموجهات على وعيه ، وآثارها فيه ، وفي توسعة أو تضييق نظرته حول الموضوع ، و-من ثم- في بلورة فكرته التي ينتهي إليها معه ، ليضعه هذا التلافي في المسار الصحيح في التعامل مع الموضوع ، ويستقيم مع مقتضياته ضمن حدوده وقابلياته الخاصة تلك .

وهذا هو المفترض في الحكيم من الناس ، وهذا هو الهدف الذي يطمح إليه ذو البصائر الواعية ، والتفكير الحر ، في معرفة الحقائق .

ومع هذا تبقى هذه الغاية بعيدة المنال للإنسان ولا سيما في القضايا المبدئية الكبرى ، لأن الفارق بين العوامل الموضوعية والعوامل الذاتية ليس دائماً من الوضوح بدرجة تمكّن كل أحد من أن يحدد كل عامل في

نفسه ، أو في تعيين دوره ، أو الإحاطة بآثاره على وعيه ، وعلى توجهاته في مختلف الأمور ، ليتسنى له –من ثم– اتخاذ أصوب السبل للاستقامة مع الموضوع ، أو الارتفاع بنفسه إلى مستوى الواقع ومقتضياته ، سواء في بناء الفكرة أم في الإرادة والسلوك ..

بل ، وكثيرا ما يتخذ التداخل -بين تينك الطائفتين من العوامل- سبلاً هي أخفى من أن يشعر بها المرء ، لتتلبس بعض العوامل بلباس الأخرى ، مما يخفي حدودها وآثارها أمام ملاحظته ، في وقت تمضي هي في أحكامها عليه ، دون وعي منه .

وما أكثر ما يؤمن الإنسان بأنه يتخذ الموضوعية منهجاً له في دراسته لأمر من الأمور ، وأن فكرته حوله تمتاز بالواقعية التامة ، ثم يستبين -هو نفسه-فيما بعد أنه كان على خطأ في ذلك الإيمان ، وأنه كان يستكين لعوامل بعيدة كل البعد عما يدّعيه .. و هكذا .

ومن الطبيعي في هذه الحالة أن لا يستطيع الإنسان تلافي نقائصه ، أو يقوّم مواقفه في الاتجاه السليم ، و إن امتلك من الحكمة وحيوية التفكير ما يمكنه من الارتفاع إلى إدراك ضرورة تباع الحق ، وتحقيق متطلباته في مجالي الفكر أو السلوك ، لأنه -مع هذا الخفاء في مسارب القصور في وعيه-، يعجز عن ذلك الارتفاع الذي يطمح إليه ، كما يعجز عن تجنب سلبيات ذلك التداخل وآثارها .

فعوامل القصور تلك تفرض أحكامها عليه من حيث لا يشعر ، و من حيث لا يستطيع تقديرها ، أو تقدير آثارها تقديراً صائباً ، لأنها تظل طليقة في ذاته ، من حيث يعتقد أنه يستطيع الهيمنة عليها ، أو إخضاعها للواقع ومتطلباته كما يريد .

❁ ❁ ❁

نعم ، في هاتين النقطتين يكمن المنشأ الرئيس لقصور الإنسان ، والتفاوت ما بين طموحه وواقعه الذي يحياه ، في عالم الفكر والسلوك على حد سواء .

فهاتان النقطتان مما لا يسهل على الإنسان التجرد عنه ، وقد يستحيل عليه الارتفاع بوعيه عليهما ، لأنهما بعض المكونات الذاتية لشخصيته -كما قلت-، مما يعني -بالتالي- عدم قدرة الإنسان على استيعاب مقتضيات الحق في إدراكه للأمور دون مدد مما وراء ذاته ، ولاسيما في القضايا المصيرية الكبرى .

وإلى هاتين النقطتين -أيضاً- يستند الاختلاف المشهود بين الناس في تصوراتهم ، وفي معتقداتهم ، وفي طرق تعاملهم مع الأشياء والأحداث ، حيث يمتد هذا الاختلاف إلى التفاوت الحاصل بين الناس في القيم ، وفي الموازين التي يقوّمون بها مواقفهم في الحياة .. البسيطة منها والمعقدة ، قريبة المنال منهم وبعيدته .

فهذا الاختلاف والتفاوت -في معظمهما- لم يتأتيا من جهة الغموض في مفهوم الحق لدى العقل ، ولا بسبب واقع المواضيع التي يتعامل معها الإنسان ، ولا بسبب الخفاء في معنى التطابق بين الفكرة والموضوع الذي تعبر عنه ، وإنما يحصلان -في الغالب- إما بسبب قصور الإنسان عن استيعاب شؤون الواقع الملاحظ ، وعن الإحاطة بمستلزماته ، وإما بسبب تأثير عوامل ذاتية تفرض نفسها على وعي الإنسان فتحيد به عن الحق ، وعن الركون إليه في أحكامه ، وعدم البلوغ بذاته إلى مستوى الاستقامة مع مقتضياته الفكرية أو السلوكية .

❋ ❋ ❋

المذاهب العامة وسمة الحق

أما في عالم القوانين والأنظمة والأديان ..

أما في عالم المذاهب الفكرية والاجتماعية العامة ..

أما في هذا العالم ، حيث يتطلب قيام المذاهب أفقاً واسعاً في نظرته للإنسان ، ووجوده وحياته ، وفي علاقاته العامة والخاصة .

وحيث يستوجب كمال المذهب شمولية في التصور ، ووحدة متكاملة بين أجزائه ، واتساقاً عاماً في مبادئه وغاياته ، وانتظامها في مناهج محددة ، ودقة في الملاحظة يفترض لها أن تغور إلى أوليات الوجود الإنساني ونهاياته ..

أقول : أما في هذا العالم -بالذات-، فتبرز ضرورة التطابق المطلق مع الواقع الذي يعنيه المذهب ، ويستهدفه في قيادة الإنسان إليه ، وتتجلى بشكل أوضح من غيره ، كما يبرز -من جهة ثانية- قصور الإنسان عن استيعاب المتطلبات الأساسية لهذا التطابق أكثر من غيره أيضا .

ففي هذا العالم لابد أن ترقى تلك الضرورة إلى مستوى المطابقة التامة مع الغايات الأولى لحكمة الخلق والتشريع ، ففي هذا المستوى المطلق وحده يكمن مفهوم الحق في هذا العالم ..

على أن تتجلى هذه المطابقة -بعدئذ- في كل بعد من أبعاد المذهب، وفي كل حقيقة من حقائقه ، وفي كل حكم من أحكامه ، وفي كل ما يلتزمه من شيء أو شخص ، بأدق ما للتطابق والموافقة من معنى ، لأن أي انحراف عن ذلك الواقع -وفي أي موقع يتصور- سينعكس -ولا ريب- نتائج سلبية حتمية في ذلك المذهب ، لا في خصوص الموقع الذي تحقق فيه منه فحسب ، وإنما في كيانه العام كله ، بجميع ما يحويه من

حقائق وقضايا يطرحها على الساحة الفكرية أو التشريعية .

لأن النتائج -كما يقول المنطقيون- تتبع عادة أخس المقدمات-من جهة- ، ومن جهة أخرى -وكما قلناه سابقاً- فإن للمذهب نوعا من الوحدة المتكاملة في المواقع والأجزاء والخطوط ، فالسلبيات التي تحصل في بعض المواقع لا تقتصر في آثارها على ذلك الموقع وحده ، وإنما هي تمتد إلى المواقع والأجزاء الأخرى أيضا ، وإن بدت تلك السلبيات صغيرة ، ومحدودة التأثير .

وطبيعي أن تنعكس هذه السلبيات -من ثم- على كل من يلتزمه من الناس ، ويتخذه أساساً لسلوكه ، ويمضي وفق تعاليمه ، فمن يمضي في طريق الخطأ لا ينتظر له أن ينال ثمار الصواب ، والواقع يؤثر أثره شاء الإنسان ذلك أم أبى .

❁ ❁ ❁

حاجة المذاهب العامة إلى الله (تعالى)

وملاحظة هذه الضرورة في المذاهب العامة من خلال هاتين النقطتين السابقتين تظهر بوضوح حاجة تلك المذاهب -التي تطمح لنيل سمة الحق- إلى مصدر سام ، هو وراء الحدود المعروفة للإنسان ، وبعيد عن التأثر-في علمه وحكمته وإرادته- بما يتأثر به الإنسان من حدود وموجّهات تقصر به عن نيل تلك السمة الرفيعة ..

.. إلى مصدر ذي علم مطلق ، وحكمة مطلقة ، وقدرة مطلقة ، لا تحده الظروف ، ولا تحكمها الملابسات ، ولا يعجزها التداخل بين العوامل الذاتية والموضوعية ، وخفاء الحدود التي تفصل بينهما .

.. تحتاج إلى الله الذي خلق الإنسان ، فقدّر بحكمته وجوده ، وهيأ له من القابليات والطاقات والخصائص ما يمكّنه من القيام بمهمته التي

أعده لها في هذه الحياة ، لتصبح هذه المهمة –في نفسها– بعداً في الواقع الإنساني الذي يجب أن يتطابق معه المذهب الذي شرع لقيادته ، لأنها بعض الأسس المقومة لكيان الإنسان وبناء شخصيته واتجاهاته في الحياة كما أنها بعض تجليات الحكمة الربانية فيه ..

فهذا المصدر السامي –وحده– القادر على تحقيق ذلك التطابق المطلوب، والتصادق مع الواقع ، وكما يقتضيه مفهوم الحق نفسه ، إذ يقصر الإنسان في حدوده المعرفة عن نيل هذا المدى –كما أشرنا– .

ثم إن حاجة مذهب الحق إلى هذا المصدر لا تقف معه في حدود الإنشاء أو التشريع فقط ، وإنما هي –قبل هذا وبعده– ركن مقوم له ، وطبيعة ثابتة فيه ، ويجب أن تمضي معه حتى آخر حكم من أحكامه ، وكل حقيقة من حقائقه ، وكل مرحلة من مراحل وجوده ، ومع كل دور من أدواره في حياة الإنسان ، لأن هذا المذهب –في نفسه– فيض من عناية ذلك المصدر العظيم بالإنسان ، ومظهر من مظاهر رعايته له .

ولأن دور المذهب في حياة الإنسان ذو صيغة حيوية دائمة التطور والتفاعل ، فيستحيل بقاء ذلك التطابق فيه ، واستمراره دون مدد إلهي دائم ، يكفل استقامته مع متطلبات الحياة ، ويمده بالروح والحيوية في كل مرحلة من مراحله .

وهذه النقطة تعني ضرورة أن يكون الله –سبحانه– هو الضامن لقيام ذلك المذهب الحق مع وجود الإنسان في هذه الأرض ، وهو الراعي لأحكامه في التطبيق ، والقيّم على أمره مع استمرار الحياة الإنسانية فيها ، ومع استمرار حاجتها إلى هداه ، ويستحيل أن يوكل الله ﷻ حجته إلى الإنسان دون رعاية خاصة منه .

لأن الإنسان –كما علمنا– محدود القابليات ، عاجز عن أن يستقل

بنفسه في نيل سمة الحق المطلق ، بمفرده دون أن يتأثر بالعوامل الذاتية التي تقصر به عن الانطلاق إلى ذلك المستوى الرفيع ، وطبيعي أن ينعكس هذا القصور -بدوره- على أي جهة يتدخل فيها دون ذلك الضمان الإلهي المستمر ، ودون تلك الرعاية الربانية الدائمة ، وان لم يكن تدخل القصور هذا ضمن مرحلة إنشاء المذهب أو في صياغته الأولى .

إذن ، فالمصدر الإلهي -وحده- هو الذي من خلاله يستطيع المذهب أن يستوفي جميع الشرائط التي يستلزمها عنصر الحق في كيانه .. سواء في طبيعة وجوده ، أم في مرحلة بنائه للحياة الإنسانية ، واستقامة هذه الحياة معه ..

وهكذا يمكننا أن نستخلص مجمل هذه الشرائط في المذهب الحق بما يلي:

١- أن يكون هناك تطابق تام بين المذهب وواقع الوجود الإنساني بما له من علاقات مبدئية مع مختلف ظواهر الوجود ، كما شاءته حكمة الخلق فيه ، وكما أنشأته عليه يد التدبير الإلهي .

٢- أن تكون الاستقامة العامة مع مقتضيات ذلك الواقع هي السمة البارزة في كل حقائق المذهب وجزئياته ، لتصبح هذه الاستقامة -وبما لها من بعدٍ حدي دقيق- مقياسا ثابتا له في تمييز الحوادث والمواقف التي يمضي على أساسها في حياة الإنسان .

٣- أن يكون الوضوح الشامل في الدلائل والبينات هو المنهج الثابت له في كل أصل يلتزمه ، وفي كل حقيقة يطرحها ، وكل حكم يشرعه ، وكل غاية يسعى بالإنسان إليها.

وهي شرائط واضحة ، تتبين ضرورتها -أولاً- من خلال ملاحظة

ما يعنيه المذهب الحق ذاته ، وما له من دور مهم في الحياة الإنسانية ، وماله من موقع أساس في قيادتها نحو غايات الحكمة الإلهية في الخلق والتدبير .

و-ثانياً- من خلال ملاحظة ما يعنيه مفهوم الحق -ذاته- من مطابقة حدية مع الواقع ، فلا تقصر ولا تحيد عنه ، لتنتظم -من ثم- مع مقتضيات تلك الغايات الكبرى للحكمة الربانية .

❁ ❁ ❁

شرائط الحق في الإسلام

وهكذا فحين تعهدت حكمة الله (تعالى) أن توفي للإنسان حاجته إلى مذهب الحق بالإسلام ، وان تجعل هذا الدين القويم هو المنهج الذي يوفي للإنسان تلك الحاجة -حين يستقيم معه وينتظم في سلكه-، فمن الطبيعي حينئذ أن تستوعب في هذا الدين جميع الشرائط التي ذكرناها لمذهب الحق، دون أدنى خلل أو تفاوت ، وإلا لم ينل تلك الصبغة ، واستحالة هذا الاحتمال واضحة بعد الذي قدمناه من الحديث .

والآيات الكريمة -التي سبق أن قرأناها في بداية هذا الفصل-، لتشير بوضوح إلى ما ذكرنا ، وأن حكمة الله (تعالى) بنفسها قد تعهدت بتحقيق هذه الشرائط في دين الله ، واستيفاءها فيه ، كما رسمتها-في الوقت نفسه-حدوداً للإنسان في كيفية تعامله معه ، واعتبرتها مقاييس في محاسبة مواقفه تجاه كل حكم من أحكامه .

فآية (الجاثية) -مثلا- قد أشارت إلى تلك المطابقة بين الإسلام وواقع التكوين ، ومقتضيات حكمة الله فيه ، إذ قالت :

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ .﴾ .

وفي هذا المضمون أيضاً ورد العديد من آيات القرآن الكريم وسياقاته، منها قوله (تعالى) :

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ . لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ .[1]﴾ .

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى . وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى .[2]﴾ .

أما شرط الاستقامة فقد ذكرته آية (المؤمنون) بلفظه الصريح، إذ قالت: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ .[3]﴾ .

كما نصت عليه آيات أخرى ، إذ قال (تعالى) :

﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ .[4]﴾.

﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُّسْتَقِيمٍ .[5]﴾ .

وكذلك شرط الوضوح ، حيث أشارت إليه آية (النساء)، إذ قال (تعالى):

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً.[1]﴾. وفي هذا الشرط ورد -كذلك - العديد من الآيات المباركات، كقوله (تعالى):

﴿ قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي

---

(١) فصلت : ٤٢ .

(٢) النجم : ٢-٤ .

(٣) المؤمنون : ٧٣ .

(٤) الزخرف : ٤٣ .

(٥) الحج : ٦٧ .

(١) النساء : ١٧٤ .

وَسُبْحَانَ اللّهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ .[٢]﴾ .

﴿ .. قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ . يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ .[٣]﴾ .

إذن فكما تعهدت حكمة الله أن يكون **(الحق)** هو الأساس في بناء الإسلام ، وقيام كيانه -ككل-، التزمت هذه الحكمة أن تجعل جميع هذه الشرائط ومستلزماتها كافة ضمن هذا التعهد ، استكمالا لتحقيق ذلك المفهوم فيه .

لأنها تعلم أنه ما لم يتوفر أي من هذه الشرائط في دين الله -كأسمى ما يكون عليه التوفر- لا يمكن أن يوجد هذا المفهوم نفسه ، وهذا محال -كما هو معلوم- إذ لا عجز في قدرة الله -سبحانه- ، ولا عبث في حكمته، ولا قصور في علمه .

ومن خلال ذلك التعهد ، وهذا الالتزام يجب أن تستقيم المواقف الإنسانية -بدورها- مع هذا الدين ومع كل ما يحتويه من حقائق وما ينبثق من مناهج وأحكام .

---

(٢) يوسف : ١٠٨.

(٣) المائدة :١٥ -١٦.

﴿٣﴾

شرائط الحق والمنتجبين

قلت : إنه يجب أن تكون هذه الشرائط ركائز أساسية في كيان الإسلام كله ، فهذا ما تقتضيه الحكمة الربانية ، وهذا يعني –بكل وضوح– وجوب أن تكون كذلك أصولا عامة في كل عقيدة يعتمدها ، و في كل فكرة تصورية يطرحها ، وكل منهج سلوكي يشرّعه للإنسان ، وكل حكم يقضي به ، وكل منصب يؤسسه ، وكل اصطفاء لشخص يرتضيه ، وكل غاية يمضي بالإنسان إليها .

فمن هذه الأمور جميعاً يتكون هيكل الإسلام ، وهي مقومات وجوده ، وبدون أن نستوعب تلك الشرائط جميع هذه الأصول والفروع لا يمكن أن يقال للإسلام أنه استوفاها ، ولاسيما مع ما عرفناه سابقا من أن الإسلام حيوي الكيان ، متكامل الأبعاد ، متشابك الروابط والجذور ، يستحيل فيه اقتطاع جزء من أجزائه ، أو انحرافه عن خطه العام ، دون أن تتأثر باقي الأجزاء ، أوحتى الهيكل الكلي العام له .

وقد أشرنا إلى أنه مع هذه الحيوية الضرورية في كيان المذهب ، لا يمكن أن يتطابق الكيان الكلي له مع الواقع ، فيما لو انحرفت بعض أجزائه عنه ، ولا يمكن أن تمضي تلك الاستقامة المطلقة في خط تلتوي فيه بعض المواقع عن الغاية الأساسية التي رسمتها حكمة التشريع له .

كما لا يتجلى ذلك الوضوح الشامل لذلك التطابق أمام الوعي في أمر لا يستبين بعض موارده أمامه .

وعلينا أن نتذكر أن خصائص الحق هذه حدية وشاملة ، لا مجال فيها للنسبية ، أو المساومة والتبعيض ليستطاع الغض فيها عن بعض النقائص .

❁ ❁ ❁

والمنتجبون الذين يصطفيهم رب الإسلام للقيام بمسؤوليات مناصبه العليا، ويختارهم أمثلة شاخصة لحقائقه وأحكامه، يجب أن لا يعدوا - بدورهم- هذه الشرائط ، وبأدق ما لها من معنى ، وفي كل أفق من آفاق شخصياتهم ، وفي كل عمق من أعماقها وجذورها ، العقلية منها والوجدانية والنفسية ، وغيرها .

و-باختصار- يجب أن تمضي تلك الشرائط في كل ما يستلزمه الاصطفاء الإلهي من دور لهم في الحياة الإنسانية ، وما يتطلبه مفهوم الحق في دينه ، وتقتضيه استقامته المطلقة مع الواقع ، ووضوح دلائل الهدى الرباني منه، إذ يستحيل استثناء أو انحراف هؤلاء المصطفين عن تلك الشرائط في موقف ، أو تجاوزهم لأمر الله (تعالى) ونهيه في عمل ، حتى في جزيئات الأمور التي تصدر عنهم .

بل ، ولابد أن تمضي تلك الشرائط مع أولئك الأصفياء إلى الأصول الاختيارية التي تصدر عنها تلك الأمور والمواقف ، فهي جميعها -بعد تحقق الاصطفاء الإلهي- تصبح بعض حقائق الإسلام ، ومظهراً فعلياً من مظاهره .

وأي اختلاف أو تفاوت -وإن كان ضمن الجزئيات البسيطة- ينعكس -ولا ريب- في سلبياته على ذات الاصطفاء ، وهذا محال ، كما هو واضح .

وهذه الناحية تشير إلى ضرورة أخرى -إضافة إلى ما قدمناه من

دلائل الالتزام- وهي أن يناط اصطفاء أحد من الناس للقيام بالمهمات الكبرى في الإسلام بالله (تعالى) وحده ، فهو العليم بخلجات النفوس ، والخبير بخواطر الأوهام ، ووساوس الصدور ، والقدير على أن يُحكِم آياته كما يشاء ، ويتم كلمته صدقاً وعدلاً كما يريد .

وهي نتيجة واضحة كل الوضوح ، ولا سيما بعد ما سبق من الحديث .

فكما أن الإسلام لا يُلزَم بغير ما أو من يلتزمه له منزله العظيم (تعالى) ، لأنه شأنه الخاص ، فكذلك الأمر هنا ، فان شرائط الحق تلك لا يمكن أن تستوفى في حقيقة من الحقائق أو في أحد من الناس ، دون تعهد رباني خاص أيضاً .

إذ أن الأعماق التي أخذت في تلك الشرائط -من جهة-..

وسعة أطراف الوجود الإنساني والتكويني -من جهة ثانية- ..

وقصور الإنسان عن إدراك جميع متطلبات الحق-من جهة ثالثة-..

وقوة التأثير للأهواء والمصالح الآنيّة ، والانحرافات النفسية والاجتماعية على الإنسان -من جهة رابعة- ..

.. كل هذه الأمور وغيرها ، مما يحيل على الإنسان أن يستقل باستيفاء تلك الشرائط في نفسه ، أو يحيط علمه بمواقعها في أعماق ذاته ، وفيما يصدر عنه من سلوك ضمن مسؤوليته الشخصية الخاصة ، فيكف يتسنى له أن يستوعبها ضمن المسؤوليات التكوينية الكبرى ، تلك المسؤوليات التي يعنيها دور الإسلام في هذا الوجود ، ليصبح هذا الفرد أو ذاك مثلاً شاخصاً للإسلام في عالم الإنسان، ويستوفي مهماته المطلوبة منه في الحياة دون اصطفاء إلهي، ودون رعاية ربانية مباشرة تكفل له تحقيق تلك الدرجة العليا ..

ثم إنه مع هذا القصور الذاتي في كيان الفرد ، كيف يتسنى له أن يلمس هذه الشرائط في غيره من الناس ، ليختاره صفوة إسلامية تتجسد بها حقائق الإسلام وشرائطه كافة ، دون تعيين الهي خاص ؟، هذا في حين أن المرء يعلم من نفسه ما لا يعلمه عن غيره ، وإن كان من اقرب الناس إليه ، كما يملك من زمام نفسه ما لا يملكه من أزمّة الآخرين ..

إذن لابد أن يكون هناك اصطفاء من الله (تعالى) وحده ، لأصفياء يرتضيهم لأداء تلك المهمات الكبرى ، ولابد أن يكون الله ﷻ هو المتعهد لتحقيق تلك الخصائص العليا فيهم ، وفي كل ما يصدر عنهم من كلمة أو موقف ، ما دام أي سلوك منهم ، وكل قول أو موقف هو يعتبر من متطلبات ذلك الاصطفاء أيضا ، وما داموا في وفائهم بمسؤولياتهم يجسدون حقائق الإسلام في البشرية ، ويقيمون حجته الكبرى بين الناس ، على أن يستمر ذلك التعهد الإلهي معهم ، ومع أدوارهم الكبرى في الحياة ، ليمدهم بمنابع النور ، ووسائل الهدى بما يكفل تحقيق مهماتهم تلك ، دون أدنى قصور أو وهن .

❁ ❁ ❁

وفي الحقيقة ؛ إن شرائط الحق -هذه- هي المائز الجلي بين صادق الدعاوى بالانتساب إلى دين الله ﷻ وكاذبها .

فمع أن هذا الانتساب يعتبر مطمحاً سامياً تشرئب إليه الأعناق كافة ، وتتطلع إليه جميع النفوس ، مما جعله مجالاً كبيراً لدعاوى المدّعين، وزعم الزاعمين ، وعلى امتداد التأريخ الإنساني ، إلا أن هذه الشرائط مما يستحيل تجسيدها -بتلك الصورة القاطعة ، والحدية ، والشاملة ، التي ذكرناها- في شخص لم يتحقق اصطفاؤه من الله (تعالى) ، ولم تتعهده رعاية ربانية مباشرة، تضمن بنفسها تحقيق تلك الدلائل في ذاته ، فلا يختلف عنها في تصور ، ولا يتفاوت مع متطلباتها في سلوك ، ولا

يقصر عن الوفاء بمهماتها في موقف .

❁ ❁ ❁

ولاية علي (عليه السلام) وشرائط الحق

وطبيعي أن ترد ولاية علي (عليه السلام) -بدورها- ضمن هذا السلك الإسلامي العام أيضا ..

فهي بعد أن يتضح التزام الإسلام لها ، ولوليها العظيم (عليه السلام) ، يجب أن تصبح واحدة من تجليات الحق في دين الله (عز وجل) أيضا ، وأن تستقيم فيها مستلزماته كافة ، دون أي تفاوت .

وكما تطرد هذه الضرورة في ذات الولاية -كمنصب إسلامي خاص- يجب أن تطّرد أيضا في علي (عليه السلام) كمصطفى لله (عز وجل) لهذا المنصب ومنتجب منه -سبحانه- لإشغاله ، إذ لابد أن يبدأ خلوصه لله ، وتجرده للحق ، منذ أعمق أعماق وجوده الأولى ، وأوليات تكوينه الذاتي ، ليمتد منها إلى كل جزء من أي عمل يصدر منه ، وإلى كل كلمة ينطقها، أو سجية يتصف بها ، ليثبت أن اختياره لهذا المنصب العظيم إنما كان من عند الله (تعالى) وحده ، وانه (عز وجل) -بحكمته وقدرته- هو الضامن لاستقامة الحق فيه ، إذ يستحيل -حتى على علي (عليه السلام) نفسه- أن يستقل بهذه الاستقامة دون ذلك الضمان الإلهي ، وتلك الرعاية الربانية الخاصة .

وليس من الغريب أن تستكمل تلك الشرائط كافة في الولاية الإسلامية الكبرى ، ولا في شخص علي (عليه السلام) -المرتضى الرباني لها- كما لم يكن من الغريب استكمالها في أي حقيقة إسلامية أخرى .

فهناك التزام الهي واقعي ، وهناك ضمان رباني خاص ، وهناك تعهّد حكيم باستقامة الحق في دينه القويم ، وهو ضمان وتعهد لابد أن

يتحققا بأدق وأوفى ما لهما من معنى ، إذ ليس في قدرة الله (تعالى) عجز ، ولا في حكمته عبث ، ولا في علمه قصور ، وتعالى كمال الله عن أي نقص .

وهكذا كان لابد من دراسة هذه الخصائص في ولاية علي عليه السلام ، ولكن بعد أن نقف على بعض ملامح هذه الولاية وحدودها العامة .

على أن نستتبعها -إن شاء الله- بدراسة هذه الخصائص كذلك في شخصية علي عليه السلام نفسه ، لنستكمل التعرف على هذه الناحية المهمة في دين الله ذاته ، ومورد رعايته له ، وعنايته به وبدوره في حياة الإنسان ، من خلال التزامه (تعالى) لعلي وولايته ، واعتبارهما بعض حقائقه الكبرى .

هذا كله قبل التعرض إلى ما تعنيه هذه الشرائط في مسؤولية المسلم تجاه دين الله (تعالى) وتجاه ولايته الكبرى ، وأوليائه النجباء عليهم السلام عامة ، وتجاه علي عليه السلام وولايته خاصة .

والله (تعالى) هو الموفق ، ومنه العون والمدد .

البَابُ الأوَّل

مشهد الغدير ودلالاته

تمهيد

لاستخلاص صورة واضحة المعالم عن مشهد الغدير ، وعن الولاية التي أعلنت فيه ، لابد -أولا- من تقديم بعض الحقائق المهمة ، التي يجب أن تؤخذ بالحسبان في مثل هذه الصورة ، لما لها من تأثير فعال في وضوح معالمها ، وتكامل خطوطها ، وجلاء ملامحها في الفكر .

ومن أهم هذه الحقائق :

أولاً : مرور هذه الحقب التأريخية المتمادية بين يوم الغدير ، وهذه العصور الراهنة التي نعيش فيها ، وهي حقب يستوجب مرورها -ولا ريب- خفاء الكثير مما سجله التاريخ عنه ، وافتقاد الكثير من جزئيات الأحداث المهمة التي جرت فيه ، وطبيعي أن للكثير من تلك الجزيئات أثره في بلورة الملامح المطلوبة منه ، ووضوح أبعاد الصورة الحقيقة له في بصيرة الإنسان المتتبع .

ثانيــاً : افتقاد ذلك العصر -الذي وقع فيه مشهد الغدير- لما يعرف اليوم بالوثائق التسجيلية ، التي يمكنها أن تخلّد الوقائع والأحداث والكلمات ، التي يراد تخليدها كما هي ، وكما يراد لها أن تخلد ، لعامل الزمن ، والمستوى الحضاري المعروف حينذاك .

ولهذا فقد اسند نقل المشهد وتخليده إلى ذاكرة الأمة المسلمة ، ورواة أحاديث السنة فيها ، وكتبة التأريخ الذين يهتمون بمثل هذه المشاهد ، إذ لا يمكن تحصيل ما هو أكثر دقة ، وأتم كفاءة من هذه الطريقة .

ثالثــاً : مجانبة معظم تلك الحقب التأريخية السابقة لموقف الغدير ، وللولاية التي أعلنت فيه ، وتنكبها عن طريقهما ، بل واتخاذها لطابع الصراع والسلبية سمة أساسية في علقتها معهما ، ومع كل ما يمت إليهما بصلة ، ولم تخف محاولاتها المستميتة لطمس معالم الحجة الإلهية فيهما ، ونقض دورهما في دين الله ، واستئصال آثارهما في حياة الأمة المسلمة .

وهي أمور معلومة الوقائع ، يراها كل أحد من المسلمين في حياته اليومية الجارية ، قبل أن يقرأها وقائع سوداء شوهت التاريخ الإسلامي والإنساني ، وسيأتي –إن شاء الله– بعض شواهدها التي ذكرتها مصادر التاريخ ، في عصور كان لها دورها المؤثر في بناء الاتجاهات الفكرية و العقائدية للأمة المسلمة .

رابعــاً : إننا في محاولتنا لاستشفاف الصورة التي نريدها حول الغدير، إنما نعتمد على ما ذكره شهداء الغدير من الرواة ، وحكاياتهم لما رأوه فيه .

وحينئذ ، فيجدر بنا أن لا نغفل ما هو المعروف في مثل هذه الحالات ، من أن كل شخص –في العادة– إنما يركز انتباهه على نقاط معينة تستلفت نظره مما يراه من المشهد ، دون استيعاب لما لا يراه فيه من القضايا ، بل ولا استيعاب لما يراه من الحوادث و المجريات إذا لم تثر اهتمامه .

وواضح أن هذه الحوادث قد تكون ذات أهمية كبرى في ذلك المشهد ، و في الغايات الأساسية للقائمين به ..

كما أن الراوي نفسه –وهو يتحدث عن المشهد الذي يخبر عنه– إنما يذكر منه خصوص ما يتطلبه الموقف الذي دعاه للحديث عنه ، دون

غيره من النواحي ، وإن كان قد استوعب -في ذاكرته- ما هو أوسع من موضوع الحديث .

ولهذا فان استخلاص صورة واضحة عن مشهد مهم مثل الغدير ، يستدعي استعراض العديد من الروايات الحاكية عنه ، لتتكامل ملامح هذه الصورة من خلال التأمل فيها جميعاً وليس في بعضها خاصة .

وهكذا كان لابد لنا هنا من تقديم عدد مناسب من الروايات الواردة في استعراض مشهد الغدير ، والأحداث التي واكبته ، ومن مصادر مختلفة في الاتجاهات ، ورواة مختلفين في المواقف إزاء الغدير ووليه ، لاستلهام ملامح واضحة للصورة التي نطمح إلى إدراكها فيه ، قبل أن نستطيع دراسة ما يعنيه الالتزام الإلهي له ، ولما يرتبط به من أمور.

الفصل الأول

الغدير في السنّة الشريفة

في هذا الفصل نذكر عشرة من الأحاديث التي عرضت لموقف الغدير نقدمها – أولاً– دون تعليق ، بل نكتفي بقراءة متأنية متأملة لها ، تمكننا من أن نستشف منها المعالم الرئيسية لهذا الموقف الخالد ، وما أبرزته من ملامحه وأبعاده ونتائجه التي أرادته له العناية الربانية .

١– ما رواه أبو الطفيل عن حذيفة بن أسيد قال :

لما قفل رسول الله ﷺ من حجة الوداع ، نهى عن شجرات بالبطحاء متقاربات أن ينزلوا حولهن ، ثم بعث إليهن فصلى تحتهن ، ثم قام فقال : (يا أيها الناس ، قد نبأني اللطيف الخبير : أنه لم يعمر نبي إلا مثل نصف عمر الذي قبله ، وإني لأظن أن يوشك أن أدعى فأجيب ، وإني مسؤول ، وأنتم مسؤولون ، فماذا أنتم قائلون ؟..

قالوا : نشهد أنك قد بلّغت ونصحت وجهدت، فجزاك الله خيراً.

قال : ألستم تشهدون أن لا اله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن جنته حق ، وأن ناره حق ، وأن الموت حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور ؟ ..

قالوا : بلى ، نشهد بذلك .

قال : اللهم اشهد .

ثم قال : يا أيها الناس ، إن الله مولاي وأنا مولى المؤمنين ، وأنا

أولى بهم من أنفسهم ، من كنت مولاه فهذا -يعني علياً- مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه .

ثم قال : أيها الناس إني فرطكم ، وإنكم واردون عليّ الحوض ، حوض اعرض مما بين بصرى وصنعاء ، فيه آنية عدد النجوم ، قدحان من فضة ، وإني سائلكم -حين تردون علي- عن الثقلين ، فانظروا كيف تخلفوني فيهما ؛ الثقل الأكبر : كتاب الله ، سبب طرفه بيد الله وطرف بأيديكم ، فاستمسكوا به ، لا تضلوا ولا تبدلوا .. عترتي أهل بيتي ، فإنه قد نبأني اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض[1] .

٢- ما رواه زيد بن أرقم قال :

أقبل النبي ﷺ في حجة الوداع ، حتى نزل بغدير الجحفة ، بين مكة والمدينة ، فأمر بالدوحات فقمّ ما تحتهن من شوك ، ثم نادى الصلاة جامعة ، فخرجنا إلى رسول الله ﷺ في يوم شديد الحر ، وأن منا من يضع رداءه على رأسه ، وبعضه على قدميه من شدة الرمضاء ، حتى أتينا إلى رسول الله ﷺ فصلى بنا الظهر ، ثم انصرف إلينا فقال :

الحمد لله ، نحمده ونستعينه ، ونؤمن به ، ونتوكل عليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، الذي لا هادي لمن ضل (كذا في النسخ والظاهر أن الصحيح أضل) ، ولا مضل لمن هدى ، واشهد أن لا اله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله .

---

(١) مجمع الزوائد للهيثمي - ج : ٩ - ص : ١٦٥- ن : مكتبة القدسي القاهرة . والبداية والنهاية للحافظ أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير - ج : ٥- ص : ١٠٩ . و ج : ٧- ص : ٣٤٩- ن : مطبعة السعادة بمصر، ويراجع كتاب الغدير للشيخ عبد الحسين الأميني - ج : ١- ص : ٢٦ - مطبعة الغري في النجف - سنة : ١٣٦٤ لمعرفة المصادر الأخرى للحديث .

أما بعد -أيها الناس- فانه لم يكن لنبي من العمر إلا النصف من عمر الذي قبله ، وأن عيسى بن مريم لبث في قومه أربعين سنة ، وإني شرعت في العشرين ، ألا وإني يوشك أن أفارقكم ، ألا وإني مسؤول ، وانتم مسؤولون، فهل بلّغتكم ؟، فماذا أنتم قائلون ؟ .

فقام من كل ناحية من القوم مجيب يقول : نشهد أنك عبد الله ورسوله ، قد بلّغت رسالته ، وجاهدت في سبيله ، وصدعت بأمره ، وعبدته حتى أتاك اليقين ، جزاك الله خير ما جزى نبياً عن أمته .

فقال : ألستم تشهدون أن لا اله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله، وان الجنة حق ، وأن النار حق ، وتؤمنون بالكتاب كله ؟، قالوا : بلى .

قال : فإني أن قد صدقتكم وصدقتموني ، ألا وإني فرطكم ، وأنتم تبعي ، توشكون أن تردوا علي الحوض ، فأسألكم -حين تلقوني- عن الثقلين، كيف خلفتموني فيهما .

قال : فاعتلّ علينا ما ندري ما الثقلان ، حتى قام رجل من المهاجرين ، فقال : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، ما الثقلان ؟ .

قال : الأكبر منهما : كتاب الله ، سبب طرف بيد الله ، وطرف بأيديكم، تمسكوا به ولا تولّوا ، ولا تضلوا ، والأصغر منها : عترتي ، من استقبل قبلتي وأجاب دعوتي ، فلا تقتلوهم ولا تقهروهم ، ولا تقصروا عنهم، فإني قد سألت لهم اللطيف الخبير فأعطاني ، وناصرهما لي ناصر ، وخاذلهما لي خاذل ، ووليهما لي ولي ، وعدوهما لي عدو . ألا فإنها لم تهلك أمة قبلكم حتى تدين بأهوائها ، وتظاهر على نبوتها ، وتقتل من قام بالقسط ..

ثم أخذ ﷺ بيد علي بن أبي طالب ورفعها فقال : من كنت وليه

فهذا وليه . اللهم وال من والاه وعاد من عاداه .. قالها ثلاثاً [1] .

٣- ما رواه عبد الله بن عباس ، قال :

لما أمر النبي ﷺ أن يقوم بعلي بن أبي طالب المقام الذي قام به ، فانطلق النبي ﷺ إلى مكة فقال :

رأيت الناس حديثي عهد بكفر بجاهلية ، ومتى أفعل هذا يقولون : صنع هذا بابن عمه ..

ثم مضى حتى قضى حجة الوداع ، ثم رجع ، حتى إذا كان بغدير خم أنزل الله ﷻ :

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ..[2]﴾ ، فقام مناد فنادى الصلاة جامعة ، ثم قال -وأخذ بيد علي- فقال : (من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه [3])

٤- ما رواه ابن عباس أيضا ، قال :

لما خرج النبي ﷺ إلى حجة الوداع نزل بالجحفة ، فأتاه جبرائيل عليه السلام فأمره أن يقوم بعلي فقال ﷺ : أيها الناس ، ألستم تزعمون أني أولى بالمؤمنين من أنفسهم ؟.

قالوا : بلى يا رسول الله .

قال : من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه، وأحب من أحبه ، وابغض من أبغضه ، وانصر من أعزه ، وأعن من أعانه .

---

(١) الغدير – ج : ١– ص: ٣٥عن الروضة الندية ، شرح التحفة العلوية – ج : ٢– ص : ٢٣٦ .

(٢) المائدة : ٦٧.

(٣) الغدير– ج : ١– ص :٥٠– عن كنز العمال –ج : ٦– ص: ١٥٣ ومصادر أخرى ..

قال ابن عباس : وجبت —والله- في أعناق القوم [(١)] .

٥- ما رواه الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ، قال :

نصب رسول الله ﷺ علياً علماً ، فقال : من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ، واخذل من خذله، وانصر من نصره ، اللهم أنت شهيد عليم .

قال عمر بن الخطاب : يا رسول الله ، وكان في جنبي شاب حسن الوجه طيب الريح قال لي : يا عمر ؛ لقد عقد رسول الله ﷺ عقداً لا يحله إلا منافق.

فأخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال : يا عمر ، انه ليس من ولد آدم ، لكنه جبرائيل أراد أن يؤكد عليكم ما قلته في علي [(٢)] .

٦- ما رواه زيد بن أرقم ، قال :

لما نزل النبي ﷺ بغدير خم ، في رجوعه من حجة الوداع ، وكان في وقت الضحى وحر شديد ، أمر بالدوحات فقمّت ، ونادى الصلاة جامعة ، فاجتمعنا ، فخطب خطبة بالغة ، ثم قال :

إن الله (تعالى) أنزل إلي:

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ..﴾ .

وقد أمرني جبرائيل عن ربي أن أقوم في هذا المشهد ، وأعلم كل أسود وأبيض أن علي بن أبي طالب أخي ووصيي وخليفتي والإمام بعدي ، فسألت جبرائيل أن يستعفي لي ربي ، لعلمي بقلة المتقين ،

---

(١) الغدير — ج :١— ص :٥٠ ، عن كتاب الولاية للسجستاني .

(٢) ينابيع المودة للقندوزي— ج : ٢— ص : ٧٤ — ن : مكتبة العرفان — بيروت .

وكثرة المؤذين لي ، واللائمين لكثرة ملازمتي لعلي ، وشدة إقبالي عليه، حتى سموني أذنا فقال (تعالى) : ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ : هُوَ أُذُنٌ قُلْ : أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ..[1]﴾ .

ولو شئت أن أسميهم وأدل عليهم لفعلت ، ولكني بسترهم تكرّمت ، فلم يرض الله إلا بتبليغي فيه . فاعلموا -معاشر الناس- ذلك ، فان الله قد نصبه لكم وليا وإماما ، وفرض طاعته على كل أحد، ماض حكمه ، جائز قوله ، ملعون من خالفه ، مرحوم من صدّقه ، اسمعوا وأطيعوا ، فان الله مولاكم ، وعلي إمامكم ، ثم الإمامة في ولدي من صلبه إلى القيامة ، لا حلال إلا ما أحله الله ورسوله ، ولا حرام إلا ما حرمه الله ورسوله وهم . فما من علم الا وقد أحصاه الله فيّ ونقلته إليه ، فلا تضلوا عنه ، ولا تستنكفوا منه، فهو الذي يهدي إلى الحق ويعمل به ، لن يتوب الله على أحد أنكره ولن يغفر له ، حتماً على الله أن يفعل ذلك ، وأن يعذبه عذابا نكرا أبد الآبدين .

فهو أفضل الناس بعدي ، ما نزل الرزق وبقي الخلق ، ملعون من خالفه ، قولي عن جبرائيل عن الله ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ..[2]﴾ .

افهموا محكم القرآن ، ولا تتبعوا متشابهه ، ولن يفسر ذلك لكم إلا من أنا آخذ بيده وشائل بعضده ، ومعلمكم : من كنت مولاه فهذا علي مولاه ، وموالاته من الله ﷻ أنزلها علي ، الا وقد أديت ، الا وقد بلّغت، الا وقد أسمعت ، ألا وقد أوضحت ، لا تحل إمرة المؤمنين بعدي لأحد غيره . ثم رفعه إلى السماء حتى صارت رجله مع ركبة النبي ﷺ ، وقال : معاشر الناس ؛ هذا أخي ، ووصيي ، وواعي علمي،

---

(١) التوبة : ٦١ .

(٢) الحشر : ١٨.

وخليفتي على من آمن بي ، وعلى تفسير كتاب ربي .

(وفي رواية) : اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ، والعن من أنكره ، واغضب على من جحد حقه . اللهم انك أنزلت عند تبيين ذلك في علي : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ .[١]﴾ بإمامته ، فمن لم يأتم به، وبمن كان من ولدي في صلبه إلى القيامة فـ﴿أولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ .[٢]﴾ ..

إن إبليس أخرج آدم عليه السلام من الجنة -مع كونه صفوة الله- بالحسد، فلا تحسدوا فتحبط أعمالكم ، وتزلّ أقدامكم ، في علي نزلت سورة ﴿والعصر . إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ..﴾ .

معاشر الناس ؛ ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا .[٣]﴾ ﴿من قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ[٤]﴾، النور من الله فيّ ، ثم في علي ، ثم في النسل منه إلى القائم المهدي.

معاشر الناس ، سيكون من بعدي أئمة ﴿.. يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ .[٥]﴾ ، وان الله وأنا بريئان منهم ، إنهم وأنصارهم في الدرك الأسفل من النار ، وسيجعلونها ملكا اغتصابا ، فعندها يفرغ لكم أيها الثقلان، و﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ.﴾ .. الحديث (ضياء العالمين)[١] .

---

(١) المائدة: ٣ .

(٢) التوبة : ١٧ .

(٣) التغابن : ٨ .

(٤) النساء : ٤٧ .

(٥) القصص : ٤١ .

(١) الغدير – ج : ١– ص : ١٩٦ – ١٩٨ عن كتاب الولاية لمحمد بن جرير الطبري .

٧ – ما رواه زيد بن أرقم كذلك –في تتمة الحديث السابق– إذ قال :

قال الرسول ﷺ : معاشر الناس ؛ قولوا : أعطيناك على ذلك عهداً عن أنفسنا ، وميثاقاً بألسنتنا ، وصفقه بأيدينا ، نؤديه إلى أولادنا وأهالينا، ولا نبتغي بذلك بدلا ، وأنت شهيد علينا ، وكفى بالله شهيداً.

قولوا ما قلت لكم ، و سلّموا على علي بإمرة المؤمنين ، وقولوا : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَـذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللّه.[(٢)]﴾ ، فان الله يعلم كل صوت ، وخائنة كل نفس ، ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً .[(٣)]﴾ ، قولوا ما يرضي الله ، ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ.[(٤)]﴾.

قال زيد بن أرقم : فعند ذلك بادر الناس بقولهم : نعم ؛ سمعنا وأطعنا على أمر الله ورسوله بقلوبنا ، وكان أول من صافق النبي ﷺ وعلياً أبو بكر، وعمر ، وعثمان ، وطلحة ، والزبير ، وباقي المهاجرين والأنصار ، وباقي الناس إلى أن صلى الظهرين في وقت واحد ، وامتد ذلك إلى أن صلى العشاءين في وقت واحد ، وواصلوا البيعة والمصافقة ثلاثاً[(٥)] .

٨ – ما رواه أبو سعيد الخدري ، قال :

---

(٢) الاعراف : ٤٣ .

(٣) الفتح : ١٠ .

(٤) الزمر :٧ .

(٥) الغدير – ج : ١– ص : ٢٤٦ عن كتاب الولاية لمحمد بن جرير الطبري .

إن رسول الله ﷺ دعا الناس إلى علي في غدير خُـمّ ، وأمر بما تحت الشجرة من الشوك فقمّ ، وذلك يوم الخميس ، فدعا علياً ، فأخذ بضبعيه فرفعهما حتى نظر الناس إلى بياض إبطي رسول الله ﷺ ثم لم يتفرقوا حتى نزلت هذه الآية :

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً.[1]﴾ .

فقال رسول الله ﷺ : الله اكبر على إكمال الدين ، وإتمام النعمة ، ورضا الرب برسالتي ، وبالولاية لعلي من بعدي ..

ثم قال : من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله .

فقال حسان : ائذن لي يا رسول الله أن أقول في علي أبياتا تسمعهن .

فقال ﷺ : قل -على بركة الله- .

فقام حسان فقال : يا معشر مشيخة قريش ، اتبعها قولي بشهادة من رسول الله ﷺ في الولاية ماضية ، ثم قال :

يناديهم يوم الغدير نبيهم ... بخم وأسمع بالنبي مناديأ

يقول فمن مولاكم ووليكم ... فقالوا ولم يبدوا هناك التعاميا

إلهك مولنا وأنت ولينـا ... ولم تر منا في الولاية عاصيا

فـقال له : قـم يـا علي فإنني ... رضيتك من بعدي إماما و هادياً

فمن كنت مولاه فهـذا وليـه ... فكونوا له أنصار صدق مواليا

---

(١) المائدة : ٣

هناك دعا اللهم والـي ولــيه وكن للذي عادى عليا معاديا[٢]

٩ – ما أخرجه الحافظ أبو عبيد الهرايّ ، قال :

لما بلّغ رسول الله ﷺ بغدير خم ما بلّغ ، وشاع ذلك في البلاد أتى جابر بن النضر بن كلدة العبدري فقال : يا محمد ، أمرتنا من الله أن نشهد أن لا اله إلا الله وانك رسول الله ، وبالصلاة والصوم والحج والزكاة ، فقبلنا منك ، ثم لم ترض بذلك حتى رفعت بضبع ابن عمك ففضلته علينا ، وقلت: من كنت مولاه فعلي مولاه ، فهذا شيء منك أم من الله ؟ .

فقال رسول الله ﷺ : والذي لا اله إلا هو ، إن هذا من الله .

فولّى جابر يريد راحلته وهو يقول : اللهم إن كان ما يقول محمد حقاً فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب اليم .

فما وصل إليها حتى رماه الله بحجر فسقط على هامته وخرج من دبره، وأنزل الله (تعالى) :

﴿سأل سائل بعذاب واقع .[١]﴾ .. الآيات[٢] .

١٠– ما رواه التابعي الجليل سليم بن قيس الهلالي ، قال :

في كتابه المعروف باسمه ، في احتجاج عبد الله بن جعفر على معاوية ، بعد شهادة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام حيث قال عبد الله –ضمن حديث طويل– : يا معاوية إني سمعت رسول الله ﷺ

---

(٢) ن . م – ج: ١ – ص :٢١١–٢١٢ عن كتاب : ما نزل من القران في علي للاصبهاني ، وكتاب سليم بن قيس الهلالي .

(١) سورة المعارج : ١ .

(٢) الغدير –ج : ١– ص : ٢١٨– عن الهرايّ في كتاب (تفسير غريب القران) .

يقول على المنبر وأنا بين يديه ، وعمر بن أبي سلمى ، وأسامة بن زيد ، وسعد بن أبي وقاص ، وسلمان الفارسي ، وأبو ذر ، والمقداد ، والزبير بن العوام ، وهو يقول : أليس أزواجي أمهاتكم ؟ , فقلنا : بلى ؛ يا رسول الله ، قال : من كنت مولاه فعلي مولاه ... أولى به من نفسه - وضرب بيده على منكب علي عليه السلام - اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ...

أيها الناس ؛ أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، ليس لهم معي أمر ، وعلي من بعدي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، ليس لهم معه أمر ، ثم ابني الحسن أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، ليس لهم معه أمر .

ثم عاد فقال : أيها الناس ، إذا أنا استشهدت فعلي أولى بكم من أنفسكم، فإذا استشهد علي فابني الحسن أولى بالمؤمنين منهم بأنفسهم ، وإذا استشهد الحسن فابني الحسين أولى بالمؤمنين منهم بأنفسهم ... إلى أن قال : فقال معاوية : يا ابن جعفر ؛ لقد تكلمت بعظيم ، ولئن كان ما تقول حقاً لقد هلكت أمة محمد من المهاجرين والأنصار غيركم -أهل البيت- وأولياءكم وأنصاركم .

فقال : والله ؛ إن الذي قلت حق ، سمعته من رسول الله صلى الله عليه وآله .

فقال معاوية : يا حسن ويا حسين ويا ابن عباس ما يقول ابن جعفر ؟.

فقال ابن عباس : إن كنت لا تؤمن بالذي قال ، فأرسل إلى الذين سماهم فاسألهم عن ذلك .

فأرسل معاوية إلى عمر بن أبي سلمى وإلى أسامة بن زيد فسألهما، فشهدا أن الذي قال ابن جعفر حق، قد سمعناه من رسول الله صلى الله عليه وآله كما

سمعه[(١)] .

❁ ❁ ❁

هذه عشرة من الأحاديث التي وردت في الغدير ، وحكت بعض ما جرى فيه من مشاهد ، و–كما قلت–، فإننا نلاحظ أن كلا منها قد ركز على بعض جوانب الموقف ، وما اكتنفه من ملابسات ، أو ما استتبعه من حوادث ارتبطت به .

وأعتقد أننا الآن –وبعد قراءتنا لهذه الأحاديث– أكثر قدرة على تمييز الملامح الأساسية ، وبلورة الحدود التفصيلية التي تعنينا من هذا المشهد ، وأوضح رؤية لخطوط الصورة التي نطمح إلى استكمال معالمها، تمهيدا للدخول في موضوع البحث .

(١) كتاب سليم بن قيس – ص : ١٨٥–١٨٦– ط : المطبعة الحيدرية – النجف .

الفصل الثاني

الولاية محور الغدير

الذي يلفت النظر في مشهد الغدير : أن محور الأحداث التي جرت فيه ، ولباب القضايا التي واكبته ، إنما هو إعلان الرسول للولاية الإلهية لعلي بن أبي طالب عليه السلام بعد الرسول صلى الله عليه وآله ، وأخذ البيعة بها له من المسلمين كافة ... حيث أجمعت الأحاديث الواردة في هذا المشهد على قوله صلى الله عليه وآله فيه : (من كنت مولاه فعلي مولاه) .

بمعنى أن إعلان هذه الولاية الكبرى هي غاية الرسول صلى الله عليه وآله من هذا المشهد كله ، فبهذا ورد الأمر الرباني له صلى الله عليه وآله ..

أما الأمور الاخرى التي جرت فيه ، فهي أقرب لأن تكون أطراً تتحفظ به الحجة الإلهية المقامة في هذه الولاية على ملامحها وحدودها ، وقرائن تعتمدها في تعيين مدلولها الإسلامي المطلوب من بين المعاني المحتملة ، وتحديد موقعها الخاص في كيان الإسلام ، ودورها الكبير في وجوده وبقائه ، وامتداد رسالته العظمى في البشرية .

وهذا المحور -بدوره- يتطلب -بالمقابل- أن يستقيم أي جهد يبذله احد من الناس -في فهم موقف الغدير ككل ، أو فهم بعض شؤونه وحقائقه- مع هذا الأساس نفسه أيضا ، وأن يجري مع دلالاته تلك ، حين يريد المرء لجهده هذا أن يركن إلى دين الله ، وأن يستظل بحجته البالغة ، ويكسب الثمار الطيبة التي تغنيه في وفائه بمسؤوليته الكبرى تجاه نفسه ، وتجاه بارئه العظيم (تعالى شأنه) .

فمن خلال هذه الاستقامة وحدها يستبين هذا المعنى الإسلامي للولاية ، وبمعونة تلك القرائن والمعطيات التي تحفظت عليها الحجة الإلهية في موقف الغدير، وفيما اكتنفه من شؤون تتجلى حدوده وأبعاده.

ولهذا فلابد من استبعاد الذاتيات أو المداخلات الأخرى التي تبعد البصيرة عن الحق في موارده ، ولابد من نبذ الافتراضات البعيدة التي أملتها الإحن والأهواء ، لتحرف هذه الكلمة عن مواضعها ، وتشط بها عن حقيقتها ، فالإخلاص لله وحده ، والانقياد لدينه القويم في كل خطوة هي رائد الإنسان الحر في هذا السبيل ..

مما يعني ضرورة أن يقف على خصوص دلالة مشهد الغدير ذاته ، وما احتواه من قرائن استوعبها في مقدماته ومجرياته وخلفياته ، دون أدنى تكلف أو تمحل ، فتلك القرائن —والحق يقال- كافية في تعيين ما أراده الله (تعالى) ورسوله العظيم ﷺ بهذه الولاية ، دون أدنى ريب ، وفي إيضاح حجة الله فيها دون غموض ، رغم كل ما سجله التأريخ من صوارف للعقول ، وعقبات حاولت الوقوف أمام البصائر ، وإبعادها عن معناها الرباني المطلوب...

والله (تعالى) -قبل هذا وبعده- هو الكفيل بتسديد الخطى نحو الصواب ، والمتعهد ببلوغ الغاية في سبيله القويم .

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْواهُمْ .﴾ .

﴿يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ..﴾ .

الفَصْلُ الثَّالِثُ

ملامح الغدير في القرآن

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ..﴾[1] .

هذه هي البداية الأولى لمشاهد الغدير ، والأساس الذي بنيت عليه دعائمه ، فمن هذه الآية المباركة تنطلق جميع مشاهده الأخرى ، ومنها تنبثق مجرياته وخلفياته كافة .

وهي بداية لا يرتاب فيها منصف ، فهذا هو الذي تضافرت عليه النصوص الواردة في مختلف مصادر السنة النبوية الشريفة .

فبالإضافة إلى الحديث السادس – مما سبق من الأحاديث– الوارد عن زيد بن أرقم ، هناك عدد آخر من الروايات يؤكد نزول هذه الآية المباركة في الغدير ، وفي الأمر بإعلان الولاية الكبرى لعلي عليه السلام فيه .

وحتى مع استبعاد ما تواتر في مصادر مذهب أهل البيت عليهم السلام من هذه الروايات ، فان ما نقله ثقاة المذاهب الأخرى كافٍ في إثبات التواتر لهذا النزول في هذه المناسبة -أيضاً-.

وقد أحصى الشيخ عبد الحسين الأميني (قده) في كتابه القيّم المعروف (الغدير في الكتاب والسنة والأدب) ثلاثين مصدرا منها ، مما

---

(١) المائدة : ٦٧.

هو معتمد لدى تلك المذاهب في نقل نصوص السنة النبوية الشريفة [١].

كما أن سياق الآية الكريمة -ذاته- يعيّن هذه البداية أيضاً من بين الاحتمالات الأخرى ، التي يذكرها البعض لنزولها ، لما في صيغتها البيانية الخاصة من اهتمام بالغ في الموضوع ، وصراحة في إصدار الأمر الإلهي إلى الرسول ﷺ به ، وتعليق تبليغه للرسالة بأكملها على تبليغه ﷺ لهذا الأمر ، ومثل هذا الاهتمام لا يتناسب إلا مع أهمية الغدير ، وولاية علي عليه السلام ، وعظمة موقعها في كيان الإسلام ، وقيام صرحه ، بينما أي من الاحتمالات الأخرى -التي ذكرت في سبب نزول هذه الآية- لا يرقى ولو إلى بعض هذه الأهمية التي توليها الآية الكريمة .

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً ..[٢]﴾ .

وهذه هي النهاية التي يختم بها الغدير مشاهده في يومه الخالد .

وهي نهاية لا يرتاب فيها منصف أيضا ، ومن اقرب شواهدها : مضمون الآية نفسه ، وبيانه لأهمية ما يعرضه من حقائق كبرى ، وما لهذه الحقائق من نتائج في صرح الإسلام ، ودور في الوجود الإنساني كله .. فهي لا تستقيم -بأي حال من الأحوال- مع غير الغدير ، ومع غير ولايته العظمى، مما أورده البعض كسبب لنزول الآية الشريفة ، وأراد حملها عليه -أيضا- .

هذا في حين أن الروايات التي أوردها أئمة الحديث في نزول الآية في هذا المشهد كذلك -ومن غير رجال الشيعة أيضا- أكثر من أن تدع مجالا لريب مرتاب ، وقد أحصى صاحب كتاب (الغدير) منها أكثر من

---

(١) يراجع كتاب الغدير : ج١ – ص : ١٩٦–٢٠٤.

(٢) المائدة : ٣ .

خمسة عشر مصدرا ، إضافة إلى الرواية السابقة عن زيد بن أرقم[١].

ولصاحبي كتابي (الميزان في تفسير القرآن) و (الغدير في القرآن والسنة والأدب) بحوث جيدة مفيدة في هذا الموضوع ، ينبغي لمن يرغب الوقوف على بعض التفاصيل أن يطلع عليها[٢].

❁ ❁ ❁

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ..[٣]﴾ .

إنه الأمر الصريح والمباشر ، يصدر من الله القوي العزيز إلى رسوله الكريم الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ..

الأمر الصريح من الله (تعالى) إلى رسوله ﷺ في قرانه العظيم ، المعجزة الأبدية الخالدة ، للرسالة الأبدية الخالدة ..

وما كان الرسول ﷺ -وهو الذي وهب ذاته وحياته ، وكل ما آتاه الله ﷻ من نعم ، لله وحده ، ولتبليغ رسالته ، والوفاء بمسؤوليتها الكبرى في البشرية- ليحتاج إلى مثل هذه الصراحة في الأمر ، لو لم يكن الشأن -الذي ورد فيه- بتلك العظمة التي تستدعي لفتة ربانية خاصة ، تثبت للعقول موقعه الكبير في دين الله ، ودوره الأساس في قيام صرحه ، كما تثبت للبصائر ما يستحقه من الرعاية الربانية المباشرة ، والتعهد الإلهي الذي يستكمل به أمره ..

ولتزيل -في الوقت نفسه- أي احتمال قد تمليه الإحن ، وأمراض

---

(١) يراجع كتاب الغدير – ج : ١– ص : ٢١١–٢١٥.

(٢) يراجع تفسير الميزان –ج : ٥– ص : ١٧٧–١٩٤– وج : ٦– ص: ٤٢–٦٤– ن.دار الكتب الإسلامية– طهران – سنة : ١٣٧٧. وكتاب الغدير – ج : ١– ص : ٢٠٥–٢٠٩ وص :٢١٦–٢١٧.

(٣) المائدة : ٦٧.

القلوب بأن الرسول ﷺ كان له نوع من التفرد في إبلاغه ، دون أمر من الله (تعالى) ، أو حتى احتمال انه ﷺ قد سبق هذا الأمر في إعلانه ، أو في أخذ العهد به على الناس ، أو في إدراجه ضمن حقائق الإسلام ، أو في بيان أهميته الكبرى بين تلك الحقائق ، فالله ﷻ وحده المبدأ فيه ، وهو المهيمن عليه ، وهو الآمر به دون من سواه ، ولم يكن من الرسول ﷺ إلا امتثال هذا الأمر ، والصدع به بين الناس .

ومع أن أحداً لا يتصور بان الرسول ﷺ كان يتوانى عن تبليغ أمر الله لحظة ، أو يزيغ عما أوحاه إليه بكلمة ، أو ينفرد بإعلان شيء عنه دون أمره (تعالى)، أو يحيد عن حكمه بعمل، لأن الإيمان باستحالة كل هذه الاحتمالات يعتبر من أصول الإسلام الأولى، التي يجب أن يعتقد بها كل مسلم ..

.. إلا أنه –في الوقت نفسه– يجب أن يعلم كل أحد أن لكلمة الله علوها ، وأن لحجته بلوغها ووضوحها ، ولاسيما في أوليات الإسلام وحقائقه الكبرى ، في أي عصر من عصور البشرية ، ومع أي حال تكون عليه ، وعلى أي مستوى تبلغه ، ورعاية الله ﷻ هي الضمان الأكيد لذلك العلو والبلوغ والوضوح .

وورود الأمر في هذه الآية المباركة بهذا المستوى من الاهتمام ، وبهذه الصراحة المتناهية ، وجمعها لكل تلك الحقائق المذكورة فيها ، إنما يرد ضمن هذه الضرورات الكبرى، وتجسيدها لذلك الضمان المطلوب.

فبهذه الآية الكريمة يتجلى أول مظاهر الرعاية الربانية لولاية علي عليه السلام لتجعلها ضمن آفاق القران العليا ، وحقائقه الثابتة ، وتحدياته الإعجازية الخالدة ، ولتضفي على الولاية جميع المميزات والخصائص القرآنية العظمى ، ولتستجمع فيها كل السمات المعجزة التي اختصت

بها كل شأن من شؤون القرآن ، سواء منها تلك التي بينتها المصادر الإسلامية ذاتها ، أوتلك التي اكتشفتها العصور مما بحثه باحثوه على امتداد التأريخ .

.. تتجلى بها رعاية الله لهذه الولاية ، سواء في أدلة ثبوتها ، لتزيل عنها كل شبهة ..

أم في وضوح مفهومها ، لتجرده من كل ريبة ..

أم في موقعها من صرح الإسلام ، لتجعلها حيث أرادها الله فيه ركنا أساسا من أركانه ..

أم في دورها في حياة الإنسان محورا لهداه ..

أم في نتائجها وانعكاساتها على مسؤولية الإنسان تجاه ذاته ، وهو يريد الخير لها ، ويهدف إلى الاستقامة التامة في حياته مع مقتضيات حكمة الله في وجوده ..

كما تتجسد بهذه الآية الكريمة رعاية الله ﷻ للولاية في جعلها فيضاً من الربوبية العامة لهذا الملكوت ﴿من ربك﴾ لتكون –بدورها– مجلى لهذه الربوبية في عالم الإنسان ، بما تعنيه ربوبية الله –سبحانه– من لطف عام بالمربوب ، ورحمة له ، وتدبير لأمره .

ولم يمنع السياق الحازم للآية المباركة ، ولا صراحة الأمر الجازم فيها، وما استتبعه من تحذير صاعق من أن تلمّح إلى هذا الربط الأخاذ ، لتستكمل فيه دلالاتها القرآنية المعجزة .

ومن تلك الدلالات التي يمكننا أن نشير إليه هنا : إعطاء الولاية نفس البعد الواقعي الذي أعطي لرسالة محمد ﷺ في مثل قوله (تعالى): ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ الذي انزل في بدء الدعوة .

فكما كانت رسالة محمد (ص) ذات أصل تكويني واقعي ينبثق من

حكمة الله -سبحانه- ومن دلائلها في خلق الإنسان والكون ، لتنتهي مع الإنسان إلى درجات كماله العليا ، التي يستحيل بلوغها على أحد بدون الاستمساك بالإسلام ، لأنه هدى الله -سبحانه- وبصائره في هذا السبيل ، فهكذا الأمر مع ولاية علي (ع) ، كامتداد طبيعي لتلك الرسالة ، إذ يستحيل كمالها بدون الولاية ، ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ.[1]﴾ .

❁ ❁ ❁

﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾

وهذه هي أولى ثمرات الخطوة القرآنية السابقة .

فبعد أن جعلت الآية الكريمة -ومن خلال أمرها الصريح المتقدم- الولاية ضمن الحقائق القرآنية ، واعتبارها واحدة من فيوض الربوبية العامة ، ولطفها الشامل بالإنسان ، أمكنها حينئذ أن تعلن الموقع المميز لهذه الولاية في صرح الإسلام ذاته ، ودورها الكبير في قيام كيانه في الحياة ، وأن تشير إلى ما للولاية من عمق ذلك الموقع بين الأسس الأولى التي بني عليها ذلك الصرح ، وأقيمت عليه دعائم وجوده .

﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ .

إنه بيان لنتيجة فعلية، لشرط واقعي من شرائط ذات الرسالة ووجودها، وقد جاء بلسان التحذير للرسول ﷺ من التلكؤ في إعلان ما أمره الله به ، أو من التواني بتبليغه إلى الناس ، ليشير إلى مدى أهمية هذا الشرط ، وعظم تلك النتيجة .

ومحمد ﷺ -سيد أنبياء الله ورسله- أعظم من أن يتلكأ في أمر الله

---

(١) المائدة:٦٧.

(تعالى) لحظة ، وأسمى من أن يتوانى في تبليغ رسالته طرفة عين ، وما كان هذا ليتصور في حقه أبداً ، وهو الذي بلغ الغاية في الاستجابة لربه حتى أنزل عليه قوله (تعالى) :

﴿طه . ما أنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى.[1]﴾..

إلا أن عظمة أمر المنزل ، وما سيترتب عليه من مسؤولية كبرى في أعناق البشرية -والأمة المسلمة منها بالخصوص- تستدعي مثل هذا التحذير ، لا للرسول ﷺ نفسه ، وإنما للأمة من خلاله ، ليكون البيان أبلغ في الوصول إلى الغاية ، ولكي تدرك العقول شيئا من تلك العظمة، ولتشعر بما تستوجبه عليها من مسؤولية .

والمعنى القريب لهذا التحذير هو: أن قيام رسالة الله (تعالى) نفسها، وتحقيق وجودها في هذه الأرض -وكما شاءته لها حكمة التشريع من دور وموقع- ما كان ليتم بدون هذا الأمر المنزل من الله -سبحانه-، ولولاه لم تكن لتلك الجهود المضنية ، التي قام بها الرسول ﷺ في مراحل حياته كافة ، ولم يكن للتضحيات التي قدّمها في تبليغ الرسالة ، ولا للعناء الذي بذله في سبيلها أي معنى أو نتيجة ..

.. بل ، ولم يكن هناك داع لتلك الرعايات الإلهية التي واكبت كلاً من الرسالة والرسول ﷺ منذ أن ألقيت إليه مهمتها ، ومضت معها خطوة بعد أخرى ، حتى ذلك اليوم الخالد ، الذي نزلت فيه هذه الآية الكريمة ..

(فالكلام موضوع في صورة التهديد ، وحقيقته بيان أهمية الحكم، وانه بحيث لو لم يصل إلى الناس كان كأن لم يراع حق شيء من أجزاء

---

(١) طه : ١-٢.

الدين فقوله : ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ جملة شرطية سيقت لبيان أهمية الشرطَ وجوداً وعدماً[1]) .

❁ ❁ ❁

أما إذا لاحظنا المسالة من زاوية أخرى ..

أما إذا لاحظناها من خلال ما سبق أن أشرنا إليه ، من موضوع الحيوية الإسلامية ، وأن للإسلام كيانه الحيوي المتكامل ، الذي يستحيل فيه الوجود ، ويمتنع تحقق الغايات الربانية فيه من الهدى ، وقيام حجة الله الكبرى على الإنسان دون أن تتحقق جميع مقومات كيانه ، وتتكامل فيه جميع حقائقه الكبرى ..

أقول : أما إذا لاحظنا المسألة من هذه الزاوية ، فسندرك أن أهمية الأمر المنزل ستتضاعف –ولا ريب- لما لها من تأثير على وجود الإسلام ذاته ، كما هو واضح .

وهكذا إذا لاحظناها من زاوية وحدة الخط الإسلامي كله ، منذ رسالته الأولى ، وحتى الأخيرة الخاتمة ، وأن السابقة من رسالاته إنما تمهد لما بعدها ، وأن اللاحقة إنما تنتظم في سلك سابقتها ، فإن تلك الأهمية ستتسع –حينئذ- لتشمل جميع رسالات الله (تعالى) في هذه الأرض ، منذ الرسول الأول عليه السلام، وحتى الرسول الخاتم صلى الله عليه وآله .

إذ ما كانت ليتم لهذه السلسلة المباركة شأنها –بأجمعها- بدون هذا الأمر المنزل .

وما كان لرعايات الله –سبحانه- وألطافه بجميع الرسل والأنبياء معنى لولاه .

---

(١) الميزان في تفسير القرآن – ج : ٦– ص : ٥ .

وما كانت لتضحيات هؤلاء المصطفين ، وتضحيات أتباعهم ، أي ثمرة بغير تبليغه ، وإقامة الحجة به على الناس .

وهذا ما أشار إليه الرسول ﷺ في حديثه المعروف : (ما بعث نبي، ولا أرسل رسول إلا برسالتي وولاية علي بن أبي طالب) .

إذ كما أن الحيوية والتكامل من سمات رسالة محمد ﷺ في نفسها، هما كذلك من السمات الأساسية في كل رسالة أخرى سبقتها في النزول، وهما كذلك من السمات الأساسية لسلسلة الرسالات الإلهية في حلقاتها المتواترة والمتعاقبة ، والمواكبة لحاجة البشرية في نمو وعيها المتصاعد ، فهي بمجموعها تشكل وحدة ذات طبيعة حيوية متكاملة .

فلكل رسالة من تلك الرسالات دورها المعين ، وموقعها الخاص في تلك السلسلة ، حيث توفّي للناس حاجتهم من هدى الله ونوره وبصائره ، وحجته البالغة ضمن مرحلتهم الحضارية التي يعيشون فيها..

وهكذا أصبحت كل رسالة مستكملة لدور الرسالات السابقة ، في حين أنها تمهيد لما بعدها ، وحيث يحتاجه تطور المعرفة ، وتقدم الخبرة ، حتى مرحلة النضج الفكري الإنساني ، الذي أنزلت له رسالة محمد ﷺ خاتمة الرسالات وأكملها .

ومن هنا أمكن اعتبار جميع الرسالات السابقة ممهدات لرسالة محمدﷺ خاتم الأنبياء ، واعتبار هذه الرسالة هي القمة لها جميعها ، ومكملة لدورها في البشرية .

إذن ، فأي شرط لتبليغ هذه الرسالة ، وكمالها ، وتمام أمرها ، إنما هو شرط لتحقيق الغاية من تلك السلسلة بأجمعها ، دون استثناء ، كما أن أي خلل يرد على هذه الرسالة يرد على هذه السلسلة كلها كذلك .

❁ ❁ ❁

«يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ» .

وهذا هو الضمان الإلهي الصريح يعلنه الله (تعالى) للرسول ﷺ في قيامه بهذه المهمة الكبرى .

ولم يكن ﷺ ليحتاج إلى التصريح بهذا الضمان ، كما لم يكن محتاجا إلى تلك الصراحة في الأمر بالتبليغ أو التحذير الذي سبق هذا الضمان في هذه الآية المباركة ، لولا عظمة هذا الأمر المنزل .

وأقول : إنه ﷺ لم يكن محتاجا إلى التصريح بهذا الضمان ، لأنه نفسه الذي يلمس من مظاهر رعاية الله (تعالى) له ، وعنايته به وبرسالته ما لم يلمسه أحد من الناس ، وهو الذي يعلم من الدلائل الإلهية لتصديقه ، ومن شواهد الإثبات لكل كلمة يقولها ، وكل بادرة تصدر منه ، ما لم يعلمه الآخرون عنه .

وهو الذي يرى من صور الإمداد الإلهي التي تعهدت بتأييده منذ أن صدر إليه أول أمر الهي بحمل أعباء الرسالة و مسؤولية الصدع بها في البشرية، بل و ما قبل هذا الأمر أيضا .

فمحمد ﷺ كان نبيا منذ أن كان نورا بين يدي الله قبل أن يخلق الخلق بأربعة عشر ألف عام ،-كما في الرواية عنه ﷺ- .

وكان نبياً وآدم بين الماء والطين -كما في رواية أخرى عنه ﷺ .

وها هو (تعالى) يخاطبه في قرآنه العظيم بقوله : ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ..[1]﴾ .

كما يقول له : ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ . إِنَّا

---

(١) الطور : ٤٨.

كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللّهِ إِلـهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ.﴾.

إلى الكثير من آي الكتاب العزيز التي ضمنت للرسول ﷺ عصمته وعصمة رسالته وكفايتهما من العابثين والمتطفلين ، بل ومن الناس كافة، وهي جميعها آيات نزلت قبل يوم الغدير -كما هو معلوم-.

نعم ، إن الرسول ﷺ لا يحتاج إلى التصريح بمثل هذا الضمان الإلهي له ولرسالته ، وما كان هذا التصريح ليزيده علما به ، إلا أن عظمة الموقف مرة أخرى ، وجلالة الأمر المنزل فيه ، مما يستوجب مثل هذا التصريح ، لا للرسول نفسه أيضا ، وإنما للبشرية كافة من خلال شخصه الكريم ، ليكون ابلغ في التأكيد ، وأجدى في وضع النقاط فيه على الحروف أمام بصائر الناس على مر العصور ، حيث يحسن طرح هذا التعهد الإلهي ، كعنصر خاص ، وفريد ، من عناصر القوة الربانية ، التي تحتاجها رسالة محمد ﷺ في قيامها في البشرية ، وقيام حجة الله (تعالى) بها على العباد ، ولتثبيت من يحتاج إلى التثبيت من الأمة المسلمة، وقطع جميع السبل أمام طمع الطامعين في النيل من قدس الرسول ﷺ ، ومن عظمة رسالته الخالدة ..

.. عظمة الرسالة ككلٍ مجموع ، وعظمتها في كل حقيقة من حقائقها .. بل وعظمتها في نفس الوِلاية التي أعلنها الرسول ﷺ في يوم الغدير ، فلا شك أنها كانت -وبدلالة هذا الإعلان نفسه- إحدى الحقائق الكبرى في تلك الرسالة ، وواحدة من أبعادها المهمة .

ولهذا فما كانت لتتم العصمة الإلهية لهذه الرسالة ، ولا للرسول ﷺ كذلك لو أمكن لأحد من مرضى النفوس أن يبلغ من هذه الولاية مطمعاً ، أو نال من الشخص الذي انتجبه الله (تعالى) لها منالاً .

الفصل الرابع

الرسول ﷺ والولاية

من ذلك الأمر الرباني الصريح للرسول ﷺ بتبليغ ما انزل إليه من ربه، ومن هذا التهديد المشعر بعظم شأن الولاية في دين الله ، ومن هذا التعهد الصريح أيضاً بعصمة الله العزيز الحكيم للرسول ﷺ من الناس، ينبثق موفق الغدير ...

ومن علم الرسول ﷺ بعظم المسؤولية التي ألقيت على عاتقه ، ومعرفته بالنتائج والآثار التي ستترتب على إعلان الولاية ، وأخذ البيعة بها من العالمين .. يمضي ﷺ بالوفاء بالأمر .

(فسألت جبرائيل أن يستعفي لي ربي ، لعلمي بقلة المتقين ، وكثرة المؤذين لي واللائمين لكثرة ملازمتي لعلي ، وشدة إقبالي عليه حتى سموني إذناً..) ، -كما في الرواية السادسة السابقة عن زيد بن أرقم- .

وفي رواية أخرى : (إن الله أرسلني برسالة ضاق بها صدري ، وظننت أن الناس مكذبيّ ..[1]) .

وفي رواية ثالثة : (رأيت الناس حديثي عهد بالجاهلية ، ومتى أفعل هذا يقولوا : صنع هذا بابن عمه[1]) .

وواضح أن حذر الرسول ﷺ وتخوفه هذين ، إنما يردان في سياق

---

(١) الغدير – ج : ١– ص : ١٥١ ، عن الحمويني في فرائد السمطين – السمط الاول – الباب الثامن والخمسون .

(١) المصدر السابق –ج : ١– ص :٥٠– عن العديد من مصادره .

تحذير الآية المتقدمة ، وتصريحها بالضمان الإلهي لعصمته من الناس .

فكما كان المقصود هناك بيان عظمة الأمر المنزل من خلال ذكر عظمة نتائجه في دين الله -سبحانه-، فكذلك مقصود الرسول ﷺ في إبراز هذا الحذر والتخوف قبل إعلان ذلك الأمر ، وتبليغه إلى الناس .

فهو إشعار للأمة بجلالة هذه الولاية ، وبضرورة أن تلقى فيها كلمة الله (تعالى) على البصائر ، وأن تقام بها حجته على العقول ، مع غض النظر عما يتخذه الناس من مواقف إزاء تلك الكلمة ، وهذه الحجة ، بل وإن كانت السلبية والعناد متوقعين من عامة الناس في تلك المواقف.

فالرسول ﷺ -وكما هو معلوم عنه لم يفاجأ بهذه الولاية في يوم الغدير خاصة ، ولم يكن علمه بحقيقتها ، وموقعها في دين الله (تعالى) ، ودورها في وجوده ، وقيام حجته ، وليد تلك الساعات أو الأيام التي سبقت موقف الغدير فحسب .

كما لم يكن ﷺ غافلا عما يحمله مرضى النفوس -من الناس عامة، ومن أصحابه خاصة- من انحراف عميق عن نهج الحق .

ولا غافلا عن مطامع قسم منهم في تسلم مراكز عليا في المجتمع المسلم ، وأمانيهم في التسلط على مقدرات الأمة .

ولا جاهلا بتلك الدخائل السوداء التي يستشعرها لدى بعضهم في النيل من قدسه ﷺ وقدس رسالته ..

كما لم يكن بعيدا عما يحمله الحاقدون على علي عليه السلام خاصة من إحن وضغائن كان من أسبابها مواقفه الحاسمة المعروفة في الصراع بين الحق والباطل ، ودوره المتميز في إرساء دعائم الإسلام ، وكسر شوكة الكفر والظلم التي جوبه بها الرسول ﷺ وإظهار أمر الله بين العباد ، وإعلاء كلمته ولو كره المبطلون .

أفهل كان رسول الله ﷺ لا يعلم عن ولاية علي عليه السلام ، وهو الذي رأى ليلة أسري به إلى السماء ما كان مكتوبا على أبواب الجنة الثمانية : (لا اله إلا الله . محمد رسول الله . علي ولي الله[١]) ؟ .

كما أنه ﷺ قرأ هذه الكلمات على أوراق الجنة أيضا [٢] ؟ .

وهل كان ﷺ يجهل هذه الولاية وهو الذي يقول : بأنه وعلياً كانا (نورا بين يدي الله –سبحانه- قبل أن يخلق آدم عليه السلام بأربعة عشر ألف عام ، فلما خلق الله آدم قسم ذلك النور جزأين) . فكان هو ﷺ جزءاً، وكان علي عليه السلام جزءا [٣] ؟ .

وهل أنه ﷺ كان يجهل هذه الولاية وهو الذي كان يصرّح بأن عليا منه وأنه من علي ، وأن عليا من طينته، كما خلق هو ﷺ من طينة إبراهيم عليه السلام وهو أفضل من إبراهيم [٤]؟ .

وهل ..؟ وهل ..؟ ، ولا أطيل في اقتباس النصوص الواردة عن الرسول (ﷺ) فهي أكثر وأوضح من أن تحتاج إلى اقتباس .

كلا .. أبداً ، ما كان الرسول ﷺ قد فوجئ بهذه الولاية في يوم خم، كما لم يفاجأ بها في يوم من الأيام ، لأنه ﷺ لم يكن يجهلها في يوم من الأيام ، ولم تغب عن ذاكرته يوما من الأيام ..

وما أكثر ما كان ﷺ يملي هذه الولاية الكبرى على الأمة ، ويبين فضل صاحبها على الأشهاد !! .

---

(١) إحقاق الحق وإزهاق الباطل ، تحقيق السيد شهاب الدين المرعشي – ج : ٥– ص : ١٢٨– عن (در بحر المناقب) ص : ١٢١– (مخطوط) . ن : المكتبة الإسلامية – طهران .

(٢) المصدر السابق – ج : ٥– ص : ٢٨١– عن (در بحر المناقب) ص : ٣١ ، وغيره .

(٣) فضائل الخمسة من الصحاح الستة وغيرها _ ج : ١– ص : ١٦٨– عن العديد من مصادره .

(٤) مجمع الزوائد للهيثمي – ج : ٩– ص : ١٢٨.

وما أكثر المناسبات التي كان ﷺ يصرح بهذه الولاية ، ويبين فيها المعنى المطلوب له في هذا المنصب العظيم ، ودلالاته في مسؤوليته المسلم تجاه ربه ، وتجاه دينه !! .

فمنذ الأيام الأولى التي حمّله الله فيها مسؤولية الصدع بهذه الرسالة كان ﷺ يستغل كل مناسبة، وينتهز كل فرصة ليتخذها منبراً لهذه الغاية.

.. فمنذ أن نزل عليه قوله (تعالى) –في بداية الدعوة–: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ.[1]﴾ نهض ﷺ فأعلن –مع هذا الإنذار– ولاية علي عليه السلام رديفة ملازمة لرسالته ، وكمالاً لها ، وأصلا من أصولها ، ويبين عمق الرابطة الوثيقة بين مهمته هو ﷺ –كصادع أول بهذه الرسالة العظمى– ومهمة علي عليه السلام من بعده –كوصي أمين عليها–:

(يا بني عبد المطلب ! إني قد جئتكم بما لم يجئ به أحد قط .. –إلى أن يقول ﷺ –وقد مد يده–: من يبايعني على أن يكون أخي وصاحبي ووليكم من بعدي ؟ . فقال علي عليه السلام : فمددت يدي وقلت : أنا أبايعك . فبايعني على ذلك[1]) .

وبقي رسول الله ﷺ يؤكد هذه الولاية ، والحقائق التي تكتنفها طول أيام رسالته ﷺ ، وقد حفظت لنا كتب السيرة ومصادر الحديث الكثير من تلك التأكيدات في العديد من المواقف ، والمناسبات الخاصة والعامة : (أنت ولي كل مؤمن بعدي) ..

(وأعطاني انك ولي المؤمنين من بعدي) ..

(إن عليا مني و أنا منه ، وهو ولي كل مؤمن بعدي) ..

---

(١) الشعراء : ٢١٤.

(١) كنز العمال ج : ٦– ص : ٤٠١ ، عن ابن مردوية .

(وإنه وليكم بعدي)..

وهكذا ، وما أكثر الروايات التي وردت فيها الولاية بهذا اللفظ صراحة ، فضلا عما ورد في معناها ، وسيأتي -إن شاء الله (تعالى)- مزيد من هذه الروايات في مباحث لاحقة .

نعم ، لم يكن الرسول ﷺ ليفاجأ بولاية علي عليه السلام ، ولم يكن جديد عهد بموقعها الخاص من دين الله ، ومن قيادة ركب الأمة المسلمة من بعده ، إلا أن الرهبة في الأمر المنزل في موقف الغدير ، وتهيّب الرسول ﷺ من إعلانه ، إنما كانا بسبب كونه دخولا في مرحلة جديدة من مراحل الرسالة ذاتها ..

فالموقف كان ممهداً لفعلية بروز هذه الولاية وصاحبها في موقع الصدارة من قيادة الأمة ، والمباشرة في حمل أعبائها ، والتصدي لرعاية شؤونها .. وهي نقطة انعطاف مهمة ، يجب أن يؤخذ كل شيء فيها بالحسبان ، لتقام بها الحجة كما أقيمت بالرسالة ذاتها ، لا في ذلك العصر فحسب ، وإنما في كل العصور، وحتى يوم القيامة ، إذ هو الزمان الذي أعدت له رسالة محمد ﷺ..

.. انه -باختصار- عقد بيعة ، وأخذ عهد .

وهكذا ، فبينما كانت هذه الولاية تتحمل مسؤولياتها في كنف الرسالة وتحت ظلالها .. وبينما كان علي عليه السلام يمضي في مهماته تحت رعاية الرسول (ﷺ) وبإشرافه ، إلا أن يوم الغدير هو اليوم الذي يهيئ له البدء بالاستقلال بحمل أعباء القيادة ، والمواجهة في التصدي للمهمات ، ومقابلة الأحداث . وهي مرحلة لها دورها الأساس في ديمومة وجود الرسالة المحمدية ، وخلود حجتها ، كما كانت بعثته هو ﷺ إنشاءً لكيانها في واقع الإنسان ، وقيام صرحها في هذه الحياة .

فطبيعي حينئذ أن تنال الولاية -جراء تلك الأهواء والمطامع والضغائن- نفس ما نالته الرسالة ذاتها من مضايقات لما كانت في مراحلها الأولى ، وطبيعي أن يقف أمامها مرضى النفوس نفس مواقفهم المكابرة ، المعاندة للرسالة .

فتخوف الرسول ﷺ وحذره لم يكونا -كما قلت- لسبب يعود إلى ذاته ، فكيانه متقوم برسالته ، ومن أجلها بذل كل غال ونفيس ..

.. ولم يكونا لسبب يعود إلى كيان الرسالة ، فهي -في نفسها- هدى الله وبصائره التي يستحيل أن يتطاول عليها المتطاولون ، أو ينال من إشعاعها النائلون ، وإنما كانا منه ﷺ لعلمه بنكث من سينكث من أمته، وبزيغ من يزيغ من أناس ألجأتهم الأيام إلى إعلان الطاعة ، وإظهار الإسلام ، دون رصيد ثابت من الإيمان الصحيح ، والاعتقاد العميق ببصائر الله وكلماته .

ولكن كلمة الحق -وكما أشرت- يجب أن تقال ، وحجة الله يجب أن تبلّغ ، فما كان رب الأرباب ليمنع لطفه ورحمته لإرضاء فئة ضالة من الناس ، وما كان ليقطع رحمته عن البشرية من أجل أهواء جماعة كفرت بأنعم الله ..

(فلم يرض إلا بتبليغي فيه) -كما في رواية زيد بن أرقم- .

(يا أيها الناس ! إن الله أرسلني إليكم برسالة ، وإني ضقت بها ذرعا ، مخافة أن تتهموني وتكذبوني ، حتى عاتبني ربي فيها ، بوعيد أنزله عليّ بعد وعيد ..[1]) .

---

(١) شواهد التنزيل لقواعد التأويل ، للحاكم الحسكاني الحذاء الحنفي النيسابوري – تحقيق محمد باقر المحمودي ص : ١٩٣.

الفَصْلُ الخَامِسُ

ممّهدات وقرائن ومعقّبات

من الطبيعي أن يمتثل الرسول ﷺ ما أمره الله (تعالى) به ، فيعلن هذه الولاية على الأشهاد ، ويصدع بها بعد أن استجمع لها كل ما كان من شأنه أن يقيم حجة الله فيها على العباد ، وبعد أن مهد لها بكل ما يوجب الخلود الأبدي لهذه الحجة مع بقاء دين الله وخلوده .

نعم ، فما كان ذلك الأمر الرباني الصريح ، وما كان هذا الاهتمام الكبير من القرآن ، ومن منزله العظيم (تعالى شأنه) ، وهذا الإعداد الدقيق من الرسول ﷺ ، وضمان الله له بعصمته من الناس ..

ما كان كل هذا من أجل حالة آنية مؤقتة ، ستنتهي في فترة قصيرة من الزمن ! وسيتلاشى أمرها دون أبدية الرسالة المحمدية ذاتها ، وقيام حجة الله بها على العباد .

وبهذا يظهر ما في كلمات بعض الباحثين من الوقوف بما جرى بُعَيد وفاة الرسول ﷺ عند حدود التأريخ ، ومحاولة حصر آثاره في حدود ذلك الزمان وحده ، إذ يرون أن هذه المعالجة تمنع من جر ذلك الاختلاف الحاصل حينها إلى العصور اللاحقة ، ولاسيما الحاضرة منها، حيث ينبغي فيها رأب الصدع بين أبناء الأمة المسلمة ، ورفع دواعي الاختلاف بينهم .

وفات هؤلاء أن الحق أحق أن يتبع ، وأن بالحق وحده يرأب

الصدع ، وبموازينه الثابتة يرفع الاختلاف .

فالقران نفسه يصرح بأن هذه الرسالة لا يتم تبليغها من الرسول ذاته إلا بتبليغ الولاية ..

وأن كمال الدين ، وتمام نعمة الله (تعالى) على العباد بالإسلام لم يتحققا إلا بالصدع بها .

وكلتا القضيتين -كما نراهما- مطلقتان ، لا يحددهما إلا حدود الرسالة المحمدية ذاتها ، في الزمان أو المكان ، أو المراحل الحضارية المتعاقبة .

ولهذه فحين نرى في حدود رسالة محمد ﷺ من الاستيعاب ما رسمه مثل قوله (تعالى) : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .[1]﴾ .

ومثل قوله (تعالى) : ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ .[2]﴾ .

أقول : إننا حين نرى مثل هذا الاستيعاب البشري والزماني في رسالة محمد ﷺ ، نعلم -حينئذ ، ودون ريب- أن هذه هي حدود الولاية أيضاً وأنها ماضية مع الوجود البشري كله على سطح هذه الأرض ، وحتى يوم القيامة . ولهذا -ومن أجل تلك السعة وهذا التخليد للولاية وإعلانها-اختار الرسول ﷺ لتبليغ الأمر بها اجتماع الحاج معه من مختلف بقاع الوطن الإسلامي في ذلك العهد ..

.. فكما يقول ابن الجوزي : كان مع الرسول عليه السلام من الصحابة

---

(١) سبأ : ٢٨.

(٢) الأحزاب : ٤٠ .

ومن الأعراب ، وممن يسكن حول مكة والمدينة ، مائة وعشرون ألفا ، وهم الذين شهدوا معه حجة الوداع ، وسمعوا منه هذه المقالة [(١)].

فهذا الجمع الكبير الوارد من أطراف البلاد الإسلامية في ذلك الحين كان أجدى السبل الممكنة -وقتها- في نشر هذا الإعلان بين الأمة، بل وضمان تواتره الخالد في التأريخ ، دون أن يضعف قيمته العلمية القطعية تسلسل وسائط النقل في أي عصر من العصور ، بمعنى أن يصبح هذا الإعلان ، وموقف الرسول ﷺ به من البدائه الإسلامية المتواترة مع الأجيال حتى الأبد .

ولهذا السبب أيضا ، فقد اختار ﷺ من الزمان وقتا يفترق فيه هذا الجمع الكبير ، بعد أن لبى كل فرد منه نداء ربه بالحج الأكبر ، وبعد أن استغفر الله (تعالى) منهم من استغفر من ذنوبه ، فنقت الذمم من أوضار الآثام، وتزكت النفوس من أدناس الخطايا ، وكفّرت عن سيئاتها ، فكانت اقرب إلى استماع كلمة الله (تعالى) ، وأدنى لفهم حجته ، ومعرفة بصائر هداه ..

كما اختار ﷺ من المكان غدير خمّ ، قرب الجحفة -حيث مفترق السبل بذلك الجمع ، فمن ذلك المكان يتجه كل فريق إلى أهله- ليكون هذا الموقف الفريد ، وما جرى فيه من المشاهد ، هو الحدث الأخير الذي ينهي اجتماع ذلك الجمع الغفير ، قبل أن تستطيع الأهواء ودسائس النفاق صنع شيء ما ، يمكّنها من التدخل في نصوع الهدى بهذه الأمانة الكبرى ، التي سيحملها كل حاج إلى ذويه ، والتي سيؤديها -من ثم-كل جيل إلى من بعده من أجيال الإسلام ، إلى يوم القيامة.

---

(١) الغدير – ج :١– ص : ١٢– عن الخوارزمي في المناقب –ص : ٩٤ .

وهو اختيار دقيق -ولا ريب-، وفيه تبدو دلائل الرعاية الإلهية الخاصة بوضوح ، حين قرنت بين هذا الاجتماع الحاشد والزمان والمكان ، وما اكتنف الموقف كله من ظروف مناسبة لتحقيق تلك الغاية الكبرى .

ولم يكتف الرسول ﷺ بالاعتماد على القرائن التي تعبّر بها هيئة الموقف هذه ، وهي قرائن كافية -ولا ريب- حين تصفو النفوس من الأدران، وحين يكون التطلع إلى الحق هو الهدف الوحيد للعقول .

إلا أن الرسول ﷺ كان يعلم أن الأحقاد التي يحملها البعض ، ممن كان حاضراً ذلك المشهد ، كانت أشد من أن يكتفى معها بمثل هذه القرائن وحدها ، وان الضغائن كانت أعمق من أن تسمح لتلك النفوس باتباع دلائل الهدى فيها .

وهو ﷺ كان يعلم أن للباطل صراعه الأبدي مع الحق ، وأن له نزواته المتجددة التي تترصد المنافذ والثغرات التي تمكنها من النفوذ في دلالة كل كلمة، وكل إشارة ، من أجل أن تنال من قدس ذلك المشهد ، وأن تنحرف بالبصائر عن هداه ..

وحينئذ كان لابد له ﷺ -وهو الحكيم العارف بدخائل الأمور- من أن يجعل في كل ما يصدر عنه في إعلان الولاية من عمل ، وما يقوله من كلمة، دليلا واضحا على ما يقصده فيه ، وأن يضع في كل منها بينة تقطع الطريق أمام تطاول المتطاولين ، وتشدق المتشدقين ، ومنعهم من أن يؤثّروا في جلاء مراده في كل ما يقول وما يفعل ، أو يؤثروا في وضوح حجة الله فيه ، سواء في عصره ذاك أم في مستقبل الزمان ، ما دام للغدير دوره في دين الله على امتداد رسالته ، وما دام لولايته موقعها الخاص بين حقائقه الكبرى .

❁ ❁ ❁

و هكذا نرى أن الرسول ﷺ يبدأ في إعلان ولاية علي عليه السلام من خلال استثارته لأعماق النفوس ..

نعم ؛ أعماق النفوس، ليضع الولاية في هذه الأعماق ذاتها أيضاً.

ولهذا فهو ﷺ -وقبل صدعه بالأمر- يستعلم الجمع الذي يقف أمامه -بل ويستعلم جميع حاملي كلمته على مر الزمان من خلال ذلك الجمع- عن موقفهم من ذاته المقدسة ، ليشهد الله ، ويشهد أنفسهم على أنفسهم ، ويشهد العالمين بأجمعهم عليهم ، بأنهم قد علموا انه قد أدى إليهم أمانة الله -كما هي- ، وأنهم يعلمون -حق العلم- بأنه قد بلّغ رسالته إليهم دون تهاون ، وانه وضع مسؤولياتهم في أعناقهم ، وأن هلاك من يهلك منهم كان عن بيّنة ، وأن حياة من يحيا منهم كان عن بينة - أيضاً- .

(أيها الناس ، قد نبأني اللطيف الخبير : أنه لم يعمر نبي إلا مثل نصف عمر الذي قبله . وإني لأظن أن يوشك أن أدعى فأجيب ، وإني مسؤول وأنتم مسؤولون ، فماذا أنتم قائلون ؟) .

(فانه لم يكن لنبي من العمر إلا النصف من عمر الذي قبله ، وأن عيسى ابن مريم لبث في قومه أربعين سنة ، وإني شرعت في العشرين ، ألا وإني يوشك أن أفارقكم ، ألا و إني مسؤول وانتم مسؤولون فهل بلّغتكم ، فماذا انتم قائلون ؟) .

ومن الطبيعي أن يجيبوا بالإيجاب ، وهم يعلمون من جهد الرسول ﷺ معهم ، وعنائه -في سبيل إبلاغهم هدى الله وبيناته- ما يعلمون ..

(نشهد أنك عبد الله ورسوله ، وقد بلّغت رسالته ، وجاهدت في سبيله ، وصدعت بأمره ، وعبدته حتى أتاك اليقين ، جزاك الله خير ما

جزى نبياً عن أمته) .

إنها مقدمة جيدة ، وبراعة استهلال رائعة ، تكفي لتهيئة هذه النفوس ، وإعدادها لاستماع كلمة الرسول ، وحمل أمانة الله الكبرى فيها .

❁ ❁ ❁

ولكن هاهنا ملاحظة مهمة حريّ بالرسول ﷺ أن يأخذها بالاعتبار في هذه التهيئة والإعداد ..

.. ملاحظة منشؤها الموقع الخاص لولاية علي عليه السلام في كيان الإسلام ، ودورها الأساس في قيام صرحه .. إذ لابد أن يبلغ التهيؤ والاستعداد في النفوس إلى الدرجة التي تمكّنها من حمل مسؤولية الولاية من خلال هذا الموقع ، وهذا الدور بالذات ، وليس من درجات أدنى .. لتكون هذه الدرجة العليا هي المنطلق -كذلك- في فهم هذه الولاية والاعتقاد بها، وحمل ما تستوجبه من مسؤوليات كبرى في حياة الإنسان.

(ألستم تشهدون أن لا اله إلا الله ، وأن محمد عبده ورسوله ، وأن جنته حق ، وأن ناره حق ، وأن الموت حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور ؟) .

(ألستم تشهدون أن لا اله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن الجنة حق ، وأن النار حق ، وتؤمنون بالكتاب كله ؟) .

وطبيعي أن يجيبوا بالإيجاب ، فهي الأصول الإسلامية الأولى ، التي بني عليها كيان الإسلام ذاته ، وأقيمت عليها عقيدته : (بلى ، نشهد بذلك) .

نعم ، إنها الأصول الإسلامية الأولى يشهدهم بها الرسول ﷺ ، ليوحد بين أجوائها وأجواء الموقف الذي يقفه بينهم ، وليشعرهم بأن ما

يريد قوله أمامهم إنما يقع ضمن هذه الآفاق أيضا ، وليس هو في درجة أدنى من هذه الأصول في بنية الإسلام وكيانه ، وأن ولاية علي عليه السلام هي الامتداد الطبيعي لعقائده الأولى هذه ، وأنها أحد أركانه الثابتة التي يعتمدها في قيام صرحه ، كما يعتمد أياً منها ..

فكما لا إسلام بدون عقيدة التوحيد أو النبوة أو المعاد ، فكذلك لا إسلام بدون هذه الولاية : (وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته) .

وما كانت شهادتهم تلك إلا تأكيداً منهم بأنهم قد علموا هذا القصد منه صلى الله عليه وآله وسلم ، وفهموا مراده .

❁ ❁ ❁

وملاحظة أخرى جدير بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم أن يلفت إليها الأنظار في هذه التهيئة -كذلك-.

وهذه الملاحظة تعتمد على ما تعنيه هذه الولاية في طبيعة التزام المؤمن بدينه ، ومدى إذعانه لحجته ، وحدود تسليمه لقيادته الإلهية المصطفاة ، وهي -كما نعلم- حدود مطلقة يجب أن لا تحدها ذاتيات ، أو تقف بها اعتبارات أو مصالح دون الإذعان التام للحق ، والانقياد الشامل لدلائله ، والخضوع لحجته ..

﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ..[1]﴾.

﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً .[2]﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ ..[3]﴾ .

---

(١) الأحزاب : ٦ .

(٢) النساء : ٦٥ .

(٣) النساء : ٥٩ .

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ.(٤)﴾ .

إذن فتهيئة الرسول (ﷺ) للنفوس إلى ما يريد إعلانه ، يجب أن تستوعب هذه الناحية أيضا ، لتدرك البصائر أن الأمر المعلن يستوجب منها هذا المدى من المسؤولية والتسليم أيضا .

(ألستم تزعمون أني أولى بالمؤمنين من أنفسهم ..؟) .

(أيها الناس ، أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم ليس لهم معي أمر) .

(أيها الناس أن الله مولاي ، وأنا مولى المؤمنين ، وأنا أولى بهم من أنفسهم) .

ومن الطبيعي أن يجيب الجميع بالإيجاب كذلك ، فهذا ما صرح به القرآن كتاب الله ، وأذعنوا به حين آمنوا بأنه رسول الله ، وأنه يؤدي إليهم رسالته ، ويبلغهم كلمته ، ويقيم حجته ، ولا ريب أنهم قد قرؤوا الآيات الكريمة السابقة مرات ومرات ، وفهموا معناها دون التباس ، ولو من خلال بيان الرسول ﷺ له .

وواضح ما تعنيه هذه الملاحظة في غلق أي منافذ للريب في النفوس -حين تخلص بنيّاتها إلى الحق- .

فمن غير الممكن أن يشك ذو بصيرة معها في مدلول كلمة الولاية أو يرتاب في شيء من مشتقاتها الواردة في إعلان الرسول لها يوم الغدير، فهي كلها تحتم أن لا يختلف هذا المدلول عن تلك الولاية التي جعلها الله -سبحانه- للرسول ﷺ وأولويته بالمؤمنين من أنفسهم ، وإن ذكر اللغويون ما ذكروه لهذه الكلمة من معان ، شرّقوا بها أو

---

(٤) آل عمران : ٣١ .

غربوا، إذ لنفس الموقف حكمه الجازم ، وللسياق قرائنه القطعية في تعيين المراد منها .

ومن هنا كانت هذه الملاحظة -وهي تروى ضمن حادثة الغدير- إحدى القرائن الأبدية الخالدة في تعيين ما أراده الرسول ﷺ من هذه الولاية دون سواه ..

❁ ❁ ❁

لباب الموقف

ثم .. ثم يصدع الرسول ﷺ بما أمره الله (تعالى) به ، ويعلن هذه الولاية الكبرى ، ويعين وليها العظيم عليه السلام .. ويقرر موقعهما الخاص في دين الله ، وما يستوجبانه من مسؤوليات في أعناق البشرية .

(من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله ، وأدر الحق معه حيث دار) .. يقول ذلك ثلاث مرات -كما في الرواية السابقة عن زيد بن أرقم-، وفي لفظ أحمد أربع مرات [١] .

إذن فالولاية هي لباب الموقف كله -كما هو واضح- وإعلانها والبيعة بها هما الهدف الذي تتمحور عليه جميع تلك المقدمات والممهدات والاستعدادات التي أشرنا إلى بعضها .

إن لعلي عليه السلام ولاية كولاية الرسول ﷺ في دين الله ، وفي القيام على أمره، وفي قيادة الأمة ..

كما أن له ولاية كولايته ﷺ في اعتقاد الإنسان المسلم ، وفي مسؤولياته وانقياده المطلق لله (تعالى) ، حين يريد أن يكون -بحق-

---

(١) الغدير : ج : ١ - ص : ١١، عم يذكره من المصادر .

مسلماً ..

ولنقف هنا مع إعلان الرسول ﷺ عند هذه الولاية -فحسب-، فهي النقطة الجامعة التي اتفقت عليها روايات مشهد الغدير ، ولا نتصدى في هذا الموقع من الحديث إلى دلالة هذه الولاية على منصب الإمامة ، أو الخلافة بعد الرسول ﷺ ، أو غيرهما مما تستلزمه الولاية الإسلامية ، فهذه أمور لا تدخل ضمن منهجنا ..

نعم ؛ من الواضح أن هذه الولاية -بمعناها الإسلامي- هي لباب تلك المناصب جميعاً ، وهي محور مفاهيمها وحدودها كافة ، ووسمها بالطابع الإسلامي الخاص ، ولا يمكن أن تصبح الخلافة أو الإمامة ذات معنى إسلامي صحيح ، ما لم تكن الولاية التي أقامها القرآن ، وأعلنها الرسول ﷺ هي المقوم الأساس فيها ، وما لم يتسنم نفس ولي الأمر الذي اصطفته العناية الربانية موضع القيادة فيها ..

على أن الرسول ﷺ نفسه لم يغفل ذكر تلك المناصب أيضا في إعلان الغدير .. فكما قرأناه في الرواية السادسة عن زيد بن أرقم ، أنه ﷺ قال :

(معاشر الناس ، هذا أخي ، ووصيي ، وواعي علمي ، وخليفتي على من آمن بي ، وعلى تفسير كتاب ربي ... اللهم إنك أنزلت عند تبيين ذلك في علي (اليوم أكملت لكم دينكم) بإمامته ، فمن لم يأتم به ، وبمن كان من ولدي من صلبه إلى يوم القيامة فـ (أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ .[1]) .

ونضيف هنا أنه -وكما هو الشأن في الولاية- فإن الروايات

---

(١) التوبة : ١٧.

الواردة عن الرسول ﷺ في كل واحد من هذه المناصب ، وتعيينها لعلي عليه السلام ، تتجاوز حدود التواتر ، ويراجع من يروم الاطّلاع على تلك الروايات كتاب (إحقاق الحق وإزهاق الباطل) للعلامة التستري المرعشي .

وعلى أي حال ، فمن الطبيعي حينئذ أن يستتبع إعلان الرسول ﷺ للولاية دعاءه بموالاة الله لمن والى عليا ، ومعاداته لمن عاداه ، ونصرته لمن نصره ، وخذلانه لمن خذله ، وإدارة الحق معه حيث دار ، فعلي ﷺ هو امتداد لمحمد ﷺ ، وولايته امتداد لرسالته ، فجدير أن ينالا من رعاية الله المباشرة وعنايته الخاصة ، ما ناله محمد ﷺ ورسالته من قبل ، وأن يكون لهما من تعهده -جل وعلا- ما تعهّده لمحمد ورسالته ، فبدون تلك العناية وهذا التعهد لا يمكن للغايات الربانية أن تتحقق بهذه الولاية ، ولا تستكمل الحكمة الإلهية أهدافها فيها ، وهذا محال .. كما هو واضح .

❁ ❁ ❁

لواحـــق للموقف

ويتم الرسول ﷺ هذا الإعلان بتعميمه عليا بعمامته (السحاب) ، لأن (العمائم تيجان العرب)[1] -كما قال ﷺ .

أو هي (الحاجز بين الكفر والإيمان)[2] ،-كما في حديث أخر عنه .

(إن رسول الله ﷺ دعا عليا يوم غدير خم ، فعممه وأرخى عذبة العمامة من خلفه[3]) .

---

(١) ابن الأثير في كتاب (النهاية) ، و الزبيدي في كتاب (تاج العروس) مادة ، (توج).

(٢) كنز العمال – ج :٢- ص : ٦٠- .

(٣) الغدير – ج : ١- ص :٢٦٤ ، عن الطبري في الرياض النضرة – ج : ٢- ص : ٢١٧ .

وعن علي عليه السلام قال : (عممني رسول الله ﷺ يوم غدير خم بعمامة ، فسدل نمرقها على منكبي ، وقال : إن الله أيدني يوم بدر وحنين بملائكة معتمين بهذه العمامة[٤]) .

ويختم الرسول ﷺ هذا المشهد العظيم بأمره للمسلمين أن يبايعوا علياً بالولاية ، ويصافقوه عليها ، ويهنئوه بمنصبه الإلهي الجديد ، ويقيم ﷺ في ذلك المنزل ثلاثة أيام حتى تمت التهنئة والمصافقة والبيعة من كل الذين حضروا ذلك الجمع الحاشد ...

(وسلموا على علي بإمرة المؤمنين ، وقولوا : الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله) .

ويضيف المؤرخ ابن خاوند شاه عند روايته لهذه التهنئة : (ثم جلس الرسول ﷺ في خيمة تختص به ، وأمر أمير المؤمنين عليا أن يجلس في خيمة أخرى ، وأمر أطباق الناس أن يهنئوا عليا في خيمته .

ولما فرغ من التهنئة له أمر رسول الله ﷺ أمهات المؤمنين بأن يسرن إليه يهنئنه ففعلن .

وممن هنأه من الصحابة : أبو بكر ، وعمر بن الخطاب ، حيث قال كلمته المشهورة : (هنيئا لك يا ابن أبي طالب ، أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة) .

(وبادر الناس بقولهم: نعم،سمعنا واطعنا على أمر الله وأمر رسوله بقلوبنا).

(وكان أول من صافق النبي ﷺ وعليا عليه السلام أبو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وباقي المهاجرين والأنصار إلى أن صلى الظهرين في

---

(٤) ن . م ، عن فرائد السمطين – ب : ١٢– و ابن الصباغ في الفصول المهمة – ص : ٢٧ .

وقت واحد ، وامتد ذلك إلى أن صلى العشاءين في وقت واحد وواصلوا البيعة والمصافقة ثلاثا) .

ويتم القرآن العظيم دوره في رعاية هذه الحقيقة الإسلامية الكبرى ،فيختم هذا المشهد العظيم بنفسه في آية الإكمال كما بدأه بنفسه في آية التبليغ :

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً ..[1]﴾ .

وهكذا تصبح الولاية -بتلك البداية وهذه النهاية- بعض حقائق القرآن ذاته ، بل وطابعا عاما يسم جميع حقائقه الأخرى بميسمه الرباني العتيد ، وركنا مقوماً يعتمده قيام حجته في كل أفق من أفاق الحياة .

---

(١) المائدة:٣ .

الفصل السادس

معنى الولاية في الغدير

هذه هي الملامح البارزة لموقف الغدير ، وهذه بعض مشاهده المهمة التي لم يستطع التاريخ تجاهلها ، بالرغم مما عرف عنه من مجانبة وتنكر للغدير وللولاية ولعلي عليه السلام جميعاً . فأورد جزءا منها هنا ، وجزءا هناك ، ومشهدا في هذا الحديث ، ومشهدا أخر في حديث ثان وهكذا .

وقد لاحظنا أن إعلان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لولاية علي عليه السلام والتزام القرآن لها مبدأ ومنتهى ، وضمان الله لها بعصمتها وعصمة الرسالة بها من الناس ، هي المحور الأساس الذي استقطب جميع تلك المشاهد والاهتمامات .

إذن فهل هناك -بعد كل هذا- مجال لتشكيك مشكك ، أو ريب مرتاب في معنى هذه الولاية ، أو في كلمة الولي أو المولى التي وردت في إعلان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم هذا ، كما يحلو للبعض أن يقول ؟؟!.

أمر حازم جازم من الله (تعالى) بتبليغ شيء أنزله على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم .

وربط صريح بين هذا الأمر وكيان الرسالة ذاتها .

وتحذير للرسول صلى الله عليه وآله بأن وجود الرسالة لا يتحقق بدون هذا التبليغ، وأنه ما لم يبلغ هذا الأمر لم يكن قد بلغ رسالة الله ذاتها ..

وأسند هذا الأمر والتحذير تعهد رباني خاص بعصمة الرسول من الناس في قيامه بهذه المهمة العظمى ..

ثم اهتمام بالغ من الرسول ﷺ نفسه ، ورعاية حكيمة منه ، تستجمع كل تلك القرائن الأبدية المخلدة لذلك التبليغ ولكل ما فيه من حدود ، ولقيام حجة الله فيه ، وتمهيد منه ﷺ في جعل هذه الولاية الكبرى مع أصول الإسلام الأولى ، ومع ولايته هو بالذات ، حيث جعله الله (تعالى) أولى بالمؤمنين من أنفسهم .

ثم تتويجه -بعد عملية التبليغ والتوثيق- بعمامته التي كان الملائكة -الذين أيدوه يوم بدر وحنين- يعتمون بها .

وأمره لعامة المسلمين أن يهنئوا عليا على ما أعلنه ﷺ له من منصب خاص في كيان الإسلام ، وقيادة الأمة ، ثم يبايعوه بإمرة المؤمنين ، ليأتي التصريح القرآني -بعد هذا كله- بأن الله قد أكمل الدين بهذه الولاية ، وأتم بها النعمة على العباد ، ورضاه الإسلام بها ديناً للناس .

ومع هذا كله تبقى كلمة الولاية مجملة ، غامضة المعنى ، لأن كلمة المولى موضوعة لعدة معان هي : الناصر والمحب وابن العم والمعتِق والمعتَق -بالكسر والفتح- .. الخ .

أفيمكن تصور هذا من ذي مسكة لاحظ ولو بعض هذه القرائن؟.

وهل يمكن لمؤمن أخلص دينه لله ، وانقاد إلى الحق في دلائله وحجته أن ينطقه بلسانه ، أو يحتمله في وعيه ؟! .

إذن فما معنى كل هذه القرائن ؟ .. وأين هي حكمة الرسول ﷺ، بل وأين هي حكمة الله (تعالى) التي واكبت هذا المشهد كله بالتسديد، وأعدت له كل هذه الإعدادات والرعايات الخاصة في كل خطوة من خطواته ..

نعم ، لتذكر كتب اللغة لكلمة المولى والولي والولاية ما شاءت أن

تذكر من معان ، ولتقل : إن تلك المعاني هي معان حقيقية وضعت لها هذه الكلمات أو المادة التي تجمعها ، إلا أن لأجواء الغدير ، ومجرياته الخاصة ، وقرائنه حكمها الصريح في تحديد معنى أوحد لها ، لا يدانيه أي ريب ..

إنه ولاية الأمر ، والأولوية بالتصرف ، وحكمة الله (تعالى) الذي أمر الرسول ﷺ بتبليغ هذه الولاية ، وحكمة الرسول ﷺ الذي اتخذ كل تلك القرائن في تنفيذ هذا الأمر هما المستند الأول في هذا التحديد .

فما معنى أن يرد الأمر الإلهي بتبليغ ما تعتمد عليه نفس الرسالة في وجودها ، ويحذّر الرسول ﷺ بان لا وجود لهذه الرسالة بدون هذا التبليغ ، ويعده بعصمته من الناس ؟ ..

وما معنى أن يوقف الرسول ﷺ -لإنفاذ أمر الله- كل تلك الجموع ، في هذا الوقت الحرج والمكان الشديد الحر ، حيث شدة القيظ، ووهج الرمضاء ، ويشهدهم تلك الشهادات العظام بالله (تعالى) ، وبرسالته ، وبالبعث والنشور والجنة والنار ، ويشهدهم على علمهم بمعنى ولايته هو ﷺ عليهم ، وأولويته بهم من أنفسهم ، ويشهدهم على علمهم هم بمعنى هذه الولاية ، ودلائلها وحدودها ، ليجيبوه هم -بدورهم- بالإيجاب ، ويعترفوا أمامه بكل ذلك .

.. هل كل ذلك من أجل أن يخبرهم قائلا : بأن من كنت ناصره فعلي ناصره ، أو من كنت محبه فعلي محبه ، أو من كنت ابن عمه فعلي ابن عمه.. أو غير هذا من المعاني التي ذكرت لكلمة المولى والولي والولاية ؟؟!.

ثم هو لأجل هذه المعاني يعممه بعمامته ، ويأمر المسلمين بالبيعة له، ومصافقته وتهنئته ، أو غير ذلك مما أمر به المسلمين ، وفعلوه في

ذلك المشهد الخالد ؟! .

فهل أن واحدا من هذه المعاني يتناسب وتلك الاهتمامات ؟ ..

وأي منها يعني كمال الدين ، وتمام النعمة ، ورضا الرب بالإسلام دينا للناس ؟ .

وأي هذه المعاني يستحق المصافقة ، والبيعة بإمرة المؤمنين ، والتهنئة والتتويج ؟ .

بل وأي من هذه المعاني هو المناسب لأمر الله وتشريعه ، ولمهمة الرسول ﷺ ، ودوره الخاص في تبليغ كلمة الله ، وإقامة حجته في هذه الأرض ؟..

وبالمناسبة فإني أتذكر حديثا لأحد أعلام الأمة –دام ظله– ألقاه في احد منتديات الغدير ، قال فيه :

(يذكر المسلمون جميعهم حديث الغدير على السواء ، ويتفقون على لفظه في الأكثر ، ثم تذكر له تأويلات متنافرة ، ترتسم عليها الأغراض ، وتبين فيها الغايات ، يقولون : إن المولى في الحديث بمعنى الناصر أو بمعنى المعتق ..

أسمعت أعجب من هذا ؟ .

يجمع محمد ﷺ سبعين ألفا[1] من المسلمين في حر الهجير ، وفي رمضاء الغدير ..

يجمع هذا الحشد العظيم في هذا الزمان ، وفي هذا المكان ، يستوقف الأول من الركب ، ويستلحق الآخر ، يجمعهم في هذا الصعيد الواحد ، ثم يرتقي المنبر التاريخي ، ويصعد عليا معه ، ويرفعه بيمينه حتى يبين

---

(١) سبق أن نقلنا عن ابن الجوزي روايته في أن عدد الجمع يومئذ كان مائة وعشرين ألفا .

للناس بياض إبطيه .. يصنع محمد ﷺ كل هذا ليقول : من كنت ناصره فعلي ناصره ، أو من كنت معتقه فعلي معتقه ..

إنها مهزلة من المهازل ، أو منقصة من النقائص ، يريدون أن ينحّوا عليا عن إمامته ، فيطعنون محمداً في حكمته) .

نعم ، إن مشاهد الغدير كلها ، وما أنزل فيه من آي الكتاب العزيز، وما جرى فيه من مواقف ، وما اعتمده الرسول ﷺ من قرائن ، وما قاله في بيان هذه الولاية .. كلها لتحتم أن تكون ولاية علي عليه السلام هي نفس ولاية رسول الله ﷺ التي جعلها امتدادا لولايته التكوينية على الخلق ...

وتحتم أن يكون مشهد الغدير هو إعلان الإسلام (لالتزامه) بهذا المنصب العظيم في نفسه ، وإسناده لعلي عليه السلام من بين الناس ، وانتجابه كقيّم على أمره ، وقائد للأمة بعد الرسول ﷺ ، ومثل شاخص لهدى الله في الأرض ..

تماماً كالتزامه للرسول محمد بن عبد الله ﷺ من قبل ، حين جعله القرآن أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، وشاهداً لدينه في هذه الحياة ، وشهيداً على البشرية ، وسراجاً منيراً في الإنسانية ، وأوجب طاعته على العباد ، والتسليم لأمره دون أدنى حرج في النفوس ..

وتحتم -كذلك- أن يكون موقف الغدير إعلاناً لعناية الله (عز وجل) بعلي عليه السلام وولايته ، ورعايته المباشرة لهما ، وتعهده لهما بالعصمة من الناس، وبلوغ الحجة بهما مدى القرون ، دون خلل بالحجة ، أو تفاوت في البينة كما تعهد -سبحانه- محمدا ورسالته في كل أولئك ..

وتحتم أن يكون موقف الغدير إلقاء لمسؤولية إلهية كبرى وجبت في

أعناق البشرية ، وإقامة لحجة الله عليها ، حين جعل من علي عليه السلام امتدادا لمحمد صلى الله عليه وآله، ومن ولايته امتدادا لرسالته العظمى .

فكان لابد للمؤمن أن يتعامل مع علي وولايته من نفس المنطلق الذي يتعامل به مع محمد صلى الله عليه وآله ورسالته وأن يضعهما جميعا حيث وضع هذين المفهومين في خضوعه لله ، وانقياده لأمره .

(أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم ليس لهم معي أمر ، وعلي من بعدي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ليس لهم معه أمر ..) .

وصدق جبرائيل حينما قال لعمر بن الخطاب -كما في روايته السابقة- : (يا عمر لقد عقد رسول الله صلى الله عليه وآله عقدا لا يحله إلا منافق) .

كما صدق ابن عباس حينما قال -بعد نقله لكلمة الرسول صلى الله عليه وآله في الولاية-: (فقد وجبت -والله- في رقاب القوم) .

والواقع أن الولاية -بهذا المعنى وحده- هي التي كان من شأن الرسول صلى الله عليه وآله إعلانها ، وتبليغها إلى الأمة كرسول عن الله (عز وجل) ، وقيم على رسالته الكبرى ، فغير هذا المعنى -مما ذكر لهذه الكلمة- لا يعني الرسول، ولا منصب الرسالة من قريب أو من بعيد .

ولهذا فإن هذا المعنى من معاني الولاية هو الذي فهمه أولئك المسلمون الذين حواهم ذلك الجمع الموجود في مشهد الغدير ، وعلى أساسه بايعوا وصافقوا الرسول صلى الله عليه وآله وعليا عليه السلام ، وهم يقولون :

(نعم ، سمعنا وأطعنا على أمر الله ورسوله بقلوبنا) ..

ولم يذكر التاريخ أن أحدا قد راجع الرسول صلى الله عليه وآله في معنى هذه الكلمة ليستوضح عن مدلولها ، أو اعترض عليه بأن المعنى المقصود لا يستحق هذا الاهتمام منه صلى الله عليه وآله ، أو غير ذلك مما يرد في هذا الإطار.

وهذا المعنى من الولاية هو الذي فهمه حتى أولئك الذين اتخذوا موقفاً سلبياً منها ومن موقف الرسول ﷺ : (..ثم لم ترض حتى رفعت بضبع ابن عمك ففضلته علينا) .

وأخيرا ، فالولاية -بهذا المعنى وحده- هي التي كانت -وستبقى أبد الدهر- النقطة البارزة في هذا المشهد الخالد ، والمحركة لتأريخ الإسلام والأمة الإسلامية ، مهما شرّقت الأهواء أو غربت ، ومهما حاولت الألسن التشدق والنيل منها ، فحجة الله البالغة بها قد أقيمت ، وكلمته العليا قد ثبتت .

ومن الولاية -بهذا المعنى وحده- تنطلق مناصب علي عليه السلام في دين الله (تعالى) ، وفي قيادة البشرية -معاً-، كالإمامة ، والخلافة ، وإمرة المؤمنين، وغيرها ..

ومنها كذلك تنطلق مسؤولية الأمة المسلمة في التولي لعلي ، والخضوع لمقامه الرفيع ، والتبعية لأمره ، وعليها يعتمد حساب الله (تعالى) للناس يوم الجزاء -كما سنعرف إن شاء الله- .

وهكذا فستكون الولاية -بهذا المعنى أيضا- هي منطلقنا في حديثنا هذا ومحاولتنا لفهم دلائل الالتزام الإلهي لها ، ولشخص علي عليه السلام ثم رؤية ما يترتب على الأمة من مسؤولية في حياتها ، واستمساكها بدين الله العظيم .

إذ أن التزام الإسلام للولاية ، ولوليها العظيم ، يعني ضرورة استيفائهما -معاً- لجميع الضرورات والخصائص الإسلامية العامة ، دون أدنى تفاوت ، فهي -وكما قلت في مباحث سابقة- قد أصبحت -بهذا الالتزام- حقيقة إسلامية ، يجب أن تستوعب جميع خصائص الإسلام ، وشرائطه الدخيلة في كل حقيقة من حقائقه ، لتتراءى فيها

وحدة الإسلام ، ووحدة الحق الذي يمثّله ، وغايات حكمة الله فيه ، إذ لا تفاوت في هذه الحكمة ، ولا عجز في قدرتها .

فكما أشرت في المقدمة ، من أن ملاحظة الولاية ، ووليها العظيم، من هذا المنطلق -بالذات- هي التي تمكّن الإنسان من الرؤية الصائبة لهما ، والاستقامة الحقيقية معهما ، ومع مقتضياتهما ، سواء في عالم التصور أم في الالتزام أم في السلوك ، وأي ملاحظة لا ترد ضمن هذا الخط هي اقصر من أن توفي متطلبات تلك الاستقامة كما يريده الحق ، وتتطلبه الموضوعية .

ونحن حين تطلّعنا إلى دراسة الولاية، والتعرف على شخصية علي عليه السلام من هذا المنطلق ، فإنما نهدف -قبل كل شيء- إلى مثل تلك الرؤية ، وإدراك هذه الاستقامة ، فهما مطمح طلبة الحقيقة ، ولاسيما في مثل هذه القضايا المصيرية الكبرى .

ويكفينا -لبلوغ هذه الغاية- أن نقف على شرائط الحق ، تلك التي استعرضناها من دين الإسلام ، لندرك امتدادها في علي وولايته ، لأن الإعجاز في تلك الشرائط كاف لأن يثبت كل ما يعنيه الاصطفاء الإلهي من دلائل ، وعنايات ربانية مباشرة ، في من تتوفر فيه من الأصفياء ، وما تتوفر فيه من الحقائق .

ونحن اشرنا إلى ثلاثة من شرائط الحق في الإسلام هي :

١- مطابقته للواقع التكويني الذي جبل عليه الإنسان والكون .

٢- الاستقامة المطلقة معه .

٣ - وضوح دلائله فيه .

ويمكننا هنا -وبعد أن نستوضح هذه الشرائط في حدودها الإسلامية البارزة- أن نتفهم مدى احتواء الولاية وصاحبها عليه السلام ، على كل واحد

منها، واستقامة هذه الخصائص الإسلامية فيهما ، كأتم وأسمى ما تكون الاستقامة .

نعم ، إن منهجة البحث هنا تستدعي منا تقديم الحـديث في عنـصر الوضوح من هذه الولاية قبل الشرطين الآخرين لاعتماد الحديث فيهما عليه ، وعلى ما فيه من دلائل دخيلة في مفهوميهما .

البَابُ الثَّانِي

الولاية والوضوح الإسلامي



تمهيد

لابد للتعرف على عنصر الوضوح الإسلامي في ولاية علي عليه السلام ، من البدء معها من المراحل الأولية لوضوح الحجة الإلهية التي صدعت بأمرها ، ومن اطراد خصائص الحق وشرائطه فيها -كما علمناه في المباحث المتقدمة-، لأن الحجة الإلهية في ولاية علي عليه السلام لا تختلف -في خصائصها- عن أي حجة لله أخرى ترد في أي حقيقة من حقائق الإسلام .

وهذا يستدعي أن تكون في الحديث سعة تستوعب هذه الحجة في إطارها الإسلامي العام ، لأن الوقوف عندها من خلال هذا الإطار - وان كان بنحو من الاختصار ، أو الأجمال السريع- أجدى في التمكين من إدراك صورة جامعة لاستيعابها لخصائص الحق في جميع مظاهرها وتجلياتها ، ثم امتداد هذا الاستيعاب إلى جميع الآفاق الإسلامية التي تنتهي إليها -بما فيها مفهوم الولاية الإسلامية ووليها-، فهي جميعها فروع تكتسب سماتها وميزاتها من تلك الأصول الأولى -كما هو معلوم- .

ولهذا كان لا بد من الانطلاق في متابعتنا لخصائص هذه الحجة من أولى حلقاتها الإسلامية الثابتة ، قبل ملاحظتنا لامتدادها في الحلقات الأخرى ، لما نعلمه من أن الغموض أو القصور في أي من تلك الحلقات الأولى عن استيعاب شيء من متطلبات الحق ، سينعكس -ولا ريب- في سلبياته على كل ما يستتبعه من حلقات وشؤون ، فالفرع تبع لأصله ، والنتائج تتبع أخس المقدمات (كما يقول المنطقيون) .

بل -وحين نلتفت إلى الموضوع من خلال ذلك التوحد العام في الكيان الإسلامي ، والحيوية التي تستوجب تكامل بيناته كافة -كما أشرنا أكثر من مرة- فان تلك السلبيات ستطال تلك البنيات الإسلامية بأجمعها ، ما سبق من حلقاتها وما لحق ، بعد ثبوت التزام الإسلام لها . وهذا محال ، بعد فرض أن الإسلام هو دين الحق ، وانه منزل من الله ، العليم القدير الحكيم .

ومن جهة ثانية ، ينبغي لنا نلتفت إلى استحالة أن ندرك وضوح الحق في هذه الولاية وشؤونها قبل أن نقف على مستلزمات هذا الحق في الحلقات السابقة التي اعتمدت هذه الولاية في وجودها ، وبيّنت دورها العظيم في دين الله .

ولابد لنا -ونحن بهذا الصدد- أن نعود إلى ما ذكرناه سابقا ، من حاجة المذهب الحق إلى المصدر الإلهي ، وان هذه الحاجة إنما كانت لقصور الإنسان ذاته عن الاستقلال في الإحاطة بواقع الأمور ، وعن إدراك مستلزماتها في وجود الإنسان وحياته ، وانتظام علاقاته المختلفة مع بارئه (تعالى) ، ومع ذاته ، ومع مختلف مظاهر التكوين الأخرى .

ولهذا فقد عجز أيضاً عن أن يضع لنفسه التصورات والمناهج المناسبة التي تكفل له الاستقامة مع ذلك الواقع ، ومع متطلبات الحكمة الربانية فيه ، حيث يعينه مفهوم الحق ذاته ، وحيث يستدعيه تحققه في سلوك الإنسان .

كما نعود أيضا إلى ما ذكرناه من أن الله (تعالى) قد قضى -للطفه الشامل بالعباد ورحمته الواسعة- بسداد هذه الحاجة للإنسان في الإسلام .. في دينه العظيم ، ليجعله ذلك المنهج ، والنور الذي يهيئ له البلوغ إلى غاياته تلك ، من أيسر سبيل وأهنئه .

ومن المستلزمات الواضحة لهاتين الملاحظتين : ضرورة أن يصبح وفاء الإسلام بحاجة الإنسان تلك ، وفاء عاماً لا تحدّه حدود ، دون حدود الإنسانية ذاتها ، ودون حدود أصعدة حياتها في هذه الأرض ، لأن قصور الإنسان نفسه عام شامل ، وحاجته إلى مذهب الحق عامة شاملة أيضا ، فكلاهما يستوعبان تلك الحدود أيضاً .

ومن هنا كان لابد أن تجعل الحجة الإلهية التي تأخذ بيد الإنسان في سبيل كماله عامة شاملة كذلك ، وبدرجة من الوضوح تمكّنها من أن تملأ الوعي الإنساني -حين يسترشد هداها في كل صعيد من أصعدة حياته ، وعلى أي حال-، إذ ما لم تكن بهذا المستوى لا تستطيع تحقيق أي من غاياتها في واقع الإنسان ، لأن أي غموض يكون فيها مما يغلق أمامها كل منافذ الوعي الإنساني -ولا ريب- .

ومن هنا كان وضوح هذه الحجة هو الأساس الذي يستند إليه الإسلام في تحقيق أي وضوح أخر يطلب منه ، في أي موقع من مواقعه، وفي أي رشد أو هدى يمليه .

فمن الوضوح في هذا الموقع ، وجلاء الوحدة ما بين الإسلام والحق ، يمكن أن يوحد كذلك ما بين الحق وأي حقيقة أخرى من حقائق الإسلام ، وأن يجعل هذا الحق قاعدة أساسية في أي أطروحة يقدمها الإسلام للإنسان وعلى أي صعيد ..

وغني عن البيان أن نشير إلى أن الوصول إلى هذا المستوى المطلق من التوحيد فيما بين الوضوح والحق والتشريع يعتبر من الخصائص الإسلامية الفريدة ، إذ هو مما يستحيل تحقيقه في غير دين الله من المذاهب والأديان ، لأنها تحتاج إلى اطراد شامل مع الواقع ، واستقامة مطلقة مع كل شأن من شؤونه ، وفي كل جزء من أجزاء المذهب أو

الدين ، وفي كل حقيقة من حقائقه الفكرية والتشريعية والسلوكية ، وهذا الاطراد مما لا يمكن توفره في غير الإسلام كما عرفناه سابقاً .

والآيات التي ذكرناها في فصول سابقة هي بعض الشواهد لعنصر الوضوح في الإسلام ، ويكفينا أن نستعيد هنا قراءة قوله (تعالى) :

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي..[1]﴾.

﴿.. قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ . يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ .[2]﴾.

ومعلوم من طريقة القران في بيانه أنه يتخذ من هذا الجلاء المعجز في ذاته، ووضوح بيناته لدى العقول والبصائر الإنسانية مستنداً لإيضاح مختلف الحقائق والمفاهيم والحدود الإسلامية .

وتتراءى هذه الطريقة القرآنية للباحث مع قليل من التأمل في نفس الآيات السابقة ، كما تتضح في التحدي القرآني بإعجازه الذاتي ، لينطلق -من وضوح هذا الإعجاز لدى البدائه البشرية- في بناء مفاهيمه وأحكامه التي يطرحها أمام العقول ، كأنها حقائق مفروضة الوجود .

ولا يستطيع أحد أن يشكل على القرآن في هذه الطريقة ، إذ أن النور كما هو جلي في نفسه ، هو منشأ للجلاء في أي شيء ينبثق منه ، وأي شيء ينعكس عليه .

وعظمة القرآن أنه لم يجعل إعجازه غاية بعيدة المنال للعقول ، يحتاج لإثباتها أن يقيم الأدلة التي قد لا يستطيع التعامل معها غير ذوي

---

(١) يوسف :١٠٨.

(٢) المائدة :١٥-١٦.

الاختصاص من الناس ، وإنما جعل إعجازه ظاهرة عامة ، يدركها الوعي ببداهته حين يتعامل معه بجد وتدبر ، ليتنامى هذا الإدراك مع كل درجة علمية ينالها الإنسان في مسيرته الحضارية ، ونضجه العلمي ، على مستوى الفرد أو على مستوى المجتمع .

ولا أفيض في الحديث حول هذه الناحية من دين الله ، إذ التفصيل مما لا يعنينا الآن ، وراء هذه الحدود العامة التي نريدها هنا ، على أن بعض هذا التفصيل سيردنا في فصل قريب -بعون الله- .

أما ما نريد قوله هنا فهو : أن اقرب السبل لرؤية وضوح الحق في ولاية علي عليه السلام إنما هو تتبع منابع هذا الوضوح في دلائل الإسلام وبيناته العامة ، وتسلسلها إلى حيث تستند ولاية علي عليه السلام ، وإعلان الرسول صلى الله عليه وآله لها في يوم غدير خم ، فمن وضوح حجة الله جل جلاله فيها ، يتضح مفهومها الإسلامي المطلوب ، وتتجلى أبعادها كافة ، كما تتضح جميع الشرائط ، والشؤون ، والمستلزمات ، والآثار التي تتعلق بها ، لا في حدود الآفاق الإسلامية خاصة ، وإنما في حدود ما يمليه الواقع في تطلع الإنسان إلى الحق ، وفي مسؤولياته الكبرى في اتّباع سبيله .

الفصل الأول

شواهد التصديق الإلهية

من الحلقات الأولى التي يتجلى بها وضوح الحجة الإلهية في دلائل الإسلام وبيناته كافة ، تلك الشواهد التصديقية التي يؤيد الله (تعالى) بها كلمته ، ويسند بها حملتها في هذه الأرض ، ويبين بها صحة انتساب تلك الكلمة والشخص الذي يصطفيه لإبلاغ حجتها إليه ، ورفع جميع الريب والشكوك التي يمكن أن ترد في النفوس السليمة حول هذا الانتساب .

فمع ما تحمله الدعوى الصادقة لهذا الانتساب من الدلائل الذاتية على صدقها ، بحيث أن النفوس السامية قد لا تحتاج إلى شاهد آخر وراء ما في ذاتها من أصول العلم بمكامن الحق ، وما في فطرتها من دلائل الهدى إليه ، لتدرك -وبدون أدنى ريب- صحة انتساب تلك الدعوى إلى الله (تعالى) ، لأن مثل تلك النفوس تشاهد النور في منابعه دون أدنى حاجة إلى دليل وراء تلك المشاهدة ، بل وهل هناك دليل أسمى من تلك المشاهدة ؟ .

إلا أن عموم حاجة الناس للهدى الإلهي ، وشمولها فيهم كافة ، مما يوجب إسناد تلك الدعوى ببعض الشواهد القاطعة ، التي تثبت صحة انتسابها لله جل جلاله لكل ذي بصيرة، وإن زاغ به الهوى عن استقامة الطريق، وتملأ بها كل وعي وإن قصرت به الصوارف عن إدراك النور في منابعه.

إذ ليست النفوس الإنسانية كلها بدرجة من الصفاء والاستقامة تمكّنها من أن تدرك الحق في ذات الدعاوى المحقة ، وإن لم يكن معها من الشواهد اللافتة ما يأخذ بالعقول إليها بشكل جازم لا ريب معه .

هذا في حين انه لابد أن تقام حجة الله على الناس كافة ، ليهلك من يهلك عن بينة ، كما يحيا من يحيا عن بينة أيضا .

﴿.. وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً .[١]﴾ .

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .[٢]﴾ .

كما لابد من الالتفات -أيضاً- إلى أن الساحة الإنسانية مملوءة بالدعاوى المختلفة ، المشرّقة منها والمغرّبة ، وكل منها يدعي أنه الحق الذي لا ريب فيه ، في وقت أن الإنسان ذاته -وكما ذكرنا- عاجز عن الإحاطة بشؤون الواقع ومتطلباته ، وهذا العجز مما يعيقه عن التمييز الرشيد بين الحق والمبطل من تلك الدعاوى .

فمعروف أن للباطل طرقه الأخاذة في التمويه وجلب الانتباه ، مما يعني -في لطف الله (تعالى) ورحمته ورأفته بالإنسان- ضرورة أن تجعل له من الشواهد الواضحة والقريبة المنال ما يستطيع أن يميز -وبكل سهولة ويسر- الصادق من تلك الدعاوى من كاذبها ، ويستهدي أنوار من اصطفاه الله -بحق- لإبلاغ حجتها إلى الناس ، وللتعبير عنها في البشرية ، بعيداً عن أي ريب أو شك في النفوس .

وهكذا تصبح شواهد التصديق هذه امتداداً لتلك الدلائل الذاتية

---

(١) الإسراء : ١٥ .

(٢) التوبة : ١١٥ .

لصدق دعاوى الحق ، وبعداً من أبعادها ، حيث يتضح -في الوقت نفسه- انتسابها إلى الله (تعالى) ، ويتجلى فيها برهانه ، بشكل جلي ، تقام به الحجة على الناس كافة ، وإن رانت على بعضها أوضار الانحراف والشذوذ ، وحادت عن قويم السبيل .

فأي دعوى ، ومن أي أحد صدرت ، تبقى ناقصة الحجة دون هذه الشواهد ، التي تثبت صدقها أمام كل وعي ، وتغني بها كل بصيرة.

كما أن العكس صحيح أيضا ، إذ من غير الممكن أن تسند أي دعوى كاذبة -ولو- ببعض تلك الشواهد ، لأنها ستصبح إغراء بالباطل ، وهذا محال في حكمة الله -سبحانه-، كما هو واضح .

إذن ، فتلك الشواهد هي الحد الفاصل بين الصادقة من دعاوى الاصطفاء الإلهي وكاذبتها ..

بين الوضوح الذي يملأ العقل المنفتح بالنور والهدى ، والغموض الذي لا تهتدي معه النفوس إلى قرار .

❖ ❖ ❖

رسالات الله وشواهد التصديق

ولا تختص رسالة محمد ﷺ وحدها بهذه الضرورة إلى شواهد التصديق، وإنما هي نقطة مشتركة في جميع الرسالات والمناصب الإلهية التي يقصد فيها عموم البشرية ، فالحاجة فيها عامة إلى إثبات صدقها أمام البصائر كافة ، وتعهد الله لها ، ورعايته إياها ، فالحكمة التي قضت بوجود تلك الرسالات والمناصب ، وإقامة الحجة بها على العباد ، واحدة كذلك .

وهكذا واكبت الشواهد التصديقية جميع دعوات أصفياء الإسلام، وسفارات منتجبيه في مراحلها المختلفة ، وفي صورها كافة ، منذ أولى

رسالات الله في هذه الأرض ، وحتى الرسالة العظمى التي صدع بها محمد خاتم الأنبياء ﷺ .

وعنصر الإعجاز كان -ولا يزال- أجلى وأهم تلك الشواهد -ولا ريب-، وأسرعها في التأثير ، لواقعيته التي تأبى الإنكار ، ولوضوح التدخل الرباني فيه أمام جميع العقول ، وفي كل مستوياتها ، ولتحديد الغاية المطلوبة فيه دون أدنى تفاوت .

ولهذه العوامل جميعاً استحال أن يتطاول على الإعجاز متطاول ، أو يتشدق على شيء من دلالاته متشدق ، وإن زاغت الأهواء ببعض الناس ، وشطت به سبل الضلال .

وهكذا فمن أسندته معجزة من المعاجز الربانية استطاع أن يثبت للناس انتسابه إلى الله ﷻ ، دون أدنى ريب من أحد ، واستطاع -من ثم- أن يثبت جميع ما يتفرع عن هذا الانتساب من الدعوات ، وما تحويه هذه الدعوات من حقائق في كل جانب من الجوانب التي ترد فيها.

إذن ، فحين يسند الله ﷻ دعوى من دعاوى الاصطفاء الإلهي ، أو يؤيد سفارة من السفارات عنه (تعالى) ، في أمر من الأمور ، بما تعجز عنه القدرة البشرية -كما في خرق بعض النواميس الطبيعية مثلاً-، فلا مجال حينئذ لأي ريب ، أو شك من أي بصيرة في صدقها ، وفي صحة ما تتضمنه من مفاهيم ومناهج وبينات .

ومن هنا كانت المعاجز من أبرز الشواهد المصدقة ، التي واكبت الرسل وأصفياء الله ﷻ في البشرية ، لتأييدهم في كل دعوى ، وإسنادهم في كل موقف يحتاجون فيه إلى هذا الإسناد ، دون فرق بين دعوى الاصطفاء ذاتها ، وما يتفرع عنها من مستلزمات .

وهي مسألة لا تختلف فيها رسالة ، أو نبوة ، أو ولاية ، أو وصاية

إلهية على كلمة الحق في البشرية ، فمستند الجميع واحد ، والقدرة الكافلة لها جميعا واحدة ، والملاك فيها واحد ، والضرورة فيها واحدة – كما أشرت– .

وهكذا فمن سفينة نوح (عليه السلام)، إلى نار إبراهيم (عليه السلام)، إلى عصا موسى(عليه السلام)، إلى مائدة عيسى (عليه السلام)، إلى ناقة صالح (عليه السلام)، إلى جذع مريم (عليها السلام)، إلى جلب (من كان عنده علم من الكتاب) لعرش بلقيس من اليمن إلى بيت المقدس قبل ارتداد الطرف .. إلى غير ذلك من معاجز وكرامات الرسل والأوصياء والأولياء (عليهم السلام) ، فهي جميعها ترد ضمن هذه القاعدة التي ذكرناها .

نعم ؛ ينبغي ملاحظة الفرق بين المعجزة والكرامة من جهة الغاية، فما قصد به تعجيز البشر وإسناد دعوى من دعاوى الاصطفاء من تلك الخوارق سمي معجزة ، دون ما لم يقصد به ذلك فيسمى كرامة حيث لا يقصد منه سوى تكريم ولي الله بإخضاع الأشياء لإرادته .

ولا ندخل في تفاصيل هذه المسألة ، فهي لا ترد ضمن اهتمامنا وراء هذه الإشارة السريعة .

❖ ❖ ❖

سعة الرسالة المحمدية

ورسالة محمد (صلى الله عليه وآله) لا تختلف عن غيرها من رسالات الله في هذه الناحية .

إذ لابد أن يكون لها من شواهد التصديق ما يثبت ارتباطها بالله (تعالى)، دون أدنى شك أو ريب يمكن أن يعتور بعض النفوس حولها ، وحول صدقها في الانتساب إليه –سبحانه– .

ولابد أن يكون هذا الارتباط بدرجة من الوضوح تكفي لأن تجعله

منطلقا لكل وضوح آخر فيها ، وعلى أي صعيد .

إلا أن هناك فوارق مهمة بين هذه الرسالة العظمى والرسالات الأخرى التي سبقتها في التاريخ ، ينبغي الالتفات إليها هنا ، لما تقتضيه هذه الفوارق في دلائل هذه الرسالة وبيناتها ، وفي طبيعة الشواهد التصديقية التي تثبت صحة هذه الرسالة، وتفرضها على الوعي البشري.

ومن الفوارق التي تعنينا هنا : تلك القاعدة الإنسانية الواسعة التي جعلتها حكمة التشريع موضوعا لهدى الله ﷻ في هذه الرسالة .

إذ لم يؤخذ فيها -مما اخذ في غيرها من رسالات الله- شيء من الاختصاص بمجتمع من المجتمعات ، أو طائفة من الطوائف ، أو بيئة من البيئات ، أو زمن من الأزمان ، وإنما هي شاملة الهدى والنور للبشرية ، في كل زمان ومكان ، منذ نزولها وحتى القيامة .

وهذه الناحية معروفة في هذه الرسالة ، وبها صرح القرآن دستورها الخالد إذ قال (تعالى) فيه :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً ..[1]﴾ .

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ..[2]﴾ .

ومن الطبيعي حينئذ أن يؤخذ هذا الاستيعاب في الموضوع الذي شرعت له هذه الرسالة أساساً ، أو رصيدا مبدئياً في كل ما تحويه من الحقائق ، وما تعتمده من البينات الإلهية ، ومنها -بالطبع- هذه الشواهد التصديقية التي تثبت صدقها في الانتساب إلى الله (عز وجل) ، أو تثبت أياً من حقائقها أمام البصائر الإنسانية .

---

(١) سبأ : ٢٨.

(٢) الأعراف : ١٥٨.

فحكمة الله (جل شأنه) حين شاءت أن تجعل من هذه الرسالة هدى للبشرية جمعاء ، كان من الضروري أن تملأ بيناتها ألباب البشرية جمعاء ، وأن تجعل في شواهد تصديقها غناء البشرية جمعاء -أيضا- ..

.. وحين قضت بان تجعل منها نوراً يستضيء به الإنسان في كل مسلك من مسالك الحياة ، وفي كل زمان ومكان ، وفي كل مستوى حضاري ، كان لابد أن تجعل في دلائلها ما يملأ بصيرته في كل أولئك أيضاً .

وحين أرادت أن تختم بمحمد ﷺ جميع الرسل والأنبياء ، وبرسالته العظمى جميع الرسالات ، لتبقى هي الشفاء الدائم للناس ، والنور الأبدي لهدايتهم في سبيل الحق ، كان لابد أن تجعل في بصائرها وحججها ذلك النصوع والجلاء الأبديين -كذلك- لرفع أي ريب في النفوس .

إذ -وكما قلنا سابقاً- لا تفاوت في حاجة البشر ، ولا عجز في قدرة الله ﷻ ، ولا قصور في سلطانه ، ولا تفاوت في حكمته .. وكل ما قلناه مما تقضي به هذه الحكمة -كما هو واضح- .

الفصل الثاني

القرآن حجة الله الكبرى

شاءت تلك الحكمة أن يكون القرآن -وهو أعظم الحجج الإلهية ، والشواهد المعجزة- المصدق الأول لمحمد ﷺ في رسالته ، وأن يصبح -وهو الأجلى وضوحا ، والأنصع بينة- المستند الأول في إثبات رعاية الله ﷻ المباشرة لدعوة محمد ﷺ ، وإثبات ارتباطها اليقيني بالله (تعالى) وبإرادته .

ولتحقيق هذه الغاية فقد جعلته شامل الإعجاز ، دائم الإعجاز ، واضح الإعجاز لكل ذي بصيرة ، يفي لكل متطلع للحق بحاجته من القناعة واليقين ، حين يخلص لله بنيته .

وهكذا كان القرآن -بما يحويه من إعجاز ذاتي- الدليل الجلي على صدق ذاته -أولا- .

والمصدق اليقيني للرسول ﷺ الذي انزل عليه -ثانياً- .

وعنوان الوضوح في أي حقيقة إسلامية تعتمده ، مما ورد فيه ، أو مما ورد في ألسنة الحجج الإلهية التي يعترف بها ، على امتداد حلقاتها اليقينية -ثالثاً- .

بل وكان القرآن أيضاً هو المصدق لمن سبق محمداً ﷺ ، من رسل الله (تعالى) ، وأصفيائه عليهم السلام كافة ، وما سبق رسالة محمد ﷺ من رسالات الحق ونبواته جميعاً ، إذ ما كانت دلائل الصدق التي وردت

فيها لتتمكن من إثباتها للبصائر -في هذه العصور- لو لم يكن لها شاهد من كتاب الله العظيم، لما عرفت به من حدود آنيّة ، لا تتجاوز حدود تلك الرسالات والنبوات .

❁ ❁ ❁

التحدي القرآني

ومن أجل أن يستوفي القرآن جميع تلك الحقائق ، فقد اتخذ مختلف السبل لتنبيه العقول الإنسانية إلى ما في ذاته من منابع الإعجاز ودلائله ، كما اتخذ من هذه المنابع أساسا لإقامة حجة الله ﷻ وبيناته على الناس، ومدركاً لإرشاد بصائرهم إلى ما فيه من حقائق ، وإلى صدق من أنزل لتأييده من الأصفياء .

وكما كانت هذه السبل السديدة المعتمدة في البيان القرآني فعالة التأثير في زمن الرسالة ، فهي لا تزال فعالة في نتائجها بنفس الدرجة والوضوح في هذه العصور أيضا .

وستبقى أبدية التأثير بنفس الدرجة -كذلك- مع خلود القرآن ، واستمرار الرسالة ودورها في حياة الإنسان ، دون أدنى تحديد لفئة من الناس، أو اتجاه حضاري معين ، أو مستوى علمي خاص ، وإنما هو عموم الحجة الإلهية ، وشمول الهدى الرباني لجميع البشرية .

وأول ما يلفت الانتباه من القرآن في هذا المجال ، هو التحديات الصريحة والمتكررة للعقول بالإتيان بالمثل ..

فمن تحدي البشرية -وغير البشرية ممن يحمل العقل والتفكير من المخلوقات- بأن يأتوا بمثله ، وإن تضامت جميع القوى وتكاتفت الطاقات والقابليات : ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ

بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً .[(١)]﴾ .

إلى التنزل مع الجميع –كذلك– بالإتيان ولو بعشر من سوره: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ . فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أُنزِلِ بِعِلْمِ اللّهِ وَأَن لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ .[(٢)]﴾ .

إلى التنزل أخيراً بتحدي الجميع أيضا بالإتيان ولو بسورة واحدة .. نعم بسورة واحدة من سوره القصار ، التي لا تتجاوز كلماتها عدد الأصابع .. بل وبتحديهم بإثبات عجزهم حتى قبل محاولتهم التطاول والشروع بالإتيان :﴿ وإن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ .[(٣)]﴾ .

وحين يلتفت المرء إلى حقيقة أن هذه الآيات المباركات هي مما يقرأ اليوم من آي القرآن ، كما كانت تقرأ في عصر الرسالة ، وأن العجز البشري الشامل هو جوابها الواضح هذا اليوم ، كما كان جوابها العتيد في ذلك العصر وما تلاه من العصور ، فمن الطبيعي أن يعلم –ودون أدنى ريب– أن لا مصدر للقرآن غير ذلك العلم الرباني المطلق ، والقدرة الإلهية المهيمنة ، التي لا يمكن أن ترقى إليها العقول بتطاول .

وهي نتيجة واضحة لكل ذي بصيرة ، ولا تحتاج إلى اطلاع واسع،

---

(١) الإسراء : ٨٨ .

(٢) هود : ١٣– ١٤.

(٣) البقرة : ٢٣– ٢٤ .

أو دراسات معمقة لمعنى الإعجاز ، أو طبيعته ، أو فهم موارده في القرآن ، أو التعامل مع آفاقه وحقائقه وكلماته .

ولهذا فلا يمكن لقائل أن يقول : إن الإعجاز القرآني مما يختص بفئة من الناس ، أو بمستوى علمي خاص، أو بلغة معينة ، أو غير ذلك، ليتهرب من بلاغ حجته ، أو يعتذر عن اتباع هداه ، وإنما هي عامة شاملة للبصائر ، ولا تحتاج منها إلا إلى التفاتة حرة متدبرة قائدها الحق ، ورائدها الهدى .

كما أن الالتفات إلى هذه الحقيقة يوضح فارق ما بين القرآن وغيره من معجزات الأصفياء عليهم السلام .

فبينما يبقى القرآن بهذا المستوى الرفيع والأبدي في ملء البصائر ، وإقامة الحجة الإلهية على الناس كافة ، نرى أن كل تلك المعجزات -على عظمتها- لا يعلم عنها اليوم غير ما سجله التأريخ عنها في مصادره ، وهي إن استطاعت أن تملأ بعض العقول بالإيمان بها -في هذه الأيام-، إلا أنها لا تستطيع أن تقيم الحجة الربانية على جميع العقول وبنفس المستوى الذي عليه القرآن .

❁ ❁ ❁

إعجاز الخصائص القرآنية

وفي اتجاه آخر من اتجاهات الإعجاز القرآني نرى أن القرآن ، وفي الكثير من آياته المباركات ، يلفت العقول إلى ما في ذاته من سمات عظمى ، ومزايا معجزة ، وجوانب للكمال تقصر العقول على إدراك مداها ، وتضيق طاقاتها عن الإحاطة بآفاقها ، وإن كانت -في نفسها- مطمحاً لرؤى البشرية وهدفاً لتطلعاتها في مختلف المجالات ، ولاسيما المذهبية منها ، كما في قوله (تعالى) -مثلا- :

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ . لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ .[1]﴾ .

﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ .[2]﴾ .

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا . قَيِّماً لِّيُنذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً . ماكثين فيه أبدا .[3]﴾ .

إلى غير هذه من الآيات الكريمة .

فمثل هذه النعوت السامية تملأ جميع الآيات التي تتعرض إلى بيان ما في ذات القرآن من خصائص ، أو تشير إلى ما أعده الله ﷻ له من أهداف في حياة الإنسان .

ويمكننا أن نلاحظ في هذا المجال :

أولاً : إن القرآن –وهو يذكر هذه الآفاق من كمال ذاته– لا يأتي بها لمجرد الثناء على نفسه والتعظيم لها ، مقابل الكتب التي تدعي نسبتها إلى السماء ، دون أن يكون له من الأرصدة ما يثبت به كل كلمة له أمام البصائر –وكما جرت عليه الدعاوى الأخرى التي ترد في هذا المضمار– .. فهذا مما لا يحتمل في حقه ، لأنه –وكما علمناه عن القرآن– إنما يلتزم سمة الحق أساسا لكيانه في هذا الوجود ، ويتخذه قيمة عليا لكل حقيقة من حقائقه ، وكل ظاهرة من ظواهره ، وإلى هذا الحق تنتهي جميع قيمه

---

(١) فصلت :٢٣-٢٤.

(٢) النحل : ١٠٢.

(٣) الكهف :١-٣ .

الأخرى . ومن الطبيعي حينئذ أن ينتظر محاسبة العقول على أساس من هذا الالتزام أيضاً ، ولا ريب أن تعظيم ذاته دون رصيد من الواقع مما يتنافى مع هذا الالتزام -كما هو واضح- .. هذا من جهة .

وثانياً : إن القرآن -وهو يعرض صور الكمال تلك-، لا يعرضها كصور شاعرية يستهدف منها مجرد استقطاب العواطف ، أو إثارة الإعجاب والمشاعر الوجدانية -كما هو الملاحظ لدى الشعراء والأدباء في قراءتهم للقصائد الشعرية أو النوادر والنصوص الأدبية-، وإنما هو يعرضها في موارد إقامة الحجة الإلهية ، وتنبيه البصائر ، وامتلاك العقول لهدايتها في طريق الكمال ، ليهلك من يهلك -من ثم- عن بينة ، ويحيا من يحيا عن بينة أيضاً .

ومن الطبيعي -حينئذ- أن يعدّ لحساب العقول على هذا الأساس عدته المناسبة ، ويتخذ للتمحيص أهبته .

فهو يعلم -ولا ريب- أنه محاسب على كل كلمة فيه ، وان كل مفهوم له سيكون مجالا لتمحيص الأفكار والعقول ، لا من النفوس المعاندة فحسب ، وإنما من العقول المتطلعة إلى الحق أيضا ، فهداها إنما يكون بعد البينة -كما قلت- ولا يمكن تحقيق هذه البينة ، وإقامة الحجة بها مع أدنى خلل يثبت على القرآن في أي مفهوم يقدمه، وأقل تفاوت يرى فيه، أو في أي أطروحة يلتزمها .

ولهذه كان عليه أن يتخذ من أرصدة الإثبات ما يحقق له أهدافه تلك كاملة ، دون أي نقطة من نقاط الضعف يمكن أن تورد عليه ، حتى في أعماق النفوس .

وبالفعل ، فهذا هو المشهود من أمر القران العظيم ، في كل ما يطرحه من قضايا ومفاهيم ، في مختلف الجوانب ، ومنها ما سبق أن

لاحظناه في التحديات الصريحة السابقة ، وما نراه في الآيات والسياقات التي يعرض فيها لخصائصه ، وبيانه لصور كماله ، فان العقول البشرية – في مختلف مستوياتها واتجاهاتها– لم تتمكن من أن تقف معه فيها على قدم، أو تثبت أمامه في موقف مواجهة ، فضلا عن أن تبدي في أي مما ذكره بعض الخلل في دعوى ، أو مجانبة للحقيقة في مورد ، أو شططا فيما طرحه من تحد ، أو التزمه لذاته من سمات عليا ..

وهذا القصور الإنساني مما لم يتميز به عصر من العصور ، أو مستوى من مستويات المعرفة ، وإنما هو عام شامل لجميع العصور والمستويات ، إذ ليس هناك أسهل من نقض كيان الإسلام –من أساس– لو وجدت البصائر شيئا من الموهنات في القرآن ، أو رأت شيئا يستحق أن تلفت إليه العقول من الخلل والتفاوت ، فحدية الحق الذي يلتزمه القرآن لنفسه ، واستقامته المطلقة مع الواقع ، مما يبعد به عن الالتواءات والدخائل والنسبية .

فحقائقه إما أن توجد في أقصى درجات السمو والكمال ، وإما أن لا توجد بالمرة ، إذ لا مرحلة وسطى بين الأمرين ، وهي ميزة قرآنية، أو بالأحرى إسلامية خاصة ، لا يداني الإسلام فيها مذهب من المذاهب أو دين آخر من الأديان .

ولهذا ؛ فان نفس بقاء القران حياً ناطقاً ، وإن نفس خلود تحدياته المتواترة دون جواب ، وسلامة نعوته وخصائصه التي يذكرها لنفسه دون وهن ، من أوضح الشواهد كذلك على انه من الله العليم الخبير .

وهي نتيجة واضحة كذلك، لا تحتاج إلى كبير تأمل ، أو عميق فهم، ولاسيما بعد مراجعة متأملة لتلك الحدود والسمات القرآنية التي ذكرناها .

﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً﴾[1].

❖ ❖ ❖

التقدم العلمي شاهد لإعجاز القران

ومجال آخر لإعجاز القران، لا ينبغي أن نغفله، وان كنا بهذه السرعة من الحديث، لما لهذا المجال من وضوح تدركه جميع العقول -وعلى مر العصور-، ولاسيما في هذا العصر الذي لمست فيه البشرية آثاره المباشرة ..

وهذا المجال هو ذلك الوعد القاطع الذي أخذه القرآن على نفسه، -بل وعلى الإسلام ككل- بأن يكون تقدم البشرية في العلم، ومسيرتها في ركاب المعرفة، وترقيها في سلم الكمالات الإنسانية، وما ستناله من نتائج التقدم في سبيلها، كلها منابع متنامية الرفد والعطاء في إبراز ما يحمله الإسلام من أرصدة الحق، واستقامته مع الواقع.

وهو وعد يعني أن تقدم الإنسان في العلم والمعرفة، وترقّيه في درجات الكمال، سيكون كذلك من الشواهد التصديقية الدائمة لرسالة محمد بن عبد الله ﷺ، وبعض دلائلها على ارتباطها المطلق بمصدرها العظيم، وركونها إلى مشيئته وحكمته. قال (تعالى):

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[1].

وهو وعد ثابت، جرت بتصديقه الأيام، ومضت لتحقيقه مسيرة الإنسان في ركاب العلم، كما يبدو بكل وضوح مع القليل من التأمل.

---

(١) النساء: ٨٢.

(١) فصلت: ٥٣.

وهكذا ، فبينما تتهاوى صروح أديان ومذاهب أخرى كلما تقدم الركب الإنساني في سبيل المعرفة خطوة ، وتتساقط كما تتساقط أوراق الخريف كلما سما في العلم درجة ، إذ لا تستطيع الثبات أمام تمحيص العقول ، وأنوار العلوم ، ووضوح الحقائق ، نرى أن بينات الإسلام تتبلور يوما بعد آخر ، وتتجلى أمام وعي الإنسان كعنوان أبدي لبصائر الحق ، وكسبيل فريد لخلاص البشرية من مهاوي الانحراف و السقوط .

إلى غير هذه النواحي من دلائل إعجاز القرآن ، وأصعدته التي يراها طالب الحق في كتب الاختصاص ..

وللمرحوم السيد الخوئي (قدس سره) مباحث جيدة حول هذا الإعجاز، في مقدمة تفسيره للقرآن (البيان) ، وكذلك للشيخ البلاغي (رحمه الله) في مقدمة تفسيره (آلاء الرحمان) ، فليرجع إليها من يرغب في الاستزادة [١] .

وهكذا تعددت أصعدة الإعجاز القرآني ، وتعددت تحديات القرآن بها ، فلم تخل منها آية من آياته ، كما لم تستثن كلمة من كلماته ، أو إشارة من إشاراته عن أن تكون مجلى لواحد أو أكثر من منابع هذا الإعجاز .

ولئن استطاعت البشرية أن تدرك شيئا من هذه المنابع خلال ممارستها الطويلة معه ، إلا أن لقادم الزمان ، ولارتقاء البشرية في سلم المعرفة آثارهما المؤملة في فتح منافذ أوسع ، لرؤية أشمل في هذا الإعجاز وإدراك موارده ، وهذا بعض ما عنته الآية الكريمة السابقة في تحديها الأبدي ، لتثبت صدقها الأيام .

---

(١) ويراجع كذلك الجزء الثاني من كتاب (القرآن كتاب الله) للمؤلف ، حيث أعد لبحث الإعجاز كأساس للتدبر القرآني .

إذن فالقرآن هو كتاب الله الذي لا ريب فيه ، وهذه القضية هي أول ما يعنيه الإعجاز القرآني من دلائل ، فهي قضية واضحة بذاتها ، كما أنها منبع لكل وضوح موجود في القرآن ، وفي الإسلام الذي أنزل القرآن دستوراً له ، بل وفي أي التزام إسلامي دلت عليه البينات التي يقيمها منزل القرآن والإسلام ﷻ ، ففي مثل هذا الالتزام تنتظم سلسلة الحجة الإلهية ، ويتكامل تسلسل الوضوح .

إذ من البين أن القرآن -بهذا الأعجاز- قد أصبح الصورة الفعلية القائمة للالتزام الإلهي ذاته ، وإليه تنتهي تلك سلسلة الحجج الإسلامية كافة، حين تكون مترابطة الحلقات ، محكمة الأصول .

الفصل الثالث

دلائل الوضوح في رسالة محمد ﷺ

مع ملاحظة النتيجة السابقة التي انتهينا إليها في الفصل المتقدم .. فإننا نعلم أن القرآن حين يلتزم محمد بن عبد الله ﷺ رسولا في هذه الأرض ، ومثلا شاخصا لحقائقه في البشرية ، إذ يجسد أمر الله (تعالى) بوجوده ، ويقيم كلمته في حياته ..

وحين يتعهده ﷺ قدوة أبدية لقيَمه ومفاهيمه ، لتتمكن البشرية من أن ترتسم خطاه ، وتنتهج سبيله في كل ما ينطق به من قول ، وما يأتيه من عمل.. كان لابد أن يكون محمد ﷺ هو هذا الرسول المصطفى ، وأن يكون هو المثل الأعلى الذي يريده الله لمتبعي دينه دون شك ، وأن يكون هو القدوة الخالدة للمهتدين بنوره مع الزمان ، فما كان للقرآن أن يتفاوت في كلمة ، أو يتهافت في التزام ، لأنه كلمة الله –سبحانه– والتزامه –كما علمنا– .

ولهذا فان آيات كريمة ، مثل قوله (تعالى) :

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً . وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً.(١)﴾ .

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ

---

(١) الأحزاب : ٤٥ – ٤٦ .

كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً . مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ..﴾[١] .

أقول : إن آيات مثل هذه كافية -كل الكفاية- في الدلالة على هذا الالتزام بكل ما فيه من حدود وآفاق ، وإن لم تكن هناك دلائل أخرى لتأييده ﷺ في دعوته ، وتصديقه في القيام بمهمته .. إذ لا نحتاج -بعد هذا التصريح- إلى شيء آخر من هذا القبيل .

على أن وجود رسول الله ﷺ نفسه ، ومواقفه كافة ، وكلماته التي نطق بها ، وما صدر على يده من معاجز ، وما أوتي من كرامات ، كلها شواهد قائمة ، ومتواترة ، لتصديقه في رسالته ككل ، وفي كل جزئية من جزئياتها .

❖ ❖ ❖

نعم ، وحين ضمن القرآن للإنسان بأن كل ما صدر من الرسول ﷺ من قول إنما هو مظهر لكلمة الله -سبحانه- وإرادته ، وأن جميع ما يأتيه من فعل إنما هو تجسيد لأمر الله وإذنه ، وأن كل ما منع منه إنما كان لنهي الله وزجره .. كان لابد أن يكون هذا الضمان -وفي جميع موارده هذه- ثابتاً ، يسمو بالعقول عن أن تشك ، ويربأ بالبصائر عن أن ترتاب فيه ، أو في شأن من شؤونه ..

فمما ورد فيه مثل قوله (تعالى) :

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى . وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى .﴾[٢] .

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ . لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا

---

(١) الفتح : ٢٨- ٢٩ .

(٢) النجم : ٢ .

مِنْهُ الْوَتِينَ . فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ .[1]﴾ .

أقول : فما ورد فيه مثل هذه الآيات ، إنما هو تعهد إلهي للإنسان -كما هو تعهد قرآني- بان لا يخرج هذا الرسول المطهر عن استقامة الحق في كلمة ، ولا يقصر عن حدود الله (تعالى) في عمل ، إذ لا هوى يمتلكه ، ولا ضلال يحيد به عن قويم السبيل ، ولا زيغ يخرج به عن الصواب ، وإلا وجب -في حكمة الله (تعالى)- أن لا يملي له بمدد ، ولا يمهله في الحياة لحظة .

❖ ❖ ❖

والقرآن حين رسم للنبي ﷺ دورا خاصا في البشرية ، كولايته عن الله (تعالى) فيها ، وأولويته بالمؤمنين من أنفسهم .

أو حين حدد له مهمات معينة في هذه الحياة ،كإبلاغ رسالة الله (عز وجل) إلى الناس ، وقيادتهم في سبيل الهدى ، أو غير هذه النواحي من مسؤولياته ﷺ ..كان لابد أن يكون له ذلك الدور ، ولابد أن يقوم بتلك المهمات كافة ، دون أدنى تفاوت أو تقصير .

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ ..[2]﴾ .

﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ..[3]﴾ .

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ .[1]﴾ .

❖ ❖ ❖

(١) الحاقة : ٤٤-٤٧ .

(٢) المائدة : ٥٥ .

(٣) الأحزاب : ٦ .

(١) الجمعة : ٢ .

وحين يصرح القرآن العظيم بوجوب إسلام المؤمن زمامه إلى الرسول ﷺ، والانقياد المطلق لأمره ونهيه ، وإطاعة كلمته ، وتوليه ، والاستجابة لكل ما يصدر منه ..

.. حين يصرح القرآن بكل هذه الأمور وأشباهها كمسؤوليات أساسية يعتمدها نفس الإيمان بدين الله واتباع هدايته ، كان لابد أن تكون هذه المسؤوليات أسساً أولى لهذا الإيمان أيضا ، حيث يستحيل تحققه بدون الوفاء بها بأدق وأوفى ما يمكن الوفاء .

﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً .[2]﴾ .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ.[3]﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ..[4]﴾.

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .[5]﴾ .

﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ.[1]﴾.

إلى غير هذه من الآيات الواردة في بيان مسؤولية المؤمن تجاه

---

(٢) النساء : ٦٥ .

(٣) محمد : ٣٣ .

(٤) الأنفال : ٢٤ .

(٥) ال عمران :٣١.

(١) المائدة : ٥٦ .

الرسول ﷺ .

والقرآن -بهذه الأحكام وأشباهها- إنما يستقيم مع ذاته كبصائر لله ﷻ ، ومع التزامه سمة الحق مقوماً أساساً من مقوماته ، فإن وجود شخص كهذا المنتجب ، رسول عن الله -سبحانه- فيما يبلّغ ، ولا ينطق عن الهوى بكلمة ، ولا يقول إلا ما يلقيه عليه الوحي من بينة ، ولا يعمل إلا ما شرعه الله له من عمل ، وله مثل تلك الولاية الإلهية العامة على المؤمنين ، والأولوية بهم حتى من أنفسهم ، وله مثل ذلك الارتباط المطلق بالحق ، والهدى الرباني ..

أقول: إن وجود شخص كهذا المنتجب، لابد أن تكون مسؤوليات الأمة تجاهه هي بمثل هذه الحدود المطلقة ، في التبعية والانقياد والتسليم، دون أدنى حرج في النفوس .

ولا غضاضة في هذا ، فالمسؤولية إنما هي مسؤولية الحق نفسه ، وهي مسؤولية الإنسان تجاه ذاته في استقامتها معه في الحياة ، وتجاه سعادتها به في هذه الدنيا والآخرة .

إذن فهي ليست مفروضة على الإنسان من خارج كيانه -كما قد يتصوره البعض، وهو يتابع مثل هذه المسؤولية في المذاهب والأديان الأخرى- .

وهي ليست بعيدة عن تطلعاته الفطرية إلى نيل الدرجات العليا من الكمال الذاتي المنشود .

الفصل الرابع

دلائل الوضوح في ولاية علي عليه السلام

وفي هذا المسلك أيضا لابد أن ترد ولاية علي عليه السلام ..

نعم ، فحين يصدر الأمر الرباني في القرآن ، إلى الرسول صلى الله عليه وآله بتبليغها إلى الأمة –فيما يبلّغه من أمر الله (عز وجل) وحقائق رسالته–، كان لابد أن تكون الولاية أمراً من أمر الله جل جلاله ، وحقيقة من حقائق رسالته العظمى ، ومقوماً من مقوماتها ، إذ يستحيل على حكمة الله أن تكيل فيوضها جزافاً أو تتفاوت في لأمر من أمورها .

وحين يعيّن لها القرآن ذلك الموقع الرفيع بين أصول الإسلام الأولى والتي لا يتحقق له كيان بدونها ..

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ، إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ .[1]﴾ .

كان لابد أن يكون لها ذلك الموقع الرفيع من دين الله ، تماماً كما صرح به القرآن .. إذ القرآن ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ .[2]﴾ .

وحين يقف الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بها ذلك الموقف المشهود في يوم غدير خم

---

(١) المائدة : ٦٧ .

(٢) فصلت : ٤٢

-أو في غيره من المواقف المشابهة- ليعلن أن (من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ، وانصر من نصره واخذل من خذله).. كان لابد أن يكون الرسول ﷺ صادقا في هذا الإعلان ، وأن يمضي التعيين كما قاله ﷺ ، ونطق به دون أدنى تفاوت، وأن تكون هذه الولاية الكبرى منصباً ربانياً من مناصب علي عليه السلام خاصة ، إذ الرسول ﷺ «مَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى» بنص القرآن .

وحين يأخذ الرسول ﷺ البيعة بهذه الولاية على العباد ، ويأمرهم بجعلها كدرجة ولايته هو ﷺ في التولي والانقياد ، والاستجابة لأمر علي عليه السلام ونهيه ..

.. (فان الله قد نصبه لكم ولياً وإماماً ، وفرض طاعته على كل أحد ، جائز قوله ، ملعون من خالفه ، مرحوم من صدّقه ، اسمعوا وأطيعوا ، فان الله مولاكم ، وعلي إمامكم ..) .

(أيها الناس ، أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، ليس لهم معي أمر ، وعلي من بعدي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، ليس لهم معه أمر) .

أقول : وحين يأخذ الرسول ﷺ البيعة لعلي بهذه الدرجة ، كان لابد أن تمضي هذه البيعة مع المؤمن ، وهو يستمسك بدين الله ، وأن تكون ولاية علي عليه السلام بنفس الدرجة التي عليها ولاية الرسول ﷺ في التزام المؤمن ، وأولويته بالمؤمنين من أنفسهم ، دون أدنى مجاملة أو مبالغة ، إذ لا مجاملة في الحق ، ولا مبالغة في بيناته .

إذن فولاية علي عليه السلام التزام إسلامي واضح لا ريب فيه ، لأنها حلقة ثابتة من هذه السلسلة الجلية ، المترابطة الحلقات .. حيث لم يسبقها وهن في حلقات ثبوتها ، ولا غموض في دلالات حجتها ..

فالقرآن الذي أمر رسول الله ﷺ بإعلان الولاية ، هو تلك المعجزة الإلهية الخالدة ، التي ثبتت بها رسالة محمد ﷺ نفسها ، وصدّقت من سبقه من رسل الله ﷺ وأصفيائه كافة .

ومحمد ﷺ الذي أعلنها على الأشهاد ، هو ذلك النبي الذي يستحيل عليه أن يتقول على الله –سبحانه- بكلمة ، أو يكذب عليه في مدعى ، إذ تعهد منه الله (تعالى) صدقه في كل ما يقول ، وعصمته في كل ما يعمل .

كما لا خفاء في مفهومها ، ولا في حدودها ، ولا في معالمها ، بعد أن وضع لها القرآن والرسول ﷺ كل تلك الدلائل والبينات القطعية والواضحة التي تملأ مختلف مصادر التشريع ، ورسما لها تلك الأدوار والمهمات الكبرى في قيام صرح هذا الدين ، وفي قيادة البشرية في سبيل كمالها الذاتي كما أراده الله ﷻ لها –كما سبق أن استعرضناه في أحاديث سابقة– .

فهي ولاية كولاية الرسول ﷺ التي جعلها الله له ،وهي أولوية مطلقة بالمؤمنين كافة حتى من أنفسهم على أنفسهم ، فلا أمر لهم مع علي عليه السلام ،كما لا أمر لهم مع رسول الله ﷺ نفسه ، وإنما هو السمع والطاعة .

(ملعون من خالفه ، مرحوم من صدّقه) –كما في حديث سابق– .

ولا خفاء في دور هذه الولاية في البنية الإسلامية ذاتها ، حيث يمتد بها، وبالشخص الذي اصطفي لها ، وجود الإسلام نفسه ، وتتكامل بهما مهماته الكبرى في البشرية ، وقيادته للحياة ، وإبلاغ حجته بعد المولى الأول ﷺ ، فكانت هذه الولاية –بحق– إكمالا للدين وإتماما للنعمة ، وبها كان رضا الله بالإسلام دينا للبشرية ، كما صرحت به آية

الإكمال .

ولا خفاء كذلك في موقع هذه الولاية من مسؤولية الإنسان المؤمن، وهو يستمسك بعروة الله الوثقى ، ويتبع دلائل دينه القويم ، بعد أن ربط الرسول ﷺ بين هذه المسؤولية ومسؤولية المؤمن تجاه رسالته المقدسة ذاتها ، وولايته الكبرى التي جعلها الله له بنص القرآن .

فالاتباع ، والتولّي ، والطاعة ، والتسليم المطلق دون حرج ، هي الموارد الواضحة التي عينها القرآن لتلك المسؤولية -كما هو معلوم- .

ولهذا فلم يكن القرآن ، ولا الرسول الأعظم ﷺ خارجين عن وحدة الحق، ولا عن وضوح حلقاته في هذه المسؤولية ، كما لم يكونا خارجين عنها في أصل التزامهما للولاية ، وارتضائهما لعلي بن أبي طالب عليه السلام ولياً لها ، فهي سلسلة واحدة ، متضامة الحلقات، لها مبدؤها الواحد ، وسبيلها الواحدة، ونتائجها الواحدة المتكاملة أيضا .

الفصل الخامس

وضوح ولاية علي عليه السلام مع الزمن

أما نحن -وحيث نروم التعرف على وضوح الحجة الإلهية في هذه الولاية من منطلق مسؤولياتنا الخاصة في عصرنا الحاضر- فيجب أن نلتفت إلى ما في هذه الحجة ، وما في دلائلها من هذا الوضوح والجلاء، لا في عصر واحد من العصور ، وإنما في سلسلتها الطويلة التي مرت بها في تأريخ الإسلام كله ، إذ الغموض في أي مرحلة منها مما يستدعي -ولاشك- غموضها في كل مرحلة تستتبعها ، إذ النتائج تبع لأخس المقدمات -كما هو معلوم- .

وحين نلتفت إلى ما قدمناه سابقا ، من أن دور الإسلام في قيادة الإنسان يمتد مع وجوده في هذه الحياة الدنيا ، ويستوعب جميع أزمنة بقائه فيها ، دون أن يحده اتجاه حضاري ، أو مستوى علمي ، فإن هذا يعني ضرورة أن تكون لدلائل الإسلام وبيناته نفس هذه السعة في ملء العقول ، والخلود في قيام الحجة ، والقدرة على هداية البصائر حتى آخر بشري على هذه البسيطة.

وحين يكون لولاية علي عليه السلام من الشأن والأهمية ما قد علمنا ، فمن الطبيعي أن لا تقصر في وضوح حجتها ، وجلاء بيناتها وحدودها، عن هذه السعة أيضا ، وإلا قصر الإسلام ذاته عن أن تقوم له حجة أمام العقول مع الزمن ، وهذا مستحيل ، فقد تعالى رب الإسلام ومنزله العظيم عن أي قصور في القدرة ، أو تفاوت في الحكمة .

وبالفعل فقد اطّردت بينات الولاية ، وبصائرها كافة مع هذه الضرورة، ولم تقصر عنها في عصر من عصور الإسلام حتى اليوم ، فكما كانت هذه البينات واضحة المفهوم والحدود والحجة ، حين أمر بها القرآن ، وأعلنها الرسول ﷺ في عصر الرسالة ، فكذلك هي اليوم تتخذ نفس المستوى من الوضوح والثبوت أمام كل ذي بصيرة يتطلع إلى الحق ، كما هو شأنها أيضا في مختلف المراحل السابقة من التاريخ الإسلامي وعصوره كافة .

وهي قضية لا يناقش فيها أحد اطلع على شيء من تاريخ الإسلام ولاحظ بعض أحداثه ..

فتواتر بينات هذه الولاية ، وتصريح القران بها في العديد من آياته، وكلمات الرسول ﷺ إعلانها وبيان حدودها ، ومواقفه المشهودة معها -بما فيها موقفه في يوم الغدير خاصة- كلها مما لم يرتب فيه احد من الناس في كل عصر ، وعلى أي مستوى في حياة الأمة المسلمة على امتدادها .

ودخول هذه الولاية -بمفهومها الإسلامي الخاص- في مختلف القضايا الفكرية الشائعة في اتجاهات الحياة الفكرية والمذهبية الإسلامية ، والاتجاهات السياسة والعلمية ، وحتى الأدبية ، التي هيمنت على تأريخ الأمة المسلمة في مختلف العصور ، وطرح مضمونها كمحور للبيان ، والأخذ والرد ، على كل تلك الأصعدة ..

.. كل هذا مما لا يجعل مجالا للريب من ذي لبّ في أنها مبدأ إسلامي ، وردت به حجج الله وبيناته الخاصة ، وأقيمت عليه مختلف الشواهد القطعية ، مع غض النظر -الآن- عن اجتهادات العقول ، ونتائج الأخذ والرد في تعيين مدلولها ، وبيان نتائجها .

والقضية -بهذه الحدود- من المسلّمات الإسلامية العامة لدى المسلمين كافة ، على مختلف مذاهبهم ، حتى لدى أولئك الذين انطلقوا في التعامل الولاية ، ومع مشهد الغدير وصاحبهما من منطلق سلبي ، أو غير منصف ، يعتمد التعصب ، ورواسب الإحن والضغائن والأهواء أساساً في هذا التعامل .

ولإعطاء صورة واضحة وقريبة لهذه النتيجة التي قدمتها ، يكفينا أن نستعرض جهدا واحدا من بين عشرات الجهود التي عنيت بمشهد الغدير خاصة -من بين مواقف الرسول ﷺ في ولاية علي عليه السلام- استطاع أن يقدّم -وبلغة الأرقام- ما يعنيه ثبوت هذا المشهد ، ووضوح حجته أمام المدارك البشرية في جميع عصور الإسلام ، ويؤكد تواتره والتسالم عليه ، وجلاء مفهومه للعقول في مصادر الإسلام ، وفي مختلف أطوار تاريخه الطويل .

.. إنه جهد المرحوم الحجة الشيخ عبد الحسين الأميني (قدس سره) في موسوعته المعروفة : (الغدير في الكتاب والسنة والأدب) . فهو جهد -والحق يقال- سابق على ما سبقه من الجهود في هذا المضمار ، فالأصول العلمية التي اعتمدها ، والمثابرة التي وفّق إليها ، وسعة الاطلاع التي تمتع بها ، لم تتأت لأحد قبله من باحثي الغدير -على كثرتهم-، وإن كنا -بدورنا لا نغمط تلك الجهود المخلصة حقها من التقدير والثناء .

كما أن اللافت للنظر في هذا الجهد -بالرغم من سعته ، ودقته في الملاحظة والاستنتاج- استبعاده للمصادر التي تعود إلى مذهب التشيع ، واعتماده على مصادر غيره من المذاهب الإسلامية خاصة . فجزاه الله (تعالى) كما جزى من قبله من مخلصي رجال الله عن الإسلام وكلمته

وولايته خير جزاء المحسنين ، إنه ارحم الراحمين .

❁ ❁ ❁

سبر عام لمعالم الولاية في التاريخ

ونبدأ مع هذا الجهد من إثبات وضوح هذه الولاية في عصر الرسالة خاصة .. إذ أحصى (قدس سره) من أسماء صحابة رسول الله ﷺ الذين رأى هو أسماءهم -كرواة لحديث الغدير- في المصادر الموجودة لديه مائة وعشرين صحابياً ممن حضروا مشهد الغدير وسمعوا من رسول الله ﷺ إعلانه لهذه الولاية ، وتعيينه علياً عليه السلام في منصبها .

ولم يكن هؤلاء الصحابة يمثلون اتجاهاً معيناً في مواقفهم تجاه هذه الولاية، أو كانوا ممن يذعن لعلي عليه السلام بها -بالمعنى الذي يراه شيعته له-، بل شملت القائمة أسماء من مختلف المشارب والاتجاهات ، بل وردت فيها أسماء حتى أولئك الذين تقدموا عليا عليه السلام بالخلافة ، وأولئك الذين حملوا عليه راية الصراع والشقاق .

ويمكنني أن أذكر هنا -من هؤلاء- اسم الخليفة الأول أبي بكر بن أبي قحافة .

إذ (روى عنه حديث الغدير ابن عقدة ، بإسناده في (حديث الولاية) ، وأبو بكر الجعابي في (النخب) ، ومنصور الرازي في كتابه (حديث الغدير) ، وعد شمس الدين الجزري الشافعي في (أسنى المطالب) ممن روى حديث الغدير من الصحابة[1]) .

ومنهم الخليفة الثاني عمر بن الخطاب .

وقد تقدمت إحدى رواياته لها الحديث في الرواية الخامسة من

(١) الغدير : ج : ١- ص : ١٦.

الروايات التي أوردناها في فصل (مشهد الغدير في السنة) من الباب الأول حيث قال : (نصب رسول الله ﷺ علياً علماً فقال : من كنت مولاه فعلي مولاه ..) .

كما توجد له عدة روايات أخرى بهذا المضمون أيضا [١].

ومنهم الخليفة الثالث عثمان بن عفان .

إذ (أخرج عنه الحافظ بن عقدة في (حديث الولاية) والمنصور الرازي في كتاب (الغدير) ، وهو أحد العشرة المبشرة الذين عدّهم ابن المغازلي من المائة الرواة لحديث الغدير بطرقه[٢]) .

ومنهم الزبير بن العوام .

إذ (روى الحديث عنه ابن عقدة والجعابي في نخبة ، والمنصور الرازي في كتابه (الغدير) ، وهو احد العشرة المبشرة الذين عدهم الحافظ ابن المغازلي من رواة الغدير ، وعده الجزري الشافعي من رواة حديث الغدير[٣]) ..

ومنهم طلحة بن عبيد الله التيمي .

إذ روى أن النبي (ﷺ) قال : (من كنت مولاه فعلي مولاه[٤]).

هذا إضافة إلى ما أخرجه حفاظ الحديث من شهادته لعلي عليه السلام بهذه الولاية ، وإعلان الرسول ﷺ لها يوم الغدير ، حينما ناشده علي عليه السلام يوم الجمل ، كما أخرجه الحاكم في المستدرك بسنده عن رفاعة بن إياس الضبي عن جده ، قال :

---

(١) المصدر السابق – ص :٥٤ .

(٢) ن . م : ص : ٥١ .

(٣) ن . م : ص ٢٨ .

(٤) ص : ٤٤ .

(كنا مع علي يوم الجمل ، فبعث إلى طلحة بن عبيد الله أن القني . فأتاه طلحة ، فقال : نشدتك الله ، هل سمعت رسول الله ﷺ يقول : من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ؟ .

قال : نعم .

قال : فلِمَ تقاتلني ؟ .

قال : لم أذكر . فانصرف طلحة [(١)]) .

وفي رواية المسعودي ، أنه قال : (أستغفر الله ، ثم رجع) .

وقد روى هذه المناشدة أيضا جمع من حفظة الحديث[(٢)] .

ومن رواة حديث الغدير من الصحابة : سعد بن أبي وقاص .

إذ روى الحاكم بسنده في المستدرك : أن رجلا قال له : إن علياً يقع فيك أنك تخلفت عنه . فقال سعد : والله ، إنه لرأي رأيته وأخطأ رأيي .. إن عليا أعطي ثلاثا لأن أكون أعطيت إحداهن أحب إلي من الدنيا وما فيها :

لقد قال رسول الله ﷺ يوم غدير خم -بعد حمد الله والثناء عليه-: هل تعلمون أني أولى بالمؤمنين ؟ .

قلنا : بلى ..

قال : اللهم من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه .. إلى آخره[(٣)]) .

---

(١) المستدرك على الصحيحين – ج : ٣– ص :٣٧١– ن : مكتبة النصر الحديث – الرياض – سنة :١٩٦٨.

(٢) تراجع مصادر هذه المناقشة في الغدير – ج : ١– ص :١٧١– ١٧٢ .

(٣) المستدرك على الصحيحين – ج : ٣ – ص : ١١٦.

وكان سعد بن أبي وقاص يكرر هذه المقولة في مناسبات شتى ، ويكرر فيها روايته لحديث الولاية مع أحاديث أخرى في فضل علي في كل مناسبة تعرض له ، وقد جمع صاحب الغدير من المصادر التي روت عن سعد حديث الغدير ما يربو على ثلاثين مصدراً [1].

وفي شهادة أصحاب الشورى بصحة حديث الغدير حينما ناشدهم علي عليه السلام به ما يثبت أنهم جميعا قد رووه ، إذ لم ينكر عليه احد منهم مناشدته ، أو يبدي جهله به .

وأصحاب الشورى هم الصحابة الستة الذين جعل عمر بن الخطاب الخلافة في أحدهم حينما أشرف على الموت ، وهم عثمان بن عفان ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، والزبير بن العوام ، إضافة إلى علي بن أبي طالب عليه السلام ، أما عبد الله بن عمر فكان فيمن يشاور ولا يولّى .

وقد روى هذه المناشدة والشهادة بصحة الحديث جمع من الحفاظ منهم الخوارزمي في مناقبه بسنده عن أبي الطفيل عمار بن واثلة ، قال :

(كنت على الباب يوم الشورى ، مع علي في البيت ، وسمعته يقول لهم : لأحتجن عليكم بما لا يستطيع عربيكم ولا عجميكم تغيير ذلك.. إلى أن قال :

فأنشدكم بالله ؛ هل فيكم أحد قال له رسول الله صلى الله عليه وآله : (من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم وال من والاه و عاد من عاداه ، وانصر من نصره ، ليبلغ الشاهد الغائب) غيري ؟ .

---

(١) الغدير – ج : ١– ص : ٣٧–٤٠ .

قالوا : اللهم لا[٢] .

ومن الصحابة الذين رووا حديث الغدير : عمرو بن العاص .

روى عنه ابن قتيبة : أن رجلا من همدان يقال له : برد ، قدم على معاوية فسمع عمرواً يقع في علي عليه السلام ، فقال له : يا عمرو إن أشياخنا سمعوا رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : (من كنت مولاه فعلي مولاه) ، فحق ذلك أم باطل ؟ .

فقال عمرو : حق، وأنا أزيدك ؛ إنه ليس أحد من صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله له مناقب مثل مناقب علي[١] .

كما ذكر له الخطيب الخوارزمي كتابا له أرسله إلى معاوية ، يقول فيه : (وقال فيه يوم غدير خم : ألا من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ، وانصر من نصره، واخذل من خذله).

وسيأتي -إن شاء الله- ذكر قصيدته الجلجلية المعروفة ، إذ هو يذكر فيها هذا الحديث أيضا .

إلى غير هؤلاء من الصحابة الذين رووا حديث الغدير ، مثل أبي سعيد الخدري ، وأسامة بن يزيد ، وأبي هريرة ، وعبد الله بن عمر .

كما روته من أمهات المؤمنين عائشة وغيرها من أزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم..

❁ ❁ ❁

أما من التابعين الذين رووا حديث الغدير ، فقد أحصى الشيخ الأميني (قدس سره) منهم أسماء أربعة وثمانين تابعياً .

منهم الأصبغ بن نباتة ، وسالم بن عبد الله بن عمر ، وسعيد بن

---

(٢) ن . م – ص : ١٤٦– ١٤٩ .

(١) ن . م – ص : ١٨٤ .

جبير ، وسعيد بن المسيب ، وغيرهم .

ومن التابعين أيضاً رواه الخليفة الأموي المعروف عمر بن عبد العزيز .

إذ أخرج عنه الحافظ أبو نعيم في كتاب (حلية الأولياء) بسنده عن يزيد بن عمر بن مورق قال :

كنت بالشام وعمر بن عبد العزيز يعطي الناس ، فتقدمت إليه ، فقال لي : ممن أنت ؟ . قلت : من قريش . قال : من أي قريش ؟ .

قلت : من بني هاشم . قال : فسكت . فقال : من أي بني هاشم ؟.

قلت : مولى علي . قال : مَن علي ؟ .

قال : فوضع يده على صدره ، فقال : وأنا -والله- مولى علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) ، ثم قال: حدثني عدة أنهم سمعوا النبي ﷺ يقول : (من كنت مولاه فعلي مولاه[1]) .

إلى غير هؤلاء من أعلام التابعين[2].

كما أحصى كتاب الغدير من أسماء العلماء وحفاظ الحديث الذين رووا حديث الغدير في مختلف القرون -من غير أتباع مذهب أهل البيت عليهم السلام- ثلاثمائة وخمسين اسماً ، منذ القرن الثاني للهجرة النبوية ، وحتى القرن الرابع عشر لها[1]..

❁ ❁ ❁

أما الذين ألّفوا في رواية الغدير خاصة ، فقد ذكر منهم أسماء ستة

---

(١) ن . م - ١٨٥ .

(٢) ن . م - ص : ٦٩ - ١٣٩ .

(١) البداية و النهاية ج : ١١ - ص : ١٤٧ .

وعشرين من رجال مختلف المذاهب الإسلامية .

منهم أبو جعفر محمد بن جرير الطبري صاحب التاريخ المشهور ، حيث نقل عنه ابن كثير في كتاب (البداية والنهاية) عند ترجمته له قائلا :

(وقد رأيت له كتابا جمع فيه أحاديث غدير خم في مجلدين ضخمين) .

ومنهم أبو العباس احمد بن محمد بن سعيد الحافظ، المعروف بابن عقدة، له كتاب في الولاية في طرق حديث الغدير رواه بمائة وخمسة طرق . أكثر عنه النقل ابن الأثير في (أسد الغابة) ، وابن حجر في (الإصابة) .

وقال في فتح الباري: أما الحديث : (من كنت مولاه فعلي مولاه)، فقد أخرجه الترمذي والنسائي ، وهو كثير الطرق جدا ، وقد استودعها ابن عقدة في كتاب مفرد ، وكثير من أسانيدها صحيح وحسان .

ومنهم الحافظ أبو سعيد السجستاني، له كتاب (الدراية في حديث الولاية) في سبعة عشر جزءاً جمع فيه طرق حديث الغدير ، ورواه عن مائة وعشرين صحابيا . إلى غير هؤلاء الأعلام [(٢)] .

❁ ❁ ❁

كما أحصى (قدس سره) ممن صرح بصحة حديث الغدير أو تواتره ، من علماء الإسلام -من غير الشيعة الإمامية- اثنين وأربعين ، ممن يشهد لهم ذوو الخبرة بالتثبت والقدرة على تمحيص الأحاديث ، وتمييزها .

ومن هؤلاء العلماء :

---

(٢) يراجع كتاب الغدير – ج : ١ – ص :١٤٠– ١٤٥ .

الترمذي صاحب السنن المعروف ، قال في صحيحه -بعد نقله لحديث الغدير- : (هذا حديث حسن صحيح[١]) .

والطحاوي صاحب كتاب (مشكل الآثار) قال -بعد نقله لهذا الحديث-: (هذا الحديث صحيح الإسناد ولا طعن فيه[٢]) .

والحاكم النيسابوري في كتابه : (المستدرك على الصحيحين) حيث روى الحديث بعدة طرق وصححها جميعا، كما لاحظنا في الحديثين السابقين.

وابن عبد البر في (الاستيعاب) قال -بعد ذكره لحديث المؤاخاة وحديثي الراية والغدير- : (هذه كلها آثار ثابتة) .

والغزالي حجة الإسلام أبو حامد قال في كتابه (سر العالمين) ، (أسفرت الحجة وجهها ، واجمع الجماهير على متن الحديث من خطبته ﷺ في يوم غدير خم باتفاق الجميع ، وهو يقول : (من كنت مولاه فعلي مولاه) . فقال عمر : بخ .. بخ ... إلى آخره) .

وابن حجر العسقلاني قال في كتابه (فتح الباري في شرح صحيح البخاري) : وأوعب من جمع مناقبه (يعني علياً) النسائي ... إلى أن يقول : (وكثير من أسانيدها صحاح وحسان) .

وجلال الدين السيوطي نقل عنه زين الدين المناوي الشافعي في (فيض القدير) ، انه قال في حديث الغدير : (حديث متواتر) ، ونقل هذا القول عنه آخرون .

ومن هؤلاء أيضا : ضياء الدين المقبلي ، حيث عد حديث الغدير

---

(١) صحيح الترمذي – ج : ٢ – ص : ٢٩٨ .

(٢) مشكل الآثار –ج : ٢ – ص : ٣٠٨ .

في كتابه (الأبحاث المسددة في الفنون المتعددة) من الأحاديث المتواترة المفيدة للعلم. بل ونقل عنه قوله أيضا : (فان لم يكن هذا معلوما فما في الدين معلوم) .

ومنهم آخرون ذكرهم (قدس سره) ، وأسند مقولة كل واحد إلى مصادره التي وقف هو عليها [١].

نعم ، هذا بعض ما أحصاه الشيخ الأميني (قدس سره) في كتاب الغدير ، وهناك مجموعات أخرى تتبعت هذا الحديث ، ولا ننسى بهذا الصدد جهد المرحوم السيد شهاب الدين المرعشي (قدس سره) في تكملته لكتاب (إحقاق الحق) للسيد التستري (رحمه الله) ، فقد تتبع من أحاديث الولاية والغدير ما لم يبلغه الشيخ الأميني (قدس سره) أيضا ، ولكن بمنهج آخر [٢].

كما لا ننسى أيضا ما نقله السيد الفيروز آبادي في كتابه : (فضائل الخمسة من الصحاح الستة[٣]) ، ففيه مجموعة جيدة من هذه الأحاديث.

وهكذا يتضح ما يعنيه حديث الغدير من وضوح في كل العصور الإسلامية ، حيث يبدو ما في قول (المقبلي) من صدق :

(فان لم يكن هذا معلوما فما في الدين معلوم) .

❁ ❁ ❁

---

(١) يراجع كتاب الغدير – ج : ١– ص : ٢١٦–٢٨٠ .

(٢) يراجع كتاب إحقاق الحق وإزهاق الباطل – (ج : ٢ – ص : ٤٦٥– ٤٢٦) و (ج :٣ –ص : ٣٢٢– ٣٢٧) و (ج : ٦ – ص : ٢٢٥– ٣٧٨) – ط : طهران – ن : المكتبة الإسلامية – سنة : ١٣٨٢ .

(٣) يراجع كتاب (فضائل خمسة من الصحاح الستة وغيرها ..) – ج : ١.

الفصل السادس

الولاية في نصوص الإسلام

هذا ، وتكملة للحديث في الفصل السابق ، نشير إلى ان رسول الله ﷺ لم يكن هو الوحيد من مصادر الإسلام التي صرحت بولاية علي بن أبي طالب عليه السلام ، فالله -سبحانه- قد صرح في قرآنه الكريم بهذه الولاية أيضا ، إذ قال (تعالى) :

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ .[1]﴾ .

فقد تواتر لدى المسلمين عامة أن هذه الآية الكريمة قد نزلت في علي عليه السلام، حينما تصدق بخاتمه وهو راكع في الصلاة .

ومن الروايات الواردة في هذا ما أخرجه الهيثمي في كتاب (مجمع الزوائد) عن عمار بن ياسر قال :

(وقف سائل على علي بن أبي طالب وهو راكع في التطوع ، فنزع خاتمه فأعطاه السائل ، فأتى رسول الله ﷺ فأعلمه لذلك ، فنزلت على رسول الله ﷺ هذه الآية :

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ .﴾ .

---

(١) المائدة : ٥٥.

فقرأها رسول الله ﷺ ، ثم قال : (من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم و ال من والاه و عاد من عاداه))[١] .

ومما صرح به القران في ولاية علي عليه السلام أيضا ، قوله (تعالى) :
﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ .[٢]﴾ .

إذ روى الحاكم الحسكاني في كتاب (شواهد التنزيل) بسنده إلى أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام قال :

(تلك هي ولاية أمير المؤمنين التي لم يبعث نبي إلا بها)[٣].

بل وقبل هذا , فان ولاية علي عليه السلام هي بعض ما كتبه الله - سبحانه- على أبواب الجنة ، وأوراق أشجارها ، كما يرويه الحافظ جمال الدين محمد بن احمد الحنفي الموصلي في كتابه (در بحر المناقب) ، بسنده عن ابن مسعود قال :

(قال النبي ﷺ : لما أسري بي إلى السماء قال لي جبرئيل : قد أمرت بعرض الجنة والنار .. إلى ان قال : (والجنة لها ثمانية أبواب ، وعلى كل باب منها أربع كلمات ، كل كلمة منها خير من الدنيا وما فيها لمن يعلمها ويعمل بها . قال لي جبرئيل : فعلى الباب الأول مكتوب لا اله إلا الله محمد رسول الله علي ولي الله ...الخ)[٤]. وهو حديث طويل يذكر ان الأبواب الأخرى كتبت عليها هذه العبارة أيضا .

---

(١) مجمع الزوائد –ج : ٧ – ص : ١٧، ويراجع للمزيد من المصادر كتاب (فضائل من الصحاح الستة) –ج :٢ ص :١٧ ،كما يراجع كتاب (شواهد التنزيل) للحسكاني –ج :١–ص :١٦١–١٨٤ ، حيث روى نزول هذه الاية في علي عليه السلام عن رسول الله عليه واله وسلم بأكثر من اربعة وعشرين طريقا.

(٢) الكهف : ٤٤.

(٣) شواهد التنزيل –ج: ١– ص : ٣٥٦ .

(٤) إحقاق الحق – ج : ٥ –ص : ٢٨١ ، عن كتاب (در بحر المناقب) ص :٣١ ، مخطوط .

وفي حديث آخر روى ان هذه العبارة مكتوبة على أوراق أشجار الجنة كذلك [١].

❁ ❁ ❁

أما ما ورد عن الرسول ﷺ، فإن موقف الغدير لم يكن هو الموقف الوحيد الذي صرح فيه بولاية علي عليه السلام ، فهناك مواقف كثيرة أخرى ذكر فيها هذه الولاية وأسندها -بلفظها الصريح- إليه عليه السلام ، مما يعني انه ﷺ كان يستغل كل فرصة مناسبة للتأكيد على بيان هذا المنصب العظيم ، وتعيين علي عليه السلام فيه ، وإقامة الحجة به على الناس ، لا في تلك الحقبة القصيرة من حياته ﷺ بل في كل الحقب ، وعلى مدى تاريخ الإسلام وإلى يوم القيامة .

ومن هذه المواقف : ما ورد في قضية بريدة المشهورة في كتب الحديث ، إذ نقل الحفاظ عنه -كما في لفظ الحاكم في (المستدرك)- انه قال :

(غزوت مع علي إلى اليمن ... إلى أن قال : فقدمت على رسول الله ﷺ فذكرت عليا فتنقّصته ، فرأيت وجه النبي ﷺ يتغير ، فقال : يا بريدة ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم ؟ .

قلت : بلى يارسول الله .

فقال : من كنت مولاه فعلي مولاه) [٢].

ومنها كذلك قضية أسامة مع علي عليه السلام ، وهي مشابهة للقضية

---

(١) نفس المصدر السابق .

(٢) المستدرك على الصحيحين -ج :٣ - ص :١١٠ ، وللمزيد من المصادر يراجع كتاب (فضائل الخمسة من الصحاح الستة) ج : ١ - ص : ٣٥٤ وما بعدها .

السابقة.

هذا إضافة إلى موارد أخرى كثيرة يراها المتتبع في أكثر مصادر سنّة الرسول ﷺ .

وقد كان الرسول ﷺ يستعمل كلمة الولاية في اشتقاقاتها المختلفة، وكأنه يريد بذلك رفع أي إجمال يمكن أن يدعيه مدع ، ليعتذر به معتذر عن الاستقامة مع الولاية ، أو ليتنكب طريقها في إتباعه لدين الله (تعالى) ، وليثبت ﷺ أن أمر الولاية أوضح وأعظم من أن يلتبس على أحد من الناس .

فهو ﷺ قد يستعمل لفظ المولى ، أو الولي ، أو وليكم ، أو غير ذلك من مشتقات هذه المادة .

وهكذا بقي ﷺ يؤكد هذه المقولة في علي عليه السلام حتى قبيل وفاته ﷺ بلحظات .

إذ أخرج محمد بن احمد الحنفي الموصلي، بسنده عن حارثة بن زيد، قال :

(شهدت مع عمر بن الخطاب حجته في خلافته ، فسمعته يقول : (اللهم قد عرفت بحبيي (كذا) لنبيك وكنت مطلعا من سرك (كذا) . فلما رآني امسك ، وحفظت الكلام ، فلما انقضى الحج وانصرفت إلى المدينة تعمدت الخلوة به ، فرأيته يوما على راحلته وحده ، فقلت له : يا أمير المؤمنين بالذي هو أقرب إليك من حبل الوريد إلا أخبرتني عما أريد أن أسالك عنه .

قال : سل عما شئت .

قلت : سمعتك يوم كذا وكذا تقول : كذا وكذا . قال : فكأني ألقمته حجرا .

فقلت له : لا تغضب ، فوالذي أنقذني من الجاهلية وأدخلني في الإسلام ما أردت بسؤالي إلا وجه الله ﷻ .

قال : فعند ذلك ضحك ، وقال : يا حارثة ، دخلت على رسول الله ﷺ وقد اشتد وجعه ، وأحببت الخلوة به ، وكان عنده علي بن أبي طالب والفضل بن العباس ، فجلست حتى نهض ابن عباس ، وبقيت أنا وعلي ، فتبين لرسول الله ﷺ ما أردت .

فالتفت إلي وقال : جئت لتسألني إلى من يصير الأمر من بعدي؟ .

قلت : صدقت يارسول الله .

فقال : يا عمر ، هذا وصيي وخليفتي من بعدي .

فقلت : صدقت يارسول الله .

فقال : هذا خازن سري ، فمن أطاعه فقد أطاعني ، ومن عصاه فقد عصاني ، ومن عصاني فقد عصى الله ، ومن تقدم عليه فقد كذّب بنبوتي .

ثم أدناه فقبل بين عينيه ، وقال : وليك الله وناصرك ، والى الله من والاك، فأنت وصيي وخليفتي من بعدي في أمتي .

وعلا بكاؤه ، وانهملت عيناه بالدموع حتى سالت على خده ، وخده على خد علي . فوالذي منّ علي بالإسلام ، لقد تمنيت في تلك الساعة ان أكون مكانه على الأرض .

ثم التفت عليه السلام وقال لي : إذا نكث الناكثون ، وقسط القاسطون ، ومرق المارقون ، فأقر هذا مقامي حتى يفتح الله عليه وهو خير الفاتحين.

قال حارثة : فتعاظمني ذلك ، فقلت : ويحك يا عمر! كيف تقدمتموه وقد سمعت ذلك من رسول الله ﷺ ؟ .

فقال : يا حارثة بأمر كان .

فقلت : من الله أم من رسوله ام من علي ؟ .

فقال : لا ، بل الملك عقيم ، والحق لابن أبي طالب)[١] .

***

مرادفات الولاية في النصوص

أما ما ورد في كتاب الله الكريم ، وعن الرسول ﷺ مما يستقيم مع مفهوم هذه الولاية ، أو يعتمدها ، أو يتفرع عنها -وان لم يذكر بواحد من مشتقاتها- فهو أكثر من ان يحصى ، بل وأكثر من ان يشار إليه إشارة وافية في هذا الموقف السريع ، ويكفينا ان نعلم :

أن عليا عليه السلام كان مع محمد ﷺ نورا واحدا بين يدي الله (عز وجل) قبل ان يخلق ادم عليه السلام بأربعة عشر الف عام ، فلما خلق الله ادم عليه السلام قسم ذلك النور جزأين ، فكان الرسول ﷺ جزءا ، وكان علي عليه السلام جزءا[٢] .

وأن الرسول ﷺ وعليا عليه السلام كانا من طينة واحدة ..[٣]

وأنهما من شجرة واحدة والناس من شجر شتى ..[٤]

وان الله (سبحانه) قد اختار عليا عليه السلام كما اختار محمدا ﷺ[١] .

وان الله (تعالى) قد أيد الدين به[٢] .

---

(١) إحقاق الحق -ج : ٤ -ص : ٨١ ، عن كتاب (در بحر المناقب) .

(٢) فضائل الخمسة من الصحاح الستة - ج : ١- ص : ١٦٨ عن كتاب (الرياض النضرة) - ج :٢- ص : ١٦٤ و (ميزان الاعتدال) ج : ١ - ص٢٣٥ .

(٣) مجمع الزوائد - ج : ٩ -ص : ١٢٨.

(٤) المستدرك على الصحيحين - ج : ٢ -ص : ٢٤١ وغيره . ويراجع فضائل الخمسة من الصحاح الستة .

(١) المستدرك - ج : ٣ -ص : ١٢٩ ، وأسد الغابة - ج : ٤ -ص : ٤٢ .

وانه خليفة رسول الله ﷺ في أمته[٣].

وأنه وصي رسول الله ﷺ وموضع سره ، وخير من ترك بعده ، ينجز عدته ، ويقضي دينه[٤]...وهكذا.

ولا نفيض في هذه الإشارات أكثر ، فكما قلت : إنها أوسع من ان تستوفي بمثل هذه السرعة ...

على أن مناقب علي عليه السلام ونصوص الرسول في حقه ، أوضح من ان تخفى على متتبع ، وأقرب من أن تبعد عمن يروم الاطلاع عليها .

ويكفينا ان نتذكر ما قاله عمرو بن العاص لبرد في حديثه الذي نقلناه سابقاً ، حينما استنكر عليه برد إيقاعه بعلي عليه السلام :

(وأنا أزيدك : انه ليس احد من صحابة رسول ﷺ له مناقب مثل مناقب علي) .

وفي هذا المضمون يقول الإمام أحمد بن حنبل أيضا :

(ما روي لأحد من أصحاب رسول الله ﷺ من الفضائل الصحاح ما روي لعلي بن أبي طالب)[٥] .

وبعد ، فان هذا الوضوح الذي كان لولاية علي عليه السلام ولحجة الله (تعالى) فيها على الأمة ، هو الأساس الذي اعتمده الإسلام في إلقاء مسؤوليتها على أعناق البشرية .

بل واعتمده في تحديد هذه المسؤولية بمستوى الدرجة التي أعدها

---

(٢) الدر المنثور للسيوطي –ج : ٤ – ص : ١٥٣ وذخائر العقبى – ص : ٦٩ .

(٣) مجمع الزوائد –ج : ٩ –ص : ١١٣ وتهذيب التهذيب – ج : ٢ – ص : ٦ .

(٤) شواهد التنزيل للحسكاني –ج : ١ – ص : ١٩ .

(٥) شواهد التنزيل للحسكاني ج١ ص١٩.

الله لهذه الولاية في كيان الإسلام ، ودورها الأساس فيه ، حيث لم يتم للإسلام وجود بدونها -كما صرحت بذلك آية الإكمال- .

وكما لم يتم للإسلام وجوده -ككيان قائم- بدون تبليغ الرسول ﷺ لهذه الولاية ، وإقامة الحجة بها على الناس ، كذلك لا يتم استمساك المرء بهذا الدين ، دون أن يجعلها في موقعها المناسب من هذا الاستمساك ، أو يفي بمسؤولياتها الكبرى في الحدود التي حمّله الله إياها أيضا .

فقد روى أبو سعيد الخدري قال : ان النبي ﷺ قال : (وقفوهم إنهم مسؤولون عن ولاية علي)[1] .

وعن أبي بكر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (ان على الصراط لعقبة لا يجوزها احد إلا بجواز من علي بن أبي طالب)[2] .

أما حين يركب الإنسان رأسه ، ويتمادى في الغي ، ويخالف ما أقيم له من الحجج والبينات في أمر هذه الولاية ، فمن الطبيعي ان يترقب ما يستحقه من الجزاء المناسب لتقصيره بحقها ، وبمستوى ذلك الدور الذي أعد لها ، وتلك الأهمية التي أنيطت بها أيضا .

وهكذا فمن أبغض عليا فقد أبغض الله ﷻ[3] .

وان بغض علي هو من النفاق[4] .

وان من فارقه فقد فارق الله ﷻ[1] .

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص١٠٧ والصواعق المحرقة ص٨٩.

(٢) فضائل الخمسة من الصحاح الستة ج٣ ص١٠٤ عن تاريخ بغداد ج١٠ ص٣٥٦ ومصادر أخرى.

(٣) يراجع فضائل الخمسة – ج : ٢ – ص : ٢٠٠-٢٠٧ لمعرفة مصادره .

(٤) ن.م – ص : ٢٠٧-٢١٢ .

(١) ن.م – ص : ٢٢٨-٢٢٩ .

وان الله يعادي من عادى عليا [٢] ...

وان من ظلم عليا مقعد رسول الله ﷺ من بعده فقد كذب بنبوته ﷺ وبنبوة الأنبياء قبله [٣].

والروايات الواردة في هذه المضامين أكثر من ان تحصى أيضا.

ومن ان الحري ان نشير إلى ان جهودا مشكورة كثيرة بذلت في جمع الروايات الواردة في حق علي عليه السلام ومناقبه، في مجموعات تسهل متابعتها والإطلاع عليها، لمن يرغب بمثل هذا الإطلاع.

ويمكنني ان اذكر هنا من تلك المجموعات:

كتاب (فضائل الخمسة من الصحاح الستة وغيرها من الكتب المعتمدة عند أهل السنة والجماعة) للسيد مرتضى الفيروزابادي.

وكتاب (الغدير في الكتاب والسنة والأدب) للشيخ عبد الحسين الاميني.

وكتاب (إحقاق الحق وإزهاق الباطل) للسيد التستري .مع ملحقاته الوافية للسيد شهاب الدين المرعشي النجفي.

وكتاب (ينابيع المودة) للقندوزي، و(ذخائر العقبى في فضائل ذوي القربى) للمحب الطبري، و(شواهد التنزيل لقواعد التأويل) للحاكم الحسكاني الحنفي ... وغيرها.

❁ ❁ ❁

تواتر المضامين المشتركة للنصوص

وحينئذ، فمع هذا الاهتمام الإسلامي بعلي عليه السلام وبولايته، وهذا

---

(٢) ن.م – ص: ٢٢٩.

(٣) شواهد التنزيل – ج: ١ – ص: ٢٠٧.

التواتر الذي فرضهما الإسلام على مختلف مصادره في مختلف الاتجاهات المذهبية والدراسات الإسلامية ، فان المناقشة إن أمكنت في صحة بعض النصوص الواردة في هذا المجال ، أو في دلالته على المطلوب ، إلا أن اجتماعها -بهذه الكثافة ، وبهذا التركيز من القران كتاب الله ، ومن ولي الحق الأول محمد ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى ، وبهذه العناية التي واكبت هذه النصوص من علماء المسلمين ، ورواتهم كافة -على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم-، ولا سيما في تلك الحقب المظلمة من تاريخ الإسلام ، التي كانت لها مواقفها السلبية المشهودة من علي عليه السلام وولايته .

أقول : فان المناقشة لو أمكنت في صحة البعض ، أو في دلالته كحالات جزئية خاصة في هذا الحديث أو ذاك ، إلا أنها غير محتملة أبدا في المضامين العامة لهذه النصوص بأجمعها .

لأن توفرها بهذا الشكل الواسع -ولاسيما مع تلك الظروف القاسية مع الولاية وعلي عليه السلام- مما ينفي أي احتمال بوهنها ، أو يوهن مضمونها المشترك لها ، أعني التزام الإسلام للولاية ، ولعلي عليه السلام ، وارتضاء الله إياه ولياً بعد الرسول ﷺ .

على أننا ينبغي ان نلتفت إلى ان الروايات الواردة في مثل هذه المضامين -وكما يقول الشيخ محمد حسن المظفر في كتاب (دلائل الصدق)- : (مما يقطع عادة بصحتها ، لان كل رواية لهم في مناقب أهل البيت عليهم السلام ، ومثالب أعدائهم محكومة بوثاقة رجال سندها وصدقهم في تلك الرواية ، وان لم يكونوا ثقاة في أنفسهم ، ضرورة أن ما تعرف به وثاقة الرجل وصدقه في الرواية التي يرويها : عدم اغتراره بالجاه والمال ، وعدم مبالاته في سبيلها بالخطر الواقع عليه ، فان غير الصادق لا

يتحمل المضار بأنواعها لأجل كذبة يكذبها لا يعود عليه منها نفع ، ولا يجد في سبيلها إلا الضرر) .

(ومن المعلوم أن من يروي في تلك العصور السالفة فضيلة لأمير المؤمنين عليه السلام ، أو منقصة لأعدائه فقد غرر بنفسه ، وجلب البلاء ، كما هو واضح لكل ذي أذن وعين) .

(ذكر الذهبي في (تذكره الحفاظ) بترجمة الحافظ ابن السقا عبد الله بن محمد الواسطي ، قال : إنه أملى حديث الطير في واسط ، فوثبوا به وأقاموه وغسلوا موضعه) .

(وذكر ابن خلكان في (وفيات الأعيان) بترجمة النسائي احمد بن شعيب صاحب السنن (احد الصحاح الستة) : أنه خرج إلى دمشق فسئل عن معاوية ، وما روي في فضائله فقال : (أما يرضى معاوية ان يخرج رأسا برأس حتى يفضّل) .

وفي رواية أخرى : (لا أعرف له فضيلة إلا (لا أشبع الله بطنه)) .

فما زالوا يدفعون في حضنه ، و(في رواية يدفعون في خصييه) ، وداسوه حتى حمل إلى الرملة ومات بها .. الخ) .

وهذه الناحية -التي أشار إليها الشيخ المظفر في الفقرة السابقة- قضية ارتكازية معروفة بين الناس ، ولها دلالاتها التي لا ينكرها أحد منهم في تصحيح ما ينقل من الأخبار عامة ، وفي مختلف نواحي الحياة ، لأنها نوع من شواهد الحال التي ترفع احتمال الصدق في خبر المخبر ، مقابل احتمال الكذب فيه .

وحتى لو غضضنا النظر الآن عن هذه الناحية ، فان ذلك المضمون المشترك للروايات الواردة في علي عليه السلام وولايته ، تبقى في مأمن من أي ريب وان أمكنت المناقشة في بعض الروايات الواردة فيه -كما قلت- .

فان ورود قضية من القضايا بطرق مختلفة ، وبكيفيات مختلفة ، ومن مصادر مختلفة ، مما يوهي احتمال كذبها ، حيث تتناقص قيمة هذا الاحتمال مع كل طريق ترد فيه ، ومع كل كيفية ترد عليها ، ومع كل مصدر يذكرها، حتى يتلاشى احتمال الكذب فيها تماما ، ولا تبقى له أي قيمة يمكن ان تسبب الشك أو الريب فيها .

وهذا هو المعروف في كيفية دلالة القضية المتواترة على اليقين عند تحليلها.

بل وهذا هو السبب في حصول اليقين في جميع القضايا اليقينية غير البدهية أيضا ، إذ اليقين فيها ينشأ نتيجة لتضاؤل احتمال الكذب أو المخالفة فيها مع كل حالة يثبت فيها صدقها ، فهو ينشأ بشكل قهري لا يستطيع العقل تجاوزه بحال .

ولا يمكن التفكيك بين هذا اليقين الحاصل من القضية المتواترة واليقين الحاصل من غيرها من القضايا اليقينية الأخرى المعروفة ، كالبدهية والحسية والحدسية ، فان استبعاد هذا اليقين الناشئ من التواتر عن الاعتبار ، مما يحيل على الإنسان ان يمضي في المعرفة خطوة واحدة ، لتداخل عوامل اليقين حتى في أبسط قضاياه ، بل واستبعاد هذا اليقين مما يحيل على الحياة الإنسانية ان تجري على طبيعتها في أي جانب من جوانبها ، فاعتماد الحياة والمعرفة والخبرة على القضايا المتواترة مما لا يحتاج إلى بيان .

ومن هنا قيل في علم الأصول بأن حجية القطع أو العلم ذاتية ، لا تحتاج إلى جعل من الشارع ، لأن القطع إذا احتاج في حجيته إلى جعل لم يمكن جعل الحجية بأي حال من الأحوال ، إذ أقصى ما ينتظر في هذا الجعل هو العلم به ، فلو لم يكن هذا العلم حجة في نفسه احتاج -

بدوره- إلى جعل .. وهكذا .

أما المجلات الدينية ، فان للقضايا المتواترة دورها الأكبر فيها ، إذ تواتر النقل عن المشرع هو القمة التي يأملها الدين في ثبوت ما يرد عن ذلك المشرع لدى اتباعه ، وإقامة حجته أمام بصائرهم ، فاستبعاد اليقين الناشئ من هذا التواتر عن الاعتبار معناه الحكم على هذا الدين بالموت والفناء من أساس .

وطبيعي أن لا يخرج الإسلام -بدوره- عن هذا الخط العام من نهج المعرفة الإنسانية أيضا .

فقد شاءت حكمة الله (تعالى) للإسلام -وكما علمنا- ان يمضي في تشريعه ، وفي مناهجه ، وفي بيان حقائقه ، مع الفطرة ومع مستلزماتها ، ومع حدودها وتوجهاتها العامة .

ولهذا السبب فقد كان اعتماده الأساسي في إقامة كيانه في حياة الإنسان ، ونشر هداه ، وإتمام حجته على العباد ، على التواتر بعد بداهة العقول ، وما ينشأ عنها ، أو ينتهي إليها من موجبات اليقين ، ولهذا فقد كان يستخدم مختلف الوسائل التي تمكن حججه من بلوغ درجة التواتر ، لتحصيل العلم واليقين بها قبل أن يجعلها في عهدة الناس ويلزمهم بها ...

ولهذا فلو شاء أحد من الناس ان يستبعد -ولو- بعض قضايا الإسلام المتواترة عن الاعتبار والحجية ، أو يغض عن العلم الناشئ منها -كما يحلو للبعض ولا سيما في العلاقة مع علي وأهل البيت عليهم السلام-، فان هذا يعني نسف كيان الإسلام من أساس ، والحكم على حقائقه كافة بالموت ، إذ لا يمكن التفكيك -وكما قلت سابقاً- بين يقين وآخر ، ولا بين قضية متواترة وأخرى ، وهي نتيجة لا يرتضيها مسلم لنفسه .

ولهذا فبعد ثبوت التواتر في كل من الولاية وارتضاء علي عليه السلام ولياً لها ، فلا بد من اعتماد هاتين الحقيقتين كأي حقيقة يقينية إسلامية أخرى ثبتت بهذا السبب ، وبنفس الدرجة من الاعتماد والوضوح ، دون أي تفرقة ، وإلا لم يمكن إثبات أي حقيقة إسلامية أخرى ، مهما كانت أهميتها في دين الله (تعالى) ، وكما قال المقبلي : (فان لم يكن هذا معلوماً فما في الدين معلوم) .

❁ ❁ ❁

وضوح ولاية علي عليه السلام لدى المسلمين

وهكذا يبدو أن التزام الإسلام لولاية علي عليه السلام التزام قطعي الثبوت ، واضح الحجة ، لا في زمن الرسول صلى الله عليه وآله وحده ، ولا في هذه العصور الحاضرة فحسب ، وإنما في مختلف الحقب التي مر ويمر بها تاريخ الإسلام ، وبيناتها جلية واضحة ، سهلة المنال لكل احد يتطلع إلى الحق ليستمسك به ، سواء في إثباتها لنفس الولاية لعلي عليه السلام ، أم في تبيين معناها ، أم في تعيين موقعها من دين الله (عز وجل) .

فما كانت هذه النصوص المتواترة ، الواردة في مختلف الروايات – وبهذه الألسن التي عرفناها- لتفتعل على الإسلام ، أو على مشرّعه (تعالى) ، دون اعتماد منه .

كما لم يكن ورودها عنه وعن مصادره التي اعتمدها لمجرد إضفاء صفات المدح والثناء على علي عليه السلام ، دون سند مناسب يرتضيه هو من الحق ومن دلائله .

نعم ، ما كان هذا الاهتمام الكبير من الله (تعالى) ومن دينه الحق ، ومن حجته في القران ، وفي منطق الرسول صلى الله عليه وآله ، كله مجاملة لعلي عليه السلام دون أي اعتبار خاص في كيان هذا الدين العظيم وفي حجته البالغة ،

ففيوض الله لا مجاملة فيها ، وهي لا تكال جزافا على أحد ، فتعالى الله عن النقص ، وتعالت حكمته عن العبث .

ولهذا فان أي تجاوز لهذه الحقيقة الإسلامية الكبرى ، ومن أي احد من الناس صدر ، ولأي سبب من الأسباب كان ، اكبر من ان يعتذر عنه –في منطق الحق– بعذر ، فضلا عن ان يسمح للمتجاوز بأن يتطاول على هذا الصرح الإسلامي المكين ، أو على وليه العظيم ، بل إن هذا التطاول–أو حتى التشكيك بعلي عليه السلام ، أو بمنصبه– مما يلقي بظلال قاتمة على المتطاول أو المشكك نفسه ، دون أن ينال غرضا من الإسلام ، أو من الولاية ، أو من علي عليه السلام :

«وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ، إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ» .

وهذه الحقيقة مما يعلمه حتى أولئك الذين اجتهدوا في ولاية علي عليه السلام ، أو أولئك الذين عارضوا تسليم لواء القيادة الإسلامية إليه بعد الرسول صلى الله عليه وآله .

بل وهذا مما يعلمه حتى أولئك الذين سلبوه حقه في مركز القيادة التي أنيطت به مسؤولياته بعد الرسول صلى الله عليه وآله ، وزعامته للأمة المسلمة بعد فقده .

وكم أثبت التاريخ من كلمات الاعتراف بالخطأ ، والشعور بالذنب صدرت من أولئك المجتهدين في لحظة من لحظات الصفاء ، أو في ساعة من ساعات الضعف الإنساني أمام هذه الحقيقة الكبرى ، أو لأسباب أخرى .

وقد قرأنا شطرا من هذه الكلمات سابقاً ،كما في موقف سعد بن أبي وقاص ، حينما أخبره رجل بأن عليا يقع فيه ، لأنه تخلّف عنه ، إذ لم يجد عذراً إلا ان يقول : (والله إنه لرأي رأيته وأخطأ رأيي) .

وفي موقف طلحة بن عبيد الله ، حينما احتج عليه أمير المؤمنين يوم الجمل بحديث الولاية ، إذ لم تسعفه حجته إلا ان يقول : (نسيت ولم أذكر) ..

أو -كما قرأناه في رواية المسعودي لهذه المناشدة أن طلحة قال : (أستغفر الله) . ثم رجع [1] .

نعم ، أستغفر الله ، إذ مثل هذا الموقف الذي يقفه طلحة تجاه علي عليه السلام ليس له -في موازين الحق والإسلام- إلا الاعتراف بأنه من الذنوب التي يستغفر الله منها .

وفي موقف عمر بن الخطاب في حديثه مع حارثة بن زيد حينما قال له :

(كيف تقدمتموه وقد سمعت ذلك من رسول الله صلى الله عليه وآله ، حيث لم يجد من العذر إلا ان يقول : (يا حارثة بأمر كان) .

وحينما يتمادى حارثة بالسؤال عن مصدر هذا الأمر (من الله ، أم من رسوله ، أم من علي) لم يستطع إلا ان يقول : (لا ، بل الملك عقيم ، والحق لابن أبي طالب) .

وما كان أبو حفص لينطق بهذه الكلمة لو لم تكن الولاية بدرجة من الوضوح لا يمكن له الاعتذار معها بغير هذا الاعتراف الرهيب .

ولم يكن موقفه هذا هو الوحيد منه ، فقد روي له العديد من المواقف المشابهة ...

منها ما رواه الراغب الاصفهاني في (المحاضرات) عن ابن عباس قال :

---

(١) الغدير : ج : ١ – ص : ١٧١ عن مروج الذهب – ج : ٢ – ص : ١١.

كنت أسير مع عمر بن الخطاب في ليلة ، وعمر على بغل وأنا على فرس ، فقرأ آية فيها ذكر علي بن أبي طالب ، فقال : أما والله يا بني عبد المطلب لقد كان علي فيكم أولى بهذا الأمر مني ومن أبي بكر .

فقلت -في نفسي- : لا أقالني الله إن أقلته . فقلت : أنت تقول ذلك يا أمير المؤمنين وأنت وصاحبك عدوتما عليه وأفرغتما الأمر منا دون الناس ؟ .

فقال : إليكم يا بني عبد المطلب ، أما إنكم أصحاب عمر بن الخطاب . فتأخرت وتقدم هنيئة . فقال : سر لا سرت . وقال : أعد علي كلامك .

فقلت : إنما ذكرت شيئاً ورددت عليك جوابه ، ولو سكت سكتنا .

فقال : إنا -والله- ما فعلنا الذي فعلناه عن عداوة ، ولكن استصغرناه ، وخشينا أن لا يجمع عليه العرب وقريش لما قد وترها .

فأردت أن أقول : كان رسول الله ﷺ يبعثه إلى الكتائب فينطح كبشها فلم يستصغره ، أفتستصغره أنت وصاحبك ؟ .

فقال : لا جرم ، فكيف ترى ؟، والله ما نقطع أمرا دونه ، ولا نعمل شيئا حتى نستأذنه [١].

وواضح من استعمال أبي حفص لهذه الكلمة أنه كان يعترف لعلي عليه السلام بموقعه في قيادة الأمة والإسلام ، وأنه لابد أن يذعن له في ميزان الحقيقة ، وإن كان هو وأبو بكر السبب في تنحيته عنه بعد الرسول ﷺ .

وسيأتينا مثل هذا الاعتراف أيضاً في موقف عمرو بن العاص في

(١) الغدير - ج : ١ - ص : ٣٤٦ عن المحاضرات للراغب الاصفهاني - ج : ٢ - ص : ٢١٣ .

قصيدته الجلجلية التي أرسلها إلى معاوية :

وما دم عثمان منج لنا من الله في الموقف المخجل

وان علياً غداً خصمنا ويعتز بالله والمرسل

يحاسبنا في أمور جرت ونحن عن الحق في معزل

فما عذرنا يوم كشف الغطا لك الويل منه غداً ثم لي

ولا نطيل في نقل مثل هذه الكلمات ، ففي ما ذكرناه كفاية .

وبعد ، فهي كلمات موجودة في مختلف كتب السير والتاريخ .

إذن فوضوح الالتزام الإسلامي لولاية علي عليه السلام مما لا ريب فيه ، سواء في ثبوت الحجة الإلهية فيها ، أم في دلالة هذه الحجة ، وبيان مفهومها الإسلامي المطلوب ، ام في أي شأن آخر من شؤونها .

وبهذا الوضوح يستقيم ما قرأناه من رواية أبي سعيد الخدري عن الرسول صلى الله عليه وآله في ورود قوله (تعالى) : ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ ، (عن ولاية علي) .

فان السؤال الإلهي والحساب لجميع الأمة على موقفها من الولاية غير ممكنين ما لم يكن وضوح الحجة بها ثابتاً لكل بصيرة ، قائماً على فرد من أفرادها ، كما أن العقوبة على مخالفة مقتضياتها غير واردة بدون هذا الوضوح الشامل أيضا ، قال (تعالى) :

﴿وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ.[1]﴾.

---

(١) التوبة:١١٦.

البَابُ الثَّالِث

الولاية والواقعية الإسلامية

تمهيد

بعد استكمال الحديث في وضوح ولاية علي عليه السلام ، وما يعنيه هذا الوضوح من دلالات مهمة في الولاية ومسؤولياتها ، نقف في هذا الباب عند الشرطين الآخرين من شرائط الحق في دين الله (تعالى) ، تلك الشرائط التي لابد من تحققها وتجليها في أي حقيقة من حقائق هذا الدين، وفي أي مظهر من مظاهره ، ومنها -بالطبع- هذه الولاية .

وهذان الشرطان هما :

أولا : ضرورة اطراد التطابق الإسلامي مع الواقع ، وانتظامه مع حكمة الله فيه .

ثانيا : ضرورة استقامة هذا التطابق مع متطلبات هذا الواقع في أي شأن من شؤونه كذلك ، دون أدنى خلل أو تفاوت ، سواء على مستوى الاعتبار ، أو المنهجة أو التشريع ، أو غير ذلك من المجالات .

فبهذين الشرطين -إضافة إلى شرط الوضوح- يستكمل الإسلام مقوماته في الوجود .

إلا أننا -وقبل الدخول في الحديث حول هذين الشرطين- ينبغي لنا ان نلتفت إلى طبيعة هذه الولاية ، في بعض مكوناتها المهمة التي لابد من أخذها بالاعتبار في حديث كهذا الذي نحن فيه .

ونقف هنا عند جانبين منها ، لهما أهميتهما الخاصة في الموضوع :

❁ ❁ ❁

الجانب الأول : كيان الولاية

ينبغي لنا أن نلتفت –في البدء- إلى أن الولاية كيان مكون من بعدين اثنين، لكل منهما خصائصه ومميزاته ، ولكل منهما كذلك ضروراته ومستلزماته .

البعد الأول : الانتساب إلى الله ﷻ

فالولاية -كما علمنا- هي إحدى الحقائق الإسلامية الكبرى ، فهي ترد ضمن دعائم الإسلام التي يعتمد عليها وجوده في حياة الإنسان ..

فهي –من خلال هذه الملاحظة- أحد مجالي اللطف الإلهي بالإنسان ، ومظهر من مظاهر رحمته بالعباد ، ورعايته لهم بكفاية حاجاتهم من مناهج الحق، وسبل الرشاد والهدى .

وحينئذ ، فلابد من الأيمان باستحالة القصور فيها عن أي من شؤون الحق ومتطلباته ، وامتناع تفاوتها مع شيء من مقتضياته ، لا في مفهومها فحسب ، ولا في حدودها ، ولا في مستلزماتها وأحكامها ، ولا في أدوارها الكبرى في دين الله ﷻ ، أو في حياة الإنسان ، إذ هو القاعدة التي أقيم عليها كيان الإسلام ذاته ، وأي قصور أو تفاوت يتصور فيها ، مما ينعكس على كمال الله –سبحانه- ، الذي أنزل هذا الدين ، وضمن رعايته ، وهذا محال -كما نعلم- إذ تعالى كمال الله عن أي نقص ، وتعالت حكمته عن أي تفاوت .

ومن الضروري أن تمضي هذه القضية -بجميع دقائقها وبعادها- مع سعة رسالة محمد خاتم الأنبياء ﷺ في الحياة ، واستيعابها للبشرية كافة ، في جميع أزمنتها وأمكنتها وحضاراتها ، ومستوياتها الفكرية والعلمية ، لما تعنيه ولاية علي عليه السلام -وفي كل شأن من شؤونها العامة والخاصة- في كيان الإسلام ، وارتباطها الوثيق مع حقائقه الأخرى .

﴿ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ.[١] ﴾ .

البعد الثاني : المظهر الإنساني

فمع أن الولاية تعتبر إحدى الحقائق الإسلامية الكبرى ، إلا أنها - في واقعها الفعلي ، وكما هو الشأن في الرسالة نفسها- منصب إنساني ، لا بد ان تسند إلى شخص معين من الناس ، حيث يستحيل تحققها بدونه .. وهنا تكمن المفارقة ..

فمع أن الإنسان قد فطر على اتباع الحق في ذاته ، إلا أنه -وكما رأيناه في مباحث سابقة- قاصر في نفسه عن استيعاب جميع معالم الحق وشرائطه بشكلها المطلق الذي يستوجبه توحده معها -وكما يقتضيه الاصطفاء الرباني- ومن أهم أسباب هذا القصور التي ينبغي ان نقف عندها هنا :

١- إن الإنسان إنما يتعامل مع الوقائع والأمور من خلال ما يملكه عنها من تصور ، ومعروف ان تصور الإنسان كما يتأثر بواقع هذه الأمور ، يتأثر كذلك بحدود الطاقات والامكانات الذاتية ، التي يحملها الإنسان نفسه ، وهي -كما نعلم- محدودة الآفاق والفاعلية .

إذ هي -وبالرغم من تفوق الإنسان فيها على غيره من مخلوقات هذه الأرض- اقصر من ان تستوفي كل حقائق الأشياء ، وأضيق من ان تستوعبها ، دون رفد من المدد الرباني الخاص ، وقد لاحظنا أن تطلع الإنسان إلى المزيد من المعرفة هو من أوضح الأدلة على هذا القصور .

٢- ان الإنسان وليد عصره ، وهو ابن بارّ للوسط الذي يعيش فيه، وهذا هو المشهود في عامة الناس ، مما يعني ان للعصر الذي يعيش فيه

---

(١) المائدة : ٦٧

الإنسان، والمستوى العام للمعرفة ، واتجاهاتها الغالبة في ذلك الوسط (وغير ذلك) ، أحكامها المؤثرة في تربية طاقات الفرد وتوجهاته ، كما كان لها آثارها في تكوين السمات الأخرى لشخصيته ومزاياها .

ومما يلاحظ -في تأثر الإنسان بما حوله من العوامل- انه كما يكون شعورياً في بعض الأحيان ، حيث يجري في حدود الخبرة والوعي ، يكون في أحيان أخرى لا شعورياً ، إذ يمضي في توجيه الشخصية ومكوناتها ، ومواقفها مما وراء الشعور .

وللدراسات النفسية الحديثة خطواتها الجيدة في معرفة اللاشعور ، ودوره في شخصية الإنسان وتأثيره عليها ، فهو في بعض الحالات قد يكون أكبر تأثيراً عليها من الشعور نفسه ، وقد يكون ذا خطر كبير عليها حين ينحرف عن قويم السبيل .

ولأنه غير داخل عادة في مجال رؤية الإنسان ، ولا يمكن متابعته ومعرفة سلبياته بسهولة ، فإن معالجة انحرافاته وتأثيره على كيان شخصية المرء صعبة المنال .

❁ ❁ ❁

وملاحظة هذين العاملين المتأصّلين من أسباب القصور الإنساني -من جهة-، والاقتران الفعلي بين بعد الحق المطلق والبعد الإنساني في مفهوم الولاية الإسلامية ، وفي تحققها الفعلي -من الجهة الأخرى- ، ستثير العديد من الأسئلة المهمة التي لا بد لنا من ان نصل إلى إجابة كافية حولها ، تتناسب ووضوح الولاية في دين الله (تعالى) .

إذ كيف يمكن اقتران ذلك البعد المطلق للحق ، وشرائطه مع هذه الحدود الإنسانية القاصرة ؟ .

وكيف يمكن لهذه الحدود ان تستوعب شرائط الحق كافة ، بما لها من

حدية يستحيل فيها التفاوت والانحراف ؟ .

وطبيعي ان لا تستبعد الإجابة -في الوقت نفسه- حدود الإدراك الإنساني العام في تعامله مع هذه الولاية ، إذ هو الركن الأساس في قدرة الإنسان على الوفاء بمسؤوليتها ، والاستجابة لمقتضياتها ، والانقياد إليها ..

كما لا تستبعد كذلك المجتمع الإنساني كوسط تجري فيه فاعلية الولاية وقيادتها للحياة .

ولا تستبعد -في الوقت نفسه- اختلاف السبل والاتجاهات الإنسانية العامة ، كمجال تتحدد به الحجة الإلهية في هذه الولاية ، على امتداد التاريخ الإسلامي ، وتفاوت ما بين الناس في الاستجابة لها ، وإذعانهم لما تحمله من دلائل الحق ورشده .

وكل هذه الآفاق تستدعي ان تكون تلك الإجابة ضمن حدود ما جبل عليه الإنسان في تصوره وفهمه للأمور ، لا بدرجات أرفع أو أخفى .

❁ ❁ ❁

الجانب الثاني : الطبيعة الحيوية للولاية

وهذه الطبيعة تعتبر إحدى الفوارق الكبيرة ، ليس بين خصوص الولاية وغيرها من حقائق الإسلام فحسب ، وإنما بين جميع المناصب الإسلامية الكبرى المسندة لأي إنسان وغيرها من حقائق الإسلام ، ولا سيما ذات الأبعاد المنهجية والتشريعية المعروفة .

فهذه الحقائق -في الغالب- هي من نوع التصورات والأحكام والمناهج والتعاليم وأشباهها ، ويكفي في اعتبار هذا النوع من الحقائق ، وقيام الحجة الربانية بها مجرد تشريعها ، أو اعتبارها ، وتبليغها إلى الناس

بما هو متعارف في مثل هذا التبليغ من الوسائل ، مع غض النظر عن موقف الناس منها ، واستجابتهم أو عدم استجابتهم لها .

فبعد قيام الحجة الإلهية بها على الإنسان ، يترك شأن استجابته لها إلى اختياره ، فهو الذي يحدد موقفه إزاءها إيجابا أو سلبا ، إذ لا أثر لموقفه على أي من تلك الحقائق ، ولا على هدى الله (تعالى) وبيناته فيها ، ولكنه هو الذي يحيا ان استجاب لها ، وهو الذي يهلك إن زاغ عنها وتنكب طريقها .

أما الولاية وغيرها من المناصب الإسلامية ذات الطبيعة الإنسانية ، فهي -وكما قلت- ذات صبغة حيوية إنسانية ، لا تتجلى ملامحها وحدودها وآثارها إلا من خلال التعامل الاختياري الإنساني ، ومن خلال المواقف والكلمات والأفعال التي تصدر من صاحبها الذي اصطفاه الله لها .

وهذا يعني ضرورة التفاعل المستمر بين شرائط الحق التي قدمناها -بما لها من حدية واستقامة ، تتحقق بهما حكمة الله ﷻ ، وفي الآفاق والحدود التي تم بها ذلك الاصطفاء-، والعوامل الإنسانية التي لابد أن تخضع لمختلف المؤثرات الموضوعية التي يتحقق من خلالها الاختيار والإرادة -هذا من جهة-.

و-من جهة ثانية-، فان تولي المؤمن لوليه ، واتباعه لحدود ولايته ، إنما يتحققان من خلال قدرته على الاستجابة لهما ، واسترشاده لنهجهما .

وهذه الحقيقة تستوجب من الولاية وأصحابها أن يصوغوا هذا النهج وبيناته كافة، في مستوى عام يكفل للناس تحقيق توليهم واتباعهم، بعد إقامة الحجة عليهم ، وإن سمت الولاية والولي -في نفسيهما- إلى

مستوى أرفع وأكمل مما عليه عامة الناس ، وإلا انتفت الحجة بهما ، بل وزاغت الحكمة التي انتجبتهما ، وهذا محال -كما عرفناه أكثر من مرة-.

إذن ، فكل من الولاية والتولي واقع إنساني ، ذو صبغة حيوية ، يتجلى من خلال الممارسة الفعلية والسلوك العملي في الحياة ، حيث يستحيل فيه الاقتطاع والتجزئة ، في أي موقف من المواقف ، وفي أي حالة من الحالات .

وهذه الملاحظة تنتهي إلى ضرورة ان تتجلى شرائط الحق في هذه المناصب من خلال هذه الصبغة التي تمضي مع المصطفى (وهو الطرف الأعلى في هذه المعادلة ، والمحقق للغايات الربانية فيها) ، في كل موقف من مواقفه ، وفي كل كلمة بنطقها ، وكل حالة يكون عليها ، دون أي قصور ، والا لم يستوف في شخصيته ومواقفه ايّاً من شرائط الحق تلك ، وهذا محال بعد فرض الاصطفاء الإلهي له .

وهنا يبتدر السؤال المهم في الموضوع ، وهو : أنى للإنسان -مع ذلك القصور الذاتي المهيمن عليه- ان يستوعب في ذاته كل تلك الشرائط ، ويجسدها بتلك الحدود والأعماق ، التي علمناها لقيمة الحق العليا ، ودينه العظيم ؟ .

الفصل الأول

ضرورة الرعاية الإلهية للولاية

في الإجابة عن السؤال السابق ، تبرز أهمية النتائج التي توصلنا إليها في الحديث المتقدم في الباب السابق ، حول وضوح دلائل الحق في هذه الولاية ..

إذ بعد ثبوت الالتزام الإلهي لها ووضوحه ، يستحيل في حكمة الله (تعالى) أن يهمل أمرها في أي من شرائطها تلك ، أو انه سيترك شأنها لذلك القصور الإنساني العام ، وضيق حدوده ، أو أنه ﷻ سيخلّي بينها وبين أهواء الناس ، واختلاف مشاربهم وانحرافاتهم ، فكل هذا مما يستحيل تصوره في حقه (تعالى)، وهو نافذ العلم ، قاهر القدرة والسلطان .

إذن ، فلا بد من رعاية إلهية خاصة ، تكفل استقامة الحق في هذه الولاية ، وتفي لشرائطه –تلك– جميع ما تتطلبه من أمر ، سواء في ذات مفهومها وحدودها الخاصة ، أم في الشخص المرتضى لها ، ام فيما يصدر عنه من مواقف وكلمات يتجسد بها هدى الله وبيناته ، ام في غير هذا من مستلزماتها .

نعم ، إن في هذه الولاية اصطفاء إلهيا اقتضته حكمة الله (تعالى) المطلقة، وان فيها اختياراً اعتمده اللطف الرباني العميم ، وان فيها ارتضاءً من الرحمة الواسعة ذات العلم المحيط ، والقدرة المهيمنة ، والسلطان الذي لا تحيد عنه ذرة في الأرض ولا في السماء ، والسمع

الذي لا تخفى عليه وساوس الصدور ..

وعليه فمن المحال ان توجد حينئذ ثغرات ، أو التواءات ، تستوجب أي خلل في كلمة الله (تعالى) وهي تتجسد بالولاية ، أو يحصل فيها وهن ينال من استقامة الحق ..

ومن التدبر في هذه الضرورة يمكن فهم ما تعنيه هذه الرعاية الإلهية المتصورة هنا ، ومعرفة مواردها في ذات الولاية ، وشخصية الولي ، وعمقها فيهما ، وفيما يكتنفهما من شؤون .

فهي تعني -**أولا**- أن هذه الرعاية نوع من الفيوض الربانية الخاصة، التي يستوجبها عموم الحكمة الإلهية ، ولطفها بالعباد ، ومجلى لضمان قدرة الله -سبحانه- لوحدة الحق ، واستقامته في حقائق دينه ، وهي تتجلى في هذه الولاية ، وفي الشخص المرتضى لها .

إذن ، فهي شأن إلهي خاص ، يستحيل أن يتدخل فيه احد من الناس ، أو يمليه على الله (تعالى) احد منهم ، حتى الولي نفسه .

بل ويستحيل ان يدرك أحد منه إلا ما يبرز من آثاره ، أو المقدار التي تبينه الحجة الإلهية القاطعة من جوانبه وحدوده .

كما تعني -**ثانياً**- استيعاب هذه الرعاية للولاية والولي كليهما ، ولكل ما يمتّ اليهما بصلة ، وحيث يتطلبه قيام الحق فيهما .. إذ القصور عن هذا المدى مما يوهنهما عن الارتفاع إلى مستوى شرائط الحق ، ويعيقهما عن أداء دورهما المعيّن لهما في دنيه .

وتعني -**ثالثاً**- وجوب استمرار هذه الرعاية ، ودوام مددها مع الزمن الذي اقتضته حكمة الله ﷻ للولاية والولي ، واستوجبته المهمة الملقاة عليهما في رسالته ، إذ يستحيل عليهما الوفاء بتلك المهمة في زمن يخلو من ذلك المدد الذي يكفل لهما ذلك الارتفاع .

إذن ، فمن غير الممكن تحديد هذه الرعاية في مجال خاص من مجالات هذا المنصب العظيم ، أو في أفق معين من آفاق شخصية الولي ، أو في زمن محدد دون أزمنة مهماتهما الكبرى في دين الله ، لأن مسؤولياتهما تمتد إلى جميع المجالات والآفاق ، في الأزمنة التي عينها لهما الاصطفاء الإلهي .

ولا غرابة في أي من هذه الثوابت ، فالحكمة التي تعتمدها مطلقة ، والعلم محيط ، والقدرة مهيمنة ، واللطف عميم .

ولا تختص هذه الضرورات -وبما لها من تجليات وحدود- بولاية علي عليه السلام خاصة من بين مناصب دين الله عز وجل ، ولا برسالة محمد صلى الله عليه وآله وسلم من بين الرسالات الربانية ، ولا بعلي عليه السلام وحده من بين الأصفياء ، بل هي -وكما رأيناها- من مستلزمات أي منصب إسلامي ، وأي اصطفاء إلهي لأحد من الناس لتوليها ، لأنها من شؤون الحق نفسه ، ومن شرائط قيامه في هذا الوجود.

فمن المعلوم ان استيفاء أي من تلك الشرائط غير ممكن بدون تلك الرعاية وإمدادها ، سواء في نشأة هذه الولاية وطبيعتها الذاتية ، أم في نصوع حجتها ، ام في تحديد موقعها الخاص من دين الله جل جلاله، أم في دورها الكبير في البشرية ، أم في استشرافها على الزمان والمكان والمشخصات الموضوعية كافة، أم في المستوى الرفيع في الكمال الإنساني لشخصية الولي ، وهو يجسد حقائق الإسلام في وجوده وحياته ، وفي كل موقف يصدر منه ، أم في مسؤولية الأمة المسلمة -بل والإنسانية كافة- إزاءها وإزاء وليها المصطفى ، أم في أي شأن من شؤونها الأخرى، الخاصة منها أو العامة .

وفي الوقت نفسه ، فإن ولاية علي عليه السلام لا يمكن ان تستثنى من هذه

الرعاية المباشرة ، فهي -كأي منصب آخر في دين الله- يجب ان لا تقصر- في واقعها أو في متطلباتها- عن هذه الشرائط العامة للحق ، وإلا قصرت عن نيل درجته -كما هو واضح- ..

❁ ❁ ❁

وهكذا يبدو -وبكل جلاء- ما تعنيه هذه الرعاية الإلهية لعلي عليه السلام وولايته .

فهي القاعدة المكينة التي ينطلقان منها ، في كل شأن من شؤونهما ، وحيث يستوجبه استيعابهما لشرائط الحق كافة ، ما يعلمه الناس منهما وما يجهلون ، ما يدركه الناس من هذه الشرائط وما لا يدركون .

بل وحتى الوضوح الذي تقدم الحديث فيه ، فهو -بدوره- ليس إلا مجلى من مجالي هذه الرعاية ، فلولاها لما تمت لهما هذه الصفة على الوجه الأكمل ، الذي بلغت به الحجة الإلهية في هذه الولاية ، ومستلزماتها كافة ، بهذا الوضوح والثبات ، رغم كل العوائق والصوارف التاريخية المتمادية .

وهكذا يمكن القول بان هذه الرعاية الإلهية المباشرة هي الأساس في جميع الدلائل التي يستوجبها الاصطفاء الإلهي في الأصفياء ، كما أن اعتماد هذه الرعاية هي السبيل الأجدى في فهم تلك الدلائل ، والأقرب في استيضاح أبعادها المختلفة ، سواء في التعرف على مكامنها في الولاية ذاتها ، ام في شخص علي عليه السلام ، ام في مسؤولية الإنسانية تجاههما .

فهنا أبعاد ثلاثة ينبغي الوقوف عند كل منها بشيء من التفصيل ، ولا سيما في البعدين الأولين منها .

البعد الأول : وهي رعاية الله (تعالى) للولاية الإسلامية ، ونقف

منها هنا عند أمرين مهمين :

اولهما : وضوح دور الولاية في كيان الإسلام ، كمقوم أساس له في وجوده وكماله ، وارتباطه المطلق مع الواقع التكويني والإنساني .

ثانيهما : عصمتها من ان تنال منها الأهواء مطمعاً .

وواضح ان هذا البعد -بكلا أمريه هذين- يعتبر الرصيد الأول لسائر مظاهر هذه الرعاية الربانية للولاية ، في أي من شؤونها ، وشؤون وليها العظيم عليه السلام، لأهمية مورده بين تلك الشؤون .

البعد الثاني : رعاية الله -سبحانه- لشخصية علي عليه السلام ، ونعرض فيه إلى ثلاث نواح منها ، هي :

١- التكوين الذاتي لعلي عليه السلام وصياغة شخصيته -بما لها من أصول ذاتية عميقة- على أسس الحق وشرائطه كافة .

٢- سعة الآفاق العلمية التي يمتلكها ، من أجل الوفاء بمسؤوليات ولايته الكبرى .

٣- امتلاكه لمختلف الوسائل التي يحتاجها لهذا الوفاء .

البعد الثالث : وهي رعاية الله للإنسان المؤمن ، وهو يتولى علياً عليه السلام في حياته ، وينهج اتّباعه سبيلاً لحياته ، سواء في فكره أم في سلوكه

الفَصْلُ الثَّاني

الولايـــة والإســـلام

سبق أن علمنا ما لولاية علي عليه السلام من موقع خاص في دين الله (تعالى)، وما لها من دور في وجوده وكماله :

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ..[1]﴾ ..

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً ..[2]﴾ .

«من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله ، وأدر الحق معه حيث دار» .

وهذا يعني -بوضوح ، وكما علمنا- :

أن الولاية من الأركان الأولى لوجود الإسلام ذاته ، وأنها -دون أي فرق بينها وبين ولاية الرسول صلى الله عليه وآله وسلم-، ركيزة من ركائزه المبدئية الثابتة التي لا يمكن ان ينهض له كيان بدونها ، أو بدون وليها العظيم عليه السلام ، ومن هذا المنطلق -بالذات- بنيت أدوارهما الخاصة في دين الله ، ومسؤولياتهما في قيام أمره ، ومسؤولية الأمة المسلمة -بل والإنسانية-

---

(١) المائدة : ٦٧.

(٢) المائدة : ٣ .

تجاههما كذلك .

إذن ، فمن المستحيل على الإسلام (نفسه) أن يستغني عن هذه الولاية ، أو عن وليها ، بحال من الأحوال ، أو في شأن من الشؤون ، ويمتنع أن يتجرد عنها ، في أي من حقائقه ومهماته في حياة الإنسان .

وهذا التوحّد بين علي وولايته –من جهة–، وسائر أركان الإسلام ومكوناته –من جهة أخرى– لم يؤخذ فيه حد معين في الزمان أو المكان، أو أحد القيود الأخرى ، دون وجود الإسلام ذاته ، ودون دوره الأتم في الحياة ، ودون خصائصه وسماته التي يعنيها الحق ذاته .

فكما لم يتحقق لرسالة محمد ﷺ كيانها الأتم بدون الولاية في عهد التبليغ، فان هذا الكيان لا يتحقق لها الآن ، ولا في أي زمان آخر بدون الولاية أيضاً ، وستستمر هذه الضرورة ما بقي على هذه البسيطة إنسان شاءت حكمة الله (تعالى) أن تقيم عليه الحجة بهذا الدين العظيم ، وتأخذ بيده في سبيل الخير والهدى بواسطة هداه .

ومع ان هذه النتيجة دقيقة جداً ، وحساسة جداً ، ولا سيما مع ملاحظة الأدوار التاريخية المتمادية ، ذات المواقف السلبية المعروفة من الولاية ، ومن صاحبها العظيم عليه السلام ، إلا أنها –وعلى أي حال– مما يجب علينا التسليم به ، والإذعان له ، لأنه المدلول الصريح لتلك النصوص الثابتة ، والتي لاحظنا تواتر مضمونها المشترك ، حيث لم يرد في أي منها ، ولو واحد من القيود التي تحددها في زمان خاص ، أو في مكان معين ، أو مستوى علمي ، أو اتجاه حضاري ، وراء ذات الإسلام نفسه ، ودوره في البشرية .

إذن فبهذه النتيجة –وبالحدية والحسم اللذين يفرضها مفهوم الحق واستقامته– يجب ان نفهم الرعاية الإلهية لهذه الولاية الكبرى أيضا .

فالقران الكريم حين أناط وجود رسالة محمد بولاية علي ، وحين جعلها إكمالا لدين الله -سبحانه-، وأتم بها نعمته على العباد ، وأعلن بها رضاه بالإسلام ديناً للبشرية ، كان لابد ان تكون الولاية هي الوفاء الأتم لهذه الأدوار والمواقع والمهمات كافة ودون أي تحديد .

والرسول ﷺ حين جمع بين ولايته نفسه ، والتي جعلها له مرسله (تعالى) وولاية علي عليه السلام ، كان يعلم أن كلتا الولايتين ينبعان من مصدر واحد ، ويجريان في خط واحد ، نحو مصب واحد ، فلا غناء لإحداهما عن الأخرى ، وبهما -معاً- تتكامل ادوارهما ، وبهما -معاً- تتضح لهدى الله -سبحانه- وبيناته معالمها الحقيقية ، وبتوليهما -معاً- تبلغ البشرية كمالها المنشود .

ولم يكن القران -كتاب الله الخالد ، وحجته الناطقة- ولم يكن الرسول -الذي لا ينطق عن الهوى- ليحيدا عن الحق قدر أنملة ، فهو محور وجودهما ، وهو جوهر حقيقتهما في هذه الأرض ..

ولم يكن الحق -من جانبه- ليختلف في دنيه العظيم بين موقع وآخر، أو يتفاوت فيه بين حكم وآخر ، أو بين اصطفاء وآخر ، وهو يمتلك ذلك الرصيد المبدئي من الارتباط بالله العظيم ، والاستقامة التامة مع حكمته ولطفه.

إذن ، فلابد أن يكون هذا المستوى المطلق كذلك ، هو مجرى رعاية الله -سبحانه- لولاية علي عليه السلام ، ورعايته له في نفسه أيضاً ، بكل ما لهما من جوانب ومميزات وخصائص ومستلزمات ، إذ القصور عن هذه الغاية مما يستحيل على حكمة الله جل جلاله ، لما يعنيه من تفاوت ونقص ، جلت عنهما ذاته المقدسة .

وكذلك ، فلابد أن يكون هذا المستوى المطلق هو المعيار الذي

توزن على أساسه جميع الشخصيات التي تنتسب إلى الإسلام ، ويقاس به كل ما يصدر عنها من مواقف ، وأن يكون هي الرصيد الذي تحاكم به التصورات والمناهج التي تنتهي إليها مختلف الدراسات والجهود ، التي تدعي الانطلاق من الأسس ذات الصبغة الإسلامية .

ولابد أن يكون -في الوقت نفسه- هذا المستوى المطلق هو الأساس الذي ينطلق منه المؤمن في تعامله ، لا مع الولاية فحسب ، وإنما مع دين الله ككل ، فهو -وكما علمناه- جذر إسلامي مشترك ، يمتد رفده وعطاؤه في كل الأبعادِ الإسلامية وعلى أي صعيد .

فأي التزام من الإنسان لا يبنى على أساس ثابت من مقتضيات هذه الولاية، لا يحتوي شرائط استمساكه بالإسلام كما رسمه الله جل جلاله لمتبعي هداه..

﴿.. وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً ..[1]﴾ .

❁ ❁ ❁

لا طمأنينة للإيمان بدون الولاية

ومما يجري في هذا المضمار من رعاية الله لولاية علي عليه السلام :

عدم إمكان قناعة الفكر الواعي ، واطمئنانه بإيمان رشيد بالإسلام ، متكامل في الأصول والحلقات والمواقع ، بدون الولابة ..

فهي قاعدة أساسية يقوم عليها كل أصل من أصول الإسلام ، وكل بينة من بيناته ، قبل أن تتبلور هذه البينات في تصوراته وأحكامه كافة .

وهي قاعدة -والحق يقال- واضحة كل الوضوح لكل وعي يتجرد من ضيق النظرة المذهبية المحدودة ، هذه النظرة التي تضع العوائق أمام

---

(١) المائدة : ٣ .

العقول لئلا تنطلق في آفاق الرؤية الإسلامية المتكاملة .

«وإني سائلكم -حين تردون عليّ- عن الثقلين فانظروا كيف تخلفوني فيهما : الثقل الأكبر كتاب الله ، طرف بيد الله وطرف بأيديكم، فاستمكسوا به ، لا تضلّوا ، ولا تبدّلوا .. عترتي أهل بيتي ، فإنه قد نبأني اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض» .

«افهموا محكم القران ، ولا تتبعوا متشابهه ، ولن يفسر ذلك لكم إلا من أنا آخذ بيده وشائل بعضده» .

«النور من الله فيّ ، ثم في علي ، ثم النسل منه إلى القائم المهدي» .

ولهذا فان أي مذهب ينطلق في بناء ذاته -على صعيد الفكر أو الاعتقاد، أو الفقه والتشريع ، أو غير ذلك- بعيداً عن الولاية ، أو عما لها من موقع خاص في دين الله ، وحين يحاول ان يقيم نظرياته ، ومناهجه ، ومعالجاته للأمور بدون رصيد كافٍ منها ، فإن هذا الابتعاد منه عن الولاية ثغرة واسعة الهوة فيه ، وسبب للوهن في كل ما يطرحه أمام البصائر من القضايا ، وعلى أي صعيد من أصعدته تلك .

ويتجلى هذا الوهن في عدم قدرته على استيعاب أصول التكامل المطلوب في الرؤية ذات الصبغة الإسلامية الخالصة ، مما يفرض -بالتالي- عجزه عن بلورة أيٍّ من القضايا التي يطرحها من خلال المنظار الإسلامي السليم .

وهو قصور لازم لا يستطيع أي من المذاهب المتنكبة عن الولاية تجنبه في واقعه ، وان لم تعترف به صراحة ، إلا أنه مما يمكن ملاحظته لأي باحث نزيه ، حر في النظرة والتمحيص .

ومن أوضح دلائل هذا القصور في مثل هذه المذاهب عجزها عن وضع إجابات ذات صبغة إسلامية واضحة عن جميع الأسئلة تملأ

جوانب الفكر والحياة في إسلام أمرهما إلى الله ، وحاجتهما المتجددة من هدى رسالة محمدﷺ ، ولاسيما بعد ان بدأت جذوة هذه الرسالة وهداها وأنوارها تتسامى في واقع الإنسان وهو يطرد في ركب المعرفة والعلوم ، وبعد أن بدأ يدرك فشل التجارب الإنسانية المختلفة في هذا المجال ، ولهذا فهو ينتظر ان يجد لكل حالة تصورها ، ولكل أمر مستجد حكمه ، ولكل مسلك يمضي به هداه.

إجابات واضحة ، تركن إلى هدى الإسلام وحده ، وإلى أصوله وبيناته فحسب ، دون أدنى تدخل من ذاتيات أخرى لا تمت له بصلة ، أو الافتراضات العمياء التي لا تملك رصيدها من كلمة الحق .

نعم ، فالرسول محمد ﷺ كان خاتم أنبياء الله ورسله ، فلا نبي بعده ولا رسول .

وكانت رسالته العظمى هي خاتمة النبوات والرسالات الإلهية ، فلا نبوة بعدها ولا رسالة .

إذن ، فهي وحدها الغناء الإلهي الأبدي للبشرية في طموحها نحو الكمال ، بعد ان بلغت مراحل نضجها العليا ، وهذا واضح في خصائص هذه الرسالة ومميزاتها ، بل هو من بدائها التي اعتمدتها في كل تصور ، وفي كل تشريع ..

ولكن -في الوقت نفسه- علينا أن نلتفت إلى أن الرسول ﷺ لم يلِ من أمر الحق -الذي بعث بدينه- سوى حقبة قصيرة من الزمن ، لَم تتجاوز ثلاثاً وعشرين سنة بعد بعثته .. فهل -يا ترى- أن هذه السنوات القلائل كانت كافية في تحقيق الغرض الإلهي من هذه البعثة ، وقيام حجته بها إلى الأبد ، دون قيّم آخر تمتد به سلسلة هذه الولاية على الخلق ، ودون رافع آخر لمشعل أنواره أمام السائرين في ظلمات

الحياة ؟! .

فهل أن تلك الفترة القصيرة من الزمن كانت كافية في فرض كلمة الإسلام وبيان جميع حقائقه ومناهجه ، وتخليدها مع الزمن نقية الهدى ، صافية الأفاق ، واضحة البرهان ، بالغة الحجة ، لا تكدر صفاءها الأهواء ، ولا تنال منها الأطماع ، وان لم يكن لهذا الدين ولي يقيم حجة الله به ، ويضع أموره كافة في أنصبتها المناسبة ؟ .

وما الضمان الأكيد لهذه الأبدية في الإسلام ، وخلوده مشعلاً هادياً ينير دروب الحياة الإنسانية في مختلف أصعدتها ، ما لم يكن هناك استمرار دائم لتعهد معصوم ، يأخذ على عاتقه مسؤولية هذا الضمان .

وما وجه الحكمة في أن تترك معالم الحق هكذا بأيدي العبث ، وتقاذف الأهواء ، يقول كل أحد فيه ما يشاء ، ويفعل كل أحد باسمه ما يريد ، دون وازع ، أو رادع ؟!..

أفهل في حكمة الله ﷻ قصور عن أن تستوفي مقتضياتها فيما تشاؤه من الأمور؟ ، أو في قدرتها عجز عن أن تبلغ ما تشاء ؟ ، أو يمتلكها جهل بأوجه المصلحة التي لا تخفى على أبسط الناس ؟! .

وأين هي دلائل اللطف الرباني في فتح منافذ النور لحظة من لحظات الزمن ، ثم إسلام ثقل الحق كله إلى كفلة غير مأموني الشطط والانحراف ؟! .

وما هي مواقف دين الله إزاء مستجدات الحياة ، حيث يجب أن يقول فيها كلمته الواضحة في كل زمن لإتمام أنوار الهدى فيها ؟!.

وأخيراً ، ما هو الموقف السليم من كل تلك الأدلة التي أقامها الإسلام على هذه الولاية ، والشواهد المتواترة في صحة مدلولها الإسلامي ، وارتضاء علي عليه السلام لها دون غيره من الناس ، بعد الرسول

ﷺ ، ثم لتمتد منه إلى أبنائه الطاهرين عليهم السلام ، ولكون هذه الأدلة والشواهد هي إجابة الإسلام الصريحة عن الأسئلة المتقدمة كلها ؟!.

هذه وأشباهها أسئلة ليس لها جواب مقنع يمكن أن يركن إليه أحد، أو يطمئن به قلبه بدون ولاية علي عليه السلام ، كحلقة ثانية بعد الولاية الأولى لرسول الله ﷺ ، لتمتد السلسلة إلى الولي الأخير المنتظر عليه السلام .

وهذه الحقيقة تعني -بكل وضوح- ان شعور المؤمن بحاجته إلى ولاية علي عليه السلام يعتبر من الدعائم الأولى لإيمانه بالله وبالرسول ، وبدون هذه الولاية يستحيل ان يستكمل استمساكه بدينه بدرجة تملأ وعيه ، ويستقر في نفسه بشكل يربأ عن أي وهن أو قصور .

وهو أمر تشعر به جميع العقول المتفتحة ، وهي تتطلع إلى معالم الحق في دينه القويم ، وتسمو بأنفسها عن ضيق النظرات الجانبية ، التي تزيغ بالبصيرة عن بينات الهدى في أصوله .

ولا ريب ان هذا الشعور الذي يشكل دافعاً رئيسياً للإنسان إلى تتبع معالم كلمة الإسلام في أمر الولاية ، هو بعض دلائل تلك الرعاية الإلهية لها ، فمن خلال هذا الشعور يبدو للبصائر دورها في استقامة النفس مع إيمانها بجميع الثوابت الإسلامية ، واستمساكها الرشيد بها ، إذ لا يستتم لهذا الإيمان معالمه الحقيقية ، ولا يستكمل استيعابه لشرائط الحق كافة إلا بها ، وإلا باتخاذها ركنا أساسياً في هذا الاستمساك .

تماماً كما هو الأمر مع الشعور الفطري لدى الإنسان بالارتباط بالعلة الأزلية الأولى ، وانتظار دلائل ربوبيتها من معالم الرعاية المباشرة لدين الحق في أصوله الأولى ، ولرسالة محمد ﷺ كمظهر فعلي لهذا الدين .

❋ ❋ ❋

الولاية والواقع الإسلامي القائم

ولا تقف هذه القضايا التي ذكرناها عند حدود الأدلة النظرية ، التي يعيها العقل وهو يتدبر الواقع الإنساني والإسلامي ، وإنما هي الواقع المشهود من قيام دين الله -سبحانه- وبيناته ، ومن طرائقه في التعامل مع الحياة الإنسانية بشكل عام .

ونحن اليوم -وبعد هذه القرون المتمادية من بزوغ شمس الإسلام- أدرى بهذه الواقعية ، حتى من أولئك الذين عاصروا الرسول ﷺ ، أو الذين جاؤوا بعده في أزمنة المعصومين عليهم السلام .

فهؤلاء نحن نرى أن ولاية علي عليه السلام -وما استتبعها من ولاية أبنائه المطهرين الأحد عشر عليهم السلام هي المجلى الواضح لكمال الإسلام ، وتمام كلمته، وبلوغ حجته في البشرية ، واستقامته الأبدية مع الواقع ، رغم عواصف الزمن، وتحكّم الصراع في جميع مجالات الحياة ، ودقة القضايا التي استجدت بعد عهد الرسول ﷺ .

إذ ما كان عطاء الإسلام ليستتم فيها لولا أولئك الأولياء الأصفياء عليهم السلام ، ولولا بيناتهم التي بثوها في الناس ، وهداهم الذي وضعوه أمام البصائر ، رغم كل الموانع والعقبات التي وضعتها في طريقهم حقب طويلة سوداء من الأحقاد والأطماع والأهواء .

ولا أحاول الدخول في التفاصيل من هذه الناحية المهمة ، فهي أوسع من أن يحاط بها في مجال ضيق كالذي نحن فيه ، ويكفيني أن أقول:

إن هذه الأطروحات التي أملاها الإسلام في بيناته ، كلها ليست إلا شواهد قائمة لهذه القضية ، حيث يتجلى فيها -بكل وضوح- ما لهذه الولاية من دور كبير في تمام كلمة الله (تعالى) في حياة الإنسان ، وثبات هداه للبصائر، وقيام برهانه للعقول ، دون خلل أو تفاوت ، لا في عصر

خاص من تأريخ الإسلام ، ولا في صعيد معين من أصعدة الحياة ، وإنما في جميع العصور والأصعدة والمستويات .

فكل ما أُثر عن علي عليه السلام، أو عن أحد أبنائه المنتجبين عليهم السلام هو شاهد قائم على هذا الدور الخاص للولاية ، وعلى رعاية الله لها ، وتعهده للناس بإكمال دينه بها .

إذ بينما يلحظ الوهن والخلل في جميع الآراء والجهود التي حاولت دراسة الإسلام بعيدا عن الولاية ودلائلها ، وعما وضعته للبصائر من هدى ، ولا سيما في مستجدات الفكر والحياة ، فان أحداً لم يستطع ملاحظة أي وهن أو انحراف عن استقامة الإسلام المطلقة في أي من كلمات منتجبي الولاية ، أو في سلوكهم ، أو في رؤيتهم للأمور ، ومعالجاتهم للسلبيات .

وطبيعية هذا الامتداد الإسلامي في الولاية ودلائلها ، مما يعلمه كل مسلم ، بل ومما يعلمه كل متتبع لقضايا الإسلام ، وان يكن من أتباعه ، لأنه قضية موضوعية قائمة ، قبل ان تصبح مورداً للالتزام ، وقد اعترف بها حتى من ناوأ علياً وبنيه عليهم السلام ، وأولئك الذين اتخذوا من ولايتهم موقفاً أقل ما يقال عنه : إنه سلبي ، وسلمّوا بها -ولو عملياً ، أو في بعض حالات الصفاء، أو ضعف النفوس أمام كلمة الحق- كواحدة من الحقائق التي لا محيص عن التسليم بها ، حتى أصبح ذلك الاعتراف ، وهذا التسليم من الشيوع بدرجة لا يستنكرها احد منهم .

وقد سبق ان قرأنا أن عمر بن الخطاب كان يرى علياً أولى بالخلافة منه ومن أبي بكر .

وكان يرى بان قول علي عليه السلام هو من السنة .. إذ روى الشعبي :

(أن عمر بن الخطاب قد أتي بامراة تزوجت في عدتها ، فأخذ

مهرها فجعله في بيت المال، وفرق بينهما وقال : لا يجتمعان ، وعاقبهما.

فقال علي : ليس هكذا ، ولكن هذه الجهالة من الناس ، ولكن يفرّق بينهما ، ثم تستكمل بقية العدة من الأول، ثم تستقبل عدة أخرى، وجعل لها علي المهر بما استحل من فرجها .

قال : فحمد الله عمر وأثنى عليه ، ثم قال : ردوا الجهالات إلى السنة [1]) .

كما ورد مثل هذا الاعتراف والتسليم عن أبي بكر أيضا قبل عمر ، كما رواه انس في حديث طويل ، قال :

(فعند ذلك خرج أبو بكر ورقى المنبر وقال : أقيلوني فلست بخيركم وعلي فيكم .

قال : فعند ذلك خرج إليه عمر وقال : يا أبا بكر ما هذا الكلام ؟، قال : فقد ارتضيناك لأنفسنا ، ثم أنزله عن المنبر ..[2]) .

ولا نطيل باقتباس مثل هذه الأحاديث ، فهي أكثر من ان تحتاج إلى مزيد اقتباس .

❋ ❋ ❋

انعقاد الألسن مع الولاية

ومما يجري من رعاية الله -سبحانه- لولاية علي عليه السلام أيضاً : إلجام الألسن ، وانعقاد حجتها في مواجهة الولاية ، وأوليائها المنتجبين ، حيث تقصر أمامهم كل حجة ، ويزيغ كل برهان في إثبات صلة ما بين مواقفهم المناوئة لهم والإسلام .

---

(١) سنن البيهقي – ج :٧ – ص :٤٤٢.

(٢) إحقاق الحق –ج :٨–ص :٣٨–عن كتاب (در بحر المناقب) .

وهو كذلك أمر معروف منذ عصر الرسالة ، ومنذ الأيام الأولى للولاية وحتى اليوم ، إذ لم يستطع أحد حتى ممن حملوا لواء منازعة أولئك الأولياء عليهم السلام ان يبرر شيئاً من مواقفه تلك ، بحجة يستند فيها إلى بينة إسلامية ثابتة ، يلتزمها الإسلام ذاته ، بالرغم من مجانبة جميع الحقب لهذه الولاية ، وبالرغم مما يعرفه الجميع من أن كتابة التاريخ قد تمت بأيدٍ لا تعترف لها بمقامها المناسب في دين الله ..

ولعل فيما قرأناه سابقاً من المحاورة بين علي عليه السلام وطلحة بن عبيد الله ، والمحاورة بين عمرو بن العاص والفتى من همدان ، وبين عمر بن الخطاب وعبد الله بن عباس، وغيرها ، خير دليل على مثل هذا الإلجام.

وأوضح منها -جميعاً- حديث عمر بن الخطاب مع حارثة بن زيد ، بعد أن أخبره بما سمعه من رسول الله صلى الله عليه وآله في ولاية علي وخلافته ، إذ قال حارثة بن زيد له :

ويحك يا عمر ! كيف تقدمتموه وقد سمعت ذلك من رسول الله؟.

فقال : يا حارثة ، بأمر كان .

فقال : من الله ، أم من رسوله ، أم من علي ؟ .

فقال : لا ، بل الملك عقيم ، والحق لابن أبي طالب .

نعم ، الملك عقيم ، ولا شيء آخر ، وان كان الحق لابن أبي طالب، وهو اعتراف بالإلجام تجاه هذه الولاية ، وإن أجراه بشكل يحتج به على موقفه، ولو ملك أبو حفص أن يقول -وهو الأساس في هذا الخط المناوئ للولاية على مر التأريخ- غير هذا في الرد على حارثة لما فاته أن يقوله .

وهذا الموقف من عمر يشبه موقف عائشة أم المؤمنين ، حينما دخلت عليها امرأتان من نسائها فسألتاها عن علي عليه السلام ، فقالت :

(عن أي شيء تسألن عن رجل وضع من رسول الله ﷺ موضعاً ، فسالت نفسه في يده ، فمسح بها وجهه ، واختلفوا في دفنه ، فقال : إن أحب البقاع إلى الله مكان قبض فيه نبيه ؟ .

قالتا : فلمَ خرجت عليه ؟ .

قالت : أمر قد قضي ، وودت أن أفديه ما على الأرض من شيء[1]) .

إذن ، فلا حجة ذات صبغة إسلامية ، يمكن ان يركن قادة هذا الاتجاه المناوئ لعلي وولايته في تعليل مواقفهم السلبية منهما ، إذ كان من الحريّ أن تذكر في مثل هذه المحاورات ، لو وجدوا شيئاً منها يستطيعون أن يستندوا إليها في تبرير مواقفهم تلك .

وحين يكون موقف هؤلاء القادة المبرزين بمثل هذا الضعف ، فمن الطبيعي أن لا تؤمل القوة في أي موقف يصدر من أحد اتباعهم ، إلا البناء على العصبية وحسن الظن ، فإلى كلمات أولئك القادة تنتهي الكلمات ، والى حججهم تنتهي الحجج ، ومحال ان تكتسب القوة من الضعف ، لأن فاقد الشيء لا يعطيه -كما هو معلوم- .

نعم ، حاولت الجهود أن تضفي على تلك الحجج صفات علمية ، أو فلسفية فكرية ، أو غير ذلك ، إلا أنها لم تستطع أن تغير من النتيجة شيئاً ، بل هي اصطدمت بالحقيقة الإسلامية الواضحة ، فأصبحت في موقف لا تحسد عليه.

وللتأكد من هذه الناحية يمكن مراجعة كتب علم الكلام ، وما قاله أعلام تلك المذاهب المناوئة في تقوية مذاهبهم ، والرد على ما استدل به

---

(١) مجمع الزوائد للهيثمي – ج: ٩–ص :١١٢.

الإمامية في إثبات الولاية والإمامة لعلي وأولاده عليهم السلام ، فبهذه المراجعة يمكن الوقوف على الحقيقة كاملة في هذه الناحية .

ويمكنني أن أشير هنا إلى كتاب (المراجعات) للسيد عبد الحسين شرف الدين (ره) ، وهو مطارحات بينه وبين الشيخ سليم البشري (شيخ الجامع الأزهر) في وقته ، وكتاب (دلائل الصدق) للشيخ محمد حسين المظفر ، وكتاب (إحقاق الحق وإزهاق الباطل) ، للسيد التستري، وكلاهما يحويان رد الفضل بن روزبهان على العلامة الحلي في كتابه (نهج الحق) .

❁ ❁ ❁

بل ، ولأن إلجام الألسن تجاه الولاية قد أصبح من المرتكزات المعروفة بين المسلمين عامة ، فقد أمكن لبعض الناس أن يستخدمه لتحقيق مآرب خاصة ، كما فعل عمرو بن العاص ، حينما طلب منه معاوية أن يرسل إليه خراج مصر، بعد أن ولّاه عليها ، فأرسل إليه جواباً فيه قصيدته المعروفة بالجلجلية ، التي يقول فيها :

معاويـة الحال لا تجـهل وعن سبل الحق لا تعـــدل

نسيت احتيالي في جـلّق على أهلها يوم لبس الحـلي

إلى أن يقول فيها :

نصرناك من جهلنا يا بن هند على النـبأ الأعظم الأفضل

وحيث رفعناك فوق الرؤوس نـزلنا إلى أسـفل الأســـفل

وكم قد سمعنا من المصطفى وصايـــا مخصصة في عـلي

وفي يـوم خم رقــى منــبرا ينادي بأمر العزيــز العـلي
ألست بكم منكم في النــفو س بأولى؟ فقالوا بلىفافعل
فأنحله إمرة المؤمنـــــين من الله مستخلف المنـــحل
وقال : فمن كنت مولى له فـهذا له اليوم نعم الـــولي
فوال وليـه يـاذا الجلال وعاد معادي أخي المـرسل
ولا تنقضوا العهد من عترتي فـقاطعــهم بي لم يــوصل
فبخبـخ شـيخك لما رأى عرى عقد حـيدر لم تحـلل
فقـــال وليكم فاحفظـ وه فمدخله فيكم مدخلي
وإنا وما كان من فعلنــا لفي النار في الدرك الأسفل
وما دم عثمان مــنج لنا.. من الله في الموقف المخـجل
وان عـلياً غــداً خصمنــــا ويعـتز بـالله والمــــرسل
يحاسبـــــنا في أمور جــرت ونحـن عن الحـق في مـعزل
فمـا عذرنا يوم كشف الغطا لك الويل منه غداً ثــم لي
إلا يـا بن هند أبعت الجنــان بعهد عـهدت ولم تـوف لي
وأخرت أخراك كي ما تنــال يسير الحطام من الاجـــزل
وأصبحت بالناس حتى استقـا م لك الملك من ملك محول
وكنت كمقتنـــص في الشراك تذود الظماء عن المنـــهل

إلى آخر القصيدة ، التي يذكر منها في كتاب الغدير ستة وستين بيتا

استقاها من مصادره المختلفة [١].

ويروي الإسحاقي في لطائف أخبار الدول : أنه كتب معاوية إلى عمر بن العاص :

(إنه تردد كتابي لك بطلب خراج مصر ، وأنت تمتنع وتدافع ، ولم تسيره، فسيّره لي قولاً واحداً ، وطلباً جازماً) .

فكتب إليه عمرو بن العاص جواباً ، وهي القصيدة الجلجلية المشهورة .. إلى ان يقول -بعد ذكره لأبيات منها- : فلما سمع معاوية هذه الأبيات لم يتعرض له [١].

وواضح انه لولا أن عمرواً بن العاص كان يعلم أن معاوية لا يستطيع مقابلة هذه الحقائق بحجة مقنعة لم يكتب له ما كتب ، ولم يمكن ليتم له ما أراد ، إذ ليس معاوية من الوهن والضعف أمام عمرو بن العاص بهذه الدرجة التي جعلته يستكين لعمر بهذا الشكل السريع ، فمعاوية أدهى وأمكر من أن يغلب بهذه السهولة ، لولا تلك الحقائق التي طرحها عمرو ، واستخدمها لتحقيق مآربه معه .

---

(١) الغدير- ج :٢-ص :١٠٢_١٠٥ .

(١) الغدير- ج :٢-ص :١٠٦ عن كتاب (لطائف أخبار الدول) .

الفصل الثالث

الولاية والفطرة الإنسانية

ومجلى آخر من مجالي رعاية الله (تعالى) لولاية علي ﷺ ، والتي ترد ضمن هذا التوحد العام ، الذي أخذته مختلف النصوص الإسلامية بين هذه الولاية وغيرها من حقائق الإسلام ومكوناته ، كأمر مفروض الوجود ، أو أمراً إجرائياً دخيلاً في جميع الحقائق الأخرى .

ولفهم هذا المجلى من رعاية الله بشكل واضح ، نستذكر -مرة أخرى- ما يعنيه عنصر الحق في التزام الإسلام ، كقيمة مطلقة ، تتمحور عندها جميع القيم والمفاهيم والأحكام الإسلامية .

إذ قلنا -سابقاً- : إن الحق في دين الله يعني تطابقه الكامل مع واقع الإنسان ، كما خلقه الله وسوّاه ، وكما شاءته حكمته العليا فيه ، دون أدنى تفاوت أو خلل ، أو فرض حكم ، أو مفهوم عليه لا يستقيم مع اتجاهاته الفطرية ، وأصوله الذاتية العميقة .

فحكمة الله حين شاءت أن توجد الإنسان بالشكل الذي أوجدته به، وملّكته من المميزات والخصائص ما لم تملّك غيره من موجودات هذه الأرض.

وحين شاءت أن تجعل منه كائناً واعياً ، متبصراً لما يحيط به من ظواهر الوجود ، وأن تعطيه عقلا مميزاً ، وقوى مختارة مريدة ، يستطيع أن يحقق بها خلافته لله ﷻ في هذه الأرض ..

أقول : وحكمة الله حين شاءت كل هذا في خلق الإنسان ، كان لابد لها أن تتحفظ على هذه النعم في الإنسان ، وهي تشرع له نهجه في الحياة ، وأن لا تحيد عن أي منها في حكم من أحكامها ، لأن أي تجاوزٍ لواحد من هذه الخصائص الإنسانية ، يعني خروج تلك الحكمة عن مقتضياتها في خلقها للإنسان ، وتفاوتها بين غايات الإيجاد وغايات التشريع ، وهذا من المحال -كما هو واضح- .

إذن فالتزام الإسلام لعنصر الحق يعني -في إحدى دلالاته القريبة- أن دور الإسلام في البشرية ، ومهمته في قيادة الإنسان نحو أهدافه العليا، إنما ترد ضمن آفاق معاني كلمات الهدى والنور والبرهان وشبهها ، والأخذ بيد من شاء من الناس إلى حيث الشفاء والرشد ، وهي جميعها معان تشترك في تحفّظها على الاختيار الإنساني ، وعلى حريته في أخذ ما يأخذ ، وترك ما يترك ، دون قسر أو إكراه :

﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ..[1]﴾ ..

كما يعني هذا الالتزام أن دلائل الإسلام وبيناته ، وحجة الله فيه ، إنما ترد ضمن مفهوم إبلاغ كلمته إلى البصائر ، وقيام برهانه بين الناس ، وملء وعيهم وقناعتهم بتلك الكلمة وذلك البرهان ، بشكل لا يسلب ما للاختيار من دور، وما للبصيرة من مهمّة في قيادة السلوك ، وفي قبول ما يقبله الإنسان من الأمور ، ونبذ ما ينبذه منها ، دون إلجاء أو إجبار .

ومهمات الرسل والأنبياء وأصفياء الله عليهم السلام كافة إنما تأتي ضمن هذا الخط أيضاً ، وفي مدى هذه الحدود ، فمسؤولية أي منهم لا تعدو مفاهيم الإبلاغ ، والتبشير ، والإنذار ، وتشخيص كلمة الله (تعالى) شواهد حيّة قائمة بين الناس، في عالمي السلوك والتصور ، فلا جبر

---

(١) البقرة : ٢٥٦.

منهم لأحد من الناس على اتخاذ موقف معين ، ولا إكراه لهم بشكل لا يستقيم مع اختيارهم وإرادتهم ، وإنما هو النور والبرهان وإقامة الحجة :

﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ..﴾[١].

﴿ولقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بالَبَينات وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ..﴾[٢].

فالتبشير والإنذار من رسل الله ﷺ ، وإبلاغهم لتيناته ، وإقامتهم لحجته شاهداً قائماً أمام البصائر ، هي المهمات المطلوبة منهم ، حينما اصطفتهم الحكمة الربانية لدين الله (تعالى) ، وأنيطت بهم مسؤولياته الكبرى في هذه الحياة ، كما أنها المقياس الذي تقاس به جهودهم ، ومدى وفائهم بتلك المهمات ، دون أي عناصر أخرى لا تمت إلى تلك المهمات ، أو إلى جهودهم أنفسهم في الوفاء بها ، كمدى استجابة الناس لهم ، وكثرة منبعيهم –مثلاً–، فهي أمور لا ترتبط بمسؤولياتهم تلك ، ولا أثر لها في وفائهم بها .

وهي نواح واضحة ، تستبين من الآيات السابقة وأمثالها مما سيردنا الحديث فيه –بعون الله– في مباحث لاحقة .

❁ ❁ ❁

ومن الطبيعي ان لا تخرم هذه القاعدة في محمد ﷺ أيضاً من بين رسل الله –سبحانه–، فمهمته في الحياة لم تعدُ –كذلك– التبشير والإنذار، وإقامة رسالة الله في هذه الأرض شاهداً حياً ، ينير للبشرية دروبها في مختلف أصعدة الحياة .

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً . وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ

---

(١) الأنعام : ٤٨.

(٢) الحديد : ٢٥.

بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً .[(١)]﴾.

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ.[(٢)]﴾.

إلا ان هذه الفسحة التي أعطيت للإنسان في الاختبار ، وفي قبول أو رفض كلمة الإسلام ، ومكّنته من أن يتعامل معها من خلال مميزاته الإنسانية الاختيارية ، لا تعني أن النتائج التي سينتهي إليها واحدة في جميع حالاته ، وفي كلا موقفيه السلبي أو الإيجابي ، وأن الثمرة التي سيجنيها متشابهة في كلا الاتجاهين .

كلا ، أبداً ، فهناك فارق عظيم بين النتيجتين ، لفارق ما بين سببيهما .

إن الفارق بينهما هو فارق ما بين النور والظلام .. ما بين الاستقامة مع الحق والتيه في ضلال الباطل .

ولا شك ان السلوك في سبيل واضح المعالم ، مستقيم الاتجاه ، مع دليل مأمون العثرات والانحراف ، نحو غاية معلومة للسالك مطلوبة له ، يختلف -في آثاره ونتائجه- عن السير الأعمى في متاهات ومفازات لا يعلم السائر فيها مبدأ من منتهى ، ولا يدرك منها حتى مواقع أقدامه ، وتكتنفه المهالك في كل خطوة .. قال (تعالى) :

﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ

(١) الأحزاب : ٤٥.

(٢) النور : ٤٥.

الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .[1] ﴾.

﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ . مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ .[2] ﴾ .

نعم ، هذا هو الفارق بين اتّباع الإسلام في نهجه القويم ، واتّباع غيره من السبل التي يراها المرء في مختلف جوانب الحياة والفكر ، وان صوّرت هذه السبل في ملامح أخاذة ، ومناهج منتظمة ، وخطوط موحّدة المشارب ، إلا ان النتائج تتبع الواقع على أي حال ، دون أدنى تأثر منها بالمظاهر أو الدعاوى الفارغة ، ولا أعتقد أن ريباً يعتور النفوس في مثل هذه القضايا البدهية .

والإسلام حين التزم -في بيناته المختلفة- سمة الحق قيمة مطلقة فيه، وتحدى العقول كافة بهذا الالتزام ، إنما قصد جعل هذه القيمة ميزاناً عاماً تحاكم به الحقائق كافة ، وأساساً تعتمده جميع الآثار والنتائج التي تتأتى منه ، أو من غيره ، في حياة الإنسان ، وهو يسلم قياده إلى مذهب من المذاهب ، أو يتبع ديناً من الأديان -كما علمنا- .

فكما قلناه سابقاً من أن التزام الإسلام لهذه السمة ليس مجرد دعوى فارغة منه ، لا رصيد لها في ذاته ، وإنما هو الواقع ، وإنما هي الحقيقة التي دعا العقول والبصائر إلى تدبرها من ذاته ، والتعرف على معالمها وحدودها في كل كليّة أو جزئية من شؤونه ومكوناته .

إذن ، فهناك رشد أو غي ، هدى أو ضلال ، صلاح أو فساد ، حياة أو هلاك ، كرامة من الله -سبحانه- أو مهانة .. ثم -وبعد الموت والنشور- جنة عرضها السماوات والأرض ، أو نار « أَحَاطَ بِهِمْ

(١) البقرة: ٢٥٦_٢٥٧.

(٢) القلم : ٣٥ -٣٦.

سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاء كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءتْ مُرْتَفَقاً» .

❁ ❁ ❁

من مجالي رعاية الله لدينه العظيم

أما الرعاية الإلهية التي تتجلى للإنسان في دين الله من هذه الناحية بالذات ، وتبرز لوعيه مع أدنى التفات ، فيمكننا أن نقف منها عند مجليين :

الأول : ذلك القرب المباشر في حقائق الإسلام كافة من ذات الفِطَر الإنسانية ..

ويمكن القول بأن هذا القرب البديهي هو عنوان واقعية الإسلام ، التي يستحيل أن ينالها مذهب من المذاهب الأخرى ، أو دين من الأديان سواه .

فهو قرب يمزج بين هذه الحقائق الإسلامية -بما تحويه من تصورات وأحكام ، ومُثُل إنسانية مصطفاة ، وغيرها-، مع تطلع الإنسان نفسه إلى الحق، وطموحه الذاتي إلى الاستواء معه ، والى الاستقامة في سبيله ، لا في جانب خاص من جوانب الإنسان ، وإنما في جميع جوانبه الفكرية والسلوكية والأخلاقية ، وغيرها ..

وهي ميزة التزمها الله (تعالى) مشرع الإسلام له ، وأخذها على نفسه حين تعهّد للإنسان أن يجعله دين الفطرة ، ويجعله صبغته التي أنشأ عليها المكونات ، لا الإنسان وحده ، وإنما جميع مظاهر الخلق .. قال (تعالى) :

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا

تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .[(١)]﴾ .

﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ .[(٢)]﴾ .

وشواهد هذا القرب الفطري لحقائق دين الله من الإنسان يجدها كل فرد من نفسه ، وهو يتّبع بصائر الله (تعالى) ، ويسترشد بيناته في سلوكه نحو غاياته الرفيعة في الحياة ، قبل ان يلمس دلائلها وآثارها في الحياة الإنسانية ، واستقامتها في مسيرتها نحو أهدافها الذاتية العليا ، وسعادتها وكمالها الساميين.

❊ ❊ ❊

الثاني : ذلك المدد الرباني الذي يعضد المؤمن وهو يستمسك بعروة الإسلام الوثقى ، فلا تزلّ له قدم في مسرى ، وذلك النور الذي يملأ بصيرته وهو يسترشد هداه ، فلا يزيغ به هوى في تصور أو في سلوك ، وذلك العون ومدد القوة اللذان يثبّتانه على الحق في كل موقف

.

وهو -كذلك- التزام أخذه الله ﷻ على نفسه للإسلام ، وهو يقدّمه للإنسان مناراً له في الحياة ، ورصيداً أبدياً لاستقامته التامة فيها نحو الكمال ، قال ﷻ :

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ .[(٣)]﴾.

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْواهُمْ ..[(٤)] ﴾ .

---

(١) الروم : ٣٠ .
(٢) البقرة : ١٣٨.
٣) إبراهيم : ٢٧.
٤) محمد : ١٧ .

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ .

❁ ❁ ❁

الولاية والواقع التكويني والإنساني

وعلى هذا الأساس ، فحين اعتبر الإسلام ولاية علي عليه السلام واحدة من أهم أصوله وحقائقه ، فمن الطبيعي أن تتراءى فيها هذه المطابقة التامة مع واقع الوجود التكويني والإنساني ، وكما اقتضته حكمة الله فيه ، كما يتراءى فيها نفس الدور الذي أنيط بالإسلام ، والمهمات التي اضطلع بها مصطفوه المنتجبون عليهم السلام عامة ، ومحمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله منهم خاصة .

وبالفعل ، فهذا هو ما دلت عليه دلائل هذه الولاية من نصوص الإسلام كافة .

فالحجة الإلهية فيها لم تعدُ التبشير بها ، والإنذار من مجانبتها ، فهي لم تكره أحدا من الناس على اتّباعها ، ولم تقسره على التزامها وراء اختياره وقناعته ..

«من كنت مولاه فعلي مولاه ..» .

«فان الله مولاكم وعلي إمامكم ، ثم الإمامة في ولدي من صلبه إلى القيامة» .

ولكن —وكما هو الأمر في سائر حقائق الإسلام الأخرى- فان النتائج المترتبة على التزام الإنسان لهذه الولاية تختلف لديه —ولا ريب- عن النتائج المنتظرة من مجانبته لها وصدّه عنها ، وآثار كل واحد من هذين النهجين تتفاوت عن آثار النهج الآخر ، تفاوت ما بين الهدى والضلال .. ما بين الاستقامة في سبيل الله (تعالى) والانحراف عنه ..

«اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ، وانصر من نصره ، واخذل

من خذله» .

«فلا تضلوا عنه ، ولا تستنكفوا منه ، فهو الذي يهدي إلى الحق ، ويعمل به ، لن يتوب الله على أحد أنكره ، ولن يغفر له ، حتماً على الله ان يفعل ذلك ، وان يعذبه عذاباً نكراً أبد الآبدين» .

❁ ❁ ❁

كما يتجلى في هذه الولاية أيضاً ذلك القرب المباشر من الفطرة الإنسانية ، حيث أخذه الله ﷻ على نفسه حين شرع مختلف حقائق الإسلام وبيناته .

وهي رعاية ربانية خاصة ، يلمسها كل احد يتدبر شؤون هذه الولاية ، ويدركها كل متتبع لمعالم الحق فيها ..

وقد سبق ان لاحظنا أن مختلف الأسئلة التي ترد على الفكر في إتمام كلمة الإسلام ، وقيام حجته بعد الرسول ﷺ وعظمة حكمة مشرعه ، كلها لا تجد جوابها المقنع بدون هذه الولاية ..

كما لاحظنا أن اطمئنان القلب بالإيمان لا يتحقق بدونها .

ورأينا استحالة ان تكتمل حقائق الإسلام ذاتها ، أو تنتظم بيناته كافة بدونها أيضاً ، وبدون أن تؤيد برعايتها وقوامتها ، إذ الولاية نفسها مصدر أساس لتلك الحقائق ، ومنبع رئيس لتلك البينات بعد القرآن والرسول ﷺ .

(لا حلال إلا ما أحله الله ورسوله ، ولا حرام إلا ما حرمه الله ورسوله وهم . فما من علم ألا وقد أحصاه الله فيّ ونقلته إليه ، فلا تضلوا عنه ، ولا تستنكفوا منه ، فهو الذي يهدي إلى الحق ويعمل به) .

(افهموا محكم القرآن ، ولا تتبعوا متشابهه ، ولن يفسر ذلك لكم إلا من أنا آخذ بيده وشائل بعضده) .

وهذا يعني ان هذه الولاية وشؤونها لا تقف في حدود قربها الذاتي من الإنسان وفطرته فحسب ، وإنما هي -قبل هذا- واحدة من العناصر المهمة لأي قرب يتأتى في أي حقيقة إسلامية أخرى ،كما يتضح مع أدنى تأمل في الموضوع .

فبالولاية تستكمل مختلف حقائق الإسلام استقامتها مع الروح الإسلامية العامة ، وهو أمر يستشعره كل أحد يقارن بين ما يرده من الحقائق الإسلامية من خلال نهج الولاية ، وما يرده من هذه الحقائق عن طريق مصادر أخرى بعيدة عنها ، إذ سيلمس من الاستقامة والتكامل ووضوح الواقعية الإسلامية مع اتّباع ذلك النهج ما لا يراه فيما يرده من هذه المصادر الأخرى ، وإن امتلكت من وسائل الإعلام ما يملأ الآفاق على مدى التأريخ الإسلامي .

ومن هنا كان لمذهب أهل البيت عليهم السلام مزاياه المعروفة ، وخصائصه الفكرية والمنهجية المتكاملة ، التي لم يستطع أن يبلغها مذهب آخر من المذاهب الإسلامية .

كما كان لهذا المذهب استقامته الواضحة والفريدة مع كلمة الرسول صلى الله عليه وآله ، ومع كلمة القرآن ، ومع شواهد الإسلام الأخرى ، فلا ادّعاء دون أصل، ولا تمحل دون فكرة ، ولا تفاوت في حكم ، وهي مسالة يشهدها كل متتبع لهذه النواحي ، وإن لم يكن من أتباع هذا المذهب ، فهي مسألة موضوعية لا علاقة لها بالالتزام المذهبي ..

ولهذا فهي كذلك مما شهد به أولئك الذين ابتعدوا عن علي عليه السلام من أئمة المذاهب ، وحاولوا الاستقلال بأنفسهم في فهم حقائق دين الله جل جلاله دون الرجوع إليه ، أو إلى أبنائه المنتجبين ، أو أشركوا غيره معه ممن لا يستقيم مع هذا الخط في ذلك الفهم .

وقد رأينا -سابقاً- ما جرى عليه الخلفاء الذين تقدموا علياً في الخلافة ، من الرجوع إليه في الأزمات والشدائد ، والتباس الأمور ، حتى أن عمر بن الخطاب نفسه -وهو الأساس في الخط المناوئ لعلي وولايته ، كما هو معلوم- كان يرى أن قول علي عليه السلام من السنة التي يجب أن تتبع .

ولا أطيل باقتباس مزيد من شواهد هذه المسألة ، إذ ما أكثر المواقف التي عمل بها المسلمون بقول علي عليه السلام ، بعد أن أوقفتهم الحيرة أو زلت بهم الأقدام ، أو ضلت بهم السبل فلم يهتدوا سبيلاً ، ولم يستنكف أي منهم من هذا الرجوع بعد أن شعر بحاجته إلى الهدى ، ولمس من نفسه الوقوع في الخطأ ، أو النكول عن الحق ، وعن نهج الإسلام القويم .

❃ ❃ ❃

وحدة مذهب أهل البيت عليهم السلام

وناحية أخرى يبرز بها ذلك القرب الفطري للولاية وشؤونها من الواقع الإنساني والتكويني ، أيضاً ..

إنه توحدّ البنية الإسلامية في مذهب أهل البيت عليهم السلام ..

ففي هذا المذهب تتكامل أصول الإسلام وفروعه ، وتصوراته وتشريعاته، وتستقيم جميعها في خط موحد المعالم والحدود والمناهج والغايات ، مع العطاء القرآني ، وسنة الرسول صلى الله عليه وآله -من جهة-، ومع التطلع الذاتي للإنسان إلى الحق، أو إلى دلائله الواضحة في دينه العظيم -من جهة أخرى-، وهو ما لم يرق إليه مذهب من المذاهب الإسلامية المعروفة بهذا المستوى من الحدية والوضوح .

ونظرة فاحصة متدبرة للواقع القائم من المذاهب الإسلامية يمكنها

أن تثبت لكل ذي عينين هذه الحقيقة .

ويؤسفني أن لا أستطيع -وفي هذا المجال الضيق- من الدخول في شيء من تفاصيل هذه الناحية المهمة ، لحاجة المسلمين إليها ، ولاسيما في هذه العصور الحرجة من تاريخ الصراع المذهبي ، حيث دخل هذا الصراع في آفاق جديدة وقاسية ومتسارعة ، تطمح حتى إلى اجتثاث الأسس والثوابت التي كانت في مأمن في أزمان سابقة .

والله ﷻ أسأل أن يوفق المخلصين من حماة الإسلام لاستيفاء الحاجة من بحث هذه الجوانب لجلاء الحقائق التي يحتاجها أبناء الإسلام فهو ولي التوفيق وهو أرحم الراحمين .

❁ ❁ ❁

التوفيق الإلهي للمؤمن مع الولاية

وفي هذه الولاية -أيضاً- يتجلى توفيق الله للإنسان المؤمن في نصرته لها، وإمداده بما يعضده من عزيمة وهدى وهو يستمسك بهذا النور الإلهي ، ويثبّته وهو يستقيم في سبيله ، ويعينه على تحمل مسؤولياته الكبرى فيه ، مع كل حال وعلى أي صعيد :

«اللهم وال من والاه .. وانصر من نصره ..» .

«مرحوم من صدّقه» .

وقد سبق ان لاحظنا من صور هذا التوفيق : عدم اطمئنان القلب في إيمانه بدين الله ذاته ، ما لم ينطلق فيه من هذه الولاية .

كما يلاحظ ان هذا التوفيق يتجلى بالمدد والتثبيت والتسديد الرباني لحملة راية الولاية من أبناء الإسلام ومخلصيه ، ليكون هو العنصر البارز في مختلف المواقف المصيرية التي وقفوها في نصرتهم لها ، حتى في أحلك الظروف ، وأشد الأحوال ، فلم تهن لهم حجة ، ولم تزغ

بهم كلمة ، ولم يتفاوت لهم قول يمكن للآخرين أن ينفذوا منه إلى ذات الولاية ، أو وضوح كلمتها ، أو إلى قيام حجة الله فيها .

هذا مع غض النظر عما ينال أشخاص هؤلاء المخلصين من نتائج سلبية في أنفسهم حتى درجة الاستئصال الجسدي وانتهاك حرماتهم ، إذ نحن لا نتكلم هنا عن الامتحان الإلهي لحملة الحق ، ولا نتكلم عن مدى نجاحهم أو فشلهم في هذا الامتحان ، ولا نتكلم عن مدى قوة أو ضعف إيمان كل منهم في تلك المواقف ، فكل هذا مما لا يمس حديثنا من قريب أو من بعيد ، وما يعنينا هنا هو أثر تلك المواقف على ذات الولاية ، وإتمام كلمة الله فيها .

كما يظهر هذا التوفيق في صياغة تلك المواقف كسند لإقامة حجة الله فيها أمام البصائر ، دون أن تهن بها الموهنات ، وهي مواقف ملأت حقب التأريخ ، حيث يستطيع المتتبع أن يراها بوضوح في تلك المناظرات والاحتجاجات التي عرضت لتلك الولاية ، كما يراها في كتب الاختصاص التي عرضت للاستدلال عليها ، ليتمكن من المقارنة بين القوة التي تتمتع بها هذه الأدلة مقابل وهن الردود عليها .

ويمكنني أن أشير إلى مورد آخر من موارد هذا التوفيق ، وهو أننا بينما نرى مختلف المذاهب التي تملأ الساحة الإنسانية -الإسلامية منها وغير الإسلامية- تتأثر بمواقف أتباعها ومريديها المحسوبين عليها ، وبكلماتهم أو معالجاتهم للأمور سلباً أو إيجابا ، حتى لا يبقى منها بعد جيل أو جيلين من أتباعها غير الاسم ، فان هذه الولاية -مثلها مثل الرسالة المحمدية التي اعتمدتها-تبقى أرفع من أن تتأثر بموقف أحد من الناس، غير ذويها المنتجبين عليهم السلام، الذين ارتضاهم الله لها ، ولحمل أمانتها .

فهي اليوم -وكما كانت في زمن الرسالة والعصمة-، لم تغيّر منها حقيقة ، ولم ينطمس منها رسم ، رغم كل العواتي التي أصيبت بها كلمتها , والشدائد والمحن التي مني بها حملتها ، ورغم ما احتسب عليها من دعاوى المدعين وأقاويل المتقولين .

وهكذا فبينما نرى أن الولاية في نفسها مدد من القوة الإلهية ، والروح الربانية ، والعطاء الإسلامي الذي يمد كل كلمة من كلمات مخلصيها -على مر التأريخ-، وكل موقف من مواقفهم بالقوة والروح والعطاء ، لا نرى أي انحراف أو قصور -مما يمكن أن يقع فيه بعض أتباع الولاية- ينعكس على ذات الولاية ، أو على إشراق حجتها على الحياة مهما كانت عليه المكانة الاجتماعية التي يتسنمها ذلك المتبع .

ومرة أخرى نشير إلى ما يذكره التأريخ من قصص المؤمنين بالولاية، ولاسيما أولئك الأبرار أمثال حجر بن عدي ، ورشيد الهجري ، وسعيد بن جبير ، وغيرهم من حملة الولاية الأوائل ، خير غناء لمن يريد الاطلاع على هذه الناحية .

أما حين تهن القوة لدى احد المريدين ، وتضعف لديه كلمتها ، لسبب من الأسباب ، فان الفشل الذي يصاب به يبقى مقتصراً عليه وحده ، إذ سيستبين له هو-قبل غيره من الناس- أن هناك خللاً في إخلاصه للولاية ، أو انحرافاً عن نهجها ، أو زيغاً عن هداها ، فيما قال أو فيما فعل ، لتبقى هي -كما تبقى رسالة محمد ﷺ ، التي التزمها بعيدة عن أي سلبية وقع فيها ، سامية على أي فشل أصيب به .

الفصل الرابع

عصمة الولاية من الناس

أما عصمة الله (تعالى) لولاية علي عليه السلام من الناس ، وتعهده بالذود عنها ، ومنعة أمرها ، فهو -وكما قرأناه سابقاً- صريح قوله (تعالى) في آية التبليغ :

﴿وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ .

فهو تعهد رباني لابد من الوفاء به كأكمل ما يمكن الوفاء ، لا في الحدود الشخصية الخاصة للرسول صلى الله عليه وسلم ، وصيانة حياته من عتوّ العتاة ، وتمرد المردة ، ممن لم يرق لهم إعلانه لهذه الولاية على الأشهاد ، ولا في نفي الريب عن صدقه في هذا الإعلان يوم غدير خم ، أو غير ذلك من الأيام -فحسب ، وإنما عصمته هو ، وعصمة رسالته في تشريع هذا المنصب الرفيع من أساس، وإسناده لعلي عليه السلام ، واعتبارها أحد الأركان التي يعتمدها دين الله (تعالى) في وجوده ، مع غض النظر عن عامل الزمن ، أو تأثير الظروف ، أو تقلب الأحوال ..

وهو عموم يدلّ عليه سياق الآية المباركة نفسه ، قبل أي شاهد آخر يقام عليه : ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ، وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ، إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ .[1]﴾ .

---

(١) المائدة ٦٧

فمضافاً إلى ما سبق أن أشرنا إليه في العديد من المواضع من دلالة هذه الآية المباركة على مكانة هذه الولاية في دين الله ، ودورها الكبير في قيام صرحه ، فإن اختيار السياق المبارك لكلمة (الرسول) من بين أسماء النبي ﷺ وصفاته ، يعني أنه قد جمع شخص الرسول ورسالته - معاً-، سواء في خطابه، أم في المسؤوليات الملقاة عليه ، أم في هذا التعهد الرباني بالعصمة من الناس أيضاً .

فما كان شخص الرسول ﷺ -كرسول لله- ليعصم من الناس لو استطاع أحد أن ينال من قدس رسالته التي تحملها ، كما لم يكن كيان رسالته ليعصم -كذلك- لو أمكن لأحد أن ينال من قدسه ﷺ بشيء يوهن من مكانته أمام موازين الحقيقة .

ويؤكد هذا ما ورد عن النبي ﷺ مستفيضاً في بيان وحدة ما جاءت به رسالته وولاية علي وأبنائه المنتجبين عليهم السلام ، ووحدة ما بينه وبينهم من رابطة وثيقة ، عنوانها وحدة المنهج والمسير والأهداف والنتائج ، أمثال قوله ﷺ :

(علي مني وأنا من علي[٢]) .

(من سره أن يحيا حياتي ، ويموت مماتي ، ويسكن جنة عدن غرسها ربي ، فليوال عليا من بعدي ، وليوال وليه ، وليقتد بالأئمة من بعدي ، فإنهم عترتي ، خلقوا من طينتي ، رزقوا فهماً وعلماً ، وويل للمكذبين بفضلهم من أمتي ، القاطعين فهم صلتي ، لا أنالهم الله شفاعتي) .

إضافة إلى ما سبق أن قرأناه في أحاديث وحدة طينتي الرسول ﷺ وعلي عليه السلام، ووحدة شجرتهما ، وأنهما كانا نوراً بين يدي الله قبل خلق

---

(٢) يراجع (فضائل الخمسة من الصحاح الستة)-ج :١-ص :٣٣٧_٣٤٤ لمعرفة مصادر هذه الكلمة .

آدم ... وغيرها .

كما يؤكد هذا دعاء الرسول ﷺ لعلي عليه السلام حينما أعلن ولايته على الأمة في يوم الغدير :

«اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله» .

فهو دعاء يستحيل أن يُرد ، فالرسول ﷺ أسمى عند الله من أن يرد له دعاء ، والولاية أعظم في دينه ، وأجل من يتهاون في أمرها ، ولو بصغير من الأمور .

والواقع أن أي ملاحظة لأمر هذه الولاية ، وخلود حجتها مع الزمن ، لتؤكد -دون ريب- أن الله -سبحانه- وفى لرسوله ﷺ ما تعّهده له من العصمة ، وأنه قد استجاب له دعاءه أكمل استجابة ... سواء في استقامة الولاية ذاتها مع نهج الإسلام ، بل واستقامة الإسلام نفسه بالولاية -كما علمنا-، أم في العصمة الذاتية لعلي عليه السلام وأبنائه المنتجبين عليهم السلام ، والانتظام المطلق لحياتهم مع الحق ودلائله ، فلا زيغ ولا انحراف ، ولا خطأ ولا نسيان يمكن أن ينفذ منه المتطاولون على قدس الرسالة ، أو الرسول ﷺ ، أم في قيام الحجة الإلهية بهذه الولاية ، وذود الله عز وجل عنها نيل النائلين ، وكيد الكائدين، وإمداده إياها بمختلف عوامل الحياة والاستقامة الأبديين ، رغم ما بذله الباذلون من جهود لكبتها ، ووضعه الواضعون في مسارها من عقبات وشبهات .

إنها لرعاية إلهية خاصة ، واضحة البرهان ، يعلم طبيعتها وخصائصها كل من قرأ في تاريخ الإسلام وعرف شيئاً مما حاولته أيدي الإحن والضغائن من عبث ، وإطفاء لأنوار كلمة الله فيها ...

الفصل الخامس

صور الرعاية الإلهية للإسلام

ولكي يتضح لنا شيء مما تعنيه هذه الرعاية ، لابد من العودة إلى ما قدمناه من ضرورة الاختيار في الالتزام بدين الله ...

فالحكمة الربانية التي أنشأت الإنسان ، وأفاضت عليه مميزاته وخصائصه وقواه المعروفة ، إنما أنزلت الإسلام من اجل ان تفي له بحاجته إلى الهدى ، وتهيئ له الاستقامة مع سمة الحق في حياته الدنيا ، كل هذا من خلال هذه مميزاته وخصائصه وقواه الإنسانية خاصة .

وبهذا يكون قبول هذا الدين أو رفضه من شأن الإنسان وحده ، دون أي إكراه له حتى من الله .

ولكن علينا ان نعلم ان النتائج التي سيكسبها الإنسان في استقامته مع الإسلام تختلف كل الاختلاف عن النتائج التي سيكسبها من انحرافه عنه لاختلاف المسلكين في طبيعتهما ، وفي آثارهما ونتائجهما .

﴿مَن اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا.[1]﴾ .

﴿أَفَمَن اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللّهِ كَمَن بَاء بِسَخْطٍ مِّنَ اللّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ .[2]﴾ .

---

(١) الإسراء : ١٥ .

(٢) آل عمران: ١٦٢ .

﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لا يَسْتَوُونَ.[١]﴾ .

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا.[٢]﴾ .

وعلينا ان نعلم أيضا ان اعتماد الاختيار في قبول أو رفض هذا الدين لا يعني أن هناك ضعفاً في قدرة الله (تعالى) على ان يحقق ما شاءته الحكمة من أمر ، أو تنال ما قصدته من غاية ، فهي قدرة مطلقة مهيمنة يستحيل ان ينالها ضعف ، أو تحدها حدود ، ولكن مقتضى الحكمة في جعل الاختيار للإنسان ان يكون المنهج الذي يحكمه مما يتسم بطابعه ، إذ لا تفاوت في هذه الحكمة -كما هو واضح- .

كما أن هذا الاعتماد لا يعني أيضاً أيكال كلمة الله في هذا الدين ، وتسليم حجته إلى الناس ، وتفويض أمرها إليهم دون ضمان الهي ، يتعهد إتمام نورها ، وبلوغ رشدها إلى العباد ، فهذه الحجة وتلك الكلمة بعض حدود الله وشؤونه الخاصة ، ويستحيل ان يسلمها ، أو يسلم أمرها إلى أيد غير مأمونة التصرف ، دون سند من قوته ومنعته -سبحانه-، ليعبث بها العابثون ، أو ينال من قدسها النائلون .

ولهذا فان إفساح مجال الاختيار الإنسان في ان يقبل -أو لا يقبل- دين الله (تعالى) ، أو يمتثل -أو لا يمتثل- بعض حدوده وأحكامه ، لا يعني تمكينه من التطاول على حجته ، أو إسلام هذه الحجة إليه ، دون سند حافظ يكفل لهما ما أراده الله لها من النصوع والبلاغ .

كلاّ ... أبداً ، إذ لابد من التفرقة بين ما هو من شأن الله -سبحانه- في إتمام نوره وإقامة هداه في هذه الأرض ، وما هو من شأن

---

١) السجدة : ١٨ .

٢) الجاثـية : ٢١ .

الإنسان في قبول أو رفض هذا الهدى ، والاستهداء أو عدم الاستهداء بذلك النور بعد إتمام الله له ، وبعد إقامة الحجة به عليه ...

وهكذا فحين يوكل هذا القبول إلى اختيار الإنسان ذاته ، بعد إقامة الحجة عليه ، فلأنه وكما -قلت- إنما هو مقتضى حكمة الله -سبحانه- في إنزال دينه القويم ، لضرورة التناسب ما بين القانون وموضوعه ، أما نفس إقامة الحجة وإتمام نور الله فيها ، فهو من شأن الله وحده ، ويجب أن تتعهده الرعاية الإلهية نفسها ، إذ لا بد ان يتحقق لكلمة الله علوها ، ولحجته بلوغها ، ولا يجوز أن يوكل أمرها إلى احد سواه ، دون مدد من تلك الرعاية ، أو دون سند يكلؤها من أيدي العبث ، وأدران الجهالات ، وشطط الأهواء ، إذ لا بد ان يكون الله بالغ أمره وتعالى شأنه عن العجز ، وتعالت كلمته عن القصور .

والقضية بهذه الحدود العامة من المسلمات الإسلامية المعروفة ، وقد أيدها الكثير من النصوص الإسلامية ، والقرآنية منها وغير القرآنية ... قال (تعالى) :

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ .[1]﴾ .

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ . كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ .[2]﴾ . إلى غير هذه الآيات .

ولكن السؤال هو : كيف يتحقق كلا الأمرين على صعيد الواقع الفعلي للإنسان ؟ .

---

(١) الصف : ٨_٩.
(٢) المجادلة : ٢٠-٢١.

❁ ❁ ❁

من تجليات العناية الربّانية لكلمة الإسلام

وأهمية السؤال المتقدم تبرز مع الالتفات إلى أن ههنا أمرين مهمين متداخلين ، ولابد أن تتراءى النتائج المتقدمة من خلالهما معاً :

احدهما : ان يتحقق ذلك السمو لكلمة الله في الإسلام ، وتمامها لابد أن يكون من خلال واقع الإنسان ، وضمن الآفاق الفعلية لحياته خاصة ، فقد قلنا: إن الإسلام إنما هو هدى الله للإنسان ، وقد أنزله لكفاية حاجته الاختيارية من النور والرشد ، وبلوغ درجات السعادة والكمال ، فسمو كلمة الله في دينه القويم إنما يتأتى من خلال سمو شواهدها في الإنسان -أفراد أو مجتمعات- ممن يلتزم نهجه ، ويتبع سبيله .

ثانيهما : الطبيعة الاختيارية لدين الله (تعالى) وبصائره ، إذ هو لا يفرض مفاهيمه وحقائقه وأحكامه على الإنسان من خارج اختياره .

وتداخل كلا الأمرين يعني إشراك الإنسان في إقامة هذه الكلمة -بما لها من سمو وتمام- في واقع حياته شواهد حية ، ولو كعنوان لواقعيتها ، ونبراس اقتداء تستهديه البشرية في حياتها ... وهي مسؤولية حملة الأيمان في كل جيل..

وفي هذه الحدود يجب ان ترد الرعايات الإلهية التي تكفل العون لهؤلاء الحملة في مضيهم للوفاء بمسؤولياتهم الكبرى تلك ، فمنعة الحق، وعزة الأيمان -رغم كل العوادي والعقبات ، وتأثير الأهواء- نقطة حمراء ، لا مساحة فيها ولا تهاون .

وهي قضية واضحة أكدها الإسلام في مختلف دلائله ونصوصه...

فالله -سبحانه- هو الضامن لتثبيت الذين آمنوا في الحياة الدنيا وفي

الآخرة على الحق والهدى ، حين يجعلون من الأيمان عنواناً لوجودهم ومواقفهم.

﴿ يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللّهُ مَا يَشَاءُ [١]﴾ .

وهو (جلّ وعز) الكافل لزيادة الذين اهتدوا هدى وإيتائهم تقواهم ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْواهُمْ [٢]﴾ .

وهو مع الذين اتقوا ومع المحسنين يمدهم بالقوة والمنعة والسداد في الخطى والرشد في الأعمال :

﴿ إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ .[٣]﴾ .

وحين يكتسب المؤمن قوته من الاعتماد على الله ﷻ وحده فانه سيصبح في مأمن حتى من الشيطان ومكره وخدعه ، إذ لا سلطان له عليه حينئذ ولا تأثير :

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ . إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ .[٤]﴾ .

وهو المتعهد بنصرة من ينصره ويحمل راية الهدى والنور ، حسب طاقته وقدرته .

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ

---

(١) إبراهيم: ٢٧.

(٢) مريم: ٧٦.

(٣) النحل: ١٢٧_١٢٨.

(٤) النحل:٩٨_١٠٠.

الْأَشْهَادُ[١]﴾ .

﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ .[٢]﴾ .

ولا ننسى أيضاً -ونحن بهذا الصدد- ما لكلمة الإسلام ذاتها من قرب للفطرة الإنسانية ، وأعماق جبلتها إذ لا شك أن هذا القرب -في نفسه- منبع كبير من منابع القوة والمنعة الذاتية في أعماق شخصية الفرد، يعينه حين يسعى إلى تربية ذاته ، ويسمعه صوت الحق حين تشط به السبل ، ويساعده على التمييز الرشيد حين تلتبس عليه الأمور , وتتقاطع أمام وعيه الفكر والمناهج ، وهي درجات لم تنلها كلمة أخرى في مثل تلك الأعماق الإنسانية -كما سبق ان علمنا- .

❁ ❁ ❁

الحسم الإلهي

وقد تتجاوز الرعاية الإلهية لدين الله الحدود الطبيعية للإنسان .

نعم ، فالنقطة المشتركة في المجالي السابقة من رعايات الله -سبحانه- لكلمته : أنها تجري -في الغالب- ضمن الحدود الطبيعية التي ألفها الإنسان ، وفي آفاق قابلياته الاختيارية في الاستقامة مع الهدى ، وإمداده بالقوة الذاتية وما يعينه على الصمود والوفاء بمسؤولياته فيه ، وظهوره على المناوئين في حالات الصراع .

كل هذا حين تكون تلك الآفاق والظروف الموضوعية التي يعيش فيها الإنسان مؤهلة للتحفظ على ما لكلمة الله (تعالى) من شرائط التمام والرفعة ، وحيث شاء الله لها من موقع .

---

(١) غافر : ٥١ .

(٢) الحج : ٤٠.

أما حيث تقصر الحدود الطبيعية للإنسان عن القيام بهذه المهمة ، ولو مع هذه الإمدادات التي تلائمها ، إما لعدم توفر القوة الكافية من حملة الأيمان لهذا القيام ، وإما لعدم كفاية الظروف الاجتماعية له ، وإما لوجود شبهات تمنع بصائر الناس عن إدراك الحق في المواقف والتعامل معه ، أو لغير هذه من الأسباب .

أقول : أما حيث تقصر حدود الطبيعية للإنسان عن القيام بهذه المهمة في مورد من الموارد ، فان لحكمة الله -سبحانه- سبلاً أخرى في تحقيق غاياتها، وهي قد تتجاوز مجاري تلك الحدود الطبيعية التي ألفها الإنسان من نفسه أو من ظواهر الكون الذي يعيش فيه ، إذ لا بد من التدخل الحاسم لإتمام نور الحق ، وإقامة حجته ، ولو بطرق إعجازية تشعر العقول الإنسانية بحدودها ، وتقطع يد الباطل عن ان تنال مبتغاها من سمو نور الله وهداه ، أو تطال شيئاً من درجة كلمته التي شاء لها أن تكون هي العليا .

وهذا الحسم -كما قلنا- إنما هو شأن الهي خاص ، تقتضيه ذات الحق، في كل مورد يتجلى فيه ، وغايات الحكمة الإلهية معه ، ويستحيل ان يوكل الأمر فيه إلى غيره (تعالى) دون ضمان مباشر منه .

ولا يقف هذا التدخل الإلهي المباشر عند نموذج واحد فقط ، ولا في صعيد خاص ، ولا في حدود موضوعية معينة فحسب ، وإنما هو يجري في موارده حسب مقتضيات الحكمة ، وحسب ما تمليه ضروراتها في الأمور ، وفي أي شكل ، وعلى أي صعيد .

ولهذا فهو قد يبرز كمؤيد رباني لدعوى القيّم على الحق في ارتباط كلمته بالله (تعالى) واصطفائه إياه ، حيث تحتاج العقول إلى ما يثبت هذه الدعوى وصدقها دون أدنى ريب .

وفي هذا النوع تندرج معاجز الرسل والأنبياء والأوصياء عليهم السلام في دعاواهم الأولى من الاصطفاء الإلهي ، وسفاراتهم عن الله (تعالى) .

كما تندرج فيها إشراقتهم الخارقة على النفوس ، والسبل التي يمتلكونها في إنفاذ كلمة الحق إليها دون عناء .

وهي رعاية إلهية لابد منها لإثبات صدق هؤلاء الأصفياء عليهم السلام دون أي ريب قد يعتري النفوس -أولاً-، ولابد منها في ديمومة إسنادهم لتحقيق ما ألقي عليهم من مهمات ومسؤوليات ، فبهذه الرعاية تتم لكلمة الله (تعالى) عزتها ومنعتها ، واستقامتها نحو غايتها ، وكما شاء الله لها دون وهن أو اختلاف .

❁ ❁ ❁

وفي هذا النوع من رعايات الله -كذلك- يجري ذلك التأييد الخارق للعادة في نصر المخلصين من حملة كلمة الله في مواقف تضعف قوتهم من تحقيق مثل هذا النصر والغلبة في موازين القوى المعتادة بين الناس ، كما سجله القران في إحداث يوم بدر ، حيث شاءت حكمة الله (تعالى) ان تفتح بهذا اليوم صفحة جديدة للإسلام ، في وقت لم تكتمل للمسلمين -بعد- تلك الوسائل الطبيعية لتحقيق مثل هذه الغاية .

ولاسيما أن هذه الصفحة الجديدة من تأريخ الإسلام لم تؤخذ فيها حدود ذلك العصر وحده، وإنما لوحظت فيها كل العصور التي أعقبتها، وحيث شاء الله لهذا الدين أن يؤدي دوره في البشرية ، فكان لابد للمسلمين من أمثال هذا التأييد الرباني الخارق ، قال (تعالى) :

﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ . يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ . وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتِيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ

غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللّهُ أن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ . لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ . إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ. وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَاء مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ. إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ . ﴾[1] .

إلى آخر السياق المبارك...

واضح ان العناية الربانية التي تعرضت لها هذه الآيات المباركة ، والآيات التي بعدها من السياق ، قد مازجت بين النوع السابق من تجلياتها ضمن الحدود الطبيعية للناس ، -كتغشية النعاس للمؤمنين ، وإنزال الماء من السماء ، والربط على القلوب- ..

وهذا النوع الخارق للعادة أيضاً -كاستجماع كل تلك القضايا في موقف واحد ، وكإنزال ألف من الملائكة المردفين-، حيث كانت طبيعة الموقف تقتضي تواتر هذه العنايات ، وتكامل ما بينها ، لقصور الظروف الطبيعية الموجودة عن أن تمكن المؤمنين من تحقيق ذلك النصر المبين ، دون توفر مثل هذا الإسناد الإلهي المباشر ، هذا بينما «يُرِيدُ اللّهُ أن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ . لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ» .

---

(١) الأنفال: ٥-١٢.

فكان من ذلك المزيج المتكامل لرعايات الله (تعالى) مع إخلاص حملة الأيمان في ذلك اليوم الخالد ، هذا النصر المبين الذي فتح الله لدينه أبواباً أبدية في قيام الحجة ، وظهور الأمر ، وتمام الكلمة وعزتها ، وقطع دابر الكافرين .

ولا نحاول الإطالة باقتباس مزيد من الشواهد -وهي كثيرة في القران فضلاً عن سنة المعصومين عليهم السلام- بعد وضوح المطلوب في الشواهد السابقة .

❖ ❖ ❖

وقد يبرز هذا التدخل الرباني المباشر وخرق النواميس الطبيعية -في حالات أخرى- بشكل يتكفل هو وحده الدور الأكبر في إقامة كلمة الله، وإثبات حجته ، وإيضاح برهانه ، حيث يتضاءل الدور الإنساني معه إلى درجة ثانوية في تحقيق تلك العناية .

وهذا النوع من الرعاية الإلهية يرد في موارد تنقطع فيها البصائر عن إدراك معالم الحق إلا من هذا السبيل المعجز.

وقد ذكر القران شيئاً من أمثلة هذا النوع أيضا ، كمعاجز أكثر الأنبياء عليهم السلام، وما حدث ليوسف عليه السلام حين برأه الله من دواني الأخلاق ، وموهنات الأعمال .. قال (تعالى) :

﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ . وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ . وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوَءاً إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ

شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ . وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِن الصَّادِقِينَ . فَلَمَّا رَأى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ .[(١)]﴾ .

وكما هو الشأن أيضا مع مريم ابنة عمران حينما ولدت وليدها عيسى عليه السلام ، حيث شاءت عناية الله –سبحانه– أن تنقي شرفها وشرف وليدها العظيم عليه السلام عن ان تلوكه ألسنة السوء وهي تلده لا عن زوج ، قال (تعالى) :

﴿.. فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً . يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً . فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً . قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً . وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً. وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً .[(٢)]﴾.

إلى كثير من هذه الأمثلة القرآنية .

❖ ❖ ❖

أما في السنة فأمثلة هذا النوع والنوعين السابقين من التدخل الإلهي، والرعاية الربانية لكلمة الحق ، أكثر من ان تحصى ، سواء في إثبات صدق احد المصطفين عليهم السلام في دعواه لاصطفاء الله (تعالى) له ، أم في الذود عن مظهر من مظاهر الرسالة التي يحملها ، ام في الدفاع عن شخصية من شخصياتها .

ومن هذه الأمثلة ما أخرجه الحاكم في المستدرك بسنده عن عبد

---

(١) يوسف: ٢٣–٢٨.

(٢) مريم : ٢٧–٣٢.

الرحمن بن أبي بكر ، قال :

كان (فلان) يجلس إلى النبي ﷺ فإذا تكلم النبي بشيء اختلج بوجه، فقال له النبي ﷺ : (كن كذلك) ، فلم يزل يختلج حتى مات[١] .

وما ذكره ابن سعد في طبقاته -ضمن روايته لقصة هجرة الرسول ﷺ من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة-.

قال : وكان خروج رسول الله ﷺ من الغار ليلة الاثنين ، لأربع ليال خلون من شهر ربيع الأول ، فقال (يعني نام القيلولة) يوم الثلاثاء بقديد ، فلمّا راحوا منها عرض لهم سراقة بن مالك جشعم ، وهو على فرس له ، فدعا عليه رسول الله ﷺ فرسخت قوائم فرسه ، فقال : يا محمد ادع الله ان يطلق فرسي وأرجع عنك ، وأردّ ما ورائي .

ففعل ﷺ ، فأطلق ، ورجع فوجد الناس يلتمسون رسول الله ﷺ ، فقال : ارجعوا فقد استبرأت لكم ما ها هنا ، وقد عرفتم بصري بالأثر ، فرجعوا عنه[٢] . إلى قضايا كثيرة أخرى .

وبهذا يتفق حكم العقل بضرورة هذه الرعاية الإلهية لكلمة الحق في تجلياتها المختلفة ، مع هذه المأثورات الإسلامية الواردة في مواردها .

❁ ❁ ❁

---

(١) المستدرك على الصحيحين : ج :٢ -ص :٦٢١ .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد - ج :١- ص :١٣٢- ط : بيروت -سنة : ١٣٨٠_ ١٩٦٠.

الفصل السادس

من صور الرعاية الإلهية للولاية

ضمان الله للولاية بالعصمة من الناس

والوعد الذي قطعه الله (تعالى) على نفسه المقدسة بضمان العصمة للرسول ﷺ من الناس في إعلانه للولاية -يوم غدير خم- إنما يرد ضمن هذا الخط أيضا ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ .

فهو تعهد منه بأن يرعى كلمته في هذه الولاية ، ووليها العظيم عليه السلام ، وان يبقي هذه الكلمة عليا رغم عواتي الزمن ، وعوادي الإحن، وإن استمرت هذه الشدائد مع الولاية منذ نزول الأمر بها وحتى الزمن الأخير من حياة الإنسان على الأرض .

فحين أمر الله (تعالى) رسوله الكريم ﷺ بإعلان ولاية علي عليه السلام على الناس ، وحين لبّى الرسول ﷺ هذا الأمر من ربه فبلغها للأمة ، أصبحت هذه الولاية -ومع غض النظر عن مواقف الناس منها- إحدى حقائق الإسلام الكبرى ، وواحدة من المظاهر البارزة لكلمة الله فيه ، وهذا هو المدلول القريب لذلك الإعلان -كما لاحظنا ذلك في أكثر من مورد .

فمن الطبيعي -حينئذ- ان تحضى هذه الولاية برعاية تتناسب وموقعها الخاص من دين الله ، ودورها المهم في كيانه ، وأن تنال من عنايات الله الخاصة ما يبقيها أبد الدهر سامية الوجود ، بينة الدلائل ،

قائمة الحجة ، فهي -بعد هذا الالتزام الإلهي- مما يستحيل ان يهمل ، أو يترك عرضة للأهواء ، أو مجالاً لصراع الآراء والمذاهب ، دون تأييد من الله ﷻ ، أو سند من قوته يسمو بها عن أي وهن أو يرتفع بها عن أي خلل ، رغم كل الظروف والأحوال .

ولا يجدي القول هنا : ان تضييع أمر هذه الولاية إنما كان من قبل الناس أنفسهم ، بعد إتمام الحجة عليهم في زمن تشريعها ، كما ضيعوا الكثير من حقائق الإسلام وأحكامه ، فلا مانع من ان يوكل أمرها إليهم حينئذ بعد ذلك الزمن ، فانّ مثل هذا القول إنما يصح حيث لا تكون الولاية بمثل هذه الدرجة العظمى التي جعلها الله (تعالى) لها في دينه القويم ، فهي -كما علمنا- احد الأركان الأساسية في صرح الإسلام ، فعليها تعتمد حقائقه كافة ، وهي أساس مكين من أسس جميع الحقائق الإسلامية الأخرى ، فهي كالتوحيد والرسالة تماماً في موقعهما من كيان الإسلام ، وأهميتهما فيه ..

«وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ» .

«افهموا محكم القران ولا تتبعوا متشابهه ، ولن يفسر ذلك لكم إلا من أنا آخذ بيده وشائل بعضده» .

«اللهم انك أنزلت عند تبيين ذلك في علي «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ» بإمامته ، فمن لم يأتم به وبمن كان من ولدي في صلبه إلى القيامة فأولئك الذين حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون» .

وهذا يعني أن تضييع أمر الولاية ، وإيكال أمرها إلى الناس دون ضمان إلهي يعني تضييع مختلف الحقائق الإسلامية ، وإهمال شؤونها ، وعدم بلاغ حجتها ، وهذا مستحيل في حكمة الله (تعالى) .

والواقع أن ملاحظة الولاية من خلال هذا المنطلق بالذات تجعلها

في غنى حتى عن الحاجة إلى التصريح الوارد في الآية الكريمة السابقة بضمان العصمة من الناس .

فعصمة الله (تعالى) للإسلام كله ، وللرسول ﷺ خاصة ، معلومة التحقق في الموازين العقلية الثابتة ، وفي الدلائل الإسلامية المتواترة معاً ، منذ أول أمر نزل للرسول ﷺ في تبليغ رسالته والصدع بها ، حتى آخر كلمة له في حياته ﷺ، والآيات القرآنية الواردة بضمان هذه العصمة كثيرة في القرآن، كما قرأنا ذلك في مباحث سابقة ...

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ .[1]﴾.

﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ .[2]﴾.

﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا..[3]﴾.. وهكذا .

ولكن أهمية الولاية في دين الله، وامتداد ذات الرسالة المحمدية بها، وديمومة مهماتها في واقع الإنسان مع ديمومة دور الإسلام فيه ، كل ذلك فرض على الحجج الإلهية إسنادها بمثل هذا الضمان الصريح ، تماماً كما كان الأمر الصريح للرسول ﷺ في تبليغ الولاية ، وإنذاره بأن عدم تبليغه للولاية يعني عدم تبليغه للرسالة نفسها .

هذا مع ان هذا الضمان في نفسه من أحكام العقل اليقينية ، لأنه من مستلزمات حكمة الله المطلقة ، وكمالها في التشريع والتدبير -كما علمنا- .

إلا أن حكمة الله (تعالى) في إقامة حجتها -وخصوصاً في أمر هذه

---

(١) الحجر : ٩ .

(٢) البقرة : ١٣٧ .

(٣) الطور : ٤٨ .

الولاية- لابد أن تأخذ سلبيات المواقف التي ستتخذها الأهواء بالحسبان فلابد من إيقافها عند حدودها ، وبيان قيمتها في موازين الحقائق .

نعم ، لابد ان نتلفت إلى دور الأهواء ، وإلى مداخل الشيطان ومخارجه بين الناس -من جهة- .

والى موقع الولاية البارز في دين الله ، وطموحات الطامحين بها بعد الرسول ﷺ ، فهي أسمى موقع في كيان الأمة بعد الرسالة يستحق ان يبذل فيه الباذلون كل جهد ، وان يرتكب في سبيله المرتكبون كل صعبة -من جهة ثانية- .

وإلى الكراهية التي كان يكنها مجموعة من الناس لصاحب الولاية لدوره في إقامة الحق ، وكسر شوكة الباطل في زمن الرسول ﷺ -من جهة ثالثة-.

إذن فالولاية -في علم الله (سبحانه)- هدف لصراع مرير ، ودائم في تاريخ الأمة المسلمة ، منذ أن صدع الرسول ﷺ بها وحتى يوم القيامة ، ولا يقتصر انتصار المتطاولين عليها ، وتعدي المتعدين على موقعها ، في حدود مقامها ، أو مقام وليها فحسب ، بل سينال ذلك التطاول قدس الرسالة ورسولها العظيم أيضاً ، فالولاية هي امتداد الرسالة في وجودها وديمومتها بعد الرسول ﷺ ، وهو نفسه الصادع بها عن أمر ربه ، والمبلغ لأحكامها في دينه.

كل هذه احتمالات واردة ولابد من أخذها بالحسبان في تشريع الولاية، ولابد من تهيئة العدة المناسبة لمقابلتها بما لها من استمرارية في التاريخ .

وحينئذ كان لابد ان يعلن القران بنفسه هذا الإسناد الإلهي الخاص للرسول ﷺ في أدائه لهذه المهمة الكبرى بالخصوص ، ليقطع كل السبل

أمام تخرصات المتخرصين ، وأهواء المنحرفين ، وليقف بكل منها عند حد يشعرها -هي قبل غيرها- بأنها اقصر من ان تنال في جهدها مطمعاً من الولاية أو الولي عليه السلام ، ومن الرسالة أو الرسول صلى الله عليه وآله رغم ما يمكن أن تكون عليه من قوة ، وما يطرأ من مواقف ، ويستجد من أموره ، وما يمضي من حقب التاريخ .

وليكون هذا الضمان -من ثم- أحد مجالي الإعجاز الأبدي للقران والرسول صلى الله عليه وآله ، وللولاية ذاتها

﴿ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ .

❁ ❁ ❁

من دلائل عصمة الله للولاية من الناس

وبالفعل ، فقد واكبت رعايات الله -سبحانه- محمداً صلى الله عليه وآله ورسالته، وعلياً عليه السلام وولايته ، وعصمت الجميع من الناس ، منذ اليوم الذي صدع فيه محمد صلى الله عليه وآله بالأمر بها ، وحتى اليوم ، ضمن ذلك المستوى الرفيع لتمام كلمة الله -سبحانه- واستيفائها لجميع شرائط الحق ، وبلغ حجته على العباد .

والشاهد القريب والملموس لهذه الرعاية : نفس خلود ولاية علي عليه السلام حتى اليوم ، وقيام حجتها واضحة جلية ، كما أراد الله (تعالى) لها في كل هذه الحقب الطويلة من القرون من السمو والرفعة ، ورغم ما امتلأت به هذه القرون من مواقف سلبية تجاه هذه الولاية ، وصراع مرير مع كل ما ومن ينتمي إليها من قريب أو من بعيد .

فهذا هو الغدير ، وها هو علي بن أبي طالب عليه السلام ، وها هي ولايته ، شواهد إسلامية قائمة في هذا العصر ، كما كانت في عصر الرسول صلى الله عليه وآله ، وكما هي في كل عصر أخر ، تملأ كل وعي ، وتنير كل

بصيرة ، كأي بصيرة ، كأي حقيقة إسلامية كبرى ، لم تخف منها حجة ، ولم يقلل منها برهان ، ولم تقتصر عن واحدة من شرائط الحق ، رغم مل ما أعدته لها الأهواء من مفازات مهلكة ، ورغم ما وضعه الباطل لدلائلها من معوقات عن الوصول إلى البصائر ، وما استخدمه ضد أنوارها من تعتيم .

وقد سبق أن لاحظنا ما أحصاه صاحب الغدير (قدس سره) وحده في هذا الشأن من شواهد إثبات الولاية أمام البصائر المتطلعة للحق ، مما يعلم معه مدى وضوحها للعقول ، وقيام حجتها على البشرية ، لا في أزماننا المتأخرة فقط ، وإنما في مراحل التأريخ الإسلامي كافة ما سبق منها وما لحق .

ومع ان هذا الخلود والوضوح لم يتجاوز الحدود الطبيعية للإنسان في مثل هذه الأمور ، ولم يعدُ المنهج المتعارف بين الناس في نقل الحوادث والأخبار وتواتر أقوال البارزين في المجتمعات الإنسانية ، إلا أننا نعلم طبيعة الدور الذي اضطلعت به الرعاية الإلهية المباشرة في هذا الخلود والوضوح ، حين نلتفت إلى ما أعدته الحقب التاريخية السوداء للغدير ، وللولاية ، ولصاحبها العظيم عليه السلام ولمن يتولاه من المؤمنين من وسائل الكبت والقهر وحتى الاستئصال الجسدي ، وما هيأت للحجة الربانية في هذا الصعيد من سبل الإبعاد عن البصائر البشرية عامة .

فالولاية من بين الحقائق الإسلامية كانت -ولا زالت- من أولى النقاط المستهدفة في الصراع من الإسلام ، وفي محاولات الإبعاد وحتى الإبادة ، في مختلف الأصعدة الفكرية والسياسية والاجتماعية .

بل ويمكن القول -دون مغالاة- بأن الولاية كانت محور معظم ما جرى في تأريخ الإسلام من صراع داخلي مرير ، إذ لا نكاد ندرس أكثر

الحوادث التي جرت في التاريخ الداخلي الإسلامي إلا ونرى أن الولاية هي المستهدف الأول فيها .

ومع ان التعرض لهذه الناحية ليس من صلب حديثنا في هذا البحث -من جهة-، ومع ان شواهدها مما يعلمه كل احد له أدنى اطلاع في التأريخ الإسلامي السياسي والاجتماعي والفكري ، بل ومن كانت متابعة في العلوم الإسلامية المختلفة -من جهة ثانية-، ومع أن الدخول في تفاصيل الحوادث من هذا التاريخ مما يثير الألم في النفوس المؤمنة .

أقول : ومع كل هذه الملاحظات أرى أننا -واستكمالاً لرؤيتنا إلى مدى العناية الربانية للولاية ووليها العظيم عليه السلام- لا بد لنا من اقتباس بعض الشواهد التأريخية مما استخدمه بعض ذوي النفوذ في مواجهتهما ، كنماذج سريعة ندرك من خلالها مدى صعوبة الظروف التي مر بها تاريخهما .

❁ ❁ ❁

في العصر الأموي

يذكر ابن أبي الحديد -في شرحه لنهج البلاغة- نقلاً عن شيخه أبي جعفر الاسكافي قال :

(ان معاوية وضع قوماً من الصحابة وقوماً من التابعين على رواية أخبار قبيحة في علي عليه السلام تقضي الطعن فيه والبراءة منه ، وجعل لهم على ذلك جعلاً يرغب في مثله ، فاختلقوا ما أرضاه ، منهم أبو هريرة ، وعمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة ، ومن التابعين عروة بن الزبير[1]) .

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد_تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيمج٤ص٦٣_سنة١٩٥٩_ن دار إحياء الكتب العربية_مصر.

.. إلى ان يقول : قال أبو جعفر :

(وقد روي ان معاوية بذل لسمرة بن جندب مائة الف درهم حتى يروي ان هذه الآية نزلت في علي بن أبي طالب :

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ . وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ .[1]﴾ .

وان الآية الثانية نزلت في ابن ملجم وهي قوله (تعالى) :

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ ..[2]﴾ .

(فلم يقبل (سمرة) ، فبذل له مائتي الف درهم فلم يقبل ، فبذل له ثلاثمائة الف درهم فلم يقبل ، فبذل له أربعمائة الف درهم فقبل وروى ذلك ..) .

(قال : وقد صحّ ان بني أمية منعوا من إظهار فضائل علي عليه السلام وعاقبوا على ذلك الراوي له ، حتى ان الرجل إذا روى عنه حديثاً لا يتعلق بفضله بل بشرائع الدين لا يتجاسر على ذكر اسمه ، فيقول : عن أبي زينب .

(وروى عطاء عن عبد الله بن شداد بن لهاد قال : وددت ان اترك فأحدث بفضائل علي بن أبي طالب يوماً إلى الليل، وان عنقي هذه ضربت بالسيف[3]).

ونقل ابن أبي الحديد أيضا عن أبي الحسن المدائني في كتابه (الأحداث) انه قال : كتب معاوية نسخة واحدة إلى عماله بعد عام

---

(١) البقرة : ٢٠٤_٢٠٥.

(٢) البقرة : ٢١٧.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد – ج : ٤ –ص : ٧٢ _ ٧٣ .

الجماعة : ان برئت الذمة ممن روى شيئاً في فضل أبي تراب وأهل بيته .

فقامت الخطباء من كل كورة، وعلى كل منبر يلعنون علياً ويبرؤون منه ، ويقعون فيه وفي أهل بيته ، وكان اشد الناس بلاء حينئذ أهل الكوفة ، لكثرة من بها من شيعة علي ، فاستعمل عليهم زياد بن سمية ، وضم إليه البصرة، فكان يتتبع الشيعة -وهو بهم عارف ، لأنه كان منهم أيام علي عليه السلام- فقتلهم تحت كل شجر ومدر ، وأخافهم وقطع الأيدي والأرجل ، وسمل العيون ، وصلبهم على جذوع النخل ، وطردهم وشردهم من العراق ، فلم يبق بها معروف منهم .

وكتب معاوية إلى عماله في جميع الآفاق ، إلا يجيزوا لأحد من شيعة علي وأهل بيته شهادة .

وكتب إليهم ، ان انظروا من قِبَلكم من شيعة عثمان ومحبيه ، وأهل ولايته ، والذين يروون فضائله ومناقبه فأدنوا مجالسهم ، وقربوها وأكرموهم ، واكتبوا لي بكل ما يروي كل رجل منهم واسمه واسم أبيه وعشيرته .

ففعلوا ذلك ، حتى أكثروا في فضائل عثمان ومناقبه ، لما كان يبعثه إليهم معاوية من الصلات والكساء والجباء والقطائع ، ويفيضه في العرب منهم والموالي ، فكثر ذلك في كل مصر ، وتنافسوا في المنازل والدنيا ، فليس يجيء احد مردود من الناس عاملاً من عمال معاوية ، فيروي في عثمان فضيلة أو منقبة ، إلا كتب اسمه وقرّبه وشفّعه ، فلبثوا بذلك حيناً .

ثم كتب معاوية إلى عماله : ان الحديث في عثمان قد كثر وفشا في كل مصر ، وفي كل وجه وناحية ، فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأولين ، ولا تتركوا خبراً يرويه

احد من المسلمين في أبي تراب إلا وتأتوني بمناقض له في الصحابة ، فان ذلك أحب إلي ، واقر لعيني ، وأدحض لحجة أبي تراب وشيعته ، واشد عليهم في مناقب عثمان وفضله .

فقرئت كتبه على الناس ، فرويت أخبار كثيرة في مناقب الصحابة مفتعلة لا حقيقة لها ، وجدّ الناس في رواية ما يجري هذا المجرى ، حتى شادوا بذكر ذلك على المنابر ، وألقي إلى معلمي الكتاتيب ، فعلموا صبيانهم وغلمانهم من ذلك الكثير الواسع ، حتى رووه وتعملوه كما يتعلمون القران، وحتى علّموه بناتهم ونساءهم وخدمهم وحشمهم ، فلبثوا بذلك ما شاء الله .

ثم كتب إلى عماله نسخة واحدة إلى جميع البلدان : انظروا من قامت عليه البينة انه يحب علياً وأهل بيته فامحوه من الديوان ، وأسقطوا عطاءه ورزقه.

وشفع بذلك نسخة أخرى : من اتهمتموه بموالاة هؤلاء القوم فنكلوا به واهدموا داره .

(فلم يكن البلاء أشد ولا أكثر منه بالعراق ، ولا سيما بالكوفة ، حتى أن الرجل من شيعة علي ليأتيه من يثق به ، فيدخل بيته ليلقي إليه سره ، ويخاف من خادمه ومملوكه ، ولا يحدثه حتى يأخذ عليه الأيمان الغليظة ليتمكن عليه .

فظهر حديث كثير موضوع ، وبهتان منتشر ، ومضى على ذلك الفقهاء والقضاة والولاة ، وكان أعظم الناس في ذلك بلية القراء والمراؤون والمستضعفون الذين يظهرون الخشوع والنسك ، فيفتعلون الأحاديث ليحظوا بذلك عند ولاتهم ، ويقرّبوا مجالسهم ، ويصيبوا به الأموال والضياع والمنازل، حتى انتقلت تلك الأخبار والأحاديث إلى

أيدي الديانين ، الذين لا يستحلون الكذب والبهتان ، فقبلوها ورووها، وهم يظنون أنها حق ، ولو علموا أنها باطلة لما رووها ، ولا تديّنوا بها .

فلم يزل الأمر كذلك ، حتى مات الحسن بن علي عليه السلام ، فازداد البلاء والفتنة ، فلم يبق احد من هذا القبيل إلا وهو خائف على دمه ، أو طريد في الأرض .

ثم تفاقم الأمر بعد قتل الحسين عليه السلام ، وولي عبد الملك بن مروان ، فاشتد على الشيعة ، وولى عليهم الحجاج بن يوسف ، فتقرب إليه أهل النسك والصلاح والدين ببغض علي ، وموالاة أعدائه ، وموالاة من يدّعي من الناس أنهم أعداؤه ، فأكثروا في الرواية في فضلهم وسوابقهم ومناقبهم ، وأكثروا من الغض من علي عليه السلام وعيبه والطعن فيه ، والشنآن له ، حتى ان إنسانا وقف للحجاج -ويقال ، إنه جد الأصمعي عبد الملك بن قريب- فصاح به : أيها الأمير ! إن أهلي عقّوني فسموني علياً ، وإني فقير بائس ، وإني إلى صلة الأمير محتاج .

فتضاحك الحجاج ، وقال : للطف ما توسّلت به ، فقد وليتك موضع كذا [1] .

وروى المقري :

(كان بنو أمية إذا سمعوا بمولود اسمه علي قتلوه ، فبلغ ذلك رباحاً فقال : هو -يعني ولده- عُلَي (بالتصغير) ، وكان يغضب على من سماه به .

كما روى ابن حجر في تهذيب التهذيب : ان علي بن رباح قال :

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج١١ص٤٤_٤٦.

لا أجعل في حل من سماني علي ، فان اسمي عُلي –بالتصغير–[٢]) .

ويحدث أبو حنيفة (إمام المذهب المعروف باسمه) قصة له عندما دعاه احد الأمويين ليسأله عن مسألة فقهية ، قال :

(فاسترجعت في نفسي لأني أقول فيها بقول علي (رضي الله عنه) وأدين الله به ، فكيف اصنع ؟، ثم عزمت أن أصدقه وأفتيه بالدين الذي أدين الله به ، وذلك ان بني أمية كانوا لا يفتون بقول علي ، ولا يأخذون به ، –إلى ان يقول– : وكان علي لا يذكر في ذلك باسمه ، وكانت العلامة بين المشايخ ان يقولوا : قال الشيخ ، وكان الحسن البصري يقول فيه : اخبرنا أبو زينب[١]) .

❖ ❖ ❖

في العصر العباسي

ولم يقتصر هذا الاتجاه المتعادي للولاية على خصوص الدولة الأموية فحسب بل امتد العداء منها إلى ما جاء بعدها من عصور ودول أيضا .

فالعباسيون –مثلاً–، ومع أنهم –في بداية أمرهم– اتخذوا من الولاية ومن القرابة من الرسول ﷺ عوناً لهم على تحصيل مآربهم من السلطة ، ولكنهم ما ان استتب لهم الأمر ، إلا انتهجوا نفس المسلك الجائر في التعرض للولاية ، ولأصفيائها المنتجبين عليهم السلام ولشيعتهم ، إذ تتبعوهم تحت كل حجر ومدر ، وجهدوا في استئصالهم ، ومنع الناس من التحدث في مناقبهم ، أو رواية ما قاله رسول الله ﷺ فيهم ، وسعوا

---

(٢) تهذيب التهذيب: ج٧ص١١٩.

(١) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة – أسد حيدر – ص : ٧٩ _ ٨٠ ج : ٢– ط : الأولى/النجف عن مناقب أبي حنيفة للمكي ج١ص٧١.

إلى افتعال أحاديث في مقابلهم ، وهكذا .

وقضايا هذا العداء أيضا لها شهرتها في كتب التاريخ عامة ، حيث يمكن لأي متتبع ان يراها دون عناء ، إما نحن فيكفينا ان نقرأ -من نماذجه- ما ذكره الطبري في تأريخه إذ قال :

(لما عزم المنصور على الحج ، دعا ريطة بنت أبي العباس امرأة المهدي ، وكان المهدي بالري قبل شخوص أبي جعفر ، فأوصاها بما أراده ، وعهد إليها، ودفع إليها مفاتيح الخزائن ، وتقدم إليها واحلفها ، ووكد الأيمان ان لا تفتح بعض تلك الخزائن ، ولا تطلع عليها أحدا ، لا المهدي ولا هي ، إلا ان يصح عنده موته ، فإذا صح ذلك اجتمعت هي المهدي ، وليس معهما ثالث حتى يفتحا الخزانة .

فلما قدم المهدي من الري إلى مدينة السلام دفعت إليه المفاتيح ، وأخبرته عن المنصور انه تقدم إليها ان لا يفتحه ولا يطلع عليه أحدا حتى يصح عندها موته .

فلما انتهى إلى المهدي موت المنصور ، وولي الخلافة ، فتح الباب ومعه ريطة ، فإذا زج كبير ، فيه جماعة من قتلى الطالبيين ، وفي آذانهم رقاع فيها أنسابهم ، وإذا فيه أطفال ورجال شباب ومشائخ عدة كثيرة[1]) .

ونموذج آخر يرويه ابن حجر في كتابه (تهذيب التهذيب) قال :

(عن عبد الله بن احمد : لما حدث نصر بن علي بهذا الحديث -يعني حديث علي بن أبي طالب-: ان رسول الله ﷺ أخذ بيده حسن وحسين ، فقال : «من أحب هذين واباهما وامهما كان بدرجتي يوم

(١) تاريخ الطبري – ج : ٦ – ص : ٣٤٣ _ ٣٤٤ – ط : ٢ مطبعة الاستقامة – القاهرة – ١٣٥٨.

القيامة» .

أمر المتوكل بضربه الف سوط ، فكلمه جعفر بن عبد الواحد ، وجعل يقول له : ان هذا من أهل السنة ، فلم يزل به حتى تركه[٢]) .

❖ ❖ ❖

التاريخ والولاية

هذه أمثلة قليلة مما يذكره التاريخ من مواقف حقب معروفة في تاريخ الإسلام ، ولا نطيل في اقتباس أمثلة أخرى ، ففيما ذكرناه كفاية في الدلالة على المقصود ..

ويجدر بنا ان نلفت إلى ان هذا التاريخ نفسه قد كتب بنفس تلك الأيدي التي جانبت علياً وأبناءه عليهم السلام ، وولايتهم ، بل وكان بعضها ممن ناصبهم العداء ، فطبيعي ان يهتم التاريخ حينئذ بطمس الحقائق التي لا ترتضيها تلك الأيدي ، ولئن فرضت بعض الحقائق نفسها عليها لشهرتها بين الناس ، ووضوح معالمها وموقعها بين حقائق الإسلام ، فطبيعي ان يكون ذكر التاريخ لها بشكل لا ينال من بريق الصورة الساطعة التي يحاول وضعها لأوليائه ، وقادة خطه ، المعادين لعلي وأبنائه عليهم السلام وولايتهم ، وهذا اقل ما يمكن ان يقوله منصف حول التاريخ في هذه الناحية .

ولكن مع كل هذا ؛ فإن ههنا كلمة صادقة لأبي جعفر الاسكافي ، يذكرها عنه تلميذه ابن أبي الحديد ، في شرحه نهج البلاغة -بعد نقله لما تقدم ان اقتبسناه عنه قال :

(فالأحاديث الواردة في فضله -يعني علياً- لو لم تكن في الشهرة والاستفاضة ، وكثرة النقل إلى غاية بعيدة ، لانقطع نقلها ، للخوف

---

(٢) تهذيب التهذيب – ج : ١٠ – ص : ٣٤٠.

والتقية من بني مروان ، مع طول المدة وشدة العداوة ، ولولا ان لله (تعالى) في هذا الرجل سراً يعلمه من يعلمه ، لم يرو في فضله حديث ، ولا عرفت له منقبة ، إلا ترى ان رئيس قرية لو سخط على واحد من أهلها ، ومنع الناس ان يذكروه بخير وصلاح ، لخمل ذكره ، ونسي اسمه ، وصار -وهو موجود- معدوماً ، و-وهو حي- ميتاً[1]) .

نعم ، صدق أبو جعفر الاسكافي ، فلولا ان لله في علي عليه السلام سراً يعلمه من يعلمه ، لم يرو في فضله حديث ، ولا عرفت له منقبة ، ولكن وبالرغم من جميع تلك الجهود التي بذلت لطمس معالم الحق في علي عليه السلام وولايته ، وبالرغم مما استعمله الحاقدون ضدهما من تعتيم وكبت، واستئصال لهما ، ولكل ما يمت إليهما بصلة ..

أقول : وبالرغم من كل هذا ، بقي علي عليه السلام ، وبقيت ولايته ، وبقي غدير خم ، وبقيت كلمة الله العليا فيه ، مشعلاً أبديا في دينه القويم ، وسناء خالداً في حجته الواضحة ، وبرهانه الثابت المنير .

وما كان بعض هذا الخلود ليتحقق ، لولا تلك الرعاية الإلهية المباشرة للولاية ، ولولا الضمان الرباني لاستقامة دين الله فيها ، وتعهده بعصمتها من الناس ...

﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ .

❖ ❖ ❖

الحسم الإلهي والولاية

ولم تقف هذه الرعاية الربانية لولاية علي عليه السلام في حدود هذه الأسباب الطبيعية لخلودها ، وبيان عظمة صاحبها فقط ، وفرض كل

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج٤ص٧٣.

منهما على الحياة الإنسانية في مختلف مجالاتها ، من خلال ما عهده الناس في نقل الكلمات والأحداث التاريخية فحسب .

فقد قلنا : ان هذا النوع من مظاهر رعاية الله -سبحانه- إنما يأتي في الموارد التي يمكن التحفظ فيها على كلمة الله (تعالى) ، وإبقائها عليا كما هي، سامية الموقع والدلائل كما أراده الله لها ، فلا تحتاج لأن يبلغ معها هذا التدخل الرباني المباشر إلى أكثر من فرضها على تلك الاتجاهات العامة في المعرفة ، وتنظيم مختلف نواميس الحياة وقوانينها بشكل يضمن لها ذلك السمو والرفعة .

إما حيث تقتصر هذه النواميس والسنن الطبيعية والإنسانية ذاتها عن ان تفي لهذه الكلمة تلك الدرجة المطلوبة من السمو والوضوح ، فطبيعي ان يتخذ التدخل الإلهي معها حينئذ مشارب أخرى ، خارجة عن تلك النواميس والسنن في إحقاق الحق وإزهاق الباطل -كما هو الأمر تماماً مع أي حقيقة إسلامية كبرى .

نعم فالأدوار التي مرت بها هذه الولاية ، والمواقف التي جرت عليها -ولا سيما في موارد صراعها الحاد والطويل مع الباطل-، لم تكن كلها مما يمكن تحقيق تلك الشرائط المطلوبة لها من خلال تلك التوجهات الطبيعية للمعرفة -تماما كما هو الشأن مع الرسالة المحمدية ذاتها- .

فهناك مواقف يضعف فيها حملة الحق ان يثبتوا له سمو كلمته ، وجلاءها أمام العقول ، أو يحققوا لحجتها وضوحها المطلوب للبصائر ، كما في موارد استحكام الشبهة في الأذهان ، أو كان للباطل شوكته التي لا تترك لرواد الحق مجالاً للقول أو العمل ، أو استطاع الباطل ببريق إعلامه أن يعمي العيون عن رؤية نور الحق في منابعه ، ويصم الآذان عن الاستماع إلى صوته في مصادره ، أو الركون إليه بعد معرفته ..

وحينئذ كان لابد ان تتخذ حكمة الله (تعالى) سبل الحسم المباشر في إثبات ما أخذته على نفسها في إحقاق الحق ، وإزهاق الباطل ، وقطع أي ريب يمكن أن يرد في هذا الصرح الإسلامي العظيم ، ولا سيما في تلك الموارد التي يمكن أن يكون لها حسابها في مسار تاريخ الولاية ذاتها، وخلود حجة الله (تعالى) ووضوحها فيها ، وان تجاوزت هذه السبل تلك الحدود الطبيعية المتعارفة من وسائل البيان والإيضاح ، لتستوفي الولاية شرائط الحق كاملة ، وتصبح في الأفق الذي أراده الله لها ، بعيداً عن تطاول المتطاولين ، وتقولات المتقولين .

وقد سبق ان قرأنا من أمثلة هذا الحسم قضية جابر بن النضر بن كلدة العبدري .. هذا العنيد الذي جاء إلى رسول الله ﷺ ، بعد ان صدع ﷺ بولاية علي عليه السلام في يوم الغدير ، فقال له : «يا محمد ! أمرتنا من الله ان نشهد ان لا اله إلا الله ، وانك رسول الله ، وبالصلاة والصوم والحج والزكاة ، فقبلنا منك ، ثم لم ترض بذلك حتى رفعت بضبع ابن عمّك ففضلته علينا ، وقلت: (من كنت مولاه فعلي مولاه) ، فهذا شيء منك أم من الله ؟ .

فقال رسول الله ﷺ : (والله الذي لا اله إلا هو ان هذا من الله) .

وهذا هو قمة ما تتطلبه الحدود الطبيعية في الإنسان الاعتيادي ، المتطلع إلى الحق ليؤمن ، كأقوى وأسمى ما يمكن الأيمان .

محمد بن عبد الله ﷺ ، سيد الرسل عليه السلام، الذي لا ينطق عن الهوى ، ولا يقول عن الله (تعالى) ما لم يأمره بقوله ، وخاتم الأنبياء الذي زودته العناية الربانية بكل شواهد التصديق ، ودلائله التي ترفع أي ريب من النفوس السليمة بصحة ما يقوله أو يبلّغه عن الله ..

.. محمد هذا هو الذي يخبر بأن ما قاله يوم الغدير ، وما فعله ، إنما

كان من عند الله (تعالى) وحده ، فهو نفسه الذي انزل عليه هذه الولاية، وهو الذي أوجب عليه تبليغ هذا المنزل عليه فيها ، بل -وهو الصادق الأمين- يؤكد هذا بيمين ما بعده يمين : «والله الذي لا اله إلا هو ان هذا من الله» .

ولكن حيث تعمى البصائر عن إدراك منابع النور ، وحيث ترتكس الرؤوس إلى الهاوية ، وحين تشاء أهواء بعض الناس ان تخرج بهم حتى عن مفهوم الإنسانية ذاته ، فطبيعي ان يتّخذ اللطف الإلهي بالعباد منهج الحسم المباشر سبيلاً يقطع به دابر كل فتنة ، ويزيح به عن الأبصار كل غاشية ، ويزيل كل ريب ..

فالله -سبحانه- يعلم ما يعنيه ذلك الموقف الخالد في كيان الولاية ونصوع حجتها ، وما له من اثر أبدي في النفوس البشرية ، وفي مواقفها تجاه تلك الحقيقة الإسلامية الكبرى ، بل وتجاه الرسالة ذاتها ، لا في حدود أولئك الشهود للحادث فحسب ، وإنما لدى كل من يبلغه موقف الغدير على امتداد التاريخ الإسلامي وحتى الأبد .

وهكذا فما ان ولى هذا العنيد يريد راحلته وهو يقول : «اللهم ان كان ما يقول محمد حقاً فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب اليم» .

«فما وصل إليها حتى رماه الله بحجر فسقط على هامته وخرج من دبره» .

وهناك مواقف أخرى كثيرة يرويها لنا التاريخ ، كان للتدخل الإلهي فيها حسمه المباشر في نصرة الولاية وإقامة حجتها .

ومن هذه المواقف ما جرى في يوم الرحبة ، حينما استشهد علي عليه السلام بعض من حضر لديه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله عن إعلانه صلى الله عليه وآله

لولايته يوم غدير خم ، ونكران بعض هؤلاء الصحابة لعلمهم بهذا الإعلان ، أو نسيانهم إياه ، وهم كاذبون .

وقد روي هذا الموقف في عدة روايات ، منها ما رواه زر بن حبيش قال : (خرج علي من القصر ، فاستقبله ركبان متقلدي السيوف ، وعليهم العمائم حديثي عهد بسفر فقالوا :

السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته .. السلام عليك يا مولانا.

فقال علي -بعد ما رد السلام-: من ها هنا من أصحاب الرسول ﷺ .

فقام اثنا عشر رجلاً منهم خالد بن يزيد (أبو أيوب الأنصاري) ، وخزيمة بن ثابت (ذو الشهادتين) ، وقيس بن ثابت شماس ، وعمار بن ياسر ، وأبو الهيثم بن التيهان ، وهاشم بن عتبة بن أبي وقاص ، وحبيب بن بديل بن ورقاء، فشهدوا أنهم سمعوا رسول الله ﷺ يوم غدير خم يقول : (من كنت مولاه فعلي مولاه) الحديث ..

فقال علي لأنس بن مالك والبراء بن عازب : ما منعكما ان تقوما فتشهدا فقد سمعتما كما سمع القوم ؟ .

فقال : اللهم ان كانا كتماها معاندة فابلهما .

فأما البراء فعمي ، فكان يسأل عن منزله فيقول : كيف يرشد من أدركته الدعوة ؟ .

وأما أنس فقد برصت قدماه .

وقيل : لما استشهده علي عليه السلام قول النبي ﷺ : (من كنت مولاه فعلي مولاه) ، فاعتذر بالنسيان ، فقال عليه السلام : اللهم ان كان كاذباً فاضربه ببياض لا تواريه العمامة .

فبرص وجهه فسدل بعد ذلك برقعاً على وجهه[1]) .

ومناشدة أخرى يرويها ابن أبي الحديد عن أبي إسرائيل بسنده :

ان علياً عليه السلام نشد الناس من سمع رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : «من كنت مولاه فعلي مولاه» ، فشهد له قوم ، وأمسك زيد بن أرقم فلم يشهد -وكان يعلمها- فدعا علي عليه السلام عليه بذهاب البصر ، فكان يحدث الناس بالحديث بعدما كفّ بصره[1]) .

وقد روى جمع كثير من المؤرخين هذه المناشدات ، كابن قتيبة ، والبلاذري ، وابن عساكر ، وغيرهم[2] .

❖ ❖ ❖

ولم يقتصر الحسم الربانّي في نصرة الولاية ووليها العظيم عليه السلام ، عند هذه الحدود فحسب، بل هو قد يمضي معهما إلى تأييد المنتصر لهما، وان لم يكن ضمن خط العصمة -حين تقضي الحاجة مثل هذا التأييد-، كالموقف الذي يرويه الحاكم في المستدرك بسنده عن قيس بن أبي حازم قال :

(كنت بالمدينة ، فبينما أنا في السوق إذ بلغت أحجار الزيت ، فرأيت قوماً مجتمعين على فارس قد ركب دابته ، وهو يشتم علي بن أبي طالب عليه السلام، والناس وقوف حواليه ، إذ أقبل سعد بن أبي وقاص فوقف عليهم فقال : ما هذا ؟ .

فقالوا : رجل يشتم علي بن أبي طالب .

---

(١) الغدير : ج : ١- ص : ١٧٥، عن كتاب (الأربعين) لجمال الدين عطاء الله بن فضل الشيرازي - ع: ١ -ص : ٢١١ -و ع : ٢ -ص : ١٣٧.

(١) شرح نهج البلاغة: ج١ص٣٦٢ط الأولى(عن الغدير ج١ص١٥٣).

(٢) يراجع لمعرفة مصادر هذه المناشدات كتاب(الغدير)ج١ص١٥٣_١٧٩.

فتقدم سعد فأفرجوا له حتى وقف عليه ، فقال :

يا هذا علامَ تشتم علي بن أبي طالب ؟، ألم يكن أول من اسلم ؟، ألم يكن أول من صلى مع رسول الله ؟، الم يكن ازهد الناس ؟، ألم يكن اعلم الناس ؟، .. وذكر حتى قال : الم يكن ختن رسول الله ﷺ على ابنته ؟، الم يكن صاحب راية رسول الله ﷺ في غزواته ؟ ..

ثم استقبل القبلة ورفع يديه وقال : اللهم إن هذا يشتم ولياً من أوليائك، فلا تفرّق هذا الجمع حتى تريهم قدرتك .

قال قيس : فوالله ما تفرقنا حتى ساخت دابته ، فرمته على هامته في تلك الصخور فانفلق دماغه [(١)] .

ونقف عند هذا المقدار من الروايات ، ففيه كفاية في بيان ما تعنيه العصمة الإلهية للولاية من الناس ، واتخاذها مختلف السبل الطبيعية وغير الطبيعية من اجل خلود حجتها ، وتمام كلمتها مع الزمن .

كما نقف عند هذا الحد من تجليات الرعاية الإلهية لهذا المنصب الإسلامي العظيم ، والركيزة الإسلامية المكينة ، فقد استبنا ما يعنيه التعهّد الرباني لها ، حيث ضمن لها استيعابها لجميع شرائط الحق ، ومستلزماته كافة ، واثبت سموها مع الزمن ، وقيام صرحها في الحياة البشرية .

---

(١) المستدرك على الصحيحين: ج٣ص٥٠٠.

البَابُ الرَّابِعُ

علي مع الحق والحق مع علي

الفصل الأول

الحق وشخصية المرتضى

قلنا -فيما سبق-: إن من المستلزمات الأساسية لاستيعاب الولاية لشرائط الحق : استقامة هذه الشرائط في الشخص الذي تنتجبه العناية الربانية لها .

إذ لابد ان تصبح هذه الشرائط -بدورها- بعض المقومات الأولية لشخصية الولي نفسها ، ولكل ما تستوعبه هذه الشخصية من مدارك وطاقات، واتجاهات فكرية ونفسية وجسدية ، ولكل ما يصدر عنها من المواقف وأنواع السلوك ، دون أدنى وهن أو قصور ، وإلا قصر هذا الشخص عن الوفاء بمهماته الكبرى في منصبه الرفيع ، أو قصرت الولاية ذاتها عن تحقيق الغايات الربانية فيها ، وكلا الفرضين مما يستحيل تصوره بعد فرض ان كلا من تشريع الولاية ، واصطفاء الولي لها هو من الله -سبحانه-، إذ لا تفاوت في حكمته (تعالى) ولا عجز في قدرته .

ولان الإنسان في واقعه الحياتي الذي يعيشه -اعجز من ان يرتفع بمفرده إلى مستوى تلك الشرائط العليا ، فمن الضروري حينئذ ان تكون الرعاية الإلهية تلك هي الضامنة لتحقيقها في شخصية المرتضى ، بنفس المستوى الذي تستوجبه آفاق الولاية ، وتتطلبه مهماتها في دين الله (تعالى) وفي حياة الإنسان معا .

بمعنى أن الرعاية الإلهية هي التي يجب أن تتعهد بناء التكوين الذاتي لشخصية المرتضى على أساس واحد ، هو الإسلام المطلق لله -جل شانه-، والانقياد التام لأمره ونهيه ، والتوجه إليه في كل صغيرة وكبيرة في حياته .

فلا مجال في هذا التكوين لغير الله (تعالى) ، ولا خضوع منه لغير دينه ، ولا مظهر فيه إلا ما يستقيم مع حقائقه ، وما تدل عليه هذه الحقائق من أصول الحق ، ومعالمه ، وحجته ، بأدق وأسمى ما تكون عليه هذه الدلالة دون أدنى خلل أو انحراف .

فقد سبق ان علمنا ان الحق هو القيمة المطلقة في دين الله (تعالى) ، وعليه تتمحور جميع أهدافه في حياة الإنسان .

فالحق هو المنطلق الذي يعتمده الإسلام في كل أفق من آفاق هذه الحياة، وفي كل شان من شؤونها .

﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً .﴾

فمن الضروري -حينئذ- ان يكون الحق هو الركن الأساس في بناء أي شخصية من شخصياته المنتجبة لأن تكون بعض حقائقه الثابتة ، ومنبعاً من منابع حجته في البشرية أيضا .

فكيان الإسلام -كما علمنا-كيان حيوي الطبيعة ، متكامل الأدوار والمواقع ، فمن المستحيل ان يستكمل تلك السمة المطلقة من صبغة الحق مع أدنى خلل يقصر به عنها في أي ركن من أركانه ، أو حقيقة من حقائقه -كما هو واضح-،

والنصوص الإسلامية المختلفة متواترة في تأييد هذه الحقيقة اليقينية العقلية الواضحة ، وسنقرأ بعض هذه النصوص في مباحث لاحقه -ان شاء الله (تعالى)- .

❁ ❁ ❁

الحـــق وعـــلي عليه السلام

أما في علي عليه السلام خاصة -حيث موضوع الحديث-، فمن الطبيعي أن تمضي في شخصيته هذه الضرورة اليقينية أيضاً ، بعد أن ثبت أن ولايته واحدة من حقائق الإسلام الكبرى ، وأن الله -سبحانه- قد ارتضاه ولياً لها ، إذ أن القاعدة العقلية لا استثناء فيها -كما هو معروف- .

هذا إضافة إلى ما تواتر من النصوص الإسلامية التي نؤكد هذه الحقيقة فيه.

ومن ذلك ما قرره الرسول صلى الله عليه وآله في دعائه لعلي عليه السلام بعد إعلانه لولايته (يوم غدير خم) إذ قال : (وادر الحق معه حيث دار) .

وفي حديث ام سلمة (رضي الله عنها) زوج الرسول صلى الله عليه وآله قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : (علي مع الحق والحق مع علي ولن يفترقا حتى يردا علي الحوض يوم القيامة[(١)]) .

وقوله صلى الله عليه وآله أيضا : رحم الله عليا ، اللهم ادر الحق معه حيث دار[(٢)]) .

واخرج الهيثمي في (مجمع الزوائد) عنه صلى الله عليه وآله أنه قال -وقد مر عليه علي بن أبي طالب-: (الحق مع ذا .. الحق مع ذا[(٣)]) .

كما اخرج عن محمد بن إبراهيم التيمي : (ان فلانا دخل المدينة حاجا ، فأتاه الناس يسلمون عليه ، فدخل عليه سعد فسلم فقال :

---

(١) فضائل الخمسة من الصحاح الستة: ج٢ ص١٠٩ عن تاريخ بغداد -ج١١ ص٣٢١.

(٢) صحيح الترمذي : ج : ٥ -ص : ٦٣٣ ، والمستدرك على الصحيحين - ج : ٣ ص١٢٤.

(٣) مجمع الزوائد - ج : ٧= ص : ٢٣٥.

وهذا لم يعنا على حقنا على باطل غيرنا .

قال : فسكت . فقال : ما لك لا تتكلم ؟ .

فقال : هاجت فتنة وظلمة ، فقال لبعيري : إخ إخ ، فأنخت حتى انجلت .

فقال رجل : إني قرأت كتاب الله من أوله إلى آخره فلم أر فيه إخ إخ .

فقال : أما إذا قلت ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : (علي مع الحق أو الحق مع علي حيث كان) .

قال : من سمع ذلك ؟ ، قال : قاله في بيت ام سلمة .

قال : فأرسل إلى ام سلمة فسألها . فقالت : قد قاله رسول الله في بيتي.

فقال الرجل لسعد :ما كنت عندي ألوم منك الآن . فقال : ولم ؟ .

قال : لو سمعت هذا من الرسول ﷺ لم أزل خادما لعلي حتى أموت).

وعقّب صاحب كتاب (فضائل الخمسة من الصحاح الستة) على الحديث قائلا -بعد روايته له-: (كلمة : (إخ إخ)-بكسر الهمزة وسكون الخاء المعجمة- صوت إناخة الجمل . والظاهر أن في الحديث سقطا ، والصحيح (فقال الله لبعيري :إخ إخ ، فأنخت) ، وذلك بشهادة الرجل : إني قرأت كتاب الله .

ثم ان المراد من (فلان) في صدر الحديث هو معاوية بن أبي سفيان، ومقصوده من عدم إعانة سعد على حقه : عدم نصرته له يوم صفين ،

لأنه كان منعزلا عن الطرفين[1]) .

إلى روايات عديدة أخرى وردت في هذا المضمون .

وواضح –ولا سيما بعد ما سبقت ملاحظته من النتائج– ان هذه الأحاديث وأشباهها إنما وردت لتأكيد استقامة الإسلام في نفسه ، وانتظام شرائط الحق في هذه الشخصية العظيمة ، بعد تحقيق الاصطفاء الإلهي لها ...

فقد قلنا : ان هذا العنصر هو الأساس الذي بني عليه دين الله تعالى نفسه ، وأقيمت عليه دعائمه ، فمن الطبيعي ان لا تقتصر عنه ، أو عن شيء من شرائطه ومميزاته شخصية علي بن أبي طالب عليه السلام ، بعد ان أصبحت واحدة من تلك الحقائق ، بل ومصدرا من مصادرها .

تماما كما كان الأمر مع شخصية الرسول صلى الله عليه وآله ، حيث انتجبته العناية الربانية لحمل مسؤوليات الرسالة قبل ولاية علي عليه السلام ، وكما هو الأمر مع أنبياء الله ورسله وأصفيائه الذين اصطفاهم الله (تعالى) لحمل أمانته في البشرية، وهداة لخلقه ، ومبلغين لحجته إلى الناس على امتداد التأريخ .

و هكذا كان لابد ان يتجلى عنصر الحق في هذه الشخصية ،كما يتجلى في غيرها من حقائق الإسلام ، و لابد ان يستوعب شرائطه وخصائصه كل آفاقها و أبعادها و مكوناتها دون استثناء أو قصور و الرسول صلى الله عليه وآله في أقواله السابقة إنما يؤكد هذه النتيجة الإسلامية الواضحة.

---

(١) فضائل الخمسة من الصحاح الستة –ج : ٢– ص : ١٠٩.

الفَصْلُ الثَّانِي

استقامة الحق في أصفيائه

ولفهم ما تعنيه رعاية الله -سبحانه- لشخصية المرتضى في هذه الناحية ، نعود -مرة أخرى- إلى النقطة التي انطلقنا منها في هذا البحث .. إلى التزام الإسلام لعنصر الحق أساسا له في وجوده وفي حقائقه كافة.

إذ قلنا : إن هذا العنصر -في عالم المذاهب والأديان خاصة- يعني مطابقة الدين أو المذهب لمقتضيات حكمة الله (تعالى) في خلقه للإنسان، وفي تهيئته لتسنم دور خاص بين مخلوقات هذا الكون ، وتوفير مختلف السبل والوسائل التي يحتاجها لتحقيق هذا الدور ، سواء في تكوينه الذاتي ، ام في قدرته على التصرف فيما حوله من الموجودات .

فهذه المطابقة تعني ضرورة ان لا يملي مذهب الحق على الإنسان من العقائد والتصورات ، ولا يشرع له من الأحكام ، ولا يضع له من المناهج ، إلا ما يستقيم مع تلك المقتضيات ، ويحقق أهدافها فيه ، دون أدنى قصور أو انحراف .

بمعنى ان الإنسان -في واقعه الذي فطره الله عليه ، وجبله في اصل تكوينه- هو موضوع الإسلام ، وهو موضوع كل حقيقة فيه ، وكل حكم من أحكامه ، وكل منهج يحتويه .

وفي المقابل ، فان مذهب الحق هو المنهج الذي يوفي لفطرة الإنسان حاجاتها ومتطلباتها في الرؤى والسلوك معاً ، لكي يبلغ بمسعاه الاختياري في الحياة إلى تحقيق ما خلقه الله له من رفيع الدرجات ، وما

أراده له من كمال أعلى ، بنيت عليه أوليات وجوده ، وأصول تكوينه الذاتي ، وأقيمت عليه مختلف اتجاهاته الفطرية العميقة في السلوك و التفكير .

فهناك وحدة واقعية تجمع الاتجاهات العامة لمسيرة الكون وكيان الإنسان ومذهب الحق .

وهناك ترابط وثيق بينها جميعاً ، منشؤه وحدة الحكمة الإلهية التي خلقت الكون ، وبرأت الإنسان -كمظهر متميز من مظاهره- ثم شرعت الإسلام دينا له لينتهجه في سعيه نحو كماله الذي يحقق مقتضيات تلك الحكمة فيه ، ويهيئ له جميع ما يفتقر إليه من قويم السبل التي تبلغ به ذلك الكمال ، دون أدنى قصور ، أو انحراف ، أو وهن .

وقد اشرنا -سابقا- إلى ان تلك الوحدة الواقعية ، وضرورة تحقيقها بالنسبة للإنسان ، واستقامته المطلقة معها في سلوكه الاختياري هي السبب الأول في حاجته إلى مذهب الحق ، الذي لا يستطيع توفير شرائط هذه الوحدة، وتهيئة جميع مستلزماتها سواه ، حيث يستحيل عليه بلوغها بدون منهج مأمون يأخذ بيده في سبيلها .

كما أشرنا أيضا إلى ان هذه الوحدة هي السبب في حاجة هذا المذهب إلى المصدر الإلهي الذي أوجد الكون وبرأ الإنسان ، فغير الله -سبحانه- لا يمكنه الإحاطة بجميع مقتضيات حكمته في الخلق والتكوين، ومن ثم فهو يفتقد القدرة على استيعابها فيما يشرعه للإنسان من مناهج .

وهكذا فحين شاءت حكمة الله (تعالى) ان تكفي للإنسان حاجته إلى مثل هذا المذهب بالإسلام دين الحق ، فمن الطبيعي ان تستكمل فيه

مقتضياتها كافة ودون أي استثناء .

❁ ❁ ❁

وهذه النتيجة ترشدنا إلى نقاط مهمة يجب أن تؤخذ بالحسبان :

أولاً : أنه لا غناء للإنسان ، ولا لانتظام حياته ولا لاستقامتها في طريق الكمال بدون الإسلام ، أو بدون اتباع هداه ، ومن هنا أصبح الإسلام ضرورة لا بديل عنها للإنسان ..

ثانياً : ان إقامة كيان الإنسان على أساس ثابت من هدى الإسلام ، وتنظيم الحياة على رصيد مناهجه و أحكامه ، هو الهدف العميق والمكين الذي تطمح إليه ذات الإنسان في أصل تكوينها وفطرتها ، قبل ان يكون هدفا إرادياً ناشئا من التزام المرء بالإسلام ، وتعبده ببيناته و دلائله .

ثالثاً : ان الشخص الذي تتكامل فيه جميع ملامح الصورة الإسلامية المثلى للإنسان ليس مطمحاً إسلامياً خاصاً ، حيث يتحقق به وجود الشخص المسلم الحق فحسب ، كما أنه ليس فقط حاجة إنسانية نوعية لأنه يجسد الإنسان الامثل في الواقع الفعلي ، وإن كان بالفعل كذلك ، وإنما هو -قبل هذا وذاك- تلك القمة العليا التي تتجلى فيها حكمة الله (تعالى) في إنشائها للكون وخلقها لمظاهره عامة ، وللإنسان منها خاصة ، إذ بدون الوجود الفعلي لذلك الإنسان الأسمى والأكمل في هذه الحياة ، تبقى جميع تلك المظاهر قاصرة الدلالة على عظمة الحكمة التي أبدعتها ، ودبرت شأنها .

وهذا يعني ان وجود شخصيات إنسانية عليا تتوفر فيها جميع ملامح تلك الصورة الإسلامية المثلى للإنسان ، يعتبر إحدى الضرورات التكوينية التي لا بد منها لتجلي حكمة التكوين ، قبل ان يكون إحدى

الضرورات الإسلامية التي تتجلى بها حكمة التشريع .

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

❁ ❁ ❁

دور المرتضى في دين الله

وناحية أخرى يجب الالتفات إليها هنا ، وهي :

ان اصطفاء الله –سبحانه- لشخصيات معينة من الناس ، لحمل مهمات كبرى في رسالاته ، وتسنم مناصبها العليا في البشرية ، كالولاية العامة على العباد ، وإبلاغ أحكام دينه القويم ، والأولوية بالناس عليهم من أنفسهم ، يجب ان يقترن معه تعهد رباني خاص ، بان يستوعب الشخص المصطفى جميع حدود وملامح تلك الصورة الإسلامية العليا للإنسان ، والا لم يتمكن هذا الشخص من أداء ما أوكل إليه من مهمات كبرى ، وبشكل يضمن للحق وحدته ووضوحه ، ومطابقته للواقع الإنساني ، ولا ريب أن احتمال القصور هنا محال ، لأنه –كما قلنا- يعني قصور الحكمة الإلهية عن أن تحقق مقتضياتها، أو التفاوت ما بين حكمة الاصطفاء والتشريع –من ناحية- وحكمة الخلق والتدبير من ناحية أخرى ، وتعالى الله عن العجز في القدرة ، أو التفاوت في الحكمة ، أو القصور في العلم .

❁ ❁ ❁

استقامة الحق في دينه

وناحية ثالثة وهي :

ان أي انحراف عن حقائق الإسلام ، أو شذوذ عنها ، أو حتى خطا –ولو جزئي- يصدر من احد تلك الشخصيات المنتجبة ، يعني –قبل

كل شيء- عدم استقامة الحق في الإسلام ذاته ، وعدم تكامل شرائط فيه ، وهذا مما يستحيل تصوره كذلك .

فقد علمنا ان تلك الشخصيات -بعد تحقق الاصطفاء الإلهي لها- قد أصبحت نفسها بعض حقائق الإسلام ، وأصبح جميع ما يصدر عنها من الأقوال والأفعال من هذه الحقائق أيضا ، فهذه الشخصيات هي مصادر تبليغها إلى العباد ، وهي أصول حجة الله بها الناس كذلك .

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً . وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً .﴾ .

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً .﴾ .

﴿.. وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ .﴾ .

(لا حلال الا ما أحله الله ورسوله ، ولا حرام إلا ما حرمه الله ورسوله وهم...) .

(النور من الله في ، ثم في علي ، ثم في النسل منه إلى القائم المهدي...).

ولا يمكن توجيه هذه المخالفة التي تحصل من الشخص المصطفى بأنها كانت بسيطة ، وأنها من صغائر الذنوب وليس من كبائرها ، أو أنها حدثت منه في مورد جزئي لا أهمية في الحياة العامة للناس ، أو أنها وقعت منه نتيجة خطأ في التقدير .. أو غير ذلك ، فان أيا من هذه التوجيهات غير ممكن فيما يصدر عن هؤلاء المنتجين ، لأن استقامة الحق ، واطراد شرائطه فيهم -كما هو الشأن في حقائق الإسلام كافة- من الأمور الحدية التي يجب أن تشمل كل ما يصدر عنهم من قول أو

عمل ، وما يختارونه سجايا الأخلاق ، وما يكونون عليه من الحالات ، لأن النسبية أو التجزئة لا يمكن التحفظ معهما على اطراد الحق في دينه، أو تحقق شرائطه العامة فيه .

على ان اعتبار البساطة ، أو الجزئية ، -أو اشباههما من المفاهيم التي يقصد منها التهوين من شأن مخالفات الإنسان لأمر الله (سبحانه)- كلها إنما ترد في مرحلة السلوك والعمل ، وما ينتهي إليه هذا العمل من آثار أو نتائج كبرى أو صغرى في حياة الإنسان ، وهكذا سمي بعض الذنوب بالصغائر مقابل ذنوب أخرى سميت بالكبائر ، بملاحظة الآثار المتوقعة لكل من النوعين على وجود الإنسان وحياته .

أما في المبادىء الأولى لهذا السلوك من مكونات الشخصية –حيث تعني استقامة الحق في أولئك المنتجين– فهذه المبادىء قد لا يتصور فيها ورود مفهوم البساطة والجزئية ، وإن تبلورت في سلوك اعتبره البعض تافهاً بملاحظة الرؤية الاجتماعية العامة ، ومسيرة الحياة الإنسانية الجارية .

فالاستقامة في تلك المراحل الأولى واحدة ، والانحراف فيها واحد، في أي مورد وردا ، وفي أي عمل تحققا ، إذ لا تلحظ في هذه المراحل طبيعة العمل بقدر ما يلحظ فيها التكوين الذاتي للشخصية ، واستقامتها مع الحق ، أو انحرافها عنه .

ولهذا فقد يتحقق مفهوم الانحراف عن الاستقامة الإسلامية في هذه المراحل وان كان ظاهر العمل غير خارج عن إطار ما أمرت به الشريعة، كما لو أوقع المرء عمله العبادي دون قصد التقرب به إلى الله أو كان فيه نوع من الكسل أو التهاون .

وقد تصبح المخالفة كبرى في ذنوب اعتبرتها الشريعة من الصغائر ،

كما لو لم يعر الإنسان لما ارتكبه من ذنب صغير أهمية ، أو أنه حاول التهوين من أمره، أو أصر عليه ... وهكذا .

❋ ❋ ❋

الوحدة في شخصية المصطفى

وناحية رابعة ، وهي :

انه لا بد من ملاحظة اطراد الوحدة في شخصية الإنسان المصطفى واستقامة مكوناتها كافة مع الحق ، ومع شؤونه ومتطلباته .

فالشخصية الإنسانية -وكما نعلم- وحدة متكاملة ، ذات صبغة حيوية عامة ، تستحيل فيها التجزئة والتبعيض ، أو استبعاد بعض أبعادها ومكوناتها عن تحقيق دوره بين سائر الأبعاد والمكونات الأخرى، وتجنيبه عن التأثر بها أو التأثير فيها جميعا ، ولهذا فلا يمكن التفكيك فيما بين أبعاد الشخصية ومكوناتها في أي موقف أو حالة يكون عليها الإنسان ، لتداخل مشاربها وتشابك جذورها .

ولهذا فإن أي موقف يصدر من الفرد إنما يصدر من شخصيته المتكاملة تلك ، بكل ما فيها من مكونات فطرية نوعية ، واستعدادات وراثية ، وطرائق مكتسبة ، أو غير ذلك ، فهي جميعها أصول لأخلاق ومواقف ذلك الفرد دون استثناء ...

هذا ، وإن لعلم النفس الحديث رؤاه العميقة ، والقريبة من الواقع الإنساني في هذه الناحية ، فهو قد استطاع -بدراساته الجيدة في هذا المجال- ان يكتشف من أوجه هذه الوحدة في مكونات شخصية الإنسان وحيوية العلقة فيما بينها ، وعمق الروابط فيها جوانب مهمة ودقيقة ، لا في خصوص عالم الشعور فحسب -حيث يستطيع الوعي ان يتخذ دوره الواضح في قيادة السلوك- وإنما فيها وراء هذا العالم أيضا ، حيث

تتأثر شخصية الإنسان بأمور تكمن فيما وراء الشعور ، وتملي عليها - من هذا العالم البعيد حتى عن تصور الفرد نفسه-مقتضياتها ، وهي ذات أثر فعال في تكوين بنيتها ، وفي توجهات سلوكها ، وان لم يدرك الوعي من أسبابها ما يمكّنه من التأكيد على إيجابياتها، أو تلافي سلبياتها.

كما استطاع علم النفس -أيضاً- ان يتعرف على جوانب مهمة من تأثير الكثير من العوامل -حتى الطبيعية منها- في شخصية الإنسان وسلوكه ، سواء منها ما يجري منها في داخل جسمه ، كالغدد والقوى الفسيولوجية وأشباهها ، أم بعض الظواهر الكونية التي يعيش فيها ، كالبيئة الجغرافية والطقس ، ام الوسط الاجتماعي الذي يكتنف حياته ، وموقع الفرد من المجتمع ، وهكذا .

فسلوك الإنسان -في أي جانب من حياته يتصور- لا يمكن ان ينفصل عن أي من هذه العوامل ، فلكل منها دوره ، ولكل منها آثاره - البارزة أو الخفية- فيه .

ولهذه النقطة دلالاتها الكبرى في فهم الحدود اللازمة لشرائط الحق في أولئك المصطفين ، الذين انتجبهم الله (تعالى) لتسنم المناصب العليا في دينه العظيم ، كحمل أمانته الكبرى ، وإبلاغ حجته إلى الناس ، أو الولاية العامة على الخلق ، وغير ذلك ...

ومن هذه الدلالات :

١- ضرورة أن تستوعب هذه الشرائط جميع المكونات التي تحويها شخصيات أولئك المنتجبين ، بكل ما فيها من جذور وآفاق ، فلا يشذ عنها جذر ، ولا يقصر عنها أفق .. إذ لا تبعيض في التكامل الشخصي للإنسان -كما علمنا- ولا استثناء ، ولا سيما مع ما لاحظناه من سمة الحيوية في كيان الشخصية ، والتي اشرنا إليها في حديث سابق .

بمعنى ان المخالفة التي يتسم بها موقف أو عمل يصدر من الإنسان، إنما هي اثر بارز لخلل في تلك المكونات نفسها ، ووهن في تكامل ما بينها ، بل ولا يؤمن أن يمتد هذا الخلل إلى مختلف جوانب الشخصية ، وانعكاسه بالتالي على جميع أوليات سلوكها وطرائق تعاملها مع الحياة .

إذ الوحدة -كما علمناها- حيوية متكاملة الأدوار والجاري بين مختلف الجذور والمكونات ، وهي أعمق واعقد من ان تقف بآثار النقص أو الخلل عند نقطة محددة منها ، فالخلل الموجود في السلوك -كما هو الشأن في السلوك نفسه- إنما يصدر من الشخصية ككل ، لينعكس بآثاره عليها ككل أيضا .

٢- ضرورة ان تغور هذه الشرائط إلى أعمق أعماق تلك الشخصيات في تكوينها الذاتي ، ليكون الحق هو الصبغة الطبيعية لكل واحد من تلك الأعماق، ثم -ومن تلك الأعماق تنطلق حتى تستوعب الآفاق الأخرى فيها، لتتراءى -بعدئذ- في كل سلوك يصدر منها ، وفي كل فكرة تحتويها ، وكل سجية تتصف بها ، إذ يمتنع استبعاد أي من تلك الأعماق عن التأثير والتأثر فيما سواه من مكونات الشخصية .

❁ ❁ ❁

وهنا يبرز سؤال مهم ، وهو :

أنى يمكن لأحد من الناس ان يستقل بمفرده في الوصول إلى هذا المدى ، دون رعاية مباشرة من الله -سبحانه- ، ودون تعهد خاص منه، يضمنان هذا البلوغ فيه دون أي وهن أو غموض ؟ .

بل ، وعلينا ان نلتفت هنا إلى ان الدرجة المطلوبة من الاستيعاب الوارد في النقطة الأولى من النقطتين السابقتين ، والعمق المراد في النقطة الثانية منهما لا يقفان عند الحدود الفردية لشخصية المصطفى فحسب ،

بل يجب ملاحظتهما من خلال دوره الخاص في دين الله -سبحانه-، ومن منطلق مسؤوليته الكبرى في الحياة الإنسانية التي أنيط بها اصطفاؤه بل ومن خلال موقعه الرائد في الوجود التكويني ككل ، وحيث يعنيه موقع دين الله كمنهج اختياري تستكمل فيه حكمة الله (تعالى) في التشريع غاياتها الكبرى في الإنشاء والتكوين .

.. واضح ان تصور الاستقلال هنا غير وارد -كما أشرنا أكثر من مرة- وقد استعرضنا -في الحديث عن البعد الإنساني للولاية- بعض جوانب القصور الذاتي للإنسان إذا لم بعناية إلهية خاصة ، كما أشرنا إلى تأثره بالبيئة التي يعيش فيها ، وكل من الأمرين -كما قلنا- له دوره الذي لا يمكن إنكاره في قصور الإنسان عن الارتفاع بنفسه إلى درجة الحق المطلق ، التي يقتضيها الاصطفاء الإلهي ، ما لم يسند المصطفى برعاية خاصة من الله (تعالى)-كما قلت-...

❁ ❁ ❁

عوامل أخرى للقصور الإنساني

وهناك عوامل أخرى مساعدة لها دورها في قصور الإنسان عن درجة التوحد المطلق مع الحق أيضا ، وينبغي أن لا تغيب عنا ونحن نقف عند هذه الناحية من أولئك المنتجبين عليهم السلام .

احدها : طبيعة العلاقة التي تربط مابين الإنسان وذاته ، وما بينه وبين غيره من الموجودات ، إما ضمن دائرة المجتمع الإنساني ، أو ضمن البيئة والوسط التكويني الذي يعيش فيه ، أو غير ذلك مما يكتنف وجود الإنسان وحياته .

فهذه العلاقة كما تتسم بالاستقامة والتكامل في بعض جوانبها ، قد يكون الصراع والشد هو الحاكم عليها في جوانب أخرى .

والفرق بين الاتجاهين وان اتضح في بعض الموارد ، إلا أنه في موارد أخرى قد يكون من الدقة بحيث قد تخفى معالمه وحدوده على بصيرة المرء ذاته ، بل -وفي بعض الحالات- قد يتداخل الاتجاهان معاً ، حتى في الموقف الواحد بشكل قد يفوق التصور .

وطبيعي ان تتضاعف تلك الدقة ، وهذا التداخل مع كل أفق جديد يتدخل في تكوين الموقف ، أو في دوره المراد له في الحياة ، ومع كل أهمية له فيها ، ومع كل مسؤولية لصاحبه في المجتمع ، أو بين مظاهر الوجود .

ولهذا فإن فرداً من الناس قد يتمكن من التبصّر لمختلف الأطراف في واحد من المواقف الخاصة ، ويرى ما فيه من معالم الحق أو الباطل واضحة كل الوضوح ، ليستطيع -من ثم- أن يقرر لنفسه ما يريد اتباعه في السلوك ، إلا انه في مواقف أخرى قد ينأى عن مثل ذلك التبصر وهذه الرؤية ، ليخبط فيها خبط عشواء ، دون أي هدى ، إلا حيث يكتسب هذا الهدى من مصدر آخر يستكين إليه في وضوح الأمور ، ويلقي إليه بقياده فيها .

ومن هنا كان لا بد للناس من التعاون في الحياة ، ولابد لهم من تكامل العلم والمعرفة ، وتكامل الرؤى والأعمال في مختلف الجوانب ، فبهذا التعاون وحده يمكن ان تنتظم مسيرة الإنسان نحو الكمال ، وتستقيم في سبيل السعادة.

ومع هذا فان المعرفة البشرية -بمجملها- لم تبلغ إلى تلك الدرجة العليا التي تحيط بحقائق الأمور ودقائقها ، ومقتضيات الحق فيها ، ليصبح الإنسان قادرا على فهم موارد الخطأ أو الصواب فيها ، وانحرافها عن ذلك الحق أو استقامتها معه ، وليحدد -من ثم- أهدافه ورؤاه ،

وطرائق سلوكه فيها بوعي كامل وتبصر رشيد .

ودليل هذا القصور في المعرفة الإنسانية نفس تطورها وتناميها اليومي ، فما أكثر ما علمه الإنسان اليوم مما كان يجهله بالأمس ، ولا ريب انه سيعلم في الغد الكثير مما يجهله اليوم .. وهكذا ، فحركة المعرفة لا تتوقف عند حدود منظورة ، وتقدم العلوم مطّرد مع الزمن ..

ثانيها : الاختلاف في الاتجاهات الإنسانية ، وتقاطع المصالح العامة والخاصة فيما بين أفراد المجتمع ، وتشابك ما بين خطوطها ، يجعل مكامن كل التكامل والصراع غير محددة المواقع والخطوط في معظم الرؤى والمواقف .

ومن هنا استحال على الإنسان –ولو في إطار النوع– ان يكتسب رؤية واحدة واضحة المعالم والحدود ينظم بها مسيرته في الحياة ، ويميز بها سليم الطرق فيها ليسلكه ، عن السالب منها فيتجنبه ، فمثل هذا التمييز غير مستطاع في اغلب أصعدة الحياة ، ما لم يستمد من مصدر وراء الحدود الإنسانية القاصرة .

فموقف واحد يراه فرد أو رعيل من الناس مجلى لكمال لا بد أن يطمح الإنسان إلى نيله ، بينما يراه آخرون مجلى للانحراف عن الحق ، والسقوط في الهاوية ...

وبالرغم من وحدة الحق ، ووضوح مفهومه وحدوده لدى العقل – كما أشرنا في مورد سابق– ..

وبالرغم من أن الله (تعالى) قد هيأ للإنسان الموازين الواضحة التي يمكنه أن يعود إليها حينما يروم ذلك في حياته ..

أقول : وبالرغم من هذا وذاك إلا أن ذلك التقاطع والاختلاف من القضايا العامة التي لها آثارها الحاكمة على الحياة الإنسانية في مختلف

جوانبها ، حتى في أوليات الفكر ، والتصورات العقلية ، وتفسيرها للأمور .

ومن هنا قيل بالنسبية في كل شيء ، حتى في الحقيقة ، وفي الأخلاق ، وفي المُثل ، مما جعل الوصول إلى الحق بعيد المنال للإنسان حتى في أبسط القضايا .

وطبيعي ان تحقق شرائط الحق في شخصية احد من الناس -وفي الحدود الواسعة التي قلناها- يستدعي -ولا ريب- ان يمتلك من القدرة الذاتية ما يستطيع ان يستشرف به -في عقله وفي بصيرته- على جميع علاقاته الذاتية مع نفسه ، ومع غيره ، ويهيمن به على جميع أبعاده ، ومكامن التكامل أو الصراع التي ترد ضمن مواقفه ، وتفاعله مع مختلف القضايا والأحداث ، ليدرك الصواب الكامل دون وهن أو قصور ، ليمضي -من ثم- مع الحق عن بصيرة كاملة ، حيث لا يستكين لغير مقتضياته ، ولا يتفاوت عن دلائله ، وهذا غير ممكن دون مدد رباني خاص -كما واضح- .

إذن فلا بد من هذا المدد ولا بد من الرعاية الإلهية المباشرة لضمان تلك الشرائط في شخصية المصطفى ، لأن تلك السعة و الدقة ، والهيمنة التامة على الأمور والمواقف كلها مما يستحيل على احد من الناس ان يستقل فيه بنفسه دون ذلك المدد كما رأينا .

ثانيهما : طبيعة النشأة العقلية والنفسية والجسمية للإنسان ، و تأثره بعوامل الوراثة والبيئة ..

وهي عوامل استطاعت ملاحظة الإنسانية ، والدراسات العلمية المختلفة -ولا سيما النفسية منها- أن تدرك بعض آثارها في شخصية الفرد ، وفي توجهاته في المعرفة والانفعال والسلوك .

فإلى الوراثة من تلك العوامل أمكن ان يعزى تحديد طاقاته وقابلياته الفكرية والنفسية والجسمية ومداها ، بينما أمكن ان تعزى للبيئة الطرائق والاتجاهات التي تتبلور بها تلك الطاقات والقابليات ، وسبل تفاعلها مع الحياة.

ولهذه العوامل جميعها دور أساسي وكبير في قيام كيان الفرد ، وتحديد معالم شخصيته ، فمن الطبيعي –حينئذ- أن يتأثر ذلك الكيان بالسلبيات التي تنشأ من هذه العوامل كما يتأثر بإيجابياتها ، وهو تأثر وان لم يبلغ إلى درجة الجبر المطلق ، إلا انه مما لا يمكن إنكاره في تحديد التوجهات العامة للفرد ، وتقرير اتجاهات شخصيته .

ومع أن هذا الباب واسع الأطراف إلا أننا يكفينا منه أن نعلم أن الشريعة الإسلامية قد أقرت الملاحظة العلمية في تأكيدها على كلا النوعين من العوامل، وشرعت من السبل ما يمكن المسلم من الاستفادة من إيجابياتهما ، ومجانبة السالب ، أو معالجة تأثيره إن أصيب به .

وفي هذا الإطار ترد أحاديث مثل قول الرسول ﷺ :

(إياكم وخضراء الدمن . قيل : يارسول الله وما خضراء الدمن ؟ . قال: المرأة الحسناء في منبت السوء) .

وقوله ﷺ: (أنكحوا الأكفاء ، وانكحوا فيهم ، واختاروا لنطفكم).

وقوله ﷺ : (اختاروا لنطفكم ، فإن الخال أحد الضجيعين) .. إلى غير ذلك .

❁ ❁ ❁

وبملاحظة التداخل المشهود بين تلك العوامل جميعها ، والقوة المعروفة لتأثيرها ، بما فيه من سلبيات وإيجابيات ، فليس من الممكن أن تتوفر لأحد من الناس –وفي جميع مراحل حياته- تلك الدرجة العليا

من الكمال ، وفي جميع تلك العوامل الوراثية والبيئية كلها -لينال درجة التوحد مع الحق ، كما هو الشأن في شخص المصطفى- ما لم يحط بمدد رباني خاص ، يستوعب بسببه جميع الأرصدة الذاتية التي تمكّنه من بلوغ هذه الدرجة ، وتربأ به عن السلبيات التي يمكن أن تتأتى من تلك العوامل ، وكما تتطلبه الاستقامة المطلقة مع الحق، واستيعاب شرائطه كافة ، واتباع هديه في كل حال ، والتزامه نقطة انطلاق ثابتة في كل صعيد من أصعدة الحياة لا يشذ عنها ، ولا يحيد في أي من أحواله وأموره .

و هذا يعني ان يستخلص الله (تعالى) جميع من يصطفيهم لنفسه ، في جميع حالاتهم ، ومكوناتهم الشخصية ، بعيداً عن التأثر بأي من تلك العوامل الوراثية والبيئية ، وان وهنت بالآخرين فاستطاعت ان تنحرف بهم عن قويم السبيل ، أو حادت بهم عن بلوغ الغاية .

❁ ❁ ❁

ثالثها : طريقة النمو الإنساني المتطور ، وتكامل غرائز الفرد وقواه الجسدية والعقلية والنفسية ، منذ ولادته وحتى مراحل نضجه العليا .

فمعروف ان غرائز الإنسان وقواه وطاقاته النفسية والعقلية والجسدية كلها تولد بولادته ، إلا ان الكثير منها يكون في مرحلة كمون قبل أن تبدأ نموها التدريجي المتصاعد حتى مرحلة النضج النهائي لها في اكتمال شخصية الفرد .

ومن الطبيعي أن يصبح لكل مرحلة من مراحل النضج تلك مزاياها وآثارها ، البارزة أو الخفية في كيان الفرد ، وطابعها المميز في تفاعل قدراته ، وتأثيرها الخاص على توجهاته .. مما جعل لكل مرحلة من تلك المراحل سمات تتفاوت بها عن المراحل الأخرى ، على صعيد

الهيكلية الجسدية ، أو الانفعالات النفسية ، أو القدرات العقلية ، أو غير ذلك .

وهي حقيقة يعيشها كل امرىء في نفسه قبل ان يشهدها موضوعا تصطبغ به حياة غيره من الناس .

فالطفل يولد ولديه جميع ما يملكه الإنسان الناضج من الغرائز والدوافع والطاقات التي يحتاجها في تحقيق وجوده وإنسانيته ، وممارسته لحياته ، إلا أن الغالب منها يوجد لديه كامناً ، بعيداً عن الظهور ، إلا ما يحتاجه منها في أيامه الأولى ، ثم -ومع تقدمه في الحياة- يبدأ كل منها في النمو والتطور ، مرحلة بعد أخرى ، حتى تصبح في صورتها النهائية، حين تتكامل جميعها ، وتتسق فاعلياتها عندما تبلغ الشخصية مرحلة نضجها ، واستوائها الكاملين .

وكل فرد يرى من نفسه -وحتى قبل ملاحظته لغيره من الناس- بان لكل مرحلة من نموه الذاتي -يمر بها - سماتها الخاصة ، التي تفرض عليه نوعاً من الاهتمامات ، وتملي عليه اتجاهات ومواقف ذات طابع معين ، لا يسهل عليه تجاهله أو إهماله ، دون اثر سلبي ينعكس على شخصيته .

وواضح ان تحقيق الاستقامة التامة ، والتوازن العام في مكونات الشخصية -التي تستوجبها شرائط الحق في الإنسان المنتجب- وإن أمكن تصورهما في مراحل متأخرة من النضج لدى بعض الناس العاديين ، إلا أنهما غير ممكنين أبدا فيما سبقها من المراحل ، ولاسيما في ادوار الحياة الأولى ، حيث لم تكتمل -بعد- قوى التعقل والإدراك الواعي ... مما يعني استحالة التخلص من آثار القصور الموجود في تلك الأدوار ، فهي غير مأمونة التأثير على آفاق الشخصية ولاسيما في عالم اللاشعور ، وما

أكثر ما يجد المرء من نفسه ملامح تلك السلبيات ، ومعالم هذا القصور ، وهي تنعكس على تصوره وسلوكه !! .

وهذه الناحية تستوجب -بدورها- رعاية خاصة من الله (تعالى) ، ولطف شامل لأصفيائه عليهم السلام ، ولا بد من إشراف إلهي مباشر عليهم ، يكون هو المتعهد لشخصياتهم ، وهو يصطفيهم قيمين على دين الحق ، ومبلغين لدلائله ، منذ أدوار وجودهم الأولى وحتى آخر مرحلة يحققون بها مسؤولياتهم في هذه الأرض ، لئلا يكبون عن القصد ، أو يتأثرون بنوازع الهوى ، أو يقصرون لعدم الاكتمال .

﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ .

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صبيا قال إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً . وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً . وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً . وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً .﴾ .

❁ ❁ ❁

شمول الرعاية الإلهية لكل الأصفياء

وكما لم تختص ولاية علي عليه السلام بالرعاية الإلهية التي لاحظنا بعض جوانبها في الباب السابق ، لا يختص علي عليه السلام ذاته من بين أصفياء الله -سبحانه- بهذه الرعاية التي تضمن للحق شرائطه في شخصيته .

بل ، ولا اختصاص لرسالة محمد صلى الله عليه وآله ، ولا لمنتجبيها الطاهرين عليهم السلام في أي من أوجه الرعاية تلك ، فهي -وكما أشرنا أكثر من مرة- تعتبر دعامة أساسية في ضمان استقامة الحق -ذاته-، وتحقيق شرائطه في دين الله (تعالى) وفي بيّناته ، وعلى امتداد تأريخه مع البشرية ، منذ النبي الأول ، وحتى الوصي الأخير فيه . إذ الأصول واحدة ، والضرورات

واحدة ، والحكمة التي يعتمدها في قيام حجته واحدة في الجميع ، كما ان قدرة الله (تعالى) التي اصطفت أولئك النجباء أسمى من أن يداخلها عجز ، وحكمته أجل من أن يشوبها عبث أو تفاوت .

وكتاب الله العزيز يؤكد هذه الناحية في العديد من سياقاته ، ويشير في الكثير من آياته المباركة إلى هذا العموم في الرعاية الإلهية ، ويصرح بأنها قد واكبت شخصيات الرسل والأنبياء عليهم السلام الذين سبقوا محمدا صلى الله عليه وآله في الزمان ، كما يشير إلى جوانب مما أفيض منها على الرسول صلى الله عليه وآله نفسه من بين أصفيائه المنتجبين عليهم السلام .

ويمكننا ان نقرأ هنا نماذج قليلة من هذه الآيات ، كقوله (تعالى) عن إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام :

﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إبْرَاهِيمَ وَإسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَار . إنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ . وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَار .[1]﴾.

وكقوله (تعالى) عن يوسف عليه السلام : ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ . وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ .[2]﴾ .

وعن موسى عليه السلام قوله (تعالى) : ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي[3]﴾ .

وعن عيسى عليه السلام يقول (عز من قائل) : ﴿ إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ

---

(١) ص : ٤٥- ٤٧.

(٢) يوسف:٢٣-٢٤.

(٣) طه:٤١.

مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ .[١]﴾ .

وأخيرا نقرأ قوله –سبحانه– عن محمد ﷺ : ﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مُّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاُّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ .[٢]﴾ .

ولا نفيض في قراءة المزيد من الآيات ، فهي أكثر من ان تستوعب في هذا المجال .

«إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم» «أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ» «اصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي» «أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ» «لَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ» ...

هذه هي بعض تجليات تلك العناية الربانية ، وركائز الضمان الإلهي لاستقامة الحق في تلك الشخصيات العظمى من دين الله (تعالى) ، ومدارك وحدته المطلوبة فيهم .

❁ ❁ ❁

علي عليه السلام والرعاية الإلهية

أما بالنسبة إلى وجود هذه الرعاية في علي عليه السلام خاصة ، وبناء شخصيته على أساس مطلق من الحق ، فيكفينا من شواهدها آية التطهير المباركة التي جمعت في هذه الرعاية علياً عليه السلام إلى الرسول ﷺ والزهراء والحسن والحسين عليهما السلام وضمنت إذهاب الرجس عنهم ، وتطهيرهم من الذنب .

إذ قال (تعالى) : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً .[٣]﴾ .

---

(١) المائدة: ١١٠.

(٢) النساء:١١٣.

(٣) الأحزاب:٣٣.

ودلالة الآية على المراد أوضح من تحتاج إلى بيان .

كما ان اختصاصها بهؤلاء الخمسة الأصفياء من الناس هو المتواتر عن الرسول ﷺ ، كما أخرجه الحاكم في المستدرك ، بسنده عن عائشة قالت :

(خرج رسول الله ﷺ غداة ، وعليه مرط مرجل من شعر أسود ، فجاء الحسن والحسين فأدخلهما معه ، ثم جاءت فاطمة فادخلها معهما ، ثم جاء علي فادخله معهم ، ثم قال : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ [1]) .

كما أخرج الترمذي بسنده عن عمرو بن أبي سلمة (ربيب النبي ﷺ) قال :

(لما نزلت هذه الآية على النبي ﷺ : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ في بيت ام سلمة ، فدعا فاطمة وحسنا وحسينا فجللهم بكساء ، وعلي خلف ظهره ، فجللهم بكساء ثم قال : (اللهم هؤلاء أهل بيتي فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا) .

قالت ام سلمة : وأنا معهم يا نبي الله ؟ .

قال : أنت على مكانك ، وإنك إلى خير[2]) .

ومن الشواهد التي أكدت هذه الرعاية الربانية لعلي عليه السلام ، قول الرسول ﷺ -من حديث-: (يا معشر قريش ! لتنتهنّ أو ليبعثن الله عليكم من يضرب رقابكم بالسيف على الدين ، قد امتحن الله قلبه

---

(١) المستدرك على الصحيحين : ج٣ ص١٤٧.

(٢) صحيح الترمذي ج٥ ص٣٥٠ ويراجع للمزيد من المصدر كتاب فضائل الخمسة من الصحاح الستة ج١ ص٢٢٤ وما بعدها.

على الإيمان [١]).

ودعاء الرسول ﷺ له يوم غدير خم: (وادر الحق معه حيث دار).

ودعاؤه ﷺ له يوم ان بعثه إلى اليمن : (اللهم اهد قلبه وثبت لسانه[٢]) .

إذن فرعاية الله المباشرة هي الرصيد الأول ، الذي يحقق به المصطفون شرائط الحق في وجودهم ، وهي السبيل الوحيد الذي يستحيل عليهم -لولاه- بلوغ الغاية السامية من اصطفائهم ، وتجسيد الاستقامة العامة لدين الله (تعالى) مع الحق ، ووحدة بيناته معه ، ووضوح حجته فيه .

وعلي عليه السلام لا يختلف عن غيره من هؤلاء الأصفياء النجباء في ضرورة هذه الرعاية له ، بعد ان تحقق ارتضاء الله له ، واصطفاؤه إياه ، لتسنم مقام ولايته الكبرى بعد الرسول ﷺ .

---

١) صحيح الترمذي – ص : ٦٣٤ تحقيق إبراهيم عطوة ، شركة البابي الحلبي – ١٣٨٥– ١٩٦٥.

٢) المستدرك على الصحيحين – ج : ٣ – ص : ١٣٥ ، ويراجع كتاب فضائل الخمسة من الصحاح الستة ، ج : ٢ – ص : ٢٦٠ للوقوف على المزيد من مصادر الحديث .

الفصل الثالث

موارد الرعاية الإلهية في الأصفياء

من الطبيعي أن يبتدرنا -بعد الذي قرأناه في الفصل السابق- عدة أسئلة لا بد لنا من أن نستوضح إجابة مناسبة عنها ، ومن هذه الأسئلة :

ماذا تعني تلك الرعاية الإلهية لأولئك الأصفياء ؟ .

وما هي مواردها في شخصياتهم المطهرة ؟ .

وما هي الآفاق التي تجري فيها منهم ؟ .

والى أي مدى تمضي معهم ؟ .

هذه الأسئلة وأشباهها مما يتبادر إلى الذهن ، حين يتابع الحديث السابق حول ضرورة هذه الرعاية الإلهية ودلائلها في أولئك المنتجبين .

والذي لا بد لنا من الالتفات إليه في البدء -وقبل أن نحاول الإجابة عن هذه الأسئلة-، إننا لا ينبغي لنا أن نطمح إلى إجابة تفصيلية ، وراء ما تمليه دلائل الحق -التي سبق الحديث عنها- من آفاق ، وما تدركه فطرة الإنسان وهي تستلهم هذه الدلائل في أولئك الصفوة ، من خلال النصوص الإسلامية الصحيحة التي رسمت الخطوط العامة لتلك الآفاق ، وبينت تلك الضرورات .

فتلك الرعاية الإلهية -كما علمنا- فيوض ربانية خاصة ، لنخبة خاصة من الناس ، اصطفاهم الله -سبحانه- أمناء له في البشرية ، وحجة له على خلقه ، والتزمهم أمثلة شاخصة لهداه ، فهي مما يستحيل

على أحد من الناس بلوغ كنهها ، أو الاحاطة بحدودها ومجاريها في ذواتهم ، ليتمكن -من ثم- من تحديد معالمها ، أو استيعاب شيء من أبعادها فيهم عليهم السلام .

فالفكر الإنساني اقصر من يدرك شيئا من رعاية الله (تعالى) لذات نفسه، وأقل من أن يفهم بعض مجاريها في قضاياه ، في وقت هو يعيش هذه الرعاية في كل شأن من شؤونه ، ويلمسها في كل حالة من حالاته ، إذن فكيف يؤمل له أن يطال تلك الآفاق العليا بإحاطة وتحديد ؟ .

وفي هذه النواحي يقول الإمام الرضا عليه السلام -من حديث حول الإمامة والإمام- : (هل يعرفون قدر الإمامة ومحلها من الأمة ، فيجوز فيها اختيارهم ؟! .

ان الإمامة أجلُّ قدراً ، وأعظم شأناً ، وأعلى مكاناً ، وأمنع جانباً ، وأبعد غوراً ، من أن يبلغها الناس بعقولهم ، أو ينالوها بآرائهم ، أو يقيموا إماماً باختيارهم ...

.. فمن ذا الذي يبلغ معرفة الإمام ، أو يمكنه اختياره ؟، هيهات هيهات، ضلت العقول ، وتاهت الحلوم ، وحارت الألباب ، وخسئت العيون، وتصاغرت العظماء ، وتحيّرت الحكماء ، وتقاصرت الحلماء ، وحصرت الخطباء ، وجهلت الالبّاء ، وكلّت الشعراء ، وعجزت الأدباء، وعيبت البلغاء، عن وصف شأن من شأنه، أو فضيلة من فضائله ، وأقرت بالعجز والتقصير ، وكيف يوصف بكله ، أو ينعت بكنهه، أو يفهم شيء من أمره ، أو يوجد من يقوم مقامه، ويغني غناه ..

لا ، كيف ؟، وأنى ؟، وهو بحيث النجم من يد المتناولين ، ووصف الواصفين ، فأين الاختيار من هذا ؟، وأين العقول عن هذا ؟، وأين

يوجد مثل هذا ؟! .[١])

إذن ، فلا بد أن تتخذ الإجابة عن الأسئلة السابقة مسارات أخرى غير هذا الاتجاه المستحيل ..

مسارات تعتمد نفس الأوليات التي اعتمدناها في الحديث السابق ، لأنها هي الأصول التي يمكن للإنسان أن يبلغ معها إلى درجة جيدة من الوضوح ، تمكّنه من الوفاء بمسؤوليته تجاه تلك الذوات الطاهرة .

مسارات تعتمد ما يمليه الحق من شرائط في تلك الذوات الزكية ، وما تستوجبه استقامته في وجودها وحياتها ، وتركن إلى ما تطرحه النصوص الإسلامية الصحيحة من مفاهيم وحدود ، تنير للمؤمن سبل الالتزام السليم بأولئك النجباء ، واتباع هديهم .

إذ ان للحق دلائله التي يجب ان تسترشد في تمييز منابعه ، وان لدين الله (تعالى) حجته الواضحة في كمال هداه ، وجلاء بيناته ، في حدود ما يستطيع الإنسان إدراكه ، وفهمه مما يعيشه من الأمور .

ولا ريب ان في اتخاذ هذه المسارات معيناً كافياً في تعريف الإنسان بما يحتاجه في فهم طبيعة هذه الرعاية الإلهية لهم في تلك الحدود التي قلتها ، حيث يستطيع طالب الحق ملاحظتها في علقته معهم ، والوفاء بمسؤولياته تجاههم .

أما ما وراء هذه الحدود ، فحتى لو سلم بإمكان فهمه وإدراكه لفئة من الناس ، إلا انه لا يعني الإنسان العادي ، ولا يرد ضمن اهتمامه ، أو ضمن مسؤوليته مع أولئك الأصفياء .

بل -وحيث لا يستند الحديث فيه إلى أساس ثابت من العلم أو

---

(١) أصول الكافي : ص ٢٠٠ .

رصيد واضح من الحجة الإلهية- يصبح الوغول فيه رجما بالغيب ، لا ينتهي معه الإنسان إلى نتيجة مرضية .

إذن فينبغي لنا -قدر المستطاع- أن لا نتجاوز في إجابتنا حول الأسئلة المتقدمة تلك الحدود التي ذكرناها .

ومن الله جل شانه نستمد التوفيق والسداد انه ولي التوفيق .

❁ ❁ ❁

من صور الرعاية الإلهية في النصوص

ثم إننا -وقبل الدخول في الإجابة عن الأسئلة المتقدمة ينبغي لنا الالتفات إلى نقطة مهمة في هذا المجال ، وهي :

أن النصوص الإسلامية الواردة في بيان الرعاية الإلهية لأولئك الصفوة المنتجبين ، قد يركز كل منها على بعد خاص من هذه الرعاية في بعض أولئك الأصفياء ، حسب ما يقتضيه المورد الذي ورد فيه ذلك النص ، كما رأيناه في النصوص السابقة .

إلا أننا يجب أن نعلم ان خصوصية الورود هذه لا تعني اختلافاً في واقع تلك الرعاية ، أو الانتقاء في تطبيقها ، أو التفاوت في أهدافها ، أو اختصاص كل واحد من أولئك الأصفياء عليهم السلام بجانب خاص منها ...

كلا . أبدا .. وإنما هي مظاهر لواقع واحد ، شامل لجميع أولئك المطهرين عليهم السلام ، ومن أجل تحقيق أهداف موحدة الخط والاتجاه ، اقتضتها حكمة الله (تعالى) في انتجابهم لدينه العظيم .

فهذه الوحدة والعموم مما يعنيهما اطراد شرائط الحق في أولئك الصفوة ، واستقامتهم المطلقة مع مقتضيات هداه ، دون أدنى تفاوت أو عوج ...

وهو ما تؤكد عليه النصوص الإسلامية الواردة في بيان شرائط

النبوة والإمامة .

منها ما رواه الشيخ الكليني (قدس سره) عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام -من حديث- :

(..له (تعالى) سفراء في خلقه ، يعبرون عنه إلى خلقه وعباده ، ويدلونهم على مصالحهم ومنافعهم وما فيه بقاؤهم ، وفي تركه فناؤهم، فثبت الآمرون والناهون عن الحكيم العليم في خلقه ، والمعبّرون عنه (جل وعز) ، وهم الأنبياء وصفوته من خلقه ، حكماء مؤدبين بالحكمة، مبعوثين بها ، غير مشاركين للناس -على مشاركتهم لهم في الخلق والتركيب- في شيء من أحوالهم ، مؤيدين من عند الحكيم العليم بالحكمة ، ثم ثبت ذلك في كل دهر وزمان مما أتت به الرسل والأنبياء من الدلائل والبراهين ، لكي لا تخلو أرض الله من حجة يكون معه علم يدل على صدق مقالته ، وجواز عدالته) (اصول الكافي - ج : ١ - ص : ١٦٨) .

وسيردنا مزيد من هذه النصوص فيما بعد -إن شاء الله-.

ولهذا فان الآيات الكريمة السابقة من سورة (ص) ، حين تقول عن إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام : ﴿ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ﴾ ، فان هذا الإخلاص الإلهي لهؤلاء النجباء ليس من مختصاتهم وحدهم من بين أصفياء الله الآخرين ، فكل هؤلاء الأصفياء يجب أن يكونوا مخلصين لله (تعالى) .

وكذا الأمر مع آية سورة (يوسف) التي تذكر عنه عليه السلام : «وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء» .

فان هذا البرهان الرباني ، وصرف السوء والفحشاء ليسا مما تميز بهما يوسف عليه السلام بمفرده دون غيره من المصطفين عليهم السلام ...

والأمر نفسه وارد مع اصطناع الله لموسى عليه السلام ، وتأييده لعيسى عليه السلام بروح القدس ، أو فضله ورحمته على محمد صلى الله عليه وآله ... فكل هذه النواحي عناوين متعددة لحقيقة واحدة شاملة ، اقتضتها حكمة الاصطفاء الإلهي ، واستوجبتها استقامة الحق في أوليائه .

بمعنى ان كل واحد من المفاهيم التي تعرضه تلك النصوص ليس إلا واحدا من المجالي التي يتراءى بها ذلك المدد الواحد ، أو مظهرا لذلك الفيض الرباني العميم عليهم أجمعين ، وعلى البشرية كلها من خلالهم ، فهم الهداة المهديون لها في سبيل الخير والكمال .

نعم ، حين تكون هناك قرائن تخصص بعض الأمور في مواردها ، فلا بد ان يقتصر بها -حينئذ- عند حدودها المذكورة -كما هو واضح- إذ لا مجال للتعميم في مثل هذه الموارد .

وهذا العموم الذي ذكرناه يمكّننا من الانطلاق في فهم جوانب هذه الرعاية الإلهية ، ومعرفة مواردها في تلك الشخصيات المصطفاة كافة ، من خلال كل واحد من تلك النصوص ، وان ركز كل منها على جانب خاص ورد في واحد من أولئك الأصفياء عليهم السلام .

❖ ❖ ❖

ونقطة أخرى يجدر بنا الالتفات إليها ..

وهي أن إجابتنا حول الأسئلة المتقدمة يجب أن لا تتجاوز الخطوط العامة التي أخذناها على أنفسنا في هذا الحديث

فمع أن الدلالات التي يمكن استلهامها من خلال التأمل في شرائط الحق، والمجالي التي يمكن استفادتها من النصوص الإسلامية التي وردت في بيان السمات والمميزات التي اختص بها أولئك النجباء عليهم السلام ، أكثر من أن تحصى، وتتفاوت في الدقة والأهمية ، إلا إنا هنا ينبغي أن لا

نطمح لأكثر من فهم دلالات الاصطفاء الإلهي لتلك الشخصيات المنتجبة ، وفي الخطوط العامة لما يعنيه هذا الاصطفاء فهذه الحدود هي التي وقفنا عندها في استعراضنا لجميع النواحي الأخرى التي استعرضناها سابقاً، أو تلك التي ستردنا في قادم الحديث -إن شاء الله-.

أما الدخول في قضايا أخرى أو جزئيات أخرى وراء هذا المستوى أو تلك الحدود فهو مما لا يدخل ضمن اهتمامنا هنا ، أو سيطيل بنا المسرى ، وان كان بعضها من الأهمية بمكان .

❖ ❖ ❖

من صور الرعاية الإلهية للأصفياء

ولهذا فنحن نتوقف من مظاهر تلك الرعاية الإلهية لأولئك النجباء عليهم السلام عند ما يلي :

أولا : التسوية الإلهية للمصطفين

وهي إنشاء الشخصيات المنتجبة كافة ، ومنها -بالطبع- شخصية علي بن أبي طالب عليه السلام ، وبما فيها من أصول وطاقات و مكونات ، على أكمل صورة تعنيها التسوية الإلهية للإنسان الحق ، وعلى أسمى الملامح التي يقدمها التصور الإسلامي لكمال هذا الكائن الذي فضله الله -سبحانه- على كثير ممن خلق .

.. الإنسان الذي يحقق لحكمة الله تعالى فيه غاياتها ، دون أي نقص أو خلل أو تفاوت يقصر بأي من قواه وطاقاته وأقواله وأفعاله عن شيء من مستلزمات الحق ، وشرائطه في دين الله .

﴿ .. وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ .

﴿.. وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ .

إذ لا ريب أن للإسلام فكرته العامة عن الإنسان الأكمل ،

وصورته الأسمى التي يسعى إلى تحقيقها في الواقع البشري ..

هذه الصورة التي جعلها المحور الذي استهدفتها جميع مناهج الإسلام ، وأحكامه وتعاليمه وقيمه وأخلاقه ، وشرعت من أجل إيصال الإنسان إليها تربيته وقوانينه ، على أي مستوى ، وفي أي صعيد.

هذه الصورة التي تمت بها كلمة الله صدقاً وعدلاً هي التي يجب أن تتجسد بشخصيات كل واحد من نجباء الإسلام وأصفيائه ، دون أي استثناء ، وفي كل الحالات .

بمعنى أن لا يقعد بتلك الشخصيات قصور تكتسبه من وراثة بعض النقائص من الأسلاف ، أو يتأتى لها من وهن في بيئة يعيقها عن ذلك الكمال الأسمى ، ولا ترجيء بقدرتها على تجسيد الحق في كيانها ، وفي ما يصدر عنها من قول أو فعل ، عملية التطور المعهود بين الناس ، في أي مرحلة من مراحل وجودها .

إذ سبق ان تعرضنا إلى ما يستوجب النقص الوراثي أو البيئي من سلبيات في مكونات الذات ومدى نضجها ، وتحديد في قدرتها على الانطلاق في آفاق الكمال ...

كما سبق ان لاحظنا ما يعنيه التطور الطبيعي في جسم الفرد وقواه النفسية والعقلية من تفاوت في مراحل النضج ، ومدى تأثر كل مرحلة من مراحل عمر الشخص ببعض العوامل النفسية والجسدية التي قد تفقده حتى التوازن المطلوب في رؤية الواقع ، والاستقامة معه في التصور والسلوك .

ولما كان القصور في كل من هذه الأمور غير ممكن في الشخص الذي يختاره الله (تعالى) لأمره ، ويرتضيه لعهده ، فيجب أن تتجاوز رعاية الله فيه أي نقص يمكن ان يرد عليه ، في أي من مكونات ذاته ، أو

أركان شخصيته ، أو أصول ومظاهر وجوده ، سواء في أصل خلقه ، أم في نشأته ، أم في مسيرة حياته ..

ولا سيما أن هذا القصور لا يقف -في آثاره ونتائجه- على جانب معين من الذات ، أو عند بعد خاص من أبعاد حياتها ، فهي -كما نعلم- موحدة الجوانب ، متكاملة الأبعاد حيوية العلاقات .

والقران الكريم يذكر أمثلة من رعايات الله -سبحانه- لبعض أصفيائه ، حيث تتجاوز كل عوامل التطور الطبيعي والوراثة والبيئة ، كما رأيناه في شخصيتي عيسى بن مريم عليه السلام ، ويحيى بن زكريا عليه السلام ، كما قرأناه في قوله (تعالى) :

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً . قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً . وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً . وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً. وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً.[(١)]﴾.

﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً . وَحَنَاناً مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيّاً .[(٢)]﴾ .

ولا غرابة في هذا التجاوز ، بعد أن عرفنا أنها رعاية خاصة ، ممن بيده مقادير الأمور وتدبيرها ..

وأنها رعاية اقتضتها حكمة الله -سبحانه-، هذه الحكمة التي شاءت أن تصطفي تلك الذوات ، وان تضمن فيها ما يحقق للحق شرائطه في جانب من جوانب وجودها ، وفي كل دور من ادوار حياتها، وان تُظهر فيها من سمو دين الله ما يقيم بها حجة الله (تعالى) على

---

(١) مريم : ٢٩٠- ٣٣ .

(٢) مريم : ١٢- ١٣.

العباد ، كأمثلة شاخصة للبشرية ، وشواهد هادية لها نحو الخير والصلاح.

❁ ❁ ❁

ثانيا : واقعية الكمال في المصطفين

إنشاء تلك الشخصيات –وبكل ما تملكه من مظاهر الكمال الإنساني– على أساس واقعي وثابت من الكمال الإنساني الرفيع ، مما تقتضيه حكمة الله –سبحانه– في الإنسان ، وعلى رصيد تام من دلائل الهدى في دينه القويم ...

بمعنى ان تتوحد في هذه الذوات الزكية حكمة الخلق والتشريع معا، ليكون وجودها مظهراً للعظمة في كلتا الحكمتين .

فقد قلنا –في بداية هذا الحديث– بأن الإسلام إنما يلتزم الحق قيمة عليا، وأن هذه السمة فيه سمة واقعية ، وليست اعتبارية ، وان المنطلق الذي يبني عليه هذه الحقيقة في ذاته إنما هي الحكمة الإلهية ومقتضياتها في الإنشاء والتدبير ، مع حكمة المنهجة والتشريع .

ومن الضروري أن تمتد هذه الضرورة في الأصفياء الإلهيين ، كما مضت مع غيرهم من حقائق الإسلام ، إذ لا تفاوت في حكمة الله –سبحانه–، ولا عجز في قدرته ، فالكمال الذي تتبلور به شخصياتهم يجب أن يكون –بدوره– كمالاً واقعياً ، تتجلى فيه حكمة الله في خلقها للإنسان وأحكمت مختلف علاقاته مع جميع مظاهر الوجود .

وكما كانت هذه الضرورة نقطة امتياز للإسلام على غيره من الأديان كافة ، فمن الطبيعي أن يكون هذا الكمال الإسلامي في شخصياته نقطة امتياز لأصفيائه على غيرهم من البشر .

فالرعاية الإلهية هنا تخلص تلك الذوات لله (تعالى) وحده ،

وتمحضها للحق الذي تقتضيه حكمته ، فلا وجود في كيانها لغير الله ، ولا حياة لها بدون هداه ، ولا موقع في نظرتها لغير كلمته ، ولا مظهر فيها غير ما رسمه للإنسان .. فالاستقامة مطلقة ، والرشاد عميم ، والصلاح شامل .

﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ .﴾ .

﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ...﴾ .

(أدر الحق معه حيث دار) ..

❁ ❁ ❁

ثالثا : الرشاد الكامل

الهيمنة المطلقة للعقل ، وقوى الوعي والتبصر على كل ركن من أركان شخصية المنتجب ، وكل مجلى من مجاليها ، فلا دخائل في هذه الشخصية تقصر بالعقل عن دوره في تبصر الأمور ، أو تزيغ بالبصيرة عن استكشاف مكامن الحق ، ولا عقد نفسية تلقي بظلالها عليه من وراء الحجب .

فلا خطأ ... ولا زلل ، وإنما هو هدى كامل ، ونور شامل ، يملأ جنبات تلك النفوس، ويستوعب كل آفاقها، كقوله (تعالى) عن إبراهيم عليه السلام :

﴿اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ .[١]﴾ .

وقوله (تعالى) في خطابه لسيد الرسل محمد صلى الله عليه وآله :

﴿إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُّسْتَقِيمٍ .[٢]﴾ .

---

(١) النحل : ١٢١ .

(٢) الحج : ٤٧.

وكدعاء الرسول ﷺ لعلي عليه السلام : (اللهم اهد قلبه ، وثبت لسانه) .

❁ ❁ ❁

رابعا : وقاية الأصفياء من المزالق

الوقاية التامة لتلك الأنفس الزكية عن ان تتأثر -في رؤيتها للأمور أو في تعاملها مع القضايا والأحداث- بشيء لا يستقيم مع هدى الله (تعالى) ، ولا ينسجم مع بصائره ، أو تخضع لشيء مما يجري حولها من حوادث ، والارتفاع بها عن أن تستكين لدواعي الهوى ، أو تحيد مع مضلات الأماني..

فكل ما في هذه الأنفس الزكية لله وحده ، ومظهر من مظاهر كلمته العليا وهداه المنير ، ومن خلال هذه الكلمة تمضي في وجودها ، ومن خلال هذا الهدى تجري في فاعليتها في هذه الحياة .

﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء .[1]﴾ .

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً.[2]﴾ .

❁ ❁ ❁

هذه بعض الخطوط العامة التي تتجلى بها رعاية الله في أولئك المصطفين، وهذه ملامح بارزة في بنياتهم الشخصية .

وعلي بن أبي طالب عليه السلام -كأي منتجب آخر منهم- يجب ان يحاط بمثل هذا المدد الرباني أيضا في جميع شؤونه ، حيث يستحيل عليه تحقيق أي من مهماته الكبرى دون رصيد ثابت من هذا المدد .

ولهذا فلا حاجة بنا لتتبع ما ورد فيه من النصوص التي بينت هذه

---

(١) يوسف : ٢٤.

(٢) الأحزاب : ٣٣ .

الناحية منه ، لأنها لا تعدو الحديث السابق ، على أنها من الكثرة بدرجة لا يحتاج الوقوف عندها إلى كثير من العناء ، وقد سبق ان ذكرنا نحن العديد منها ضمن طيات الحديث المتقدم .

الفصل الرابع

الرعاية الإلهية في النصوص

وهنا ، يجدر بنا ان نقف عند بعض النصوص الإسلامية التي عرضت هذه الملامح التي قلناها ، ومدلولاتها في تلك الشخصيات المطهرة ، لما في هذه المدلولات من بيان للآفاق الكبرى التي تعنيها تلك العناية الإلهية فيهم عليهم السلام ، ولا نحاول التعليق بشيء فهي أوضح من التعليق .

الأول: ورد عن الإمام الصادق عليه السلام من خطبة له يذكر فيها الائمة وصفاتهم:

(... فالإمام هو المنتجب المرتضى ، الهادي المنتجى ، والقائم المرتجى ، اصطفاه الله بذلك ، واصطنعه على عينه ، في الذر حين ذرأه ، وفي البرية حين برأه ، ظلا قبل خلق نسمة عن يمين عرشه ، محبوا بالحكمة في علم الغيب عنده، اختاره بعلمه ، وانتجبه لطهره ، بقية من آدم ، وخيرة من ذرية نوح ، ومصطفى من آل إبراهيم، وسلالة من إسماعيل ، وصفوة من عترة محمد صلى الله عليه وآله ،لم يزل مرعياً بعين الله ، يحفظه ويكلؤه بستره ، مطرودا عنه حبائل إبليس وجنوده ، مدفوعا عنه وقوب الفواسق ، ونعوت كل فاسق ، مصروفا عنه قوارف السوء ، مبرءا من العاهات ، محجوبا عن الآفات ، معصوما من الزلات ، مصونا من الفواحش كلها ، معروفا بالحلم والبر في يفاعه ، منسوباً إلى العفاف

والعلم والفضل عند انتهائه [١]) .

ما ورد عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام انه قال :

(ان الله (تبارك وتعالى) طهّرنا ، وعصمنا ، وجعلنا شهداء على خلقه ، وحجته في أرضه ، وجعلنا مع القران ، وجعل القران معنا ، لا نفارقه ولا يفارقنا [٢]) .

الثالث : ما قاله الإمام أبو الحسن الرضا عليه السلام -في حديث طويل يذكر فيه خصائص الإمام ومعرفاته- :

(الإمام المطهر من الذنوب ، والمبرأ من العيوب . المخصوص بالعلم ، الموسوم بالحلم ، نظام الدين وعز المسلمين ، وغيظ المنافقين ، وبوار الكافرين.

(الإمام واحد دهره ، لا يدانيه أحد ، ولا يعادله عالم ، ولا يوجد عنه بدل ، ولا له مثل ولا نظير ، مخصوص بالفضل كله من غير طلب ولا اكتساب ، بل اختصاص من المفضل الوهاب...) .

إلى ان يقول عليه السلام :

(ان العبد إذا اختاره الله عز وجل لأمور عباده شرح لذلك صدره ، وأودع قلبه ينابيع الحكمة ، وألهمه العلم إلهاما ، فلم يعي بعدهن بجواب، ولا يحير فيه عن الصواب ، فهو معصوم مؤيد ، موفق مسدد ، قد أمن من الخطايا والزلل والعثار ، يخصه الله بذلك ليكون حجته على عباده ، وشاهده على خلقه ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو

---

(١) أصول الكافي للشيخ محمد بن يعقوب الكليني - ج : ١ - ص : ٢٠٤ - مكتبة الصدوق -طهران- سنة : ١٣٨١.

(٢) المصدر السابق ص١٩١.

الفضل العظيم [١]) .

واضح أن الأحاديث غنية عن أي تعليق ، وهي إنما تؤكد تلك الملامح التي استوجبتها شرائط الحق ، واستقامته في أولئك المصطفين عليهم السلام ، والتفاصيل التي أفاضت فيها مما يقتضيه مورد البيان هي بعينها تلك الأمور التي تعنيها تلك الشرائط -كما يبدو مع قليل من التأمل- .

ولا يرد على هذه النصوص وأشباهها : أنها من كلمات أولئك الأصفياء أنفسهم ، فهي مما لا يمكن الاستدلال ، أو الاستشهاد به في هذا المضمار ، فهي لا تعدو ان تكون دعاوى يحتاج التصديق بها إلى دلائل ترد من غيرهم ، إذ الشيء لا يثبت نفسه -كما هو معروف في علم المنطق- ..

أقول : ولا يرد مثل هذا الإشكال على هذه النصوص وأشباهها ، لأنها -كما نراها- لا تؤسس دعوى من تلك الذوات المصطفاة ، لأنها وردت في خط الحكم العقلي الواضح في ضرورة شرائط الحق في حججه ، وحديتها فيهم ، واستيعابها لمكوناتهم ، حيث اصطفاهم الله (تعالى) ألسنة لدينه القويم، وأمثلة عليا لحقائقه في واقع البشرية ، وفي خط الحكم العقلي أيضاً في وجوب ضمان الله -سبحانه- لتحقيق مقتضيات حكمته في اصطفائه إياهم ، تماماً كما هو الأمر مع الآيات القرآنية الكريمة التي وردت في هذا الخط، والتي قرأنا بعضها فيما سبق .

بمعنى أن الروايات السابقة وأشباهها ، والآيات القرآنية الكريمة كلها ، إنما يقصد منها لفت العقول إلى هذه المزايا الأساسية في منتجبي كلمة الله -سبحانه- وهداة دينه القويم ، لتستطيع هذه العقول-من ثم- أن تدرك معالم الحق في أوليائه ، وتميز الصادق من دعاوى

(١) المصدر السابق: ٢٠٠-٢٠٣.

الانتساب إلى هذه الكلمة عن الكاذب منها ، وهي تطلب من العقول أن لا تستكين لبريق الإعلام والتقديس في هذه المرحلة ، قبل أن تحاكم تلك الدعاوى على أساس واضح من هذه المزايا ، وبهذا الاطراد والحدية التي تستبين فيها معالم الحق دون درجات أدنى.

بل ، وعلينا ان نلتفت إلى أن هذه النصوص ليست بصدد التأسيس لدعوى هؤلاء الأصفياء في انتسابهم لدين الله ، أو إثبات اصطفائه (تعالى) إياهم أركانا لهداه ، حتى يرد الإشكال السابق ، فإن لهذا الاصطفاء أدلته اليقينية الأخرى ، التي لا مجال معها لريب ..

بمعنى ان هذه النصوص إنما وردت ممن ثبت اصطفاؤهم يقيناً في دين الله، وممن عُلم اختيار الله إياهم لتلك المهات الكبرى في البشرية .

وهذا يعني أن تلك النصوص بعض حقائق الإسلام ، ودلائل حجته ، وبصائره للعقول ، وموازينه الثابتة التي وضعها لأبنائه ، في بيان الشرائط والأبعاد التي يجب أن يتصف بها الأشخاص الذين يدّعون لأنفسهم مثل تلك المقامات العليا ، وتسنم تلك القمم الرفيعة من صرحه ، فعلى أساس من هذه الموازين والحقائق يجب أن يميز المسلم دعاوى أي مدع قبل ان يبني مع أي منهم علقة إسلامية معينة ، أو يتخذ منه موقفاً -ايجابياً كان الموقف أم سلبياً-، أو يقتدي بأي منهم أو يتخذه مثلا أعلى في التزامه للحق ، واتباعه لهداه .

وأخيرا ، فلا يخفى ما في هذه السمات والملامح العليا والشرائط المذكورة في الأحاديث السابقة من إعجاز ، هو أسمى من ان يستطيع احد من الناس -سوى أولئك الصفوة- الوصول إليه ، أو ادعاؤه .

كما لا يخفى ما في صدور هذه الأحاديث من أولئك الأصفياء ، ودعوتهم للعقول والبصائر أن تحاكم ذواتهم ومواقفهم على أساس

منها ، ثم وقوف البشرية كلها أمام هذا التحدي المعجز صاغرة لا تملك أن تثبت فيه وهنا في دعوى ، أو تفاوتا في التزام ، هذا مع ما هو معروف عن ظروفهم التي عاشوها من قسوة ، وما في مهماتهم من دقة وعظمة ، واستيعاب لا يقف عند حياة الإنسان في حدوده الفردية ، أو الاجتماعية ، أو الحضارية المشاهدة في أزمنة صدور تلك النصوص فحسب ، وإنما هو استيعاب شامل للبشرية كلها بمختلف أفرادها ومجتمعاتها وحضاراتها ، وعلى امتداد التاريخ...

ولا ننسى -ونحن بهذا الصدد أيضاً- ظلم الحقب التاريخية لهم ، واغتصابها لحقوقهم -كما هو معروف- إذ لهذا الظلم كذلك أثره في تحديد المواقف ، ودقتها ، وتوجهاتها الخاصة ، التي تضاعف من ثقل المهمة ، وعظم المسؤولية -ولا ريب-.

أقول : ولا يخفى ما في هذا التحدي المعجز وملابساته التي أشرنا إليها من وضوح في دلائل اصطفائهم عليهم السلام ، وقيام حجة الله (تعالى) فيهم على العباد ، واستكمالهم لجميع شرائط الحق ودلائله ، مع استمرار ذلك التحدي الوارد في النصوص ، وهذا العجز المشهود في البشرية .

❁ ❁ ❁

شمول الرعاية لشخصية المصطفى

وهكذا يستبين لنا أن تلك العناية الربانية الخاصة لموارد الاصطفاء الإلهي من الناس ، وضمانها لاستقامة الحق في شخصيات المرتضَين ، شاملان لكل بعد من أبعادهم ، البارزة منها والخفية على حد سواء ، مستوعبان لكل طاقة من طاقتهم ، ولكل قوة من قواهم ، فلا تحيد شخصية أي منهم عن استقامة الحق ولا تنحرف ، ولا تقصر عن شيء

من متطلباته وضروراته ..

سواء في أصل فطرتها ، أم فيما تمر به من مراحل النمو ، أم في فاعليتها في هذه الحياة ، فالله -سبحانه- هو المتعهد لها ، وهو الضامن لاستقامتها ، وهو الذي يوفي لكل مورد منها مدده المناسب ، والأسباب الضرورية، والتكافؤ الدائم مع معطيات الحق ، ومقررات مبدئه العظيم.

كما يجب ان تبدأ تلك الرعاية الإلهية مع المرتضى منذ أوليات وجوده وركائز شخصيته الأولى ، لتبقى معه حتى آخر موقع تنتهي إليه مهمته في قيام الحق ، وإن امتد هذا الموقع إلى ما بعد حياته بقرون متطاولة .

وهنا تبرز دقة الموقف ، وتستبين العظمة في شخصية المرتضى ، ومبلغ دور العناية الربانية الضامنة لاستقامة الحق فيها .

وأقول : وإن امتدت مهمة المصطفى إلى ما بعد حياته بقرون ، لما علمناه من ان قيام الحق في الوجود الإنساني ، واستقامة دينه الحنيف في البشرية ، ضرورة عامة شاملة لجميع تأريخها ، وليس محدداً في مرحلة معينة من حياتها ، ولا في زمن خاص من أزمنة وجودها وحياتها في هذه الأرض ، فهو -قبل هذه المرحلة- ضرورة قائمة في الوجود التكويني ذاته ، إذ يجب أن يكون لحكمة الله (تعالى) مقتضياتها في الخلق والتدبير والتنظيم والتشريع معاً .

وحين أناط الله -سبحانه- مهمات هذا الدين -في كل دور من أدوار الحياة الإنسانية- بنخبة مصطفاة من البشر ، ألقى عليها مسؤولية إبلاغ هدى الله ، وتجسيد حقائق دينه القويم ، بما يكفل قيام حجته على الناس في ذلك الدور بأكمله ، كان لا بد من تحقيق هذه الغاية ، وعلى أي مستوى يتصور في هذا الشأن ، وان كان هذا الدور أطول -في

الزمان- من العمر الاعتيادي لأي من أولئك الأصفياء ، إذ لا يلزم ان تستمر حياتهم مع استمرار مسؤولياتهم بعد تحقق هذه الغاية كما يريده الله -سبحانه- .

ولهذا فقد تتجاوز مهمة الأصفياء ومسؤولياتهم حدود الوجود الشخصي لهم ، لتصبح الحجة الإلهية ، والنور الرباني ، وبصائر الله وبرهانه ، رصيدا دائماً في سلوكهم ومواقفهم وكلماتهم ، يمد كل الأزمنة والمراحل البشرية -التي أخذتها حكمة الله في مهماتهم-، بالهدى والرشد ، والبيان ، دون أدنى خلل أو قصور ، وطبيعي ان تؤخذ هذه السعة -حينئذ- في الرعاية الربانية التي تكلأ كلاً من أولئك المصطفين أيضا .

وهكذا ، فحيث أخذ الله -سبحانه- في رسالة محمد ﷺ أن تكون شاملة للبشرية كافة ، وان تكون هي الرسالة الخاتمة لجميع رسالات الله (تعالى) ونبواته في هذه الأرض ، لتمتد في أصفيائها ومهماتها -من ثم- مع البشرية حتى الفرد الأخير منها في هذه الأرض ، فيجب -حينئذ- أن يؤخذ ذلك الشمول وهذا الامتداد في رعايات الله (تعالى) لشخص محمد ﷺ ، وأوصيائه المطهرين عليهم السلام أيضا ، ليتمكنوا من إقامة حجة الله على العباد بكل ما نطقوا به من قول ، أو أتوه من عمل ، بمستوى تلك السعة وذلك الخلود اللذين أخذا في اصطفائهم أيضا .

ولا أعتقد أن هناك ريباً أو خفاء في هذه النتيجة الضرورية ، ولا سيما بعد ما سبق لنا من حديث .

بل وهذا ما نرى آثاره ودلائله في كل واحد من أولئك الأصفياء شاهداً حياً قائماً بعد هذه الحقب المتمادية من تأريخ الإسلام ، وفي قيام كلمته في هذه الأرض ، ليبرز الإعجاز الإلهي في أولئك الأصفياء

مع كل يوم تتجلى فيه للعقول بوادر عطائهم ، وأنوار كلماتهم ومواقفهم ، التي تبقى المصدر الوحيد –مع القرآن- في هدى البشرية ، وسداد فاقتها في طريق كمالها المنشود .

الفصل الخامس

لا جبر في رعاية الله لأصفيائه

ومما يستتبع الحديث المتقدم ، نقطة مهمة يجب ان لا نغفل عنها ونحن بهذا الصدد :

وهي ان الرعاية الربانية لأولئك المنتجبين -مع ضرورتها فيهم ، وسمو عطائها في آفاق شخصياتهم ، وعمقها في مكوناتهم الذاتية ، لا تعني -وبأي شكل تتصور ، وفي أي عمق تتحقق به ، وعلى أي مدى تكون عليه- جبراً لأي منهم في إرادة ، أو إكراهاً له على اتخاذ موقف ، أو قسراً له على اتباع سلوك لا يستطيع مخالفته ، في أي صعيد من أصعدة حياتهم كانت تلك الرعاية، وفي أفق من آفاق شخصياتهم ، وخلافاً لما قد يتصوره بعض الناس في هذا المجال ، ليمّحي بذلك فضلهم في تجسيد الحق ، أو استقامته المطلقة في كلماتهم ومواقفهم .

كلا .. أبداً ..

فإن الشخص الذي اتسعت مداركه لمعرفة ما تعنيه فضيلة من الفضائل ، وتعمّق حبه لها حتى خالط اتجاهاته النفسية العميقة ، فسما بنفسه عن تركها، أو حتى عن التفكير في تركها ..

وإن الشخص الذي وعى ما في بعض الرذائل من نقص ، وتمكن بغضها في أعماق كيانه ، فسما بذاته بممارستها ، أو حتى عن التفكير بممارستها ، فان هذا التسامي -في كلا مورديه- لا يعني أن صاحبه مجبور عليه في أي من الحالتين ، ولا فضل له فيه ، بل العكس ففضله

وفضيلته تنمو مع كل درجة يبلغها في هذا السمو -كما هو واضح- .

والرعايات الإلهية لمنتجي كلمة الله كلها إنما تجري ضمن هذا الاتجاه أيضا.

فهي -في جميع مواردها ومفاهيمها- لا تعدو مفاهيم الهدى والنور، وتوسعة المدارك ، والوعي العقلاني المتبصر ، وقوة الإرادة ، ووضوح السبيل ، وبناء الذات وميولها واتجاهاتها وعواطفها على أساس ثابت من الحق ، والحق وحده دون سواه ، وعلى متطلباته في السلوك ، والوقاية من أن يتأثر أي من مكونات الذات تلك بشيء يقصر بها عن بلوغ ذلك المستوى الرفيع، أو يحيد بها عن استقامته ، والنصوص السابقة كلها واضحة الدلالة على هذا .

❁ ❁ ❁

الأصول الواقعية لدين الحق

ولفهم هذه النقطة بشكل أوضح ، يمكننا أن نعود إلى ما سبق ان ذكرناه ، من ان عنصر الحق في دين الله إنما يعني مطابقته الكاملة لمقتضيات حكمة الله -سبحانه- في خلق الإنسان ، وما أعدته هذه الحكمة له من دور خاص بين مخلوقات هذا الوجود .

فهذه الحكمة هي التي شاءت ان تملّك الإنسان ما ملّكته من قوى العقل والإرادة وأصول الاختيار المختلفة ، وما هيأته فيه من الخصائص الإنسانية المعروفة ، وجعلت هذه الخصائص وسيلته الأولى لتحقيق دوره في هذه الأرض، والقيام بخلافته لله (تعالى) فيها .

فمن الطبيعي -حينئذ- ان تكون هذه الخصائص الأصول الواقعية التي بنى عليها هذا الدين العظيم ، وأن تكون الطبيعة العامة لكل حقيقة من حقائقه ، والمكونات الأولية لكل شخصية منتجبة من شخصياته ، إذ

ما كانت حكمة الله –سبحانه– لتختلف ، أو لتتفاوت في أي شأن من شؤونها –كما أشرنا أكثر من مرة– .

ومن الطبيعي –كذلك– أن تؤخذ هذه الخصائص ضمن موارد الرعاية الإلهية لهذه الشخصيات المنتجبة ، والفيوض التي تضفى عليها ، إذ لا بد ان تحفظ لتلك الأصول الإنسانية دورها الكامل دون أدنى نقص أو تجاوز.. تماماً كما هو الأمر في التوفيقات الربانية لغير هذه الشخصيات من الناس ، وهم يسرشدون هدى الله –سبحانه– ويتبعون بيناته .

إذ أن استمساك الإنسان بعروة الله الوثقى ، واستقامته في سبيله ، وانقياده لأمره ونهيه ، مما يحتاج بدوره إلى توفيق من الله ، ولطف يأخذ بيده في هذا السبيل ، إلا أن ذلك التوفيق وهذا اللطف لا يبلغان مع الإنسان إلى درجة الإلجاء والجبر ، في أي صعيد وردا ، وعلى أي مستوى كانا –كما يلمسه كل فرد من نفسه– .

بل ، ومثل هذا التوفيق يجري مع أي إنسان يحقق بعض أهدافه السامية في الحياة ، أو يستشرف ببصيرته إلى بعض آفاق المعرفة ، فمثل هذه الأمور –بدورها– لا يمكن نيله بدون توفيق من الله ، ودون رعاية منه ، إلا أنهما لا يبلغان إلى درجة الإكراه والقسر .

وهكذا فإن الرعاية الإلهية في هذه المجالات لا تقسر أحدا من أولئك الصفوة على اتّباع سبيل معين من سبل الحياة ، ولا تجبره على اتخاذ موقف خاص في حادثة من حوادثها ، وإن بلغت هذه الرعاية معه إلى القمة من السمو في تكوين ذاته ، وبناء سلوكه على رصيد ثابت من الحق والهدى ، وفي صرفه عن أي انحراف عنه ، أو عن شيء من مقتضياته ، في أي موقف له في الحياة .

بل هي تجري معهم –وكما أشارت إليه النصوص السابقة– ضمن إنشاء مكوناتهم الذاتية على أكمل ما تعنيه التسوية الإلهية في إنسان أمثل ، وفي توازن ما في ذواتهم من قوى كاملة النضج والفاعلية ، وفي الهداية الرشيدة لهم في مختلف مسالك الحياة ، حيث تقف ببصائرهم على مكامن الحق في الأمور ومنابع الهدى في المواقف ، واستيعاب مداركهم لجميع ما تعتمده حكمة الله من غايات عليا في كل صغيرة وكبيرة في الحياة ، وفي كل حالة من الحالات ، وعلى أي صعيد من الأصعدة .

❁ ❁ ❁

ولئلا يصبح في الحديث نوع من الغموض ، يمكننا فهم المسألة من خلال واقعنا المعاش ، وما يدركه كل فرد منا حين يعود إلى ذاته ، ويلحظ طريقة تكوينه الشخصي ، واتجاهاته الخاصة في الحياة .

فأنا –مثلاً ، وكأي إنسان آخر ، نشأ في بيئة اجتماعية معينة ، لها قيمها ، ولها تقاليدها واتجاهاتها الخاصة– أرى نفسي منتظماً مع تلك البيئة ، ومع ما يحكمها من الأعراف والتقاليد ، دون تكلف ، وحتى دون التفات إلى جزئيات المواقف التي أتخذها ، وكأنني مجبول عليها ، وان كنت في بداية نشأتي الشخصية في هذه البيئة ربما وجدت بعض المعاناة في انسجامي مع هذه القيم والاتجاهات ، ورأيت فيها أشياء بعيدة عن نفسي ، وقيودا محددة لسلوكي ، إلا أنني –وفي سبيل تحقيق انسجامي مع المجتمع الذي أعيش فيه– تقبلتها في أعماق نفسي كواقع لا بد لي من الانتظام فيه ، والجريان ضمن خطوطه ، والمضي مع مقتضياته في سلوكي وطموحاتي في الحياة ، حتى أصبحت –مع مرور الزمن– جزءاً في تكويني الذاتي ، وصفة عامة لاتجاهاتي الشخصية ، مما قد يصعب علي مخالفة بعضها ، أو حتى التفكير في مخالفتها ، ولو في

خطرات نفسي ، إذ أصبح لها من القوة والهيمنة على نفسي ما مكّنها من التدخل حتى في نظرتي للأمور ، وتصوراتي الخاصة حولها .

لكنني -وحتى مع هذه القوة التي أجدها لها في نفسي- لا أجدني مسلوب الإرادة معها ، ولا مجبورا على التزامي بها ، واتخاذي للمواقف التي تنسجم معها ، واختيار ما اختاره من صور السلوك في سبيلها ، وان لم أفكر يوما من الأيام في الخروج عنها ، أو في مخالفتها ، وبالأخص حين تملأ بصيرتى واعتقادي العقلي ، وتصبح بعض مُثلي الرفيعة في الحياة .

وموارد الرعاية الإلهية في أولئك الصفوة تمضي معهم ضمن هذه السبل أيضا ، فهي -وان أحاطت كلا منهم بمقتضيات الحق ، ومكّنت من ذاته دلائل الهدى ، حتى بلغت معه إلى درجة الامتناع العقلي من مخالفتها في كلمة، أو في سلوك ، إلا أنها -حتى مع هذه الدرجة- لم تبلغ معه إلى مرحلة القسر والإكراه على أي سلوك يأتيه ، أو كلمة يقولها ، وان أصبح ذلك السلوك وهذه الكلمة بعض دلائل الهدى ، ومنار حجته في الأرض .

الفصل السادس

فرق ما بين المنتجب وغيره

نعم ، ان ها هنا فوارق مهمة بين تكويني شخصتي الفرد العادي من الناس وهذه الموارد المنتجبة للرعاية الإلهية الخاصة ، لا بد من الإشارة إليها ، ولو باختصار بالغ ..

الأول : مصدر التكوين الشخصي

فهذا المصدر في موارد الإلهية هو الله (تعالى) قبل أي مصدر آخر .

فعنايته الخاصة -سبحانه- ، ومدده المباشر ، وتوفيقه الدائم ، هي الأساس الأول في تكوين بنياتهم الشخصية ، وفي تحديد اتجاهاتهم في السلوك، وتسديد خطاهم في مسالك الحياة ، ووقايتهم من عوادي الانحراف والزلل .

وهذه العناية الخاصة كانت هي المتفردة في بناء هذه الشخصيات المنتجبة حتى قبل وجودها في هذه الأرض ، وهي المتفردة في بنائها كذلك بعد تسويتها كما تريدها حكمة الله (تعالى) شواهد لدينه ، وأعلاما لهداه ، مما جعل تسليم هؤلاء الأصفياء لله مطلقاً ، وانقيادهم لأمره شاملاً ، واتباعهم لهداه عاماً ..

فلا ذاتيات لهم وراء ذلك التسليم ، ولا كيان لهم غير هذا الانقياد والاتباع ، إذ تفنى مظاهر الوجود كافة ، أمام الحق (تعالى) في تلك النفوس المطهرة ، وتعجز عن التأثير فيها ، ما لم تكن ضمن هداه ،

وبصائر بيناته .

ولأن هذه الدرجات العليا من التسليم لله ، والانقياد لأمره ، لم تتحقق في غيرهم من بني الإنسان ، فمن الطبيعي أن يبلغ توفيق الله ورعايته لهم بنفس المستوى ، فلا دور لغيره في ذواتهم ، وكانوا الحق المتجسد في واقع الإنسان ، وأمنوا من القصور عنه ، أو الانحراف أو الزلل .

أما غيرهم من الناس فلمرورهم بتلك المراحل التكوينية المتطورة ، ولتأثرهم بموهنات الوراثة والبيئة ، ولقصورهم بمعرفة الأمور ، فمن الطبيعي ان لا يؤمن تدخل تلك الموهنات في تسليمهم لله –وان كان في أرفع مستوياته– أو تأثير عوامل موضوعية أخرى ، تقصر به عن هذا المستوى المطلق .

فقد قلنا في حديث سابق : ان هذا التسليم إنما يتأتى للإنسان العادي من خلال معرفته بالله (تعالى) ، وإدراكه لسبل الارتباط به ، والانقياد إليه ، ومن خلال ما يملكه في فكره ونفسه وجسده من طاقات وقوى مختلفة ، وكلها -كما نعلم- أقصر من تبلغ إلى ذلك المدى المطلق من التوحد مع الحق كما اقتضته حكمة الله ، والتسليم الكامل إليه في كل مستوى ، والانقياد له على كل صعيد ، وإن بلغ بعض الناس في هذه المجالات شأواً رفيعاً ، لم يبلغه الآخرون ، إلا ان هذا المدى يبقى أدنى من أن ينال تلك الدرجات العليا المتصورة لأولئك المطهرين :

﴿ .. وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ .

﴿.. وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ .

(مخصوص بالفضل كله من غير طلب ولا اكتساب ،بل اختصاص من المفضل الوهاب) ..

❁ ❁ ❁

الثاني : العمق الذي يعتمده الحق في بنية الذات

فهذا العمق في الشخص المصطفى يبدأ من الأصول الأولى لتكوين ذاته، لينتهي معها إلى كل ما تتجلى به هذه الأصول من مظاهر في بناء شخصيته وسجاياها ، قبل أن تمتد إلى مواقفه كلها ، لتنعكس -من ثم- على جميع جنبات حياته دون أدنى استثناء .

فلا وجود في شخصية المنتجب لغير الحق ، ولا مجال لغير نوره ، فهو فيها طابع تكويني ، صيغ على أساسه كل جزء من أجزائها ، وكل مقوّم من مقوماتها ، قبل أن يكون طابعاً تشريعياً يسم بميسمه كل بعد من أبعادها ، وكل موقف من مواقفها ، كصورة حية قائمة لانتظامها مع دين الله -عز وجل-، واتباعها لأمره ونهيه ، ليمتد -من ثم- في كل دور لها في الحياة الإنسانية العامة ، وكل مهمة لها في هدى الإنسان .

هذا بينما لا يتصور هذا العمق لغير المرتضى الإلهي من الناس ..

إذ ان ارتباط الإنسان العادي بالله (تعالى) وهداه -وكما سبق أن أشرنا-إنما يأتي له من خلال كسب ومجاهدة ، تتفاعل فيها ذاته -بما تمتلكه من أوليات الاختيار ، التي تتدخل في تكوينه عوامل متعددة ، وراثية أو بيئية، مع ما تدركه هذه الذات في وعيها من صورة لحدود الحق ومناهجه ، قبل أن تنصهر شيئاً فشيئاً في آفاق تلك الحدود ، وليصل بها التسامي -من ثم- إلى تلك الدرجات الرفيعة ، التي يريدها الإنسان لذاته من الكمال ، والاستقامة في سبيل الله ﷻ .

ومن غير الممكن تجريد هذا التسامي -وان كان في أرفع درجاته- عن رواسب تلك المراحل الأولية من عوامل القصور ، وما سبق ان جرى عليه الفرد من تأثر ببعض الأهواء ، أو مراحل ما قبل النضج

الكامل ، أو نقص الخبرة ، أو غيرها .

فهذه الأمور وإن تضاءل دورها ، أو حتى امّحى بعد وصول الشخصية إلى درجة النضج ، وارتفاعها في درجات اتباعها لنهج الحق ، إلا أن من الطبيعي ان يبقى من آثارها في أعماق الذات ، ولو بعض الندبات —وربما اللاشعورية— التي تشير إلى وجودها فيها يوماً من الأيام، حيث يستحيل تجريد الخبرة وذاكرة الإنسان من تلك السوابق ، وان لم يكن لتلك السوابق دور فيما وراء المراحل الأولى من حياة الفرد .

ومن الممكن ان يكون لتلك الندبات تأثير فعلي في كيان الذات وقراراتها من حيث يشعر الإنسان أو لا يشعر ، ليبرز بشكل أو بآخر ، ولو في بعض الأحيان ، كما في حالات الضعف الإنساني ، والأزمات النفسية ، وشبهها ، وواضح أن مثل هذا الاحتمال مما لا يمكن تصوره في شخصية أحد ممن ينتجبهم الله (تعالى) هداة للإنسانية ، وحجة له عليها ، وأعلاما لدينه القويم فيها .

❁ ❁ ❁

الثالث : مدى استيعاب الحق لجنبات الذات

وهو فارق مهم آخر لا بد من الالتفات إليه ..

فالإنسان العادي إنما يتبع الحق ، ويستقيم مع الهدى ، ويطرد في إسلامه لله (تعالى) حتى يصبح هذا الإسلام سمة ثابتة فيه ، تصطبغ به تصوراته الفكرية ، وميوله الشخصية ، واتجاهاته العاطفية ، وسائر مظاهر سلوكه الأخرى ..

وطبيعي أن تخضع هذه السمة لعوامل القوة والضعف التي تحكم ذاته في اتجاهاتها المختلفة ، سواء في المعرفة ، أم في التوجهات النفسية ، أم في المصالح والرغبات ، أم في عوامل الالتزام الأخرى .

كما تخضع لعوامل القوة والضعف التي تحكم وجوده الشخصي ، في مختلف جوانبه الأخرى الجسدية والفكرية وغيرها .

ولهذا فان عنصر الحق -حتى في أسمى درجاته لدى الإنسان العادي يبقى -كأي سلوك آخر له- نتيجة لتلك العوامل جميعا ، ولا ريب ان هذه العوامل كما يمكن أن تعين الإنسان لبلوغ ما يريده من تلك السمة في بعض الموارد ، قد تهن به في موارد أخرى ، وكما قد تسمو به في بعض أصعدة الحياة والمعرفة، قد تكبو به في أصعدة أو في موارد أخرى .. وهكذا .

وكل هذا -وإن كان بدرجة الاحتمال- مما لا يضمن للحق شرائطه المطلقة التي لابد من القطع بتوفّرها في كل الموارد والأصعدة ، والمواقف التي تصدر من الإنسان .

أما في الشخصيات المصطفاة ، فان الموضوع فيها مختلف تماما .

إذ الحق فيها ليس سمة يصطبغ بها ما يصدر منها من تصورات وسلوك، و إنما هو فيها الركن الأساس الذي يعتمد عليه نفس وجودها في هذه الحياة ، قبل ان يكون منبعاً لكل ما يصدر عنها من كلمات ومواقف .

فهذه الكلمات والمواقف إنما هي مجلى لذلك الحق ، الذي ضمنته العناية الربانية في وجودهم ذاته ، قبل ان تكون مجلى لأي منشأ آخر يجري في حياتهم ومكوناتهم الشخصية الأخرى ، إذ لا دور لمنشأ آخر في اختيارهم وارادتهم إلا من خلال الحق ، ومن خلال هداه ورشده ، فمنه -وحده- ينطلقون في ممارستهم للحياة ، واليه وحده ينتهون في كل ما يقولون وما يفعلون .

ولهذا كانت حدود الحق ، وحدود مسؤولياتهم فيه ، وفي قيام

حجته بين الناس ، هي الحدود التي تجسدت بها مختلف العوامل و القوى و الطاقات التي يملكها الشخص المرتضى إذ لا اثنينية في البين .

❁ ❁ ❁

الرابع : واقعية القيم العليا

وهو أيضا فارق مهم آخر ينبغي الوقوف عنده قليلاً .

فالقيم العليا التي يقصدها الإنسان العادي –وكم هو الأمر مع أي شيء آخر يتعامل معه الإنسان– لا تعدو أن تكون صورة يجوبها ذهنه عن مفهوم السمو والكمال –في هذا المجال من الحياة أو ذاك–، فهي –و لا ريب– أدنى من أن تحيط بالواقع الفعلي ، الذي تعنيه حكمة الله (تعالى) لهذا الكمال والسمو –وان أمكن ان تستقيم معها حين تنتظم لدى العقل دلائلها ، وتمضي مع حجة الله فيها– .

ومن أسباب هذا القصور ما نعلمه من أن تصور الإنسان –كأي سلوك آخر له– محكوم بحدود خبرة الإنسان ، ومدى الطاقات التي يملكها ، والعوامل الموضوعية التي يخضع لها في توجهاته واهتماماته .

﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا..﴾

هذا في حين ان تلك المثل والقيم العليا في مناهج دين الحق وأحكامه وحقائقه ، وفي ما يصدر عن شخصياته المصطفين من أقوال وأفعال ، يجب ان لا تقصر –بحال من الأحوال– عن المقتضيات الواقعية لحكمة الله –سبحانه– و تجلياتها في الإنسان وحياته –كما قلناه مراراً– .

ومن هنا استحال على الإنسان العادي أن يشرّع لنفسه مذهب الحق ، إذ هو –بحدوده المعروفة– لا يملك الاحاطة بتلك المقتضيات ، ما لم يسعفه هدى الله (تعالى) وبصائر بيناته .

ولهذا فإن أقصى درجة تتصور لسمو الإنسان العادي ، وارتفاعه في

سلّم الكمال ، إنما تتأتى له من خلال فهمه لدلائل الإسلام دين الله ، وانقياده لحجته واسترشاد بيناته في مسالك الحياة ، وهي الدرجات التي يطمح إليها الإنسان في فطرته ، ليستقيم في سبيل الحق ، وينتظم في مناهجه ، ويتبع أحكامه ، ليتم له كماله المنشود في الدنيا و الآخرة .

أما السمو في شخصية المصطفى ، فهو بعض دلائل الإسلام ذاته ، وحجته وبرهانه الذي أنزله الله هدى للناس ، أي أن هذا السمو –أولا وقبل أي اعتبار آخر– مجلى من مجالى حكمته في الإنسان ، ومظهراً من مظاهر لطفه به ، وإن برز من خلال مواقف المصطفى وكلماته وسلوكه.

فالأهداف التي يقصدها المنتجبون في ما يصدر عنهم من قول أو فعل ، والقيم التي تستقطب اهتماماتهم ، هي –في حقيقتها– مجال للحقائق التي جبل عليها الإنسان في فطرته ، فهي تكوينية الأهداف قبلَ أن تكون تشريعية المظهر أو مثلاً أعلى تسعى نحوها البشرية ، لتحقق لنفسها السعادة والهناء في حياتها .

بمعنى أن هذه القيم والأهداف لدى هؤلاء المنتجبين لا تخضع لحدود الاختيار أو الجهد الإنساني ، إلا بمقدار ما يتجسّد به ذلك الحق في حياة الإنسان ، تصورا من التصورات ، أو سلوكا ، أو موقفا يُبرز فيه المرتضى كلمة الله العليا ، وحجته البالغة على العباد .

أما المبادئ والأسس التي تعتمدها تلك المواقف والتصورات من سمة الحق ، فهي الواقع ذاته ، وهي مقتضيات حكمة الله في الوجود ، ومستلزماتها في حياة الإنسان .

ومن هنا أصبح كل ما يصدر من أولئك المصطفين –محمد والمطهّرين من آله عليهم السلام– بعض حقائق الإسلام ، وحقائق رسالته الخاتمة ، تماما كما كان الرسل والأصفياء السابقون عليهم السلام ، كل في موقعه ودوره ، وفي زمانه

ورسالته.

وهكذا يستبين لنا -ومن خلال هذه الفروق الأربعة- أن عنايات الله (تعالى) ورعايته لأولئك المصطفين عليهم السلام ، وفي مختلف آفاقها ومجالاتها ، لا تعدو الواقعية في الكمال الإنساني ، وشمول الحق في أصول التكوين الشخصي لأولئك النجباء ، والوقاية من المزالق ، وتسديد الخطى في كل أمر يمضون فيه مع مسؤولياتهم الشاملة ، وتحقيقهم لحجة الله -سبحانه-، وإقامتهم لكلمته في هذه الأرض ، دون أي قصور أو وهن مما يحكم الإنسان العادي في حدوده القاصرة المعروفة، كما أنه لا جبر في هذه الرعاية لهم ، ولا قسر ، ولا إكراه.

وهذا المعنى هو الذي يؤكده باحثو العقيدة الإسلامية حينما يعرضون لهذه الناحية من أولئك المصطفين عليهم السلام ، تبعاً لما نصت عليه المصادر الإسلامية الواردة في هذا المجال .

إذ يقول المرحوم السيد عبد الله شبر (قدس سره) في كتابه (حق اليقين في معرفة أصول الدين) -مثلاً- في عرضه لمفهوم العصمة :

(والعصمة عبارة عن قوة العقل من حيث لا يغلب مع كونه قادرا على المعاصي كلها ، كجائز الخطأ ، وليس معنى العصمة أن الله يجبره على ترك المعصية ، بل يفعل فيه ألطافا يترك معها المعصية باختياره مع قدرته عليها ، كقوة العقل ، وكمال الفطانة والذكاء ، ونهاية صفاء النفس ، وكمال الاعتناء بطاعة الله (تعالى)[١]) .

كما يقول المرحوم الشيخ النباطي البياضي في كتابه (الصراط المستقيم إلى مستحقي التقديم) :

---

(١) حق اليقين في معرفة أصول الدين ، للسيد عبد الله شبر - ج : ١ - ص٩٠ : مطبعة العرفان - صيدا سنة : ١٣٥٣.

(... وأما العصمة التي لا يقع منها عصيان ، فهي لطف يفعله الله لا يوجب الإجبار ، بل يجامع الاختيار ، والإنسان يعلم انه يترك ذنوباً بحسب اختياره ، فالمعصوم يترك الجميع كذلك ، إما للطف من نفسه ، بزيادة عقله وعلمه ، ومداومته على الفكر في أمور معاده ، وملازمته على الكلمات بخلاف غيره ، وإما من الله تفضلاً لا يوجب مشاركة غيره فيه ، لكونه زائدا على القدر الواجب عليه[1]) .

وبعد فان هذه الناحية هي التي تؤكد عليها النصوص الإسلامية الوادرة في بيان شؤون أولئك المصطفين عليهم السلام ،كما قرأناه في النصوص السابقة ، كحديثي الإمام الصادق والإمام الرضا عليهما السلام ، فلا نعيد .

(١) الصراط المستقيم إلى مستحقي التقديم ، لأبي محمد علي بن يونس العاملي النباطي البياضي –ج :١ – ص : ١١٦– ن : المكتبة المرتضوية – ط : الأولى – سنة : ١٣٨٤.



الباب الخامس

مبدأ العصمة الإلهية

الفصل الأول

حقيقــة العصــمة

أما النتيجة الفعلية البارزة للرعاية الربانية الخاصة في شخصيات أولئك المنتجبين ، فمن أولى معالمها الكبرى : استقامتهم المطلقة والعامة مع الحق ، ومع دلائله التي شرعها الله (تعالى) للناس في دينه العظيم ، ومع متطلباته الواقعية التي اقتضتها حكمة الله في خلقها للإنسان .

فلا انحراف عن الحق في أي من مواقف أولئك الأصفياء عليهم السلام، ولا اختلاف في شأن من شؤونهم ، ولا تفاوت في أمر من أمورهم ، وإنما هو الحق وإنما هو نهجه القويم ، وإنما هي دلائله وبيناته العظمى .

فقد علمنا -مما تقدم- ان هذه الاستقامة -وفي أدق وأشمل ما لها من معنى- هي الغاية الأولى من تلك الرعايات والألطاف الإلهية المباشرة ، والتعهد الرباني الشامل لتلك الذوات المطهرة ؛ إذ لا بد أن تمتد دلائل الحق في كل حقيقة من حقائق الدين أو المذهب الذي ينتسب إليه ، لضرورة استقامة الدين أو المذهب في نفسه ، ووحدته في كل منهج من مناهجه ، وفي كل بعد من أبعاده ، وكل حقيقة من حقائقه ... و-كذلك- في كل شخصية من شخصياته ، ولابد من انتظامها جميعا في سلك واحد ، هو المنهج الذي اقتضته حكمة الله (تعالى) في إيجاد الإنسان ، وبناء حياته بالشكل الذي أجرته عليه .

و قد رأينا ان كل واحدة من هذه الضرورات عامة شاملة في المنهج

الإلهي ولا مناص عنها ، ولا استثناء فيها ، رغم جميع ما يجري من مؤثرات وظروف تكتنف حياة الإنسان ، إذ الحق لا يتفاوت بحال من الأحوال ، وان تعددت تجلياته بتعدد الموضوعات التي يتراءى فيها ، والزوايا التي يلاحظ منها.

كما لا ريب في التحقق الفعلي لتلك الضرورات أيضا ، لأن الله -سبحانه- هو خالق الكون ، وهو بارئ الإنسان ، وهو مشرع دين الحق ، وهو القائم على أمره ، وطبيعي أن تنفذ إرادته في الوجود ، وأن يمضي حكمه في المكونات ، وأن يهيمن سلطانه في سننها كافة ، بما في ذلك دين الإسلام ، إذ لا قصور فيه ولا اختلاف .

وكما لم تتخلّف هذه الاستقامة في فكرة من فكر الإسلام ، ولا في منهج من مناهجه ، ولا في حكم من أحكامه ، لا يمكن ان تتخلّف في شخصية من شخصياته المنتجبة أيضا ، إذ هي -بعد تحقق الالتزام الرباني لها- تصبح واحدة من تلك الحقائق الثابتة لدينه ، بل وهي -بهذا الالتزام- تصبح رافداً مهمّا من روافد كلمته ، ومنبعاً رئيسياً من منابع حجته على العباد ، ومجلى تتبلور فيه حقائقه جميعها في الواقع الإنساني المعاش .

ومن هنا كانت ضرورة الرعاية الإلهية التي علمناها في البحث السابق .

إذن ، فاستقامة الحق في منتجبيه من المستلزمات الأساسية لاصطفاء الله -سبحانه- إياهم ، حيث لا معنى لهذا الاصطفاء بدون ضمانة منه (تعالى) لهذه الاستقامة .

كما أنه -من جهة ثانية- يستحيل تحقق الغايات الأولى لهذا الاصطفاء بدونها ، لان عدم الضمان الرباني لتحقيقها فيهم يعني إيكال

أمر الحق ودينه القويم إلى من لا يؤمن منه الانحراف والشطط ، وهذا مما يستحيل تصور وقوعه -كما سبق ان عرفنا- .

ولهذه الاستحالة نفسها ، كان من الضروري ان لا تختص هذه الاستقامة في بعض الجوانب تلك الشخصيات المرتضاة دون جوانب أخرى ، ولا في بعض المواقف منها دون بعض ، ولا في بعض حالاتها دون غيرها ، ولا في بعض مراحل حياتها دون سواها ؛ بل يجب ان تكون عامة فيهم ، شاملة لهم ، محيطة بكل جانب من جوانبهم ، ظاهرة في كل موقف لهم ، وفي كل حالة ، ولكل مرحلة يمرون عليها في الحياة ، فقد قلنا : إن حدية الحق مما يستحيل فيها التجزئة والنسبية إذ الحكم العقلي لا استثناء فيه .

ولا أعتقد أن هناك غموضاً أو ريباً يرد في أي هذه النقاط ، فهي واضحة كل الوضوح ، ولا سيما بعد المسيرة التي قطعناها من الحديث.

❖ ❖ ❖

فقد علمنا -**أولا**- أن جميع هذه الأمور التي طرحناها إنما هي من شؤون الاصطفاء الإلهي ذاته ، ومن مستلزمات الحكمة الإلهية فيه .

إذ لا بد أن تطرد حدود الاصطفاء وآفاقه مع ما للدين نفسه من سعة في الحياة الإنسانية ، وهذه السعة -بدورها- تتبع ما يقصده الحق في بناء هذه الحياة ، وما لحكمة الله -سبحانه- من مقتضيات في تكوين الخلق ، وإنشاء مختلف مظاهر الوجود -بما فيها الإنسان- .

وقد تكفلت قدرة الله -سبحانه- لغير الجانب الاختياري من الإنسان ، ما يحتاجه في استقامة وجوده وكماله من السنن والقوانين الحتمية ، فأجرتها فيه من حيث يشعر أو لا يشعر ، فمن الطبيعي أن تشرع للجانب الاختياري منه ما يستقيم به وجوده وكماله أيضاً ، إذ

تعالت الحكمة الإلهية أن تختلف أو تتخلف في شأن من شؤونها .

هكذا أنزل الله هذا الدين العظيم ، وشرع ما فيه من أحكام ومناهج ، وجعل ما فيه من حقائق وقيم ، لتكون هي السنن التي يبلغ بها الإنسان إلى تلك الغايات العليا ، ومن خلال طاقاته الاختيارية ، وآفاقه الإرادية .

إذن فكل جانب من جوانب الإنسان ، وكل طبيعة اختيارية فيه ، هي مورد لمناهج دين الله (تعالى) وأحكامه ، لأنه من مقتضيات حكمة الله ، ومظهر من مظاهر قدرته وتدبيره للإنسان .

وبهذا المضمون ورد العديد من النصوص كما عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنه قال :

(إن الله -تبارك وتعالى- أنزل في القرآن تبيان كل شيء ، حتى -والله- ما ترك شيئاً يحتاج إليه العباد ، حتى لا يستطيع عبد يقول : لو كان هذا أنزل في القرآن ؟ إلا وقد أنزله الله فيه) .

وعن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال :

(إن الله -تبارك وتعالى- لم يدع شيئاً يحتاج إليه الأمة إلا أنزله في كتابه، وبينه لرسوله صلى الله عليه وآله، وجعل لكل شيء حداً ، وجعل عليه دليلاً يدل عليه ، وجعل على من تعدى ذلك الحد حداً) .(أصول الكافي – ج :١- ص : ٥٩).

ولان ذلك الشخص المرتضى لإقامة هذا الدين في البشرية ، وتحقيق رسالته فيها ، هو المثل الشاخص لكيانه في الحياة ، فطبيعي أن لا يتصور منه قصور في وجوده وحياته ، وفي كل ما يصدر عنه ، عما لهذا الدين من أسس في حكمة الله ، وما له من غايات كبرى في هدى الإنسان ، وإصلاح شأنه ، دون انحراف أو وهن.

❁ ❁ ❁

كما علمنا -ثانيا- أن الإنسان كيان واحد ، ذو طبيعة حيوية متكاملة يستحيل فيه التفكيك أو التجزئة في بنائه الشخصي ، إذ أن كل بعد من أبعاده هذا البناء له دوره وآثاره في سائر الأبعاد الأخرى ، وله دلالاته في أي حالة يكون عليها الإنسان ، وفي أي موقف يصدر منه .

فهناك وشائج متينة (بارزة أو خفية) بين كل بعد وآخر ، وهناك علاقات وثيقة تربط بين مختلف أبعاد شخصية الإنسان وأصعدتها ، لينتظم بتلك الوشائج والعلاقات وجوده ، وتستقيم حياته .

وحينئذ فما لم تكن الاستقامة التي تُحكم بناء تلك الذوات المصطفاة عامة، شاملة لمختلف ركائزها وأعماقها ، لا يمكن لهذه الذوات -بأي حال من الأحوال- ان ترقى بنفسها إلى مستوى التوحد المطلق مع الحق ، أو تحقق جميع شرائطه ، بذلك المدى الذي قلناه .

هذا في حين أننا علمنا ان شرائط الحق في دينه حدية لا نسبية فيها ولا تبعيض .

ولهذا السبب اختلفت الموازين العامة التي يلحظ من خلالها أولئك المصطفون عن الموازين المتبعة في غيرهم من الناس ، سواء في فهم الخصائص الذاتية ، أم في مظاهر السلوك ، أم في النتائج التي ينعكس بها السلوك على الحياة الإنسانية بشكل عام .

ولهذا ، فيكتفى في أي فرد من الناس أن يتبع هدى الله (تعالى) ، وأن ينقاد لأمره ونهيه ، ويستمسك بعروته الوثقى ، في المستوى العام الذي يمكن للإنسان العادي أن يتصوره أو يعمله ، وهو يعطى من درجات النجاح والفوز عند الله -سبحانه-، بمقدار ما يحقق في حياته من تلك المفاهيم ..

أما ذوو الاصطفاء الإلهي فلا يقاس أي منهم بهذه الحدود ، وان كانت في أسمى مستوياتها .

بل المقاييس فيهم تبدأ من أعماق مكوناتهم الشخصية ، ومن كل مقوم من مقوماتها ، وكل اصل من أصول تكوينها ، قبل أن تمتد إلى كل حالة من حالاتهم ، وكل موقف من مواقفهم ، بل وتمتد إلى كل نتيجة تتأتى من هذه المواقف في عطائها وإشعاعها على الحياة البشرية ، ضمن الدور الذي أعده لكل منهم فيها .

وهكذا فلا خطأ ، ولا غفلة ، ولا نسيان ، بل ولا اختلاجة نفس ، تتفاوت فيها ذواتهم المطهرة عن استقامة الحق ، أو تنحرف عنه ، ولو في مجال الاحتمال ...

فكل ما يصدر عنهم إنما هو من الحق ، وكل ما يتأتى منهم إنما هو بعض بصائره ودلائله ، وكل ما يبرز منهم إنما هو أفق من آفاقه ، دون أي استثناء ، أو وهن يمكن أن يتصور في دلالة ، بل ودون أي احتمال لهذا الوهن ، ولو ضعيف .

❋ ❋ ❋

وعلمنا -**ثالثاً**- ما يؤثره التطور في نمو قوى الإنسان وطاقاته من قصور في قابلياته ولو في مبدأ تكوينها .

وعلمنا ما لهذا القصور من آثار على كمال شخصية الفرد ، ونتائج في مدى استوائها ، وقد تكون هذه النتائج سلبية عليها ، وقد تبقى هذه السلبية مع الشخصية حتى في ما بعد مراحل نضجها الكامل .

ولهذا فما لم يكن الضمان الإلهي لاستقامة الحق في شخصية المصطفى شاملا لحياته كلها ، محيطاً بمراحل عمره كافة ، لا يمكن أن يؤمن تأثره ببعض الموهنات ، أو عوامل الانحراف ، ولو في بعض أدوار

حياته ، وهي موهنات قد لا تختص آثارها في حدود معينة من شخصيته، ولا في مرحلة دون أخرى من حياته ، بل هي قد تمتد إلى جميع آفاقها ومراحلها ، ولو في درجات الاحتمال الضعيف ، إلا ان مثل هذه الدرجات -وان استسيغت من الناس العاديين ، ولم تؤثر عليهم في درجات فوزهم عند الله (تعالى)-، إلا أنها غير مستساغة أبدا في موارد الاصطفاء الإلهي ،-كما قلنا أكثر من مرة- إذ الحق لا يتعدد ، ولا يختلف ، ولا يتفاوت بحال من الأحوال .

وهنا لابد لنا من تذكّر ما أشرنا إليه سابقا -أيضا- من أن هذه الاستقامة وإن بلغت هذا بلغت المدى الشامل والحدي الدقيق لدى أولئك الصفوة ، فهي لم تتأتّ لهم من خارج إنسانيتهم ، أو من خارج مكوناتها الذاتية ، أو دون حدودها الاختيارية ، بل هي تجري -وكما لاحظنا ذلك- ضمن هذه السمة الطبيعية ، التي جبلت عليها فِطَرهم الإنسانية ، وحدودها التي أنشأتها عليها حكمة الخلق والتكوين .

كما لا غرابة في هذه الاستقامة ، ولا في أي أفق من آفاقها ، أو شرط من شرائطها ، بعد أن اخذ لطف الله -سبحانه- على نفسه ضمانها في أولئك المنتجبين عليهم السلام .

بل ولا غرابة أن نعلم أنها ضرورة وجودية لا بد منها ، بعد أن كانت هي المظهر الأسمى الذي تتجلى به حكمة الله (تعالى) في الوجود الإنساني -خاصة- ، والوجود التكويني بشكل عام .

وهذه الاستقامة المطلقة ، التي تتجلى في أولئك المنتجبين عليهم السلام ، هي التي سميت في الاصطلاح الإسلامي بـ **(العصمة)** .

فالعصمة -كما يقول الشيخ (زين الدين) في كتابه القيّم: (الإسلام: ينابيعه ، مناهجه ، غاياته) :

(رصيد نفساني كبير ، يتكوّن من تعادل جميع القوى النفسية ، وبلوغ كل واحدة منها أقصى درجة يمكن أن يبلغها الإنسان ، ثم سيطرة القوى العقلية على جميع القوى والغرائز والركائز سيطرة كاملة ، حتى لا تشذ عنها في أمر ، ولا تستقل عنها في عمل .

(هذه الحصانة الذاتية ، التي يرتفع بها الإنسان الأعلى عن الاتضاع في طبيعته ، ويمتنع بها عن الانزلاق في إرادته ، ثم عن الانحرافات والالتواءات التي تترسب في منطقة اللاشعور ، وتتحول -كما يقول العلماء النفسيون- عُقَداً نفسية ، تتحكم في دوافع المرء وفي سلوكه ، وفي اتجاهاته وملكاته ، وتسوقه من حيث لا يريد إلى النشوز عن الحق ، والشرود عن العدل .

(هذه الحصانة الذاتية ، التي توقظ مشاعر الإنسان الكامل ، فلا يغفل ، وتعتلي بملكاته وأشواقه فلا ينزلق ولا يكبو ، والتي تكفل له صحته النفسية من كل وجه .

(هذه العصمة التي يشترطها مذهب أهل البيت في الرئيس الأعلى لحكومة الإسلام . وفي ظني أنه شرط بمنتهى الجلاء ، كما أنه بمنتهى الحكمة .

(.. بمنتهى الجلاء بعد أن كشفت مدارس التحليل النفسي حقيقة الرواسب، وأبانت مدى تأثيرها في سلوك الإنسان ، ووجهته في الحياة .

(.. وبمنتهى الجلاء بعد أن وضعت التربية النفسية الحديثة طرقها لحل هذه العقد ، وللابتعاد بالنشء عن هذه الأزمات .

(.. في ظني أنه شرط بمنتهى الجلاء والوضوح بعد أن سار العلم هذا الشوط ، وفرغ من تقرير هذه النتائج .

(من جراء هذا الضعف المتوطن في طبيعة الإنسان ، حين تتعرض

له المغريات والمرديات .

(ومن جراء العقد اللاشعورية الخالفة في نفس الإنسان من صدماته في الحياة ، وانزلاقاته في الإرادة ، وتردّيه بسبب الجهل ، أو بسبب الهوى .

(ومن أجل طبيعة النظام الذي أنشئت لصيانته الحكومة في الإسلام، ومن اجل غاية هذا الدين الكبرى التي تتصل بها كل جذوره، وتستقي منها كل فروعه .

(ومن أجل الأدلة الكثيرة ... الكثيرة ، التي تجاوزت حدود المئات، ودلت على وجوب العصمة في الإمام ، بعد ان دلت على وجوب العصمة في الرسول .

(.. من جراء هذه الأمور كلها ، قالت الشيعة من أتباع أهل البيت عليهم السلام بوجوب العصمة في الإمام ، بعد أن قالت بوجوب العصمة في الرسول صلى الله عليه وآله[1]) .

---

(١) الإسلام : ينابيعه ، مناهجه ، غاياته – للشيخ محمد أمين زين الدين – ص : ٣٣٢-٣٣٤ ط : ٢ – مطبعة الآداب – النجف – سنة : ١٩٧٨.

الفصل الثاني

العصمة والمنطلقات القاصرة

من أسباب القصور في فهم العصمة

العصمة مبدأ ضروري لا بد منه في موارد الاصطفاء الإلهي ..

هذا ما استوضحناه في الحديث المتقدم ، ولا ريب في شيء من أمره حين تقاس القضايا بهذه المقاييس الإسلامية المتماسكة ، وحين ينظر إليها من خلال متطلبات الحق ، وتسلسل شرائطه في تلك الذوات المطهرة ، وحين يستلهم من نصوص الإسلام الثابتة ، والمسلمة لدى جميع المسلمين .

أما الإشكالات التي وجهت إلى هذا المبدأ ، والشُبَه التي وضعت في سبيله، فهي –مع غض النظر عن منزلة من صدرت منهم– إنما تنطلق من أسس قاصرة الفهم ، لم تسمُ في نظرتها إلى ما تعنيه آفاق الحق ، ولم تتسع لموازينه ، ولم تستقم مع متطلباته ، ولم تعط لدوره الكبير أهميته العظمى في الوجود ، ولم تقدر لقيامه في الأرض منزلته الكبرى عند الله –جل شأنه– .

أجل ، هذا هو الواقع المشهود في تلك الشبه ، وأي ملاحظة –ولو سريعة– يمكنها ان تؤكده للباحث الحر دون أي عناء .

فهي –**أولا**– قد لا ترى ان لدين الله العظيم ذلك الارتباط المطلق بالحق، وذلك الامتداد الطبيعي له مع حكمة الله (تعالى) ، ومع متطلباتها في خلق الإنسان والكون ، ولا ترى ان ذلك الارتباط ، وهذا

الامتداد ، هما الأساس الثابت الذي نهض عليه كيان الإسلام ، وأقيمت عليه حقائقه ، وانتظمت به شؤونه ، وشرعت عليه أحكامه ، لكي يتجلى هذا الحق -من ثم- ركناً ثابتاً في شخصياته المنتجبة ، التي اصطفاها مشرّعه الحكيم -تعالى شأنه- .

أو أنها -**ثانياً**- قد لا ترى ان لقيام الحق ، أو أن لتحقيق شرائطه في دين الله (تعالى) تلك الأهمية الكبرى ، التي تستحق من لطف الله ورحمته التفاتة خاصة ، تضمن تجليها للبصائر الإنسانية ، ولو في بعض الأصفياء ، وإن اتضح التزامه لهم شهداء على خلقه ، وأقام على هذا الالتزام كل ما هو جلي من الدلائل والآيات الواضحة ، والشواهد المعجزة -كما هو الأمر في الرسل والأنبياء عليهم السلام .

أو أنها -**ثالثا**- قد لا ترى ان الأهداف العليا التي يقرّرها الإسلام ، ويترسّمها في مناهجه ، ويدعو إليها في بصائره ، يمكن ان تتحقق في الواقع الفعلي للإنسان ، وأن تتبلور ولو من خلال أصفياء الله (تعالى) ومنتجبيه عليهم السلام، وإن تعهدتهم رعاية إلهية خاصة ، وضمنت استقامة الحق فيهم ، مما يعني أن تلك القيم والمثل والأهداف الإسلامية كلها ، لا تعدو -لدى هؤلاء- عالم الاعتبار والتصور المثالي ، البعيد عن الواقع ، والتحقق الفعلي .

أو أنها -**رابعا**- تستبعد على قدرة الله (تعالى) أن تستطيع توفية الأرضية المناسبة في ذوات بعض الناس ، لتحقيق هذه الدرجة العليا من الكمال الإنساني بالفعل ، إلا من خلال الجبر والإكراه اللذين لا فضل معهما لمن نال شيئاً منه في حياته .

أو أنها -**خامسا**- تخلط -عن عمد أو لا عن عمد- بين تجليات الكمال الإلهي المطلق في ذات الله -سبحانه- وصور الكمال الإنساني

المحدود، فاعتبرت العصمة والاستقامة مع الحق بعض تجليات ذلك الكمال الإلهي المطلق الذي يستحيل تحققه في عالم الإنسان .

إلى غير هذه من النواحي التي يمكن أن ترى بوضوح في كلمات أولئك الناقدين لمبدأ العصمة ، والمستبعدين لتحققه في أولياء الله المصطفين . وهي -وكما نراها بكل وضوح- نواح ناشئة من رواسب تعصبية بعيدة عن الحق ، قاصرة عن دلائله ، شاذة عن مقتضياته .

❁ ❁ ❁

تصور العصمة في المنطلقات القاصرة

هذا ، ومع أنني —حتى الآن-لم أحاول ، بل ولم أرغب الدخول في أجواء علم الكلام ، أو انتهاج طرائقه في الاستدلال أو النقض ، بالرغم من ان موضوعنا -الذي نحن فيه- يعتبر بعض مسائله المهمة ، لأن لتلك الأجواء والطرائق مستلزماتها التي لا تتناسب ومنهجتنا في هذا الحديث .

إلا أنني —وقد وصل الحديث بنا إلى هذه النقطة الحساسة— أجد نفسي مضطراً لاستعراض ولو نموذج واحد من آراء المتكلمين ، الذين تناولوا موضوع العصمة ، ولكن من خلال تلك المنطلقات القاصرة التي أشرت إليها، لكي نرى مدى التفاوت الكبير بين تلك الأوليات الإسلامية الواضحة ، وآثار تلك الرواسب التي قصرت بالبصائر عن ان تمضي مع النور إلى آخر المدى ، وانحرفت في مسراها وان وجدت أمامها كل معالم الحق ، واضحة كل الوضوح .

ويكفينا في هذا المجال ما ذكره الفضل بن روزبهان في رده على العلامة الحلي لما قرر في كتابه (نهج الحق) مبدأ العصمة ، واستدل عليه، قال الفضل:

(ان أهل الملل والشرائع -بأجمعهم- أجمعوا على وجوب عصمة الأنبياء، عن تعمد الكذب فيما دل المعجز القاطع على صدقهم فيه، كدعوى الرسالة فيما يبلغونه عن الله (تعالى) إلى الخلائق، إذ لو جاز عليهم التقوّل والافتراء في ذلك -عقلا- لأدى إلى إبطال دلالة المعجزة، وهو محال.

وفي جواز صدور الكذب عنهم -فيما ذكر- على سبيل السهو والنسيان خلاف.

فمنعه الأستاذ أبو إسحاق، وكثير من الأئمة الأعلام، لدلالة المعجزة على صدقهم في الأحكام، فلو جاز الخلف في ذلك لكان نقضاً في دلالة المعجزة وهو ممتنع.

وأما سائر الذنوب، فهي إما كفر أو غيره.

أما الكفر فأجمعت الأمة على عصمتهم، من قبل النبوة وبعدها، ولا خلاف في ذلك لأحد منهم.

وأما الصغائر والكبائر، كل منها إما أن يصدر عمداً أو أن يصدر سهواً.

أما الكبائر فمنعه الجمهور من المحققين، والأكثر على أنه ممتنع سمعاً، قال القاضي والمحققون من الأشاعرة إن العصمة فيما وراء التبليغ غير واجبة عقلا، إذ لا دلالة للمعجزة عليه، فامتناع الكبائر عنهم عمدا مستفاد من السمع وإجماع الأمة قبل ظهور المخالفين في ذلك.

وأما صدورها سهوا، أو على سبيل الخطأ في التأويل، فالمختار عدم جوازه.

وأما الصغائر عمداً فجوّزه الجمهور، وأما سهوا فهو جائز اتفاقا،

بين أصحابنا وأكثر المعتزلة ، إلا الصغائر الخسيسة ، كسرقة حبّة ، أو لقمة ، مما ينسب صاحبها إلى الدناءة والخسة والرذالة [(١)]) .

❁ ❁ ❁

من أدلة هذا التصور

ويمضي الفضل -بعد استعراضه لهذه الأقوال- في الاستدلال على رأيه ، فيقول في بيان أدلته :

الأول : لو صدر عنهم ذنب لحرم اتباعهم فيما صدر عنهم ، ضرورة أنه يحرم ارتكاب الذنب ، واتباعهم واجب للإجماع ، ولقوله (تعالى) :

﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ ..[(٢)]﴾ .

وهذا الدليل يوجب وجوب عصمتهم عن الصغائر والكبائر ، لكن في الصغائر تجويز عقلي ، لدليل آخر -كما سيأتي- .

الثاني : لو أذنبوا لردّت شهادتهم ، إذ لا شهادة للفاسق بالإجماع ، واللازم باطل بالإجماع ، لأن من لا تقبل شهادته في القليل الزائل من متاع الدنيا ، كيف تسمع شهادته في الدين القيّم إلى يوم القيامة ؟ .

وهذا الدليل يدل على وجوب عصمتهم عن الكبائر ، والإصرار على الصغائر ، لأنها توجب الرد ، لا نفس صدور الصغيرة .

الثالث : إن صدر منهم ذنب وجب زجرهم وتعنيفهم ، لعموم وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإيذاؤهم حرام إجماعا .

وأيضا لو أذنبوا لدخلوا تحت قوله (تعالى) : ﴿ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ

---

(١) دلائل الصدق – الشيخ محمد حسن المظفر – ج : ١ – ص : ٣٦٩ – ط : تابان – طهران .

(٢) ال عمران : ٣١.

وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ .[١]﴾ .

وتحت قوله (تعالى) : ﴿الاَ لَعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ .[٢]﴾ .

وتحت قوله (تعالى) -لوماً ومذمة-: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ.[٣]﴾.

وقوله (تعالى) : ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ..[٤]﴾ .

فيلزم كونهم موعدين بعذاب جهنم ، وملعونين ومذمومين ، وكل ذلك باطل إجماعا ، وهذا الدليل -أيضا- على عصمتهم من كل الذنوب[٥]) .

ثم يقول الفضل -بعد شطر من كلامه- :

(ثم اعلم ان تحقيق هذا المبحث يرجع إلى تحقيق معنى العصمة ، وهو -عند الأشاعرة ، على ما يقتضيه أصلهم من استناد الأشياء كلها إلى الفاعل المختار ابتداء- أن لا يخلق الله فيهم ذنبا ، فعلى هذا يكون الأنبياء معصومون (كذا) من الكفر والكبائر والصغائر الدالة على الخسة والرذالة ، وأما غيرها من الصغائر ، فإنهم يقولون : لا يجب عصمتهم عنها ، لأنها معفو عنها بنص الكتاب من تارك الكبيرة :

﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى .[٦]﴾ .

دلت الآية على ان مجتنب الكبيرة والفاحشة معفوّ عنه ما صدر من

(١) الجن : ٢٣ .
(٢) هود : ١٨.
(٣) الصف : ٢.
(٤) البقرة : ٤٤.
(٥) دلائل الصدق – ج : ١ – ص : ٣٧٠ .
(٦) النجم : ٣٢ .

الصغائر عنه ، وفي الآية إشارة إلى ان الإنسان لما خلق من الأرض ونشأ منها ، فلا يخلو عن الكدورات الترابية ، التي تقتضي الذنب والغفلة ، فكانت بعض الذنوب تصدر منهم بحسب مقتضى الطبع ، ولما لم يكن خلاف ملكة العصمة فلا مؤاخذة به .

وأما العصمة عند الحكماء ، فهي ملكة تمنع من الفجور ، وتحصل هذه ابتداء بالعلم بمثالب المعاصي ، ومناقب الطاعات ، وتتأكد في الأنبياء بتتابع الوحي إليهم بالأوامر الداعية إلى ما ينبغي ، والنواهي الزاجرة عما لا ينبغي .

ولا اعتراض على ما يصدر عنهم من الصغائر سهواً ، أو عمدا - عند من يجوز تعمدها- ومن ترك الأولى والأفضل ، فإنها لا تمنع العصمة التي هي الملكة، فان الصفات النفسانية تكون في ابتداء حصولها أحوالا ، ثم تصير ملكات بالتدريج .

ثم ان الأنبياء مكلفون بترك الذنوب ، مثابون عليه ، ولو كان الذنب ممتنعا عنهم لما كان الأمر كذلك ، إذ لا تكليف بترك الممتنع ، ولا ثواب عليه.

وأيضا فقوله : ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ..[1]﴾ يدل على مماثلتهم لسائر الناس فيما يرجع إلى البشرية ، والامتياز بالوحي لا غير .. فلا يمتنع صدور الذنب عنهم -كما في سائر البشر- ..[2]) .

ونقف عند هذا المقدار من أطروحات هذا الاتجاه في فهم العصمة ، فما اقتبسناه حاو لمعظم الأوليات والأدلة التي يستمسك بها ، والمصادر الأخرى لا تحوي أكثر من هذا .

---

(١) الكهف : ١١٠ .

(٢) دلائل الصدق – ج : ١ – ص : ٣٧١ .

❁ ❁ ❁

نعم ، من هذا المنطلق الضحل المتهافت يتناول المتناولون هذا الركن الأساس من دين الله (تعالى) ، وعلى هذه القاعدة المتداعية يحاولون ان يقيموا هذه الركيزة الإسلامية الكبرى ، التي يعتمدها كيان الإسلام نفسه ، في وجوده وقيام صرحه ، وبلوغ حجته إلى الناس ، واستكمال كل بينة من بيناته.

النبي شخص عادي من سائر الناس، لا يحمل في نفسه أي مؤهلات ذاتية ، ولا يستحق من الله أي عناية خاصة ، لأنه لا يفترق عن غيره من الناس إلا بأنه موحى إليه من الله (تعالى) لا غير .

ولأنه بشر خلق من طين هذه الأرض ، وأنشئ من ترابها ، فطبيعي أن لا يخلو من الكدورات الترابية التي تقتضي -بطبيعتها- الذنب والغفلة ، كما تقتضي التغذية والتنفس والارتواء من الماء ، بمعنى ان الذنب والغفلة عنصران طبيعيان في كيلن الإنسان ، يستحيل عليه مجانبتهما ، كما لا يستطيع اجتناب الغذاء والماء والهواء ، وسائر العناصر الطبيعية الضرورية لوجوده .

ولهذه الحتمية استحال حتى على الله -سبحانه- بارئ النبي ، ومنشئ تكوينه ، ومدبّر أمره أن يهيّئ فيه من أسباب الطهر من تلك الذنوب ما يستطيع أن يبرأ به عن كل دنس منها ، إلا إذا قسره وأجبره على مثل هذا الارتفاع ، لتكون العصمة -بالتالي- مانعة له من التكليف ، ومن الثواب عندما يترك المعصوم تلك المعاصي ، إذ لا تكليف ولا ثواب مع الجبر .

ولكن -يا ترى-، كيف أمكن لهذا الاتجاه أن يتصور العصمة من الكفر والكبائر المتعمدة ، والكذب في دعوى الرسالة ، فهي كسائر

الذنوب أيضا ، ولا شك أنها كذلك بعض الكدورات الترابية الداخلة في تكوين النبي ، أي أنها تصدر منه بحسب مقتضى طبعه أيضا ؟ .

وهل أن الأنبياء مجبورون على تركها بتلك العصمة ، فلا تكليف عليهم بتركها ، ولا ثواب لهم على هذا الترك ، إذ لا تكليف بترك الممتنع ، ولا ثواب عليه ؟ .

وهل .. ؟ وهل ...؟ .

ولا أحاول الاستطراد في طرح التساؤلات التي لا تتناهى حول النقاط ، التي عرضها الفضل بن روزبهان في كلماته السابقة ، فما في هذه النقاط من وهن وتهافت أوضح من أن يخفى على ذي فطنة ، أو يغيب على لبيب .

ولكن السؤال الأكثر أهمية في المسالة هو : هل أن تناول العصمة .. هذا الأصل الإسلامي الكبير من هذه المنطلقات القاصرة ، وعلى هذه الأسس المتهاوية ، هو السبيل المناسب للتعرف على دلائل حجة الله (تعالى) ، وبيناته وبصائره ؟ .

وهل هذا هو الصراط الإسلامي المستقيم للإنسان ، وهو يتطلع إلى إدراك الحق في أصفيائه ، واستقامة شرائطه في منتجبيه ؟ .

وأين هذا المنهج المتداعي عن الدلائل الإسلامية الرشيدة ، وهي تتناول هذا الصرح الإسلامي العتيد من خلال منطلقاتها الثابتة ، ومناهجها المستقيمة.

.. لتكن المعجزة -كما هو الحق- كافية لتصديق الرسول -أي رسول- في دعواه السفارة عن الله ﷻ ، وأنه مرسل بأمره إلى العباد ، ولكن -يا ترى- هل ان دعوى الرسالة تقف عند هذا الحد ؟ ..

أليس في هذه الرسالة أحكام وحدود وتصورات وحقائق ، لا بد

للرسول من بيانها للناس ، في أقواله وأفعاله ، وفي ما يصدر عنه من مواقف ؟.

وها هو القران الكريم يؤكد هذه المهمة في الرسل عامة ن وفي شخص الرسول الكريم محمد ﷺ خاصة ، إذ يقول (تعالى) :

﴿فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ ..﴾ .

﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ.﴾ .

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً . وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً .[1]﴾ .

إذن فكيف يمكن للبشرية أن تستلهم أحكام تلك الرسالة ، وحقائقها وحدودها من شخصية لا تؤمن مخالفتها لتلك الحقائق والأحكام ، وبأي مستوى من المستويات كانت تلك المخالفة ، وفي أي مجال من مجالات الحياة.

.. والى أي مدى للأمة ان تقتدي بهذه الشخصية ، وتسترشد هداها في مسالك الحياة ، بعد ورود أمر الله لها باتباع النبي ، وإطاعة أمره ؟ .

.. وأين يكمن الحق في سلوك شخص يخالف فعله قوله ، أو يتفاوت في اقواله وافعاله ؟ .

وكيف يمكن الإيمان بأن دين الله (تعالى) واقعي ، أنزله ليأخذ بواقع الإنسان إلى حيث يريده الله له ، والإيمان بأنه فِطْرَةَ ﴿اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ

---

(١) الأحزاب : ٤٥-٤٦ .

النَّاسَ عَلَيْهَا ..[(١)]﴾ مع دعوى استحالة ان يستقيم أحد من الناس في سبيله ، حتى ولو كان هذا الإنسان من أولئك الأصفياء ، الذين اختارهم الله لتبليغ حجته ، والقيام على أمره ؟ .

بل ، وما معنى ان يلتزم دين الله عنصر الحق قيمة عليا له ، ويدعو الناس إلى محاكمته والإيمان به على أساس هذه السمة ، وهو يصطفي أشخاصا لا يؤمن منهم الانحراف ؟ ، ولا توثق منهم الاستقامة معه ؟ .

وهكذا إلى عشرات الأسئلة التي ترد في هذا المضمار ، حين يقف الوعي أمام هذا المنطلق المتهافت في فهم مبدأ العصمة ، دون ان يجد لها إجابات واضحة متكاملة ، وطبيعي أن تتهاوى –مع هذا العجز– جميع ركائز الإسلام وبيناته وحقائقه ؛ وهي نتيجة لا اعتقد ان أحدا من المسلمين يرتضيها لنفسه .

ولهذا فلا نحاول الدخول في مناقشات تفصيلية مع الفقرات السابقة من حديث الفضل ، ولا رؤية ما فيها من تضارب ، وتكذيب بعض فقراته للبعض الآخر ، كما في تأكيد الفضل –نفسه– بأن الدليل الأول والثالث يستوجبان القول بعصمة الأنبياء من الذنوب كافة .

إذ أنهما ذكرا أن الله –سبحانه– أمر باتباع الرسل والأنبياء في كل ما يقولون وما يفعلون ، وأنهم مع الذنب لا بد من زجرهم وتعنيفهم ، واستحقوا من الله ما يستحقه المذنب من أليم العذاب .. الخ ، وكل من القاعدتين عقلية قبل أن تكون شرعية –كما نراها–، فكيف صح منه استثناء الصغائر واعتبرها غير منافية للعصمة ، في حين أن أي استثناء هنا مما يهدم الشريعة من أساس .

---

(١) الروم: ٣٠.

على أن الدليل الذي ذكره لتسويغ الصغيرة ، إنما سوغها لا باعتبار أنها ليست ذنبا من الذنوب ، وإنما لسعة مغفرة الله (تعالى) ، وجميل رضوانه ، وعفوه -سبحانه- عمن أذنب بمثل ذلك اللمم من الذنوب .

وما المانع أن يكون الله -سبحانه- هو الضامن لاطراد كلتا القاعدتين السابقتين في أوليائه المنتجبين ، حيث يعلم ما يسببه هذا الاستثناء من نتائج سلبية في كيان الإسلام ذاته .

ثم ، ما معنى اعتماد الإجماع في الحديث حول اصل اعتقادي مهم ، يعتمده وجود الإسلام نفسه -كالعصمة-، بينما الإجماع -على تقدير اعتباره وان كان بهذا الشكل الواهي- يعتبر من أدلة استنباط الأحكام الشرعية التي يكون الحديث فيها متأخرا لعدة مراتب ، بعد استكمال الحديث في ثبوت العقائد ؟ .. وهكذا .

الفصل الثالث

الشرائط الموجبة للعصمة

أجل ؛ ان العصمة إنما طرحت كواحد من الركائز المهمة، والأسس الضرورية في بلورة أصلي النبوة والإمامة -معاً- من أصول الاعتقاد .

وحتى أولئك الذين استثنوا منها السهو والغلط وصغائر الذنوب ، إضافة إلى غيرهم من المسلمين ، إنما اشترطوها من أجل تلك الأدلة العقلية التي أوجبتها ، وأوجبت -في حكمة الله (سبحانه) ورحمته بالناس- ضمانها ورعايتها في أولئك المصطفين ، لتحقيق الأرضية المناسبة لقيام هداه في الحياة ، إذ لا يمكن بلوغ تلك الغايات الكبرى للاصطفاء الإلهي بدونها ..

كما ان أي خروج من المصطفين عن متطلباتها ، إنما يعني التفاوت في ذات دين الله -سبحانه-، أو عجز في قدرته عن إحكام آياته ؛ وهذا محال -كما هو واضح- .

وهذه -كما نراها- نقطة مبدئية أولى ، تتعلق بذات الاصطفاء الإلهي ، ودلالاته وغاياته ، فهي تسبق مرحلة تسلّم أولئك الأصفياء لمهماتهم في هذه الحياة ، كما تسبق مسؤولية الناس في الارتباط بهم ، وامتثال أمر الله (تعالى) بالاقتداء بهم ، واتباع أمرهم ، واعتماد سبيلهم مسلكا للوصول إلى رضوانه ، في صغائر الأمور وكبائرها -على حد سواء- .

ومن هذا المنطلق بالذات يجب فهم العصمة ، وفهم انعكاساتها في دين الله وفي البشرية معا ، وهو -كما نراه- منطلق واضح الأسس ،

جلي الدلائل ، وهو يثبت هذه العصمة ، وضرورة استيعابها لشخصيات أولئك المنتجبين كافة ، ولجميع مكوناتهم ومواقفهم وحالاتهم ، دون أي استثناء أو تخلّف .

فالاستثناء والتخلف هنا -وكما أشرت- مستحيلان ، لأن عموم الأسس -التي يعتمدها مبدأ العصمة في الحق ، وفي دين الله ، وفي غايات الاصطفاء- عموم حدي ، يمتنع تفاوته في موضوعه بأي حال من الأحوال ، إلا حيث يصح الالتزام بنسبية الحق ، أو عدم اكتمال الهدى في دين الله (تعالى) ، أو إمكان العجز في قدرة الله ﷻ ، وكل هذا مما لا يستساغ الالتزام به من عاقل يعي ما يقول .

ولا يعنينا هنا الحديث حول أدلة العفو الإلهي ، وغفران الله لبعض الذنوب التي تصدر من الإنسان ، إذ الكلام هنا ليس في المؤاخذة على الذنب ، ولا في آثار بعض الذنوب على الإنسان .

بل الكلام هنا إنما هو في استيفاء المرتضى لجميع شرائط الحق في نفسه ، حيث انتجبه (تعالى) له ، واصطفاه من اجل إقامة حجته في كل ما يقول ، وكل ما يفعل ، وهذا الموقع مما لا تختلف فيه الذنوب شدة وضعفا ، أو صغرا وكبرا ، بعد ان كانت جميعها تعني الانحراف عن استقامة الحق ، والخروج على وحدة منهجه ، وهي استقامة حدية لا عوج فيها -كما علمنا-، ووحدة ثابتة لا نسبية فيها ، ولا تهاون في أمرها .

ولا يمكن أن يبرّر هذا الانحراف والخروج بأن يخصصا بصغائر الذنوب وحدها ، أو بما يصدر من المنتجب عن سهو أو غفلة ، بعد ان كان ما يأتيه هذا الإنسان منها ذنباً ، وانحرافا عن تلك الاستقامة التي يجب أن تتجلى فيه تتجلى بشكل حدي مطلق ، تتوحد فيه كلمة الحق ،

ويستقيم به سبيل حجته.

إذن ، فلا محيص عن القول بعصمة شواهد الحق ، الذين اصطفاهم الله (تعالى) هداة لدينه القويم ، ولا محيص عن القول بعموم هذه العصمة في أي مجلى تكويني لوجودهم وشخصياتهم ، وفي أي عمق تعتمده ذواتهم ، وفي أي كلمة أو سلوك يصدر منهم ، وفي أي مرحلة من مراحل أعمارهم ، وفي أي حالة يكونون عليها .

فلا صغائر تصدر منهم ، ولا غفلة ولا نسيان في أي أمر يأتونه ، أو موقف يتخذونه في حياتهم .

ومدد الله -عز وجل- ورعايته المباشرة لهم ، هما الضمان الفعلي لتحقيق هذه الدرجة المطلوبة من العصمة .

واصطفاء الله (تعالى) لهم ، وارتضاؤه إياهم هداة لبريته ، هما الشاهد المصدق لهذا الضمان .

ودين الله العظيم الذي استوجب -من أجل تصديق أنبيائه وأصفيائه- خرق الكثير من نواميس الطبيعة وقوانينها ، ليقيم بهذا الإعجاز حجته على الناس ، وعلى امتداد تاريخه في البشرية .. هذا الدين جدير بان يستوجب -ولهذه الغاية أيضا- اكتمال هذه النواميس ، ولو في أولئك الأنبياء والأصفياء ، لينالوا -في ذواتهم ومجريات حياتهم- كمالهم الأعلى ، لأن هذا الكمال هو الغاية الأولى التي يستهدفها هذا الدين العظيم نفسه في واقع الإنسان .

وإذن فليكن رسل الله (تعالى) وأنبياؤه وأصفياؤه عليهم السلام هم مجالي هذا الكمال ، ومظاهره الواقعية ، لأنهم القائمون بأمر هذا الدين ، وهم مُثله الشاخصة أمام البشرية ، وهم موارد اقتدائها في سبيله القويم .

❁ ❁ ❁

النصوص المخالفة للعصمة

ولا بد من الالتفات إلى ضرورة تحكيم هذه القاعدة اليقينية في كل ما يرد من الآيات الكريمة ، والروايات التي ترد في هذا المضمار ، فعلى أساس ثابت منها يجب أن يفهم كل منها ويوجه في معانيه ودلالاته .

أما الروايات التي تخالف هذه القاعدة اليقينية ، ولا يمكن توجيهه بما يستقيم معها فلا بد من التوقف عندها ، وردها -مع احتمال صحتها- إلى من رويت عنه فهو أعرف بما قال ، وإلا فلا بد من طرحها لأنها لا تعني -في موازين الحق- سوى كونها شبهة في مقابل البديهة .

وما أكثر ما أدخل على نصوص الإسلام ما ليس منها .. إذ لا شك ان للباطل جهوده المستميتة لطمس معالم الحق في سبله ، ولاسيما في هذه المراحل المبدئية من العقيدة ، لما لها من دور كبير في إقامة أسس الهدى ، وتشريع مناهجه .

ولهذا؛ فحيث يستطيع الباطل أي يضع لنفسه قدماً في هذه المراحل، فانه سيكسب من النتائج -ولا ريب- ما لا يناله في مراحل أخرى ، إذ هو سيستطيع ان ينحرف بالبصائر عن استقامة الحق ، ويتفاوت بها عن وحدته ، وهدي بيناته ، بشكل أسهل وأجدى له من المراحل الأخرى اللاحقة .

ولا ننسى بهذا الصدد ما للسياسة من دور مشبوه في هذا المجال ، وبالأخص ما كان منها في العصور الأولى بعد الرسول ﷺ ، وقد قرأنا عن الدور الأموي بعض شواهده .

والرسول ﷺ ، والحجج الطاهرون من عترته عليهم السلام ، هم أول من وفى للعقل حقه في أحكامه اليقينية في هذا المجال ، وبنى أصول العقيدة على أساس دلالته الثابتة ، التي لا تفاوت فيها ولا اختلاف .

كما أنهم أول من حذّر الأمة المسلمة عن الوقوع في هذه المزالق ، وهم الذين وضعوا لها المناهج الكفيلة لتتبع معالم الهدى في دلائله ، ورسموا السبل المناسبة لتمحيص ما يردها من نصوص تحسب على الإسلام وعلى مصادره ، وأوضحوا لها كيفية التعرف على مكامن الحق والباطل منها ، واتباع ما استقام منها مع الحق ، ومع هدى الله (تعالى) ورشده .

فعن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال : (لما خلق الله العقل استنطقه ، ثم قال له : أقبل فأقبل ، ثم قال له : أدبر فأدبر ، ثم قال : وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً هو أحب إلي منك ، ولا أكملتك إلا فيمن أحب ، أما إني إياك آمر ، وإياك أنهى ، وإياك أعاقب ، وإياك أثيب) .

وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال : (حجة الله على العباد النبي ، والحجة فيما بين العباد وبين الله العقل) .

وفي وصية الإمام أبي الحسن الكاظم عليه السلام لهشام بن الحكم قال :

(يا هشام ؛ ما بعث الله أنبياءه ورسله إلى عباده إلا ليعقلوا عن الله، فأحسنهم استجابة أحسنهم معرفة ، وأعلمهم بأمر الله أحسنهم عقلاً ، وأكملهم عقلاً أرفعهم درجة في الدنيا والآخرة .

(يا هشام ؛ إن لله على الناس حجتين: حجة ظاهرة ، وحجة باطنة، فأما الظاهرة فالرسل والأنبياء عليهم السلام ، وأما الباطنة فالعقول) [1] .

وعن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام انه قال -وقد سأله بعضهم عن الاختلاف في الحديث- :

(ان في أيدي الناس حقا وباطلا ، وصدقا وكذبا ، وناسخا

(١) أصول الكافي – ج : ١ – ص : ١٠-١٤.

ومنسوخا ، وعاما وخاصا ، ومحكما ومتشابها ، وقد كذب على رسول الله ﷺ على عهده ، حتى قام خطيبا وقال : «أيها الناس ، قد كثرت علي الكذّابة ، فمن كذب عليّ معتمدا فليتبوأ مقعده من النار» ثم كذب عليه ﷺ من بعده ..[١]).

وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال :

(قال رسول الله ﷺ : ان على كل حق حقيقة ، وعلى كل صواب نوراً، فما وافق كتاب الله فخذوه ، وما خالف كتاب الله فدعوه[٢]) .

إلى أحاديث أخرى في هذا المعنى .

(١) وسائل الشيعة — ب : ١٤ من أبواب صفات القاضي — ح : ١ ، ويراجع كتاب نهج البلاغة — ص : ٣٢٥ — الطبعة الأولى — تحقيق : د.صبحي الصالح — بيروت — ١٣٨٧— ١٩٦٧ .

(٢) الوسائل — ب : ٩ من أبواب صفات القاضي — ح : ١٠.

الفصل الرابع

عصمة علي عليه السلام

أما بالنسبة لعصمة علي عليه السلام بالذات ؛ فإني لا اعتقد أنها -وبعد هذه المسيرة الطويلة من الحديث لم تبلغ درجة كافية من الوضوح يغنيها عن مزيد من الحديث فيها بالخصوص .

فعلي عليه السلام -كما علمنا- مورد لاصطفاء الله (تعالى) ، وارتضائه الثابت لولايته الكبرى في هذه الأمة بعد الرسول صلى الله عليه وآله ..

إذن ، فهو أحد موارد رعاية الله (جل شأنه) وعنايته الخاصة التي استوجبتها حكمة لمصطفيه ، ولا بد ان ينال من توفيق الله -سبحانه- ومن مدده ما يضمن أداءه لمسؤولياته العظيمة في تلك الولاية ومهماتها، وهي مسألة لا تحتاج إلى مزيد بيان ، لأنها من مصاديق تلك القضية العامة .

ويكفينا لتأكيد هذه الحقيقة من النصوص الإسلامية ، ما قرأناه من دعاء الرسول صلى الله عليه وآله له يوم أعلن ولايته على الأمة يوم غدير خم : (اللهم .. وأدر الحق معه حيث دار) .

كما يكفينا ما قرأناه من شمول قطعي له في آية التطهير المباركة :

«إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً».

وكذلك تأكيد الكثير من الروايات الواردة بأنه مع الحق والحق معه، وأنهما لا يفترقان حتى يردا على الرسول صلى الله عليه وآله الحوض يوم القيامة.

ونضيف إليها هنا الإشارة إلى روايات الثقلين ، وهي متواترة

الصدور عن الرسول ﷺ ، وقد سبق بعض مواردها ضمن خطبة الرسول ﷺ يوم الغدير ذاته ، إذ قال ﷺ :

(وإني سائلكم حين تردون علي عن الثقلين فانظروا كيف تخلفوني فيهما : الثقل الأكبر كتاب الله ، سبب طرفه بيد الله وطرف بأيديكم ، فاستمسكوا به لا تضلوا ، ولا تبدلوا ، عترتي أهل بيتي ، فإنه قد نبأني اللطيف الخبير أنهما لن يفرقا حتى يردا علي الحوض) .

ومن روايات الثقلين أيضا ما رواه أبو نعيم في كتابه (حلية الأولياء) ، كما رواه غيره كذلك عن الرسول ﷺ انه قال :

(أيها الناس ؛ إني فرطكم ، وأنكم واردون علي الحوض ، فاني سائلكم حين تردون عن الثقلين ، فانظروا كيف تخلفوني فيهما ، الثقل الأكبر كتاب الله ، سبب طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم ، فاستمسكوا به لا تضلوا ولا تبدلوا ، وعترتي أهل بيتي ، فإنه قد نبأني اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض[1]) .

وواضح ما هذا الجمع والمعادلة بين كتاب الله (تعالى) الذي انزله بالحق ، وهذه العترة المطهرة ، وما في هذه المعية التي لا افتراق فيما بينها حتى يردا على الرسول ﷺ الحوض يوم القيامة ، من دلالة على عصمتهم من الذنوب والانحراف عن الحق ، فالكتاب هو العزيز الذي ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ .﴾ .

وهو الذي ﴿أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ[2]﴾ .

---

(١) : مجمع الزوائد للهيثمي – ج : ١٠ – ص : ٣٦٣ ، وقال: رواه الطبراني باسنادين . ويراجع كتاب (فضائل الخمسة من الصحاح الستة) للوقوف على مزيد من المصادر للحديث – ج : ٢ – ص : ٤٨ وروايات أخرى في نفس المضمون.

٢) هود : ١.

وفي هذا السياق أيضا يرد تأكيد الرسول ﷺ بأن عليا مع القران مع علي حتى يردا عليه الحوض[١].

وما رواه أبو برزة قال : قال رسول الله ﷺ : (إن الله عهد إلي عهداً في علي ، فقلت : بينه لي ، فقال : اسمع ، فقلت : سمعت ، فقال : إن علياً راية الهدى ، وإمام أوليائي ، ونور من أطاعني ، وهو الكلمة التي ألزمتها المتقين) .

كما يرد قول الرسول ﷺ في حقه أيضا : (ان حافظي علي بن أبي طالب ليفخران على سائر الحفظة لكينونتهما مع علي بن أبي طالب ، وذلك أنهما لم يصعدا إلى الله بعمل يسخطه[٢]) .

إلى غير هذه الأحاديث الواردة عن الرسول ﷺ في تأكيده لعصمة علي عليه السلام وتنزيهه عن الذنوب ، لتأتي بعد الأحاديث التي وردت في بيان جزئيات حياته ومواقفه ، وحرصه على إقامة الحق ، لتؤكد -ومن خلال الواقع الفعلي لحياته- تلك الحقيقة العقلية الإسلامية ، وهي -كما يعلم الجميع- مما ملأ مصادر التأريخ والتراجم وكتب السنة .

ونقف عند هذا الحد مع هذا النوع من رعاية الله (تعالى) لعلي بن أبي طالب عليه السلام ، وما تتجلى به هذه الرعاية في عصمته ، بعد ان اتضح لنا أنها مما لا مجال فيها لريبة مرتاب ، أو شك مشكك ، حين يعود المرء إلى الإسلام في استقامته الذاتية في أوليائه الأصفياء ، وفي صحيح نصوصه ، والله (تعالى) هو الهادي ، والموفق للصواب .

---

(١) المستدرك على الصحنين – ج : ٣ – ص : ١٢٤ ، ويراجع (فضائل الخمسة من الصحاح الستة) ج: ٢ ص : ١١٢ للوقوف على المزيد من المصادر .

(٢) فضائل الخمسة عن الصحاح الستة –ج: ٣– ص : ١٨ ، عن كتاب تاريخ بغداد – ج : ١٤– ص :٤٩.

البَابُ السَّادِسُ

في علم علي عليه السلام

تمهيد

لكي نعلم ما يعنيه علم علي (عليه السلام) وما يملكه من سعة في آفاقه ، ودور هذه الصفة ومجالاتها في وفائه بمسؤولياته الكبرى في دين الله (تعالى) ، لا بد لنا من العودة إلى ما تعنيه ولاية علي في دين الله (تعالى)، وما تستوجبه سمة الحق من شرائط في كل حقيقة تنتسب إليه ، وما تستلزمه هذه الشرائط من عنايات إلهية خاصة للمصطفين ، لأن هذه الآفاق العلمية ودلالاتها هي كذلك بعض ضرورات ذلك الاصطفاء الرباني له ، إذ يستحيل عليه -كما يستحيل على غيره من المنتجبين- تحقيق متطلبات هذا الاصطفاء دون مدد خاص من العلم يكفيه الله به كل ما يحتاجه في ولايته ، وفي كل ما تستلزمه من شؤونها القريبة أو البعيدة ، البارزة منها أو الخفية ، وعلى امتداد ما جعلت له هذه الولاية من الزمان والمكان ، والأجيال البشرية على امتدادها الزماني والمكاني .

ومع ان هذه الآفاق لا تعدو كونها جزءا من الأصول والمقومات العامة التي أشرنا إليها مما يحتاجه علي (عليه السلام) كولي لله منتجب ، كما أنها - في واقعها الفعلي- مجلى للرعاية الإلهية المباشرة له، التي سبق منا الحديث فيها مفصلاً، إلا ان للأفاق العلمية دلالاتها الخاصة في وفائه بمسؤوليات ولايته العظمى ، فطبيعي ان تستوجب منا وقفة خاصة عندها تتناسب وأهميتها تلك ، لندرك إلى أي مدى تمضي الحكمة الربانية في عناياتها لتحقيق استقامة الحق في دينه العظيم، وتوفية مستلزماته في من اختارهم الله (تعالى) للقيام على أمره ، وتجسيده أمثلة قائمة لحجته بين الناس ، ومن هؤلاء الأصفياء -بالطبع -علي ابن أبي طالب (عليه السلام) .

الفصل الأول

علم علي في النصوص الإسلامية

ولرؤية شيء من هذه الآفاق العلمية في علي عليه السلام نحاول -في البدء- متابعة بعض النصوص التي تسالم على نقلها المؤرخون ، وحفظة السنة ، قبل ان نستلهم دلالاتها العامة في ما تعنيه طبيعة هذه الآفاق ومداها فيه .

ونقف هنا عند طوائف ثلاث من هذه النصوص ، لها أهميتها الخاصة في تحقيق غايتنا السابقة .

❁ ❁ ❁

الطائفة الأولى : ما تواتر عن الرسول صلى الله عليه وآله في بيان هذا الجانب المهم من شخصية علي عليه السلام .

فالرسول صلى الله عليه وآله كان هو أول من نوّه بعلم علي عليه السلام وأشاد به ، وبيّن مصدره الغيبي العظيم .

بل وكان الرسول صلى الله عليه وآله يستغل كل فرصة مناسبة للفت بصائر المسلمين إلى هذه الفضيلة الكبرى من علي عليه السلام ، وتعريفهم بمميزاتها ، ودلالاتها في شخصيته ، وامتيازه بها على من سواه من الناس .

كما كان صلى الله عليه وآله كثيراً ما يشير -وهذا هو الأكثر أهمية في إشادته صلى الله عليه وآله بعلم علي عليه السلام- إلى الرابطة الوثقى بين علمه نفسه صلى الله عليه وآله وعلم علي عليه السلام ووحدة مصدرهما معا ، وأن هذا المصدر هو الله -سبحانه- الذي بعث محمدا صلى الله عليه وآله برسالته ، وارتضى عليا عليه السلام لولايته ، بل ووحدة ما بين

علميهما وعلم الأنبياء عليهم السلام من هذه الناحية .

وكثير من هذه الأحاديث يبلغ من الاستفاضة إلى حد التواتر بين المسلمين عامة ، حيث لم تختص بنقله طائفة منهم دون طائفة ، أو بعض الرواة منهم دون بعض .

ومن الأحاديث الواردة ضمن هذه الطائفة ، قوله صلى الله عليه وآله :

(علي عيبة علمي[١]) .

(علي باب علمي ، ومبيّن ما أرسلت به بعدي ، حبه إيمان ، وبغضه نفاق، والنظر إليه رحمة[٢]) .

(أنا مدينة العلم وعلي بابها ، فمن أراد المدينة فليأت الباب[٣]) .

(أنا دار الحكمة وعلي بابها[٤]) .

(أعلم أمتي من بعدي علي بن أبي طالب[٥]) .

(قسّمت الحكمة عشرة أجزاء ، فأعطي علي تسعة أجزاء والناس جزءاً واحداً ، وعلي أعلم بالواحد منهم[٦]) .

(من أراد ان ينظر إلى آدم عليه السلام في علمه ، وإلى نوح عليه السلام في فهمه ، وإلى إبراهيم عليه السلام في حلمه ، وإلى يحيى بن زكريا في زهده ، والى موسى بن عمران في بطشه ، فلينظر إلى علي بن أبي طالب[٧]) .

---

(١) فضائل الخمسة من الصحاح الستة – ج : ٢ – ص : ٢٣٣ عن العديد من مصادره .

(٢) ن.م. – ص : ٢٥٢ عن كنز العمال – ج : ٦ – ص : ١٥٦.

(٣) ن.م – ص : ٢٥٠.

(٤) ن.م – ص : ٢٤٨.

(٥) ن.م – ص : ٢٤٤ عن كنز العمال – ج : ٦ – ص : ١٥٦ .

(٦) ن.م – ص : ٢٤٩ عن حلية الأولياء – ج : ١ – ص : ٦٤ ومصادر أخرى .

(٧) ن.م – ص : ١٢٩ عن الرياض النضرة – ج : ٢ – ص : ٢١٨ .

إلى مئات أو حتى آلاف الروايات التي تدخل ضمن هذه الطائفة .

ولا ننسى ان نستعيد قراءة ما اقتبسناه من أحاديث الغدير ، إذ لم يفته صلى الله عليه وآله التنويه بهذا الركن الأساس من شخصية علي عليه السلام ليتم به الحجة في إعلان ولايته على الأشهاد .

(فاسمعوا وأطيعوا ، فان الله مولاكم ، وعلي إمامكم ، ثم الإمامة في ولدي من صلبه إلى القيامة .. لا حلال إلا ما أحله الله ورسوله ، ولا حرام إلا ما حرمه الله ورسوله وهم ، فما من علم إلا وقد أحصاه الله فيّ ونقلته إليه) .

(افهموا محكم القران ، ولا تتبعوا متشابهه ، ولن يفسّر ذلك لكم إلا من أنا آخذ بيده ، وشائل بعضده ...) .

(هذا أخي ووصيي ، وواعي علمي ، وخليفتي على من آمن بي ، وعلى تفسير كتاب ربي ..) .

كما لا ننسى أن نقرأ ما ورد عنه صلى الله عليه وآله في الأمر بتولي علي وأبنائه النجباء إذ قال صلى الله عليه وآله : (من سره أن يحيا حياتي ويموت مماتي ، ويسكن جنة عدن غرسها ربي ، فليوال عليا من بعدي ، وليوال وليه ، وليقتد بالأئمة من بعدي ، فإنهم عترتي ، خلقوا من طينتي، رزقوا فهما وعلماً، وويل للمكذبين بفضلهم من أمتي ، القاطعين فيهم صلتي ، لا أنالهم الله شفاعتي) .

❖ ❖ ❖

الطائفة الثانية : ما أكده علي عليه السلام نفسه من هذه الآفاق في شخصيته .

فهو عليه السلام -بالرغم مما علمته الأمة من فضائله الجمة -كان يخص هذه السمة من ذاته بالتأكيد ، ولفت الأنظار ، وكان كثيرا ما يتحدّى

الناس أن يجدوا له في هذه السمة بديلا أو شبيهاً ، أو يثبتوا في ادّعائه لها تفاوتاً عن الحقيقة ، وفي هذا الموضوع يقول عليه السلام :

(علمني رسول الله صلى الله عليه وآله ألف باب من العلم ، واستنبطت من كل باب ألف باب[١]) .

(سلوني قبل ان تفقدوني ، فإني لا أُسأل عن شيء دون العرش إلا أخبرت به [٢]) .

(إني أحدث .. كنت إذا سألت أعطيت ، وإذا سكتّ ابتدئت ، وبين الجوانح علم جمّ فاسألوني[٣]) .

(إلا إن هاهنا –وأشار إلى صدره– لعلماً جماً لو أصبت له حملة . بلى، أصبت لقناً غير مأمون ، يستعمل آلة الدين للدنيا [٤]) .

إلى أحاديث أخرى في هذا المضمار ،وهي من الكثرة بدرجة تفوق الحصر كذلك .

❃ ❃ ❃

الطائفة الثالثة : ما أقره الآخرون لعلي عليه السلام من هذه الآفاق .

فعلم علي عليه السلام فضيلة يعلمها جميع من عرفه ، وأدرك منه بعض خصائصه ، إذ هو من ملامحه البارزة والخالدة على مر التأريخ .

وما أكثر كلمات الإطراء والإشادة بعلمه !! ، بل وما أكثر كلمات التسليم له بالتقدم فيه ، حتى من أولئك الذين لم يقرّوا له بالإمامة ، أو ارتضاء الله إياه للولاية !! .

---

(١) ن.م:ص٢٣١ عن تفسير الرازي في ذيل تفسيره لقوله تعالى: (ان الله اصطفى ادم ونوحا...).

(٢) ن.م:ص٢٣٢ عن كنز العمال :ج٦ ص٤٠٥.

(٣) ن.م:ص٢٣٣ عن تفسير الرازي في ذيل تفسيره لقوله تعالى: (وأما بنعمة ربك فحدث).

(٤) ن.م:ص٢٣٣ عن تاريخ بغداد :ج٦ ص٣٧٩.

وقد سبق ان بعض الموارد التي رجع فيها بعض الخلفاء لعلي عليه السلام في المهمات ، وما صرحوا به من كلمات ألجأتهم إلى النطق بها بعض الظروف .

ونضيف هنا -لنستحضر معالم الموضوع الذي نتحدث فيه- :

ما قاله الخليفة الأول أبو بكر -في قضية سأله فيها أحد اليهود مسألة لم يجب عنها غير علي بن أبي طالب عليه السلام : (يا كاشف الكربات أنت يا علي فارج الهم[1]) .

أما عمر بن الخطاب ، فكلماته في علي عليه السلام مشهورة في كتب التأريخ ومصادره السنة كقوله : (لولا علي لهلك عمر) .

(أعوذ بالله ان أعيش في قوم لست فيهم يا أبا الحسن) .

(اللهم لا تنزل بي شدة إلا وأبو حسن إلى جنبي) .

(يا ابن أبي طالب فما زلت كاشف كل شبهة ، وموضع كل حكم[2]) ..... وغير هذه من الكلمات المأثورة عنه .

وكذلك الخليفة الثالث عثمان ، إذ أثر عنه في هذا المضمار -أيضا- قوله : (لولا علي لهلك عثمان[3]) .

بل وحتى معاوية ، فقد كان يكتب فيما ينزل به ، ليسأل به علي بن أبي طالب عليه السلام ، فلما بلغه مقتله قال :

(ذهب الفقه والعلم بموت ابن أبي طالب) .

فقال له أخوه عتبة : (لا يسمع هذا منك أهل الشام) .

---

(١) إحقاق الحق – ج : ٨ – ص : ٢٤٠ عن كتاب (در بحر المناقب) .

(٢) يراجع في مصادر هذه الكلمات وأشباهها كتاب : (فضائل الخمسة من الصحاح الستة) – ج : ٢ – ص : ٢٧٣ وما بعدها ، كما يراجع الجزء الثامن من كتاب : (إحقاق الحق وإزهاق الباطل) .

(٣) الغدير – ج : ٨ – ص : ٢١٩ عن العاصمي في : (زين الفتى في شرح سورة هل أتى) .

قال : (دعني عنك[١]) .

ولما جاء نعي علي بن أبي طالب عليه السلام إلى معاوية وهو نائم مع امرأته فاختة بنت ورطة ، فقعد باكياً مسترجعا ، فقالت له فاختة : أنت بالأمس تطعن عليه واليوم تبكي ؟ .

قال : (ويحك إنما ابكي لما فقد الناس من حلم وعلم[٢]) .

والواقع ان علم علي عليه السلام من الوضوح والجلاء بدرجة من البداهة ، لا اعتقد ان أحدا -عرف من أمره شيئا ولو يسيرا- يمكن ان يرتاب فيها ، ولهذا فإطالة الحديث باقتباس مزيد من النصوص التي تذكر هذه السمة الجليلة فيه ، أو الاستطراد بذكر شهادات قالتها أسماء لامعة في التاريخ ، وأقرته فيها له عليه السلام ليس بمستحسن في بحث مختصر كالذي نحن فيه .

بل ، ونشير أيضاً إلى أننا لم تقتبس الأحاديث والشهادات السابقة بعلم علي عليه السلام ، من أجل التعرف على هذه الصفة السامية فيه ، أو لإثبات شيء مجهول ، لنا نحن ، أو للقاري الكريم وإنما من أجل ان نستحضر ملامح متكاملة لصورة تمهيدية فيه تمكّننا من الانطلاق إلى فهم ما تعنيه هذه الصفة الجليلة في التزام الحق لعلي عليه السلام ، وارتضاء الله إياه ولياً لدينه العظيم ..

فما الذي يعنيه هذا الالتزام الإلهي في علم علي عليه السلام ؟ ..

وما دوره في هذا العلم أيضاً ؟ ..

---

(١) فضائل الخمسة من الصحاح الستة- ج:٢-ص :٣٠٥ عن الاستيعاب لابن عبد البر-ج:٢- ص : ٤٦٣.

(٢) إحقاق الحق -ج : ٧ - ص : ٣٦٠ ، عن فرائد السمطين . وقريب منه مناقب الخوارزمي - ص : ٢٧٢- ط : تبريز .

نعم؛ فالإجابة حول هذين السؤالين هي التي تعنينا في هذا الحديث، إذ لا يمكن استلهام ملامح واضحة عن غايتنا في استعراض تلك الأحاديث التي أوردناها في الطوائف الثلاث السابقة .

بل ومع التدقيق في الموضوع أكثر نرى أن الإجابة حول هذين السؤالين هي الأساس في فهم طبيعة صفة العلم ذاتها في شخصية علي عليه السلام ، وفي شخصيات غيره من أصفياء الله المنتجبين .

إذ ما كان ليتضح -بدونها- معنى تلك الإشادة المتكررة من الرسول صلى الله عليه وآله بعلم علي عليه السلام ، بهذا الحجم الكبير الذي لاحظنا بعضه في النصوص السابقة .

وما كان ليتضح بدونها معنى ذلك الاعتزاز والتحدي من علي عليه السلام نفسه بما كان يملكه من هذه الصفة ، وتأكيده عليها في كل فرصة مناسبة .

وما كانت لتستبين بدونها -أيضا- دلائل ذلك الافتخار المتواصل بعلمه عليه السلام من أبنائه المنتجبين ومن أوليائه المخلصين على مر التاريخ .. لا في عصره فحسب ، وإنما في جميع العصور حتى القيامة .

نعم ، ما كانت لتتضح كل هذه الأمور بدون تصور إجابة واضحة للسؤالين المتقدمين ، تضع المتطلع للحق أمام هذه السمة العظمى من علي عليه السلام ، من خلال ذلك الاصطفاء الإلهي ومتطلباته ، ومن خلال المسؤوليات الكبرى الملقاة على علي عليه السلام في دين الله (تعالى) .

إذ الاصطفاء الإلهي لأي شخصية مرتضاة لتلك المهمات الكبرى -وكما أشرنا أكثر من مرة- يعتبر هو المقوّم الأساس لتلك الشخصية ، والركيزة الثابتة لتكوينها ،كما أنه المائز الأكبر في جميع ما تملكه من سجايا خاصة ، لا ينالها غير المصطفى من الناس ..

فدون هذا الاصطفاء تقف الحدود الإنسانية كافة ، وان كانت في أسمى مظاهرها ، لتمضى الرعاية الربانية الخاصة في دورها المباشر لصياغة تلك الشخصيات المنتجبة ، وإقامة كيانها -كما أشرت في مقدمة هذا الكتاب- .

الفصل الثاني

العلم ومذهب الحق

تمهيد للإجابة حول السؤالين السابقين ، لابد لنا من الالتفات إلى نقطتين مهمتين ، لهما اثرهما الكبير في إيضاح الأسس التي تعتمدها هذه الإجابة ..

النقطة الأولى : ضرورة العلم لقيام مذهب الحق

إذ لا ريب أن علم الشخص الذي يصطفيه الله (تعالى) لإقامة هذا المذهب في الوجود البشري من الأسس الأولى لتمكينه من هذه المهمة الكبرى .

وهي ضرورة تمتد إلى كل اصل من أصول الدين يعتمده هذا الاصطفاء في مسؤولية المنتجب ، والى كل سلوك يأتيه ، أو موقف يصدر عنه ، أو غاية يترسّمها .

وقد أشرنا إلى ان الأصول التي يعتمدها دين الحق في كيان الإنسان تبدأ معه ، بل ومع الموجودات التكوينية كافة ، لا من ظواهرها البارزة منها فقط ، ولا من واقعها القائم كحالة جزئية محدودة ، أو آنيّة ترد في بعض حالاتها ، وإنما هي تبدأ معها مما تعنيه حكمة الله (تعالى) فيها ، وما تقتضيه هذه الحكمة في تكوينها وتدبيرها من مستلزمات ، لا في حدودها الذاتية كوجودات موضوعية فحسب ، وإنما في آفاق دلالاتها على عظمة الحكمة التي أنشأتها ، وعلى جلالة ذلك التدبير الذي

سوّاها ، واستقامت به أمورها أيضاً .

ولا ريب ان ملاحظة الأمر من هذا المنطلق تظهر أن مستلزمات دين الحق تستوعب -في أصولها الموضوعية- جميع ما يعتمده الوجود التكويني كله، بجميع ما فيه من ظواهر وشؤون وتفاعلات ، فكل من هذه -هو بدوره- مجلى لتلك الحكمة ، وفيض من لطفها ورحمتها ..

نعم ، من الطبيعي أن يحيط دين الحق بجميع هذه الآفاق والظواهر والشؤون والتفاعلات ، لينطلق منها بالإنسان إلى أسمى كمال تطمح إليه ذاته في أعماقها ، وفي أي زمان ومكان ، وعلى أي مستوى حضاري ، وفي أي مجتمع يعيش فيه ، لا في وعيه وإدراكه فحسب ، وإنما -قبل هذا- بنفس وجوده ، وذات فطرته الأولى ، وبما تحتويه هذه الفطرة من تطلّع ذاتي إلى الاستقامة العامة مع الغايات الإلهية في الخلق ، حيث ركزت دعائم هذه الاستقامة في أعماق تكوينها ، قبل أن تتبلور في الذهن فكرة محددة واضحة الملامح .

وهنا تتبلور الملامح الأولى لصفة العلم في مهمة الشخص الذي ينتجبه الله (تعالى) لقيام دينه ، ودورها في تمكينه من الوفاء بمسؤوليته الكبرى في إبلاغ حجته إلى العباد ، إذ من المستحيل عليه هذا الوفاء دون أرصدة من العلم والمعرفة تحيط بكل تلك الأمور ، وبما يتصل بها ، فهذه الأرصدة هي التي تؤهله لمثل هذا الوفاء .

وسيأتي -بعون الله (تعالى)- مزيد بيان لهذه النقطة ، وتفصيل لبعض الإجمال فيها .

❁ ❁ ❁

النقطة الثانية: حدود الإنسان

وفي هذه النقطة نستعيد شيئاً مما سبق إن لاحظناه من قصور

الإنسان عن استيعاب الواقع بفهمه وإدراكه .

فقد قلنا هناك ، إن حدود قابليات الإنسان ، وطاقاته المدركة ، لا تعدو -في فهمها للأمور- حدود ظواهرها القريبة ، وفي المدى الذي تناله وسائلها الحسية أو الحدسية التي تمكّنها من إدراك صورة معينة عنها، وتمييز ملامح هذه الصورة قبل التعامل معها على أساس مما يملكه المرء من أوليات نظرية ، وخبرات سابقة ، ثم تحديدها في إطار معين يجعلها فكرة متكاملة الملامح يستطيع الإنسان أن يعتمدها في سلوكه ، وممارسته للحياة في مختلف أصعدتها .

﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ..﴾ .

ولا ننسى -ونحن بهذا الصدد- دور الوسط الذي يعيش فيه الفرد، وأثره في بلورة تلك الطاقات التي يحملها وتوجيهها ..

كما لا ننسى دور التطور الذاتي له ، وتعاقب مراحل النضج التي يمر بها ، وما ينتجه هذا التعاقب من تغيرات في تكوينه النفسي و الجسدي ، ولا سيما في مستواه العلمي ، وتوجهاته الفكرية والعاطفية في كل مرحلة من مراحل حياته .

ولا بد لنا من الإشارة كذلك إلى دور المجتمع وتوجهاته العامة في المعرفة ، والمستوى الذي وصل إليها ، وما يتركه كل تلك الأمور من تأثير في توجيه طاقات الفرد ، وكيفية فهمه للأمور ، واستخلاصه للنتائج منها ، ثم في طريقة تعامله معها .

فليس من السهل على الإنسان أن يخرج بوعيه ومداركه عن الاتجاه العام الذي يمضي عليه ركاب المجتمع في المعارف و العلوم ، أو يتجاوز المستويات التي بلغتها الجهود الإنسانية فيها ، لأنها الظروف التي تتشكل ضمنها التوجهات العامة للفرد ، وتتحدد فيها أهدافه وتطلعاته ،

وتتحدد فيها مواهبه وجهوده في الحياة .

ومن هنا قيل : إن الإنسان وليد عصره ، وهو ابن بار للعصر الذي يعيش فيه ، وهو لا يستطيع تجاوز أحكام العصر في نموه العقلي والعاطفي والعلمي ، إلا حيث يعتمد النتائج التي قررها من سبقه في جهودهم قبله ، لينطلق منها إلى ما هو أعلى وأكمل إن استطاع .

فخبرة الإنسان تنمو وتتسع حين يتابع المرء دراسته للأمور ، ويثابر على فهم الحقائق فيما يتأمله من القضايا والوقائع التي تحيط به وينالها وعيه ، لتصبح -من ثم- ضمن معلوماته ، قبل أن يستعين بها (بعض الناس) للوصول إلى درجات أسمى مما بلغه الآخرون ، في هذا الجانب من الحياة أو ذاك ، أما باكتشاف غوامض لم يدركها السابقون ، أو اختراع مستجدات لم يتصوروها ...وهكذا .

إلا ان هذا التقدم وان كان من خلال تلك الطاقات والقابليات التي يملكها المرء في تكوينه الذاتي ، إلا أنه يجري ضمن مسيرة البيئة التي يعيش فيها، إذ من غير الممكن لهذه الطاقات ان تنمو وتنضج ، وتكتمل فاعليتها في الحياة ، وتتفاعل مع الواقع بدون وسط تحقق فيه وجودها ، وهي تسعى في طريق النمو والكمال ، وتتسق فيه جهودها لتبلغ -من ثم- إلى ما تطمح إلى بلوغه .

ولا ريب ان الاتجاهات العامة التي تهيمن على مسيرة المجتمعات في المعرفة ، والمستويات الفكرية والعلمية التي يصل إليها المجتمع ، ضمن هذا الجانب من الحياة أو ذاك ، تشكل أفقا واسعا من هذا الوسط الذي تتبلور فيه تلك القابليات الموجودة في الأفراد الذين يعيشون فيه .

ويلاحظ هنا ان السبق الذي يحرزه احد الناس في بعض جوانب المعرفة لا يعني أنه القمة التي لا سمو وراءها لغيره ، فان للواقع عطاءه

اللامتناهي للفكر الإنساني المتجدد ..

..كما لا يعني -ثانياً- ان الإنسان الذي يحرز درجة من السبق في بعض جوانب المعرفة ، قد امتلك ناصية العلوم والمعرفة كافة ، وفي أي اتجاه ، وفي أي جانب من جوانب الوجود ، لأن تقدم إنسان في بعض الأمور لا يعني استيعابه لكل الأمور ، ولا يجعل لوعيه المحدود سعة تحيط بحالاتها وعلاقاتها جميعاً ، وإن بلغ هذا الإنسان في خبرته إلى درجة تأخذ بالألباب -كما يصادف الأمر مع نوابغ التاريخ- .

كما يلاحظ أيضا ان السبق الذي يناله احد الناس في مرحلة من تأريخ المعرفة ، لا يؤهل ذلك الشخص لتسنّم القمة فيها ، واتخاذ موقع القيادة منها إلى الأبد ، حتى في المجال الذي نبغ فيه هذا الشخص نفسه .

لأن مسيرة الإنسان في المعرفة مسيرة تصاعدية متنامية ، ولهذا فان النتائج التي ينالها احد الدارسين في جانب من جوانب المعرفة -ومهما كانت سامية- ستصبح قاعدة لجهود غيره في ذلك الجانب نفسه لينطلق منها إلى ما هو أتم وأكمل -حين يفسح لهذه الجهود مجال المتابعة والتقدم-، مما يعني أنها ستبلغ إلى نتائج أسمى مما بلغه الباحث الأول ، وان استخدمته منطلقا لمتابعتها، وارتكزت عليه في دراساتها . بل وسيصبح ذلك السبق والنجاح الذي بلغه ذلك الباحث الأول مسألة تاريخية في ذلك الاختصاص ، وأن التقيد بالبقاء على حدودها سيكون نكوصاً لا يرتضيه التقدم العلمي المطّرد .

وهذه الناحية معروفة في تاريخ العلوم والحضارات ، فمبتكرات شخصية عبقرية مثل (أديسون) في الكهرباء اليوم تعتبر بدائية قديمة -ولا شك- وان كانت -في وقتها- فتحا كبيرا في الحضارة الإنسانية .

❋ ❋ ❋

وناحية أخرى ، وهي ان السبق الذي يناله بعض الناس في جانب من جوانب المعرفة -وفي أي مرحلة من مراحل تأريخها- ، لا يؤهل ذلك البعض -مهما بلغت درجته من السمو وكمال المعرفة- لأن يتعالى على الحدود المعروفة للقابليات الإنسانية في التعامل مع القضايا والأشياء ..

وهي حدود -وكما قلنا سابقا- لا تتجاوز في إدراكها للأمور الظواهر البارزة منها ، لأنها هي المجال الذي تتعامل معه الحواس وأوليات الفكر ، ومنها تنطلق طرق الحدس والاستنتاج .

كما لا يخرج هذا السبق نفسه عن ان يكون نتاجاً لتلك الحدود ، وإن بدا من العظمة الإلهية بدرجة لم تطرأ على الفكر الإنساني قبل تحققه .

فالفكرة السابقة على غيرها ليست مؤهلة لأن تعطى قيمة الواقع ذاته بكل ما يحويه من أبعاد ، أو ان تعطى شيئا من دلالاته ، وراء الزاوية التي تناولتها من الواقع ، والوسائل التي استعان بها الإنسان في وعيه لها وهو يهيئ للوصول إلى تلك الفكرة .

على أن مجال الخطأ والاشتباه مفتوح ، ولا سيما في القضايا الدقيقة والحساسة من العلوم والمعرفة .

ولهذا فما أكثر التصورات التي ينتهي إليها الفكر الإنساني وحتى العلمي منه، حول أمر من الأمور ، أو حول حادثة من الحوادث ، فيراها مستقيمة تمام الاستقامة مع الواقع الذي تعبر عنه ، ولكن ما أن تستجد دراسات أخرى تتناول الموضوع ذاته إلا ويستبين في تلك الفكرة من مواضع الوهن والخلل ما يشعر الإنسان بخطئه في اعتقاده الأول .

ويمكن اعتبار هذه الناحية من أبرز الدلائل على قصور الإنسان في

مجال المعرفة ، ولا سيما أنها قضية يشهدها كل احد من ذاته قبل ان يراها في غيره من الناس .. في وقت أنها من الأمور المعروفة في جميع العلوم ، حتى الطبيعية منها ، إضافة إلى نواحي المعرفة الأخرى .

ولهذا فالنظريات العلمية –حتى التجريبية منها– لا يدعي معظمها لنفسه قيمة الواقعية والاطراد ، إلا على أساس رجحان الاحتمال في مطابقتها للواقع ، ومدى ما تستقيم به مع الملاحظة والتجربة ، وهكذا فهي تتهاوى عن موقعها حين ترد نظرية أخرى أرجح احتمالا ، وقرباً من الواقع ، ومدى فهم الإنسان له ، وتعامله معه .

❁ ❁ ❁

وطبيعي ان يطرد قصور الإنسان مع دقة الأمور ، وتعقد القضايا التي يروم فهمها ، وابتعاد حقائقها عن ملاحظته ، وسموها عن حدود ما يملكه من وسائل المعرفة ، كما هو الشأن في عالم الحياة ، وقضايا النفس الإنسانية والاجتماع وغيرها ، إذ لا تعدو الفكر والنتائج التي بلغتها جهود الإنسان فيها مرحلة الافتراضات المبتورة التي تعتمد –في أكثرها– على أوليات وقناعات ذات صبغة ذاتية ، أو فلسفية ، قبل ان تعتمد على نفس الواقع الذي تحاول التعبير عنه ، أو حكايته .

وفي هذا المعنى يقول الدكتور (الكسيس كاريل) :

(وكل آرائنا عنه (الإنسان) مشربة بالفلسفة العقلية ، وهذه الآراء جميعاً تنهض على فيض من المعلومات غير الدقيقة ، بحيث يراودنا إغراء عظيم لنختار من بينها ما يرضينا ويسرنا فقط ، ومن ثم فإن فكرنا عن الإنسان تختلف تبعا لاحساساتنا ومعتقداتنا .

(فالشخص المادي والشخص الروحي يقبلان نفس التعريف الذي يطلق على بلورة من الكلوريد ، ولكنهما لا يتفقان –أحدهما مع

الآخر- في تعريف الكائن الحي ، وعالم وظائف الأعضاء الذي يبحث في عمليات الجسم الميكانيكية ، وكذا عالم وظائف الأعضاء الذي يبحث في مذهب الحياة نفسه، لا يمكن ان ينظروا إلى الإنسان من زاوية واحدة .. وكذا فان الكائن الحي -كما يراه (جاك لويب)- يختلف اختلافا عظيما عما يراه (هاتز وريش)[1]) .

وهذه المقولة صادقة في جميع العلوم الإنسانية ، ولهذا فإن ظاهرة إنسانية واحدة -أي ظاهرة- لا تتفق في تفسيرها مدرستان من مدارس العلوم الإنسانية النفسية منها والاجتماعية والتاريخية وغيرها ؛ بل وقد لا يتفق على ذلك مذهبان من مدرسة واحدة ،كما هو ملحوظ لمن بتابع هذه الناحية من تلك العلوم .

ولهذه النواحي مجتمعة -بل ولغيرها مما لم نذكره- لم تعط نظرية من نظريات تلك العلوم الدرجة القطعية في اختصاصها ، إذ أقصى ما تطمح إليه هذه النظريات هي درجة الأكثرية في الاحتمال .

أما النظريات المبدئية أو المذهبية التي تنتزع من تلك النظريات العلمية الإنسانية ، لتبنى عليها مذاهب سلوكية أو تربوية أو أخلاقية أو قانونية أو غير ذلك ، فالأمر فيها أدق وأكثر تعقيداً .

ولهذا فلا يمكن أن تعطى قيمة الحق المطلق لكلمة من الكلمات يقولها أحد من الناس ، أو لموقف من المواقف يأتيه ، أو لاتجاه من اتجاهات الحياة يتخذه ، -وراء حدود البديهة العقلية ونتائجها القريبة اليقينية المسلّمة لدى العقلاء كافة- مهما سما هذا الشخص في سلّم الكمالات الإنسانية ، إلا حيث ينتهل ما يقوله ، وما يفعله من معين العلم اللامتناهي .

---

(١) الإنسان ذلك المجهول-الكسيس كاريل:ص١٧ .

ولهذه النقطة يردنا التساؤل الذي واكبنا منذ بدايات مسيرتنا في هذا الحديث وهو : أنه ما لم تضمن الرعاية الإلهية الخاصة سمة الحق وشرائطها في ذلك الإنسان المنتجب لتسنم موقع رفيع في دينه ، واستيفائه لمتطلباته كافة ، فيما يقول ، وفيما يفعل ، كيف يمكنه أن يفي بمسؤولياته الكبرى في ذلك الموقع ، وكيف يمكن للآخرين ان يدركوا هذا الوفاء منه ليقبسوا منه ما يستهدونه في شؤونهم وسلوكهم دون تفاوت عن أمر الله (تعالى) أو اختلاف عن مقتضيات حكمته .

لا ريب أنه سؤال سيبقى بلا جواب .

❖ ❖ ❖

الفَصْلُ الثَّالِثُ

الإنسان ومذهب الحق

نعم ، قد ينتدب شخص من الأشخاص ، أو حتى فئة من الناس ، لوضع صيغة مذهبية معينة ، وتشريع مناهج خاصة ، لتنظيم الحياة الخاصة أو العامة في بعض المجتمعات –مثلا– لتنسيق الروابط والعلاقات والحدود الاجتماعية في هذا المجال من الحياة أو ذاك .

وقد يستكمل ذلك المنتدب صيغته المذهبية التي يراها جديرة بالاعتبار ، بعد أن ينظر في الركائز التي ينهض عليها ذلك المجتمع وحاجاته ، وما تتطلبه تلك الحاجات من مناهج وأحكام ، وقيم اجتماعية عامة ، لتتوحد لديه هذه الأمور جميعها في كيان يراه خاليا – قدر المستطاع– من الثغرات والتهافت ، قريباً من تطلعات المجتمع نفسه، مستقيما مع الأهداف العامة التي يسعى إليها في حياته ، وهكذا .

وقد يضع هذا المنتدب -وعلى أساس مما يراه من تطور في الحياة الاجتماعية- مجالاً لحالات مستجدة ينبغي ان يحسب لها حسابها في التصورات التي يقوم عليها المذهب الذي يضعه ، أو في التشريعات والمناهج المنبثقة منه ، ليعدّها –من ثم– لاستيعاب تلك الحالات المستجدة ...

نعم ، وقد ينجح هذا المنتدب في أداء مهمته ، كما أراده لنفسه ، أو أريد منه ، وقد يصيب في توقعاته تلك أيضا ، مما يعطي لجهوده درجات من الإيجابية تصب في صالحه هو أو في صالح مذهبه ، أو حتى المجتمع الذي يمضي ضمن خطه ، ولكن في بعض فترات التاريخ .

إلا أن هذا النجاح -مهما سمت درجته- لا يعطي لذلك المذهب ، أو الشريعة والقوانين التي تبنى عليه سمة الواقعية المطلقة ، كما لا يعطى للنظريات التي انبثقت منها قيمة الحق الثابت ، بل ولا يعطيها نفس القيمة من النجاح في مجتمعات أخرى ، أو في بلدان أخرى ، بل ولا يعطيها نفس القيمة من النجاح في جوانب أخرى من حياة ذلك المجتمع الذي وضعت له ، أو في أزمنة أخرى لم يتوقعها ذلك المنتدب في حسبانه .

وهكذا كان لابد من متابعة الجهود ، ومواصلة التعديل لهياكل ذلك المذهب ، ولا بد من ملاحظة ما يستجد على المجتمع من حالات ، وما يطرأ في المعرفة من قضايا يمكن ان يكون لها أثرها في حياة ذلك المجتمع الذي أعد له المذهب وما يستتبعه .

ولهذا فقد يضطر المذهب إلى التراجع عن بعض الأحكام والقوانين، أو حتى عن بعض أصوله المبدئية الأولى التي اعتمدها في مراحل إنشائه الأولى ، حين يظهر فشلها وبعدها عن الواقع ، أو حين يستبين فيها من السلبيات ما لا يمكن تلافيه .

وهذا هو المشهود في المذاهب والقوانين الوضعية السائدة ، وهي لا تجد في هذا غضاضة أو هنة ، بل وقد تجد أن هذا التراجع دليل على حيويتها ، وقدرتها على التطور والتقدم مع الحاجات الإنسانية ، مع أن هذا لم يتأت لها إلا من خلال نقصها الذاتي ، الذي قصر بها عن أن تفي للواقع بشرائطه وحاجاته ، فهي جميعها من نتاج الإنسان ، فهي محكومة بقصوره ، وضيق خبرته ، وتأثره بالأدوار والحالات الآنيّة الجارية في حياته .

أما ان تكون لذلك الشخص ، أو الفئة المنتدبة للتشريع مهمة تمثيل

الحق نفسه -وكما هو في واقعه الذي أراده الله (تعالى) للإنسان- وبما لشريعة الحق من موقع خاص في الوجود التكويني عامة ، والوجود الإنساني خاصة -كما هو الشأن في مورد الاصطفاء الإلهي من الناس-.

.. أما ان تجعل لذلك الشخص أو الفئة مهمة القيادة العامة للبشرية، وهي تطمح إلى هداها ورشدها الأكمل في هذا الحياة .

.. أما ان يقر الله -عزّ وجل- ذاته لكل كلمة تصدر من أفراد تلك الفئة ، وكل موقف يتخذونه ، وأي سلوك يقومون به ، وكل فكرة يطرحونها ، قيمة الواقع الذي يحقق لحكمة الله دلائلها في الخلق والتكوين ، كما تقرر الحكم الربّاني الذي يتجلى به لطف الله (تعالى) بالإنسان ، ورحمته به .

.. أما أن تعترف دلائل الحجة الإلهية لهؤلاء الفئة بالاستقامة المطلقة معها في كلّ منحى من مناحي حياتهم ، وفي كل بعد من أبعادها .. تلك الاستقامة التي لا تحدد ضمن ظواهر سلوكهم فحسب -حيث المستوى المطلوب من عامة الناس-، وإنما هي الاستقامة الذاتية المطلقة التي تبرز -بجلاء- عظمة الله في تكوينهم الذاتي ، وفي الدين والتشريع الذي اصطفاهم له معاً .

.. أما ان تُناط بهم بصائر هدى الله بمعانيها العظمى ، وحدودها التامة التي لا تخصيص فيها ولا استثناء ، لا في أدوار حياتهم الشخصية فحسب ، وإنما في كل زمن تشمله مسؤولياتهم في قيام الحق .

أقول : أما هذا كله -كما هو الشأن في الشخصيات التي ينتجبها الله (سبحانه) لهذه المهمات- فهو غير ممكن أبدا بدون مدد إلهي خاص من العلم والمعرفة ، يرتفع بهم إلى مستويات هذه الشؤون كافة ، ويفي لهم بمتطلباتها جميعا ، كما لم يكن ممكنا دون رعاية شاملة ترتفع

بمكوناتهم الشخصية الأخرى إلى هذا المستوى أيضاً في النواحي الأخرى من حياتهم ، وتسدد منهم كل خطوة في أي سبيل من سبل الحياة ، وعلى أي صعيد ، كما لاحظنا في الباب السابق .

..مدد إلهي من معين العلم والمعرفة ، يتجاوز بأولئك الأصفياء كلّ حدود القصور الإنساني في هذا المجال ، ويسمو بطاقاتهم وملكاتهم كافة عن الوقوف في إدراكهم وتعاملهم مع الأشياء عند خصوص الظواهر القريبة منها -كما هو الشأن في الإنسان الاعتيادي- حيث لا ينتظر منه أكثر من هذا المستوى .

.. مدد إلهي يرتفع بهم إلى درجة الإحاطة المطلوبة بواقع هذا الوجود نفسه ، وبما فيه من أوليات تستند إليها ظواهره كافة ، سواء برزت تلك الأوليات للوعي الإنساني العام أم لم تبرز ، أدراك الآخرون منها شيئاً ام لم يدركوا .

.. مدد إلهي من العلم لا تحكمه العصور ولا اتجاهاتها الآنيّة في المعرفة ، ولا مستوياتها الخاضعة لمستوى مجتمع من المجتمعات ، أو حضارة من الحضارات .

إذ بدون هذا المدد يستحيل على أحد من أولئك الأصفياء أداء مسؤوليته ، أو القيام بمهمته التي كلف بها ، وكما أراده الله منه ، وكما اقتضته حكمته السامية فيه ، حينما اختارته موردا لاصطفائها .

وهكذا يبدو ان ربانية ذلك المدد من المعرفة والعلم اللذين يكفلان لأولئك الصفوة بلوغ تلك الغاية إنما هو بعض الضرورات التي تستوجبها استقامة الحق في أصفيائه ، ومن لطف الله (تعالى) بالإنسان ، وعموم حكمته في مقتضياتها ، وهي تصطفيهم مثلاً عليا للبشرية ، وحججا على الخلق ، وشواهد لقيام دين الله (تعالى) في هذه الأرض ،

والسنة للتعبير عن كلمته بين الناس .

إذن ، فعلم هؤلاء الأصفياء المنتجبين عليهم السلام، وهذه المستويات العليا التي تغور إلى أعماق الحقائق ، وتستوعب واقع الأشياء ، وربّانية مصدرها كافة .. كلّ هذه -بدورها- إلا ضرورات تنشأ من المنطلقات السابقة التي ذكرناها .. من نفس التزام الإسلام (دين الله) لعنصر الحق أساساً لوجوده ، وركناً لكل بعد من أبعاده ، ومحوراً لكل حقيقة من حقائقه ، بما فيها هؤلاء الأصفياء ، الذين ارتضاهم (تعالى) هداة له ، وأمناء على كلمته ، وحجة له في بريته ، حيث علمنا استحالة أن يؤدي أي منهم دوره الكبير -هذا- دون أن يحيط بحقائق الأمور التي تقع ضمن مسؤوليته ، وضمن دلائل تلك الحكمة العليا فيها، دون خلل أو تفاوت .

وفي هذا المعنى يقول الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام لهشام بن الحكم من حديث : (ويك يا هشام ، لا يحتج الله -تبارك وتعالى- على خلقه بحجة لا يكون عنده كل ما يحتاجون إليه ..[1]) .

كما يقول عليه السلام في حديث آخر :(أترون ان الله -تبارك وتعالى- افترض طاعة أوليائه على عبادة،ثم يخفي عنهم أخبار السماوات والأرض،ويقطع عنهم موادّ العلم فيما يرد عليهم،مما فيه قوام دينهم؟[2]) .

❁ ❁ ❁

كما أن هذا العلم -من جهة ثانية- ضرورة تنشأ من تلك الحدود العليا التي جعلها الله -سبحانه- لكلمته في أي مجال من مجالات التكوين

---

(١) أصول الكافي – محمد بن يعقوب الكليني ج ١ ص

(٢) المصدر السابق.

والتشريع معاً ، وأي مظهر من مظاهرها .. إذ قال -عزّ من قائل- :

﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ [1] .﴾ .

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. [2]﴾ .

فحين علمنا ان أولئك المصطفين هم الذين يتجسد بهم علو كلمة الله -عزّ وجل- في هذه الأرض ، ويتحقق بهم تمامها في البشرية ، وكمالها في مجالي التكوين والتشريع معا ، فمن الطبيعي ان تضمن فيهم الرعاية الإلهية تلك الأرصدة العلمية التي تمكّنهم من تحقيق ذلك العلو والتمام ، كما ضمنت فيهم مختلف أرصدة الاستقامة المطلقة مع الحق ، سواء في شؤونهم الذاتية ، ام في مواقفهم وكلماتهم التي تصدر منهم .

---

(١) التوبة : ٤٠

(٢) الأنعام ١١٥

الفصل الرابع

شرائط الحق في علم علي

نعم ، من خلال هذه الآفاق –خاصة– ينبغي ان نفهم ما تعنيه فضيلة العلم في علي عليه السلام ..

فعلي عليه السلام هو أحد أولئك الأصفياء الذين انتجبهم الله (تعالى) لقيام الحق في هذه الأرض ، فمن الطبيعي ان يستوعب –في كيانه وحياته– شرائط هذا الحق وضروراته كافة ، بما فيها هذا المدد الخاص من العلم ، الذي يمكّنه من الاحاطة لا بخصوص مظاهر التكوين وحدها ، وإنما بمقتضيات حكمة الله فيها أيضاً .

وعلي هو احد مظاهر كلمة الله (تعالى) في البشرية بعد الرسول صلى الله عليه وآله كذلك ، فمن الضروري ان يتحقق فيه تمام هذه الكلمة وسموّها في أي من مكونات شخصيته ، وفي أي سلوك يصدر منه .

إذن فلا بد أن يكون علم علي عليه السلام –وهو بعض مكونات شخصيته العظمى– فيضاً إلهياً خاصاً ، ولا بد أن يسمو عن الحدود التي قصرت بالطبيعة الإنسانية العامة عن أن تنال ذالك المدى ، وأن لا يحكم بأي من الظروف الانيّة ، أو المستويات أو الاتجاهات الشائعة للمعرفة في عصر من العصور ، أو في مجتمع من المجتمعات ، وإنما الذي يحدده –دون أي شيء آخر– خصوص اصطفاء الله (تعالى) له ، واختياره إياه علما لهداه ، ومناراً لحجته ، ومظهراً لكلمته العليا .

وهذا ما تؤكده نفس الروايات السابقة التي وردت عن الرسول ﷺ وعن علي عليه السلام معاً .

إذ يقول الرسول ﷺ -وكما قرأناه في الطائفة الأولى منها- : (هذا أخي ووصيي وواعي علمي ، وخليفتي على من آمن بي ، وعلى تفسير كتاب ربي) .

(فاسمعوا له وأطيعوا ، فان الله مولاكم وعلي إمامكم ؛ فما من علم إلا وقد أحصاه الله فيّ ونقلته إليه ..) .

ويقول علي عليه السلام -وكما قرأناه في الطائفة الثانية- : (علّمني رسول الله ﷺ الف باب من العلم ، واستنبطت من كل باب الف باب) .

(إني أحدّث .. كنت إذا سألت أعطيت ، وإذا سكت ابتدئت ، وبين الجوانح علم جم فاسألوني) .

❖ ❖ ❖

وهنا لا بد من القول بأن الانطلاق في فهم علم علي عليه السلام من خلال هذين المنشأين خاصة ، وما يعنيه كل منها من مستلزمات ودلالات ، يجب ان يكون هو الأساس الأول في التعرف على معالم شخصية علي عليه السلام ، بل ومعالم شخصيات غيره من موارد الاصطفاء الإلهي ، والتعامل معهم ، ومع مواقعهم الكبرى في دين الله (تعالى) ، وحجته البالغة على العباد .

أولاً : لما قلناه في مقدمة هذا الحديث من ان الاصطفاء الإلهي -بما له من مقتضيات- هو المقوّم الأساس لكيانات الأصفياء ، ويستحيل على احد من الناس ان يصل إلى فكرة سليمة حول أي فرد منهم ، أو حتى حول شأن من شؤونه ، دون ان يأخذ بالاعتبار هذا الاصطفاء نقطة ارتكاز مبدئية يعتمدها في ملاحظته واستنتاجه .

ثانياً : لاختلاف النتائج التي سيحصل عليها المرء في ملاحظته لهذه الفضيلة الكبرى لدى الأصفياء -حين يبدأ فيها من هذا المنطلق- عما لدى سائر الناس وان بلغوا من السمو فيها درجة كبيرة لافتة للأنظار .

ونحن هنا نقف عند ركن أساس من الأركان التي لها دور كبير في بلورة معالم الحق في شخصية علي عليه السلام ، وفي موقف المسلم معه ، ومسؤوليته تجاهه، وهو يستلهم معالم الهدى منه ، ويتبع دلائلها في حياته ومواقفه وكلماته، ولا تبرز معالمها إلا من خلال ملاحظة هذا المنشأ خاصة .

وهذا الركن هو ما يمكننا أن نسميه بعنصر السعة أو الشمولية في علم علي عليه السلام .

❁ ❁ ❁

عنصر الشمولية في علم علي عليه السلام ..

ولكي نكون على بصيرة من سمة الشمولية في العلم الذي آتاه الله (تعالى) علياً عليه السلام ، فتجب ملاحظتها من خلال بعدين اثنين ، لكل منهما دلالاته في بيان ما تعنيه هذه الشمولية :

البعد الأول : دور الإسلام في قيام الحق في الوجود الإنساني .

البعد الثاني : دور رسالة محمد صلى الله عليه وآله في البشرية كخاتمة لرسالات الله (تعالى) في الناس كافة .

البعد الأول
الإسلام وإقامة الحق في الوجود

أما البعد الأول ، فلا بد -لفهم ما يعنيه دور الإسلام في قيام الحق- من مراجعة سريعة للمبدأ الذي اعتمدناه في هذا الحديث ، وهو التزام الإسلام لسمة الحق ، وما لاحظناه من أن الحق في الإسلام إنما يعني مطابقته الحدية والدقيقة لدلائل حكمة الله في الخلق ، واستقامته التامة مع مقتضيات هذه الحكمة في تسويتها للكون عامة ، وللإنسان خاصة ، وحين رسمت لهذا الكائن دوره المميز في الوجود ، وأهّلته لتسنم هذا الدور ، بما أفاضت عليه من خصائص وطاقات .

فمن هذا المبدأ يجب فهم السعة والعمق لمعنى الحق في الإسلام ، وسعة الإسلام ذاته ، وسعة ما له من خصائص ومميزات وشرائط ، تمتد إلى كل حقيقة من حقائقه ، وإلى كل مجلى من مجاليه ، بما في ذلك أصفياؤه المنتجبون ، وما يملكون من مزايا ، ترتفع بهم إلى هذه القمة السامية .

فلهذه السعة ركنان أساسيان :

اولهما : استيعاب تلك الحكمة الربّانية لحقائق الوجود كافة ، وما فيها من مظاهر وظواهر .

ثانيهما : ضرورة اطراد هذه الحكمة في كل حقيقة من حقائق الإسلام، باعتباره القانون الذي يأخذ بيد الإنسان لتحقيق مقتضيات تلك الحكمة في إنشائه وخلقه .

ومما يجب الالتفات إليه -في ملاحظتنا للركن الأول- ان حكمة الله -سبحانه- أسمى من ان تقتصر على موارد خاصة من ظواهر الخلق ، وأجل من ان تتناهى عند حدود معينة من حدودها ، فهذه الحكمة - وكما نعلم من مبدئها- احد مجالي الكمال الإلهي المطلق ، الذي لا نقص فيه من جهة ، ولا حاجة فيه من جهة ..

إذن فمن الضروري ان تبرز دلائلها في كل ما ينشأ عن هذا الكمال من خلق ، وما يصدر عنه من أمر .

وهكذا تجلت هذه الحكمة في الموجودات التكوينية -عامة- فيوضاً شاملة من الرحمة واللطف تحقق بها وجودها ، وتستكمل بها غاياتها .

.. الموجودات كافة ، في كل مظهر من مظاهرها وكل سمة من سماتها ، وكل حالة من حالاتها .. الدقيقة منها أو العظيمة .. البسيطة فيها أو المعقدة ، لا يستثنى منها جزء ، ولا تحيد عنها حالة ، ولا تزيغ عنها سمة .

وليس الإنسان وما يملكه من خصائص ومميزات ، وما تتحقق به هذه الخصائص من مواقف وأفكار ، سوى واحد من تلك الموجودات التي لا بد أن تتجلى بها تلك الحكمة ، وتبرز فيها ألطافها .

وليس الإسلام إلا بعضاً من فيوض تلك الحكمة ، ليستكمل به دوره الذي أعده الله له بين مخلوقات هذا الكون .

وهذه النقطة تعني ان ملاحظة سمة الحق في الإسلام يجب أن تنطلق من عموم حكمة الله في الوجود ، وعدم اقتصارها على خصوص الإنسان وحده ، حيث لا يمكن اقتطاع الإنسان وحده عن جذوره ودوره في الوجود التكويني العام ، لأنه لا يعدو أن يكون مظهراً من مظاهره -كما هو معلوم- .

ولهذا فلا بد من ملاحظة أن الحكمة الإلهية التي أنشأت الإنسان ، وأنزلت الإسلام لهداه في طريق الكمال الاختياري لم تقتصر في دلالاتها معه عند حدوده الخاصة فحسب ، بل أخذت جميع امتداداته ضمن موقعه في هذا الوجود ، ودوره المتميز بين المخلوقات .

بل ولا بد من ملاحظة أن الحكمة الربانية حينما خلقت الكون ، أعدته لأن يمضي في وحدة متكاملة ، موحدة القوانين والسنن والمواقع والغايات ، وإن تجلت تلك السنن في كل موجود بما يناسب طبيعته ، ودوره وموقعه بين الموجودات .

فتلك الحكمة الإلهية هي التي تجلت رحمتها في جزيء الذرة الموجب -وهو يكون مركزها الذي يستقطب جميع مكوناتها الأخرى- ، وجزيئها السالب -وهو يدور حول جزيئها الموجب بقوانين مرسومة-، استقام بها الوجود المادي للكون كله .

وتلك الحكمة هي التي تجلّت في العناصر المادية ، البسيطة منها والمركبة ، وهي تنسق بين العالم الهائل من الذرات ، لتصنع منها مختلف ما في الكون من مظاهر وموجودات مادية ..

وتلك الحكمة هي التي بدت في الخلية الحية وهي تمازج بين تلك المكونات المادية وعنصر الحياة فيها ، وفق قوانين دقيقة لا تتخلف ، ولا تتفاوت .

وتلك الحكمة هي التي أحكمت الجسم الحي ، وهو يضع كل خلية منه في موضعها المناسب من خلال عالم من السنن لم يحط العقل الإنساني منها -حتى الآن- إلا بالقليل القليل .

وتلك الحكمة هي التي سوّت الإنسان ، وميزته بعد أن استكملت فيه جميع القوانين المادية والحيوية ، وأمدته بخصائصه ومزاياه الخاصة ،

لتعده لدور الخلافة عن الله في هذه الأرض من بين سائر موجوداتها .

وتلك الحكمة الإلهية نفسها هي التي تجلت بالإسلام أيضاً كقانون رباني شرعه الله (تعالى) للأخذ بيد هذا الإنسان المختار -وبما يتناسب وطبيعته الخاصة كذلك- إلى الغايات الأولى التي أنشأه لها ، وأعد ما فطره عليه من طاقات وخصائص ومميزات .

وحين اقتضت حكمة التشريع أن تجسد حقائق الإسلام في شخصيات تنتجبها لتصبح مثلاً عليا لتربيته ، وعلى صعيد الفكر والتطبيق ، فلا بد أن تأخذ -في تكوينها- جميع المبادئ والأصول والجذور التي انطلقت منها في بناء كيان الإسلام ذاته ، وتعيين دوره في الوجود والحياة ..

كما تأخذ فيها واقع الاختيار الإنساني ، الذي شرعت له الإسلام ذاته .. هذا الاختيار الذي لا يستقل في جذوره وأولياته وعلاقاته عما يحيط به من مظاهر التكوين ، وان امتاز عما سواه ببعض المميزات ، لأن اقتطاعها ولو عن بعض تلك الأمور مما يعيقها عن تحقيق غايات ذلك الاصطفاء -ولا ريب-، وهذا مما لا يتلاءم ومقتضى الحكمة .

❁ ❁ ❁

دور الحكمة الإلهية في القرآن

نعم ، والقرآن المجيد ليشير -في العديد من سياقاته المباركة- إلى هذه الناحية ، وما ذكرناه لها من مستلزمات وآفاق ...

إذ هو يؤكد -وكما سنقرؤه في السياقات التالية- على دور الحكمة الإلهية كمصدر عام لكل ما في هذا الوجود ، وعلى الوحدة المطّردة لها في التكوين والتشريع معا ، وعلى توحّد الموجودات كلها في المبادئ ، ووحدة ما في هذه الموجودات من سنن تحكمها ، ليبلغ كل منها إلى ما

أعدته له هذه الحكمة من أهداف ، ثم لتنتهي إلى ان الإسلام واحد من تلك السنن الضرورية لاستقامة الوجود التكويني في عالم الإنسان ، وقد شرعته الحكمة الإلهية ليبلغ به هذا الكائن –وعن طريق اختياره وإرادته– إلى ما رسمته له من أهداف رفيعة في هذه الحياة وفي الحياة الأخرى على حد سواء ، وكما أنشأته قمة بين مظاهر التكوين ، ليصبح الإسلام –من ثم– هو القمة بين سنن الكون كافة .

ونقف هنا عند شاهدين اثنين من هذه السياقات القرآنية الواردة في هذا المعنى ، ونقرؤهما دون تعليق أو شرح ، لوضوح دلالتها على ما ذكرناه ، ضمن هذه الآفاق العامة التي تعنينا ، حيث لا يحتاج استلهام المراد منها لأكثر من قراءة متأنية مع قليل من التدبر والتأمل .

قال (تعالى) في سورة الأنعام :

﴿إِنَّ اللّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ .

فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ .

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .

وَهُوَ الَّذِيَ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ .

وَهُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُّتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُواْ إِلِى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .

وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ . بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ . لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ .

قَدْ جَاءكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ .﴾ [1] .

وقال (تعالى) في سورة الجاثية :

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ . إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ لآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ . وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ . وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ .

تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ .﴾ [2] .

إلى العديد من السياقات الأخرى المشابهة ، وهي كثيرة في القرآن .

❖ ❖ ❖

الأرصدة المبدئية للإسلام

نعم هذه هي الأرصدة المبدئية التي ينطلق منها وجود الإسلام ذاته، وهذه هي الدعائم التي بنيت عليها حقائقه كافة ، وهذه هي الأصول

---

(١) الأنعام : ٩٥ — ١٠٤ .

(٢) الجاثية : ٢ — ٦ .

التي يعتمدها في سنّ مناهجه ، وتشريع أحكامه .

حكمة ربانية شاملة ، أوجدت الموجودات ، وكوّنت الكون ، ودبّرت ما فيه من مظاهر ، وحدّدت لكل مظهر منها غاياته ، واعدّت له دوره، ثم رسمت له ما يبلغ به إلى تلك الغايات من سنن يستحيل عليه ان يتخلف عنها ، كما يستحيل على تلك الحكمة نفسها أن تزيغ به عن الهدف ، إذ تعالت عن العبث ، والعجز ، والجهل .

ثم جعلت هذه الحكمة من الوحدة بين الموجودات ، والتكامل بين سننها رصيداً لتجلّياتها فيها ، وبتلك الوحدة وهذا التكامل استقام الوجود ، وانتظم أمره ، دون خلل أو تفاوت ..

أما الإنسان ؛ فهو لا يعدو ان يكون جزءاً من الكون ، وبعض موجوداته ..

وأما موقعه فيها ؛ فليس هو إلا أحد المواقع التي يبرز به ذلك التكامل المطّرد فيما بين تلك المكونات بأرفع وأجلى ما تريده الحكمة .

وأما دوره فيها ؛ فليس هو كذلك إلا واحداً من المظاهر التي يتجلى بها اتساقها وانتظامها الرفيع .

وأما الإسلام ؛ فهو لا يعدو أن يكون السبيل الذي يحقق به الإنسان غايات تلك الحكمة في وجوده وحياته ، إذ ما كان ليبلغ هذه الغايات بدون منهج ينتظم به في سلوكه الاختياري مع المسيرة العامة للكون ، ويستقيم به مع متطلباتها في الحياة .

ثم ما كان الإسلام ليبلغ بالإنسان إلى هذه الغايات الرفيعة بدون استقامته المطلقة مع تلك الوحدة العامة ، وذلك التكامل الشامل .

❖ ❖ ❖

علم المنتجب ومقتضيات الحكمة

إذن ، فهذه الشمولية -وبهذه السعة المستوعبة لمظاهر التكوين كافة، ولدلائل حكمة الله فيها- هي رصيد الإسلام في أولياته المبدئية ، التي ينهض عليها كيانه ، وعليها يقيم دلائله وبيناته ، لتبلغ به حجة الله (تعالى) على العباد، وتستقيم به كلمته في الأرض ، ويظهر به لطفه العميم ، ورحمته الواسعة بالإنسان .

وهذا يعني -وبوضوح لا لبس فيه- ضرورة ان تؤخذ هذه الشمولية - وبهذه السعة أيضاً- في علم الشخص الذي يصطفيه الله (تعالى) لتبليغ أمره، ويختاره لأن يكون حجته القائمة لدينه في البشرية ، إذ بدون هذا المستوى من الاحاطة في علم المنتجب لا يضمن الإسلام لنفسه استقامته مع الحق ، بتلك الحدية التي ذكرناها في التمهيد الأول لهذا البحث .

علم تمتد آفاقه لا إلى الإحاطة بوجود الإنسان وحياته وأحواله ومنزلته الخاصة بين الموجودات فحسب ..

بل ، ولا إلى الاحاطة بهذا الوجود التكويني القائم ، وما فيه من مكونات ومظاهر كذلك ، وان كانت هذه الدرجات الرفيعة من العلم هي المطمح السامي الذي تقف دونه آمال البشرية كافة في الدراسة والبحث ، وترنو إليه أبصار العلماء وبصائرهم في مختلف فروع العلم والمعرفة ، على امتداد التأريخ الإنساني .

كلا ، وإنما هو علم يمتد إلى ما وراء الموجودات كافة ، ليستوعب ما تعنيه حكمة الله -سبحانه- فيها ، وما تقتضيه هذه الحكمة فيها من شؤون ، وما تستوجبه من سنن وقوانين ؛ على ان يكون هذا الامتداد إلى المدى الذي يستوجب قيام حجة الله (تعالى) بذلك الشخص

المرتضى ، وما يصدر عنه من مواقف وأقوال ، لا في حدود عمره الشخصي فقط ، وإنما في آفاق الدور الذي اتسعت له مسؤوليته في قيام دين الله (تعالى) -كما قلناه أكثر من مرة- .

فمن الواضح ان أي قصور يبدو في كلمة ، أو في موقف يصدر من ذلك الشخص المرتضى عما رسمه الاصطفاء الإلهي له من مهمات يعني -ودون أي ريب- نقصاً في قابلية هذا الشخص على أداء دوره المطلوب منه، وهذا -بدوره- محال ، إذ هو سينعكس في دلالاته السلبية على ذات الاصطفاء الإلهي له ، وعلى دين الله نفسه ، وعلى قيام حجته فيه.

وستأتي -ان شاء الله- الإشارة إلى ما يعنيه قوله (تعالى) في سورة الجن :

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً . إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً . لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً [1] ﴾ .

فانّ في الآية الثالثة من هذا السياق المبارك تأكيداً واضحاً على أن تحقيق مقتضيات الاصطفاء الإلهي لرسل الله ، وإبلاغهم لرسالاته -سبحانه- ضرورة لا بد من استيفاء جميع حاجاتها ، ومن إمدادهم جميعا بكل ما يفتقرون إليه من وسائل ، وان كان هو العلم ببعض الغيوب .

نعم ؛ ولهذا وجب ان يكون مصدر العلم في أولئك الأصفياء ، هو الله (تعالى) ، فالآفاق التي ذكرناها مما يستحيل على الحدود الإنسانية القاصرة بلوغها دون مدد ربّاني خاص ، يأخذ بها إلى ذلك المستوى الرفيع .

(١) الجن : ٢٦ - ٢٨

والآيات الكريمة التي عرضت لرعايات الله –سبحانه– لرسله وأصفيائه المطهرين نصت على ان سمة العلم هي بعض مجالي هذه الرعاية ، ومن آفاقها ..

فيقول (تعالى) في آدم عليه السلام –مثلا– :

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ .[1]﴾ .

كما يقول عن نوح عليه السلام :

﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ . أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ .[2]﴾ .

ويقول عن موسى عليه السلام :

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ .[3]﴾ .

ويقول –سبحانه– عن محمد صلى الله عليه وآله :

﴿وَأَنزَلَ اللّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً .[4]﴾ .

إلى آيات أخرى وردت في هذه المضامين .

وهذا أيضاً ما أكده الرسول صلى الله عليه وآله في بيان ما تحمله ذاته المقدسة من فضيلة العلم ، وقد قرأنا قوله صلى الله عليه وآله يوم غدير خم : (فما من علم إلا وقد أحصاه الله فيّ ..) .

---

(١) البقرة : ٣١.

(٢) الأعراف: ٦١ – ٦٢ .

(٣) القصص : ١٤.

(٤) النساء : ١١٣.

كما يقول ﷺ في حديث آخر : (أوتيت مفاتيح كل شيء إلا الخمس : ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ، وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً ، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ .[1]﴾[2]) .

وحين تكون صفة العلم لدى هؤلاء المنتجبين إلهية المنشأ -دون اكتساب حتى منهم أنفسهم- فطبيعي ان لا يوجد فيها قصور أو تفاوت عن الضرورات التي قلناها ، حيث يستحيل تصور احد هذين النقصين فيهم حينئذ ، فالله (تعالى) أجل وأعز من ان يُرى في أمره وهن ، أو يكون في قدرته عجز ، أو يوجد في حكمته تفاوت .

❁ ❁ ❁

أصول العلم في علي عليه السلام

ولابد ان تكون هذه الآفاق ، وهذه الشرائط هي أصول سمة العلم لدى علي ..

فهو عليه السلام أول الذين ارتضاهم الله (تعالى) لقيام حجته الكبرى في البشرية بعد الرسول ﷺ ، وفي آفاق إقامة هذه الحجة حددت مسؤولياته العظمى في هذه الحياة ، وحينئذ فمن المستحيل على حكمته (تعالى) ولطفه بالعباد ، ان لا يمدانه بما يحتاجه في أداء مسؤوليته هذه ، وفي تحقيقه لشرائط الحق من خلال موقعه الخاص في دينه القويم ..

والروايات السابقة التي ربطت بين علم الرسول ﷺ وعلم علي عليه السلام .. وكذلك الروايات التي ربطت بين علم سائر الأنبياء عليهم السلام ، أو علم بعضهم وعلمه عليه السلام واضحة الدلالة على هذه الناحية .

---

(١) لقمان : ٣٤ .

(٢) مجمع الزوائد - للهيثمي : ج٨ ص٢٦٣ .

فهو علم إلهي المنشأ ، أفيض عليه عليه السلام لتأهيله للقيام بمهماته الكبرى التي كلّف بها في دين الله –سبحانه- وفي ولايته العامة على الأمة ؛ وطبيعي ان لا يقصر عن ضرورات هذه المهمة أو يحيد عنها .

(علي عيبه علمي) .. (علي باب علمي) .. (أنا مدينة العلم وعلي بابها).. (أنا دار الحكمة وعلي بابها) .. (ما من علم إلا وقد أحصاه الله فيّ ، ونقلته إليه) .. (من أراد ان ينظر إلى آدم في علمه) .. (ووارث علم النبيين) .

إلى غير ذلك من الأحاديث .

البعد الثاني
دور رسالة محمد ﷺ في البشرية

أما البعد الثاني الذي ينبغي ان نقف عنده من عنصر الشمولية في علم علي عليه السلام ، فهو الجانب الذي يتأتى من سعة دور رسالة محمد ﷺ في البشرية ، وعظم مهماتها في إرشادها إلى الصراط المستقيم ..

هذه الرسالة التي كان لعلي عليه السلام موقعة الثاني فيها بعد الرسول ﷺ، ومن أجل الوفاء بمسؤوليات هذا الموقع ارتضاه الله -عزّ وجل- ولياً ووصياً للرسول ، فمن الطبيعي ان يكون لتلك السعة وهذه العظمة كذلك دلائلهما الواضحة في الشرائط والسمات العامة التي تتجلى في أصفياء هذه الرسالة ، ومنتجبيها كافة -بمن فيهم علي عليه السلام-، لنفس المستلزمات التي ذكرناها سابقاً.

ونقف هنا عند جانبين من هذه السعة :

أولهما : من بداله رسالة محمد ﷺ أنها أنزلت لتستوعب البشرية جمعاء، وان الله قد أرسل محمداً للناس كافة ، وهذا ما صرح به القرآن نفسه .. قال (تعالى) :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ..[1]﴾ .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً .[2]﴾ .

---

(١) الأعراف : ١٥٨.

(٢) سبأ: ٢٨.

ثانيهما : إن الله -سبحانه وتعالى- قد جعل هذه الرسالة خاتمة لرسالاته في هذه الأرض فلا رسالة بعدها ، كما جعل محمداً خاتما للنبيين فلا نبي بعده ، وهذا كذلك صريح القرآن ، قال -عز من قائل- :

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ..[1]﴾ .

والمعنى القريب لهذين الجانبين من السعة في رسالة محمد ﷺ :

ان الإسلام في رسالته المحمدية العصماء هو الدين الذي جعله الله (تعالى) هدى للبشرية كافة ، فلا تحدّه في مهمته لغة من اللغات ، ولا طائفة من الطوائف ، ولا أمة من الأمم ، أو قومية من القوميات ، أو مستوى حضاري أو علمي خاص ، أو بلد من البلدان ، أو اتجاه من الاتجاهات الفكرية أو الحضارية ، أو غيرها .

وان الإسلام في رسالته المحمدية هو الدين الخالد مع البشرية ، ما دام لها وجود في هذه الأرض ، فلا يحدّه زمن من الأزمنة ، ولا عصر من العصور ، منذ أن صدع الرسول الكريم ﷺ بأول حقيقة من حقائقه وحتى يوم يقوم الحساب ، فلا استغناء لجيل من الأجيال عنه ، ولا اكتفاء لفرد من الأفراد دونه ، ما دام هناك من يعمر البسيطة ، مهما تمادت الحقب ، وتواترت القرون .

وكلتا النقطتين -كما قلت- من البدائه الإسلامية المعروفة ، والتي التزمها القرآن بصريح آياته -كما قرأنا- إضافة إلى مصادر الإسلام الأخرى .

---

(١) الأحزاب : ٤٠.

وهذا الالتزام يعني أن دين الله -عز وجل- يتخذهما أصلاً عاماً في حقائقه كافة ، وشرطاً مطّرداً في بيّناته ودلائله جميعاً ، إذ لا يمكن تحقيق هذه الغاية الكبرى بدون ذلك -كما هو واضح- .

والذي يعنينا من هاتين النقطتين هنا : ملاحظة آثارهما في أرصدة الدلائل والبيّنات الإسلامية من العلم خاصة ، ولا سيما ما يحتاجه منه أصفياؤه المنتجبون عليهم السلام .

وقد لا حظنا في البحث السابق أن السبب في اعتبار الشمولية كواحدة من الشرائط الأساسية في علم الشخص المنتجب ، إنما هو لضرورة التناسب الكامل بين حدود الاصطفاء الإلهي والغايات المطلوبة منه ، ليتمكن الشخص المصطفى من الوفاء بمسؤولياته الكبرى فيه ، حيث يستحيل التفاوت والتقصير .

كما كان هذا التناسب هو السبب في حاجة علم الأصفياء إلى المصدر الإلهي ، لقصور الإنسان -مهما بلغ سمواً وكمالا- عن الاستقلال بنفسه في الوصول إلى هذا المستوى ، دون مدد من العلم الربّاني المحيط ..

وكان السبب -كذلك- لأن يستوعب علم الأصفياء جميع الأصول والمبادئ التي يستند إليها دين الله (تعالى) من مقتضيات الحكمة الإلهية ذاتها ، وتجلياتها الكبرى في الوجود الإنساني بشكل عام ..

كذلك لا بد ان يكون هذا التناسب هو السبب في سعة هذا العلم لجميع آفاق مسؤوليات أولئك الأصفياء ، في إبلاغ كلمة الله (تعالى) إلى أسماع البشرية وبصائرها ، وقيام حجته عليها في جميع أزمنتها وأمكنتها، ومستوياتها الفكرية والعلمية والحضارية ، واتجاهاتها الثقافية ، حيث أخذت كل هذه الأمور في تلك المسؤوليات، ويجب أن لا يقصروا عنها.

بمعنى أن هذا التناسب هو الحاكم بضرورة ان تكون سمة العلم في منتجبي دين الله عليهم السلام بدرجة من الكمال والسمو تستوعب جميع الدرجات التي يتصور بلوغ البشرية كافة إليها ، وفي جميع أزمنتها وأمكنتها ، ومجتمعاتها وحضاراتها ، وما تصل إليه من مستوى فكري أو عملي ، وفي أي مجال من مجالات المعرفة ، وفي أي صعيد من أصعدة الحياة وعلى مدى التاريخ .

إذ كما استحال التفاوت في الأصول المبدئية التي يستند إليها الإسلام في الدلائل التي يقيم بها حجة الله على الناس ، مما استدعى الاستيعاب في علم منتجبيه لحقائق تلك الأصول ، منذ أعماقها الأولى ، كذلك يستحيل التفاوت في الغايات الإلهية لهذا الدين في هدى الناس ، إذ الملاك في الجميع واحد .

فما في هذه الغايات من جوانب السعة والشمولية لمختلف المجالات والمهمات ، يجب أن يكون دخيلاً في كمال دلائله وبيّناته ، بدرجة يجعلها تسمو على الزمان والمكان والمستويات التي يمكن ان يبلغها الناس لئلا تقصر هذه البينات عن دورها في إبلاغ كلمة الله (تعالى) في عصر من العصور ، أو في مجتمع من المجتمعات .

بمعنى ان تكون هذه الدلائل والبينات شاملة الحجة في أي وجود بشري، وعلى أي مستوى يصل إليه الفكر الإنساني .

وان تكون بالغة الحجة في كل مكان يعيش فيه احد من الناس على هذه البسيطة .

وهي ضرورة عامة في ألسنة الإسلام كافة ، وفي جميع شواهد تصديقه .. من القران الكريم ، إلى سنة الرسول العظيم صلى الله عليه وآله ، إلى تراث أوصيائه المنتجبين ، إذ الأساس في الجميع واحد ، والمقتضيات واحدة ،

والمنهج واحد -كما علمنا- .

وهكذا كان لكل ما صدر من الرسول ﷺ ، ومن أوصيائه المطهرين عليهم السلام جميع شرائط الحجة الإلهية وعوامل بلوغها ، وسمو كلمتها مع العصور ، وفي أي وسط اجتماعي ، دون ان يحدّ هداها وإلزامها للبصائر حدود موضوعية أو فكرية ، أو شيء مما يحكم حياة الناس من أسباب التفاوت والاختلاف ، أو شيء مما يمليه عامل الزمن من الفوارق في المستويات والاتجاهات ، بالرغم مما اقتضته فيها ظروف الخطاب ، وحدود فهم الناس الذين خوطبوا بتلك الكلمات من طرائق وحدود .

وهي نقطة ندرك نحن وضوحها في هذه الأيام كما كان يدركها من سبقنا بالأمس ، فالإعجاز في ذات الإسلام ، وفي دلائله وبيّناته كافة وقيام حجته ، مما يشهده كل لبيب .

فسنّة الرسول ﷺ ، وسنة عترته المنتجبين عليهم السلام -كما هو الشأن في القرآن العظيم- هي اليوم -وكما كانت بالأمس- حجة لله بالغة ، واضحة النور والهدى لجميع الناس ، لا وهن في دلالتها ، ولا خلل في عطائها ، وستبقى جميعها بهذا المستوى من الوضوح والقوة والكمال مع الناس في حياتهم إلى القيامة ..

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ .[1] ﴾ .

---

(١) الحجر : ٩ .

الفصل الخامس

ينابيع الإعجاز في علم المنتجبين

وهذه السعة بهذا المستوى هي -ولا ريب- من الفوارق المهمة بين أولئك الأوصياء وغيرهم من الناس ، إذ يمكن اعتبارها ينبوعا من ينابيع الإعجاز الإلهي في كلماتهم وافعالهم ومواقفهم كافة ..

فالشخص العادي من الناس يستحيل عليه بلوغ هذه السعة ، بهذا المستوى في مداركه وطاقاته المحدودة ، ما لم يرفده مدد رباني خاص ..

فقد قلنا أكثر من مرة : ان الإنسان وليد عصره ، وهو ابن بار للوسط الذي يعيش فيه ، وان استطاع أن يتجاوز وسطه بخطوة إلى الإمام أو الخلف أو إلى احد الجانبين ، إلا أن ملامح الوسط الذي يعيش فيه ، ومستواه واتجاهاته ، إضافة إلى حدود طاقاته وإمكاناته التي ورثها أو جبل عليها ، تبقى هي الحاكمة على نتاجه ، شاء ذلك أم أبى .

فان لكل بلد من البلدان ، ولكل طائفة من الطوائف ، وكل حضارة من الحضارات ، تقاليد ومسلّمات ، واتجاهات سلوكية وعملية وثقافية خاصة، تختلف بها عن غيرها من البلدان ، أو الطوائف أو الحضارات ، حتى في الزمن الواحد .

وكذلك فانّ لكل حقبة من حقب التأريخ ، ولكل زمن تمرّ به أجيال الناس ، أثرا كبيرا في طرح نوع خاص من التوجهات ، والاهتمامات الفكرية والسلوكية ، وكذلك في الوصول إلى درجات

خاصة من الخبرة ، يتفاوت به كل جيل عما تناله الأجيال الأخرى ، حتى في البلد الواحد ، أو الشعب الواحد من الناس ..

ولا ريب ان لكل من هذين الجانبين أثره في تحديد السمات العامة لشخصيات الناس ، فان الفرد وهو ينشأ في وسط اجتماعي أو ثقافي معين ، لا بد ان يكتسب طابع البيئة التي يعيش فيها ، ويتأثر بالأجواء العامة التي تحكمها من حيث يشعر أو لا يشعر .

ومثل هذا التحديد مما لا يتصور في موارد الاصطفاء الإلهي ، وبالأخص أولئك الذين أخذت الشمولية للبشرية ولعصورها كافة في مسؤولياتهم ، وفي مقتضيات اصطفائهم كمحمد ﷺ والنجباء من عترته المطهرين عليهم السلام .. إذ من المستحيل تصور قصور أي منهم عن الوفاء بتلك المسؤوليات وهذه المقتضيات -كما رأينا-، فمن الطبيعي ان تؤخذ تلك الشمولية -بكل أبعادها- في مجاري الفيوض الربّانية لهم في مستوى العلم الذي يحملونه ، وإحاطتهم بحقائق الأمور -أيضاً-، تماماً كما هو الشأن في الشرائط الأخرى التي يستوجبها اصطفاؤهم ، وشرائط الحق الذي اعتمده هذا الاصطفاء لهم .

ومن هنا أوتي الرسول ﷺ مفاتيح كل شيء ، إلا الخمس التي ذكرتها الآية الكريمة السابقة ..

كما أوتي ﷺ الكثير من الخصائص التي فضّل بها حتى على غيره من أنبياء الله ورسله عليهم السلام ، لاختلاف ما بين مسؤولياته ومسؤولياتهم ، إذ كانت رسالاتهم محدودة الزمان أو المكان أو المجتمعات البشرية -كما هو معروف عنها- بينما لم تحدد رسالته بأي من تلك الحدود .

إضافة إلى أن رسالته قد أعدت للبشرية في المراحل العليا من نضجها الفكري والعلمي والأخلاقي والسلوكي ، حيث وصلت إلى

القمة في هذه الجوانب ، بينما الرسالات السابقة قد أعدت لدرجات أدنى من درجات النضج الإنساني -كما هو معلوم- .

وفي هذا المعنى يقول ﷺ : (فضلت على الأنبياء بست ، أعطيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب ، وأحلت لي الغنائم ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، وأرسلت إلى الخلق كافة ، وختم بي النبيّون[1]) .

ويقول ﷺ أيضاً : (أعطيت ما لم يعطه احد من الأنبياء . فقلنا : يارسول الله ؛ وما هو ؟ .

قال ﷺ : نصرت بالرعب ، وأعطيت مفاتيح الأرض ، وسمّيت أحمد، وجعل لي التراب مسجداً وطهوراً ، وجعلت أمتي خير الأمم[2]) .. إلى روايات أخرى وردت عنه ﷺ في هذه المضامين ..

وفي هذين الحديثين إشارة واضحة لما قلناه من سعة رسالة محمد ﷺ للبشرية كافة ، وحتى آخر أزمنة وجودها في هذه الأرض ، ومن أن هذه الرسالة قد أعدت للمراحل العليا من النضج البشري :

(وختم بي النبيون) ، و(جعلت أمتي خير الأمم) .

❁ ❁ ❁

علي تبع للرسول ﷺ في العلم

وعلي عليه السلام لا يختلف في هذه الناحية عن الرسول ﷺ ، وان كان تبعاً له فيها .

فالله -سبحانه- هو الذي اختاره ولياً للأمة بعد الرسول ﷺ ، وارتضاه هادياً لها بدينه القويم ، ونبراساً له في البشرية ، ومبلّغا لأمره

---

(١) صحيح مسلم : كتاب المساجد ج ٧.

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل : ج ١ ص ٩٨.

بين الناس ، وإن لم يبلغ درجة النبوة ، بل هو عليه السلام قد أخذ هذه المهمات والمواقع والأدوار من الرسول صلى الله عليه وآله .

وحديث الرسول صلى الله عليه وآله فيه : (أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا انه لا نبي بعدي[1]) معروف متواتر بين المسلمين كافة .

وحيث لم تحدد مسؤولياته عليه السلام دون حدود رسالة محمد صلى الله عليه وآله ذاتها في البشرية ، فمن الطبيعي ان تؤخذ في اصطفائه ، وفي الفيوض الربّانية له ، نفس الشمولية التي أخذت في اصطفاء الرسول صلى الله عليه وآله ، إذ لا تفاوت في موازين الحق ، ولا في شيء من متطلباته .

وقد قرأنا هذا في بعض أحاديث الغدير ذاتها ، إذ يقول الرسول صلى الله عليه وآله في واحد منها : (فان الله قد نصبه لكم ولياً وإماما ، وفرض طاعته على كل احد؛ ماضٍ حكمه ، جائز قوله ، ملعون من خالفه ، مرحوم من صدّقه ، اسمعوا له وأطيعوا ، فان الله مولاكم ، وعلي إمامكم ، ثم الإمامة في ولدي من صلبه إلى القيامة ، لا حلال إلا ما أحله الله ورسوله ، ولا حرام إلا ما حرمه الله ورسوله وهم) .

ويؤيد هذا الشبه بين مسؤوليتي الرسول وعلي كثير مما ورد عن الرسول صلى الله عليه وآله في حق علي عليه السلام، إذ كان صلى الله عليه وآله يؤكد عليها في كل مناسبة..

فهو صلى الله عليه وآله يقول -مثلا- : (سألت الله فيك خمسا فأعطاني أربعا ومنعني واحدة ، سألته فأعطاني أنك أول من تنشق الأرض عنه يوم القيامة ، وأنت معي معك لواء الحمد ، وأنت تحمله ، وأعطاني أنك

---

(١) مسند الإمام احمد بن حنبل : ج ١ ص ٩٨ ، و يراجع كتاب (فضائل الخمسة من الصحاح الستة : ج ١ ص ٢٩٩ وما بعدها لمعرفة مصادر حديث المنزلة كما يراجع كتاب شواهد التنزيل في تفصيله لأسانيد هذا الحديث .

ولي المؤمنين بعدي[١]) .

ويقول ﷺ : (أنا وعلي حجة الله على عباده[٢]) .

ويقول كذلك -وقد رأى علياً مقبلاً- : (أنا وهذا حجة على أمتي يوم القيامة[٣]) .

ويقول أيضاً في رواية يرويها أنس بن مالك: يا أنس ، قلت : لبيك، قال: (هذا المقبل حجتي على أمتي يوم القيامة[٤]) .

فمن الضروري -حينئذ- أن لا يقصر الرصيد العلمي لعلي عليه السلام عن هذه الآفاق أيضاً .

فالدلائل الإلهية التي أخذ عليه أن يقيمها في البشرية ، والبيّنات والبصائر الإسلامية التي لا بد له من تحقيقها في مواقفه وكلماته ، يجب ان تستوعب حدود البشرية كافة ، وأن تتجاوز عامل الزمان والمكان ، والاتجاهات العلمية والحضارية التي أخذت في اصطفائه ، دون ان تتأثر بحد من حدود هذه الأمور، أو تقصر عن احتواء اتجاه من اتجاهاتها ، أو تعجز عن بلوغ الغاية في أي منها..

وكل هذا واضح بعد ملاحظة تلك الاطلاقات والعمومات الواردة في كلمات الرسول ﷺ في بيانه ما لعلي عليه السلام من خاصة العلم ..

وفي الأحاديث المتقدمة كفاية عن اقتباس المزيد ، وان كانت مصادر الحديث ملأى بمثل هذا المضمون ..

---

(١) فضائل الخمسة من الصحاح الستة : ج ٢ ص ٦ من كتاب (تاريخ بغداد) ج ٤ ص ٣٣٩ وغيره.

(٢) المصدر السابق : ج ٢ ص ٦ عن كتاب (كنوز الحقائق) ص ٤٣.

(٣) ن. م ، عن (تاريخ بغداد) ج ٢ ص ٨١.

(٤) ن. م . عن الرياض النظرة للمحب الطبري : ج ٢ ص ١٩٣.

(فما من علم إلا وقد أحصاه الله فيّ ونقلته إليه ، فهو الذي يهدي إلى الحق ويعمل به ، فهو أفضل الناس بعدي ما نزل الرزق وبقي الخلق، ملعون من خالفه ، قولي عن جبرئيل عن الله ..) .

(أعلم أمتي من بعدي علي بن أبي طالب) ..

(علي عيبه علمي) .. (علي واعي علمي) .. (علي باب علمي) .. إلى آخر ما قرأناه ..

ولأن هذا المضمون قد وصل إلى حد التواتر بين المسلمين عامة فلا مجال للريب فيه ، كما لا مجال للتشكيك في تحققه الفعلي في علي عليه السلام لأن الرسول صلى الله عليه وآله ﴿ما َينطِقُ عَنِ الْهَوَى . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى .﴾ بنص الكتاب العزيز .

وقوله عن جبرئيل عن الله ، بالتزامه صلى الله عليه وآله نفسه ..

الفصل السادس

وضوح الإعجاز العلمي في الإسلام

هذا ولعل البشرية في هذه العصور أقرب إلى إدراك ما تعنيه هذه الشمولية في دين الله تعالى ، وفي أبعادها المتقدمة المختلفة ، سواء في حججه البالغة ، ام في الأرصدة العلمية والبيّانية التي تستند إليها وسائل تبليغه المصطفاة ..

.. هذه العصور التي قفزت فيها المعرفة درجات لم تكن بحسبان احد من الناس ، حتى في العصور القريبة من التأريخ –فضلاً عما قبلها من حقب، وسارت فيها ركائب العلوم في كل اتجاه ، ومضى الإنسان يجوب آفاق الفضاء ، ويتأمل مكونات الذرة ، ويغور إلى أعماق النفس الإنسانية ، وينفذ إلى أدق دقائق الحياة ، و ، و الخ ..

إلا أن هذا الإنسان –ومع كل ما بلغه من آفاق المعرفة هذه ، ومع كل ما يفرضه عليه التطور العلمي من نتائج حاسمة في الحياة– لم يجد أي وهن في دين الله (تعالى) ، أو انحراف عن الهدى والرشد اللذين تطمح إليهما البشرية في أي من أصوله ومناهجه ، أو قصور في بيّناته عن كفاية أكبر العقول في قناعاتها التامة ، واطمئنانها إلى سلامة الطريق، وضمان النتائج التي يهدف إليها الإسلام في مختلف توجّهاته .

فرغم جميع هذه المستجدات المشهودة للإنسان يبقى الإسلام هو الهدى الذي يأخذ بيده في الحياة ، وتبقى كلمته هي العليا بين الأديان

والمذاهب ، وحجته هي البالغة التي تملأ العقول .

ولا تزال لتلك الكلمة وهذه الحجة نفس قابليتهما الأولى -والتي كانت لهما منذ أول نزولهما وحتى اليوم- في ملء البصائر ، وقيادة الحياة ، والأخذ بركائب الأجيال الإنسانية إلى ما أراده الله -سبحانه- لها من رشد وصلاح ، والى ما اقتضته حكمة الإيجاد للإنسان من دور سام بين مظاهر هذا الوجود .

ومن الواضح ان هذا السمو والكمال في ذات الإسلام ، وفي اتجاهاته وبيّناته -وبهذا المستوى الرفيع والواضح- ما كانا ليتحققا دون ان تؤخذ السعة -التي قلناها- واحدة من الأرصدة المبدئية في العلوم التي تركن إليها وسائل التبليغ الإسلامية ، التي اختارها الله لإقامة كلمته في هذه الأرض ، وارتضاها سبلاً لإبلاغ حجته إلى العباد .

.. سعة هذه الوسائل لاستيعاب جميع الأصول العميقة التي انطلق منها الإسلام في إقامة كيانه دينا للحق .. الحق المطلق الذي يعتمد مقتضيات حكمة الله (تعالى) في إنشائها للخلق ، ويستقيم مع تجلياتها البارزة والخفية في مختلف جنبات الوجود -بما فيه الإنسان وحياته وشؤونه وعلاقاته الخاصة والعامة .

وسعة هذه الوسائل لاستيعاب جميع أدوار الإنسان ، ومستوياته الفكرية، وتطلعاته العلمية كغاية للهدى الإسلامي نفسه ، ولفاعليته في الحياة، وفي الخلود الأبدي لكلمتها مع الزمن ، دون أن يؤثر فيها أي من عوامل التغيير ، أو تطورات الحقب ..

وكل هذه الأبعاد من السعة واضح في بينات الإسلام وفي بصائر مصطفيه ، ويستطيع أي متدبر واع أن يدركه مع أدنى تدبر لها ، ومتابعة لدلائلها في الحياة .

❁ ❁ ❁

الإعجاز في علم علي عليه السلام

أما علي بن أبي طالب عليه السلام بالخصوص -حيث يعينه هذا الحديث بالذات من بين ألسنة الإسلام ومنتجبي حجته-، فمن نافلة الحديث ان نقول : إنه أحد أولئك الذين تجلّت فيهم هذه السعة في مختلف أبعادها كذلك ..

إذ يكفينا من شواهد تصديقها ما تراه البشرية اليوم -كما رأته بالأمس القريب والبعيد- من حيوية الدلائل الإسلامية ، التي أقامها في كلماته وأفعاله، وإعجاز ما اعتمده فيها من أوليات ، وقيم فكرية وأخلاقية امتدت معه إلى شؤونه كافة ، وخلود النور والهدى في جميع ما أثر عنه عليه السلام في حياته المباركة كلّها .

وها هي حياة علي عليه السلام وما خلّده التأريخ من وقائعها وأحداثها..

وها هي كلمات علي عليه السلام وأقواله التي ألقاها على مسامع الأجيال ، حجة للإسلام بالغة مع الزمن .

وها هو تراث علي عليه السلام جميعه اليوم -وكما كان في السابق- نبراساً حياً ، يمدّ السائرين في طريق الحق بالروح والاستقامة ، ويهدي السالكين في سبيل الرشاد ، بالرغم مما واكب تأريخه ، وتأريخ ولايته ، من غبن الأحقاد ، وانحراف الأهواء ، واستماتة الضغائن في طمس منابع النور فيهما .

ولكن هذه الأحقاد -وبالرغم مما ملكته وتملكه من أفانين الباطل وخبثه- لم تجد في أي من تراث علي عليه السلام ثغرة يمكن أن تنفذ منها إلى مآربها معه ، أو هفوة تستطيع التسلق عليها إلى غاياتها الدنيئة فيه ، أو في إبعاد البصائر الحرّة عنه ، أو تفاوتاً عن حدود الإسلام وبيّناته

الأخرى ، ليمكنها -من ثم- أن تتخذه ذريعة لنيل أهدافها مع ولايته .

وطبيعي أن لا أحاول الدخول في تفاصيل هذه النقطة من شؤون علي عليه السلام ، كما لا أحاول اقتباس بعض شواهدها من التاريخ ، فهي أوسع من أن يستوعبها حديث مقتضب سريع -كالحديث الذي نحن فيه- ..

نعم ، يكفيني ان أشير إلى ما يراه الإنسان -في ذات نفسه- من قصور إزاء العظمة التي يجدها فيما أثر عن علي عليه السلام من كلمات ومواقف .

فإن المرء قد يرتضي من نفسه ما بلغته من درجات المعرفة والعلم ، بل وقد يكبر فيها هذه الدرجات ، إلا أنه ما ان يقف أمام كلمة قالها علي عليه السلام ضمن اختصاصه ، إلا ويدرك انه لا يزال صغيراً ضئيلاً إزاء ما فيها من عظمة ، وما فيها من أصول واقعية قصرت عنها سبل العلم والمعرفة ؛ بل ويدرك ضرورة أن ينتظم في خطها ، ويستظل بظلالها ، أو يقبس من إشعاعها ، ان أراد لكفاءاته وقابلياته ودرجاته العلمية التي نالها أن تثمر ثمارها الطيبة في حياته ، أو في حياة الآخرين ..

ولا يختص هذا الشعور منه في بعض اتجاهات المعرفة دون بعض ، مما استوعبته كلمات علي عليه السلام ومواقفه ، كما لا يختص هذا الشعور ببعض الناس دون غيرهم ، أو بمستوى علمي دون غيره .

ولهذا فيمكن القول بأن كل أحد من الناس يمكنه ان يلمس هذا الشعور من نفسه ، في أي اتجاه من اتجاهات المعرفة سلكه ، وكان لعلي عليه السلام كلمة فيه ، أو استند إليه علي في بعض كلماته ، وفي أي مستوى بلغه المرء في هذا الاتجاه .

ومن الطبيعي ان يعلم المرء ان الاتجاهات المعرفية المختلفة ،

ومستوياتها كافة ، لا تعدو هذه النتيجة أيضاً ، إذ لو أن أحداً استطاع ان يثبت خللاً في كلمة قالها علي ، أو انحرافاً في موقف اتخذه عن صراط الله القويم ، لما أخفته الأيام ، ولا سيما مع ما عرفناه من سلبية التاريخ تجاه علي عليه السلام وولايته .

ويكفيني ان أشير كذلك إلى إجماع المنصفين من باحثي حياة علي عليه السلام وسيرته ، على الاعتراف بقصورهم عن استيعاب آفاق العظمة في شخصيته ، وفيما خلّده التاريخ من مواقفه وشؤونه وكلماته ، وتأكيدهم جميعاً على وحدة المنابع والأصول التي انطلق منها علي في حياته كافة مع ذات المنابع والأصول التي اعتمدها الإسلام في حقائقه وتوجهاته ، دون أدنى انحراف أو تفاوت .

وأقول : المنصفين من باحثي حياة علي عليه السلام ، لأني أعلم -حق العلم- انه ليس كل احد ممن دخل هذا المضمار كان يطلب الحق ، أو كانت غايته الاستقامة معه ، أو كان يقصد الوفاء بمسؤوليته الإلهية والإنسانية في استماع القول لاتباع أحسنه ، ليتتبع -من ثم- منابع الرشد والهدى في هذه الشخصية العظمى ، أو يسعى إلى رؤية مطالع أنوار الله (تعالى) فيها .

بل ، وأعلم ان الكثير ممن عني بدراسة حياة ، علي عليه السلام كان من مرضى النفوس ، وانه قد ارتكس على أم رأسه في حمأة الباطل ، وهوى إلى دركات سحيقة من الضلال ، وأنه إنما دخل في هذا الاتجاه عسى أن يجد منافذ لطمس معالم الهدى في تراث هذه الشخصية ، أو يحرف الكلم عن مواضعه من بيناتها.

تماماً كما هو الشأن مواقف هؤلاء المرضى مع مصادر الإسلام وبصائره الأخرى ، فبينما نرى أن طلبة الحق والكمال يقفون معها من

أجل أن يسترشدوا هداها في بناء عقيدتهم وسلوكهم ، ويقيموا عليها أخلاقهم ومعاملاتهم ، يقف أولئك المرضى من أجل تحقيق مآرب أخرى تعتمد الضلال والفسق والانحراف عن قويم السبيل .

والقرآن الكريم يقف مع هؤلاء طويلاً ..

هؤلاء الذين يسعون في آيات الله معاجزين ، أو الذين يستمعون إليها ليتخذوها هزواً ، أو ليصدوا عنها ، أو ليستكبروا عليها ، وأشباه ذلك ..

كما يقف طويلاً مع أولئك الذين يتصلون بأنبياء الله (تعالى) ورسله -وخصوصاً بسيدهم وخاتمهم محمد ﷺ- من أجل أن يستهزئ بهم ، أو ليبكّت عليهم ، أو ليصد عنهم ، أو غير ذلك ..

يقف مع أولئك وهؤلاء ليعرّفهم للأمة المؤمنة ، ويحذرها من الوقوع في شباكهم ، كما يعرفهم مغبة مواقفهم تلك ، بعد أن استبانت لهم الحقائق ، واتضح لهم الهدى ، وبرزت أمام بصائرهم معالم الحق .

وأمثلة على هذا نقرأ قوله (تعالى) :

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ . وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلاَ بَعْضُهُمْ إِلَىَ بَعْضٍ قَالُواْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ . أَوَلاَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ .[1]﴾.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ . وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى

---

(١) البقرة : ٧٥ - ٧٧ .

مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .[1]﴾ .

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ . وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ . وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ . كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ . لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ . وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ . لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ .[2]﴾ .

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ . وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَـكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ . سَاء مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ . مَن يَهْدِ اللّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ . وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ .[3]﴾ .

ومعلوم أن القرآن لا يعرض لبيان هذه المواقف وما فيها من موهنات ، أو يلقي هذه النذر ، أو يذكر النتائج التي سينالها أولئك الفاسقون والضالون ، دون حجة بينة تصدق كل ما يقول ، ليستطيع طلبة الحقيقة من الوصول إليها مع كل موقف ، وعلى كل حال .

ويكفيه في هذا المضمار لسانه المتحدي بإعجاز كل حقيقة من تلك

---

(١) لقمان : ٦-٧ .

(٢) الحجر : ٩-١٥.

(٣) الأعراف : ١٧٥- ١٧٩ .

الحقائق ، وكل نتيجة من تلك النتائج ، وهو كما نراه إعجازاً أبدياً خالداً ، شاملاً لكل العقول والبصائر دون استثناء .

﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً .[1]﴾ .

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .[2]﴾ .

❖ ❖ ❖

نعم يكفينا من الرسول ﷺ ومن علي عليه السلام هذا التحدي الخالد لجميع الكفاءات والقابليات البشرية على امتداد التأريخ ، دون أن يجد منها جواباً يقف به عند حد ، إذ بقي -حتى اليوم ، بل وسيبقى حتى اليوم الأخير في هذه الدنيا- حياً متلألئاً ، شامخاً ، دون ان يستطيع أحد التطاول عليه ببيّنة ، أو ينال منه هدفاً بكلمة .

وحتى تلك الضغائن والأحقاد ، التي علمنا أدوارها الكبرى في صياغة حياة الأمة المسلمة ، وكتابة تأريخها ، فهي -ومع عظم أدوارها هذه- لم تستطع ان تنال من هذا التحدي في إثبات شيء مما يكذّب الرسول ﷺ وعلياً عليه السلام في واحدة من كلماته هذه ، أو يوهن مدلولها في جانب من جوانب حياته ، أو في واحد من أقواله وأفعاله وأحواله .

نعم ، لا شيء واحداً اختلف فيه علي عليه السلام عن الحق ، أو زاغ عن الحقيقة ، أو قصر في كلمة عن دلائل الإسلام ، أو تفاوت في موقف عن سبيله القويم ، بالرغم من سعة الجوانب التي طرحها في كلماته ، والآفاق التي تناولها في بيّناته ، ودقة المواقف التي اتخذها في حياته .

---

(١) الإسراء : ٨٨ .

(٢) البقرة : ٢٣ .

الباب السابع

علم علي عليه السلام بالغيب



تمهيد

وفي هذا الخط أيضاً ..

في ضرورة الاستقامة بين أركان الحق ومتطلباته ..

وفي حتمية عدم التفاوت بين الاصطفاء الإلهي وتحقق أهدافه في الشخص الذي يرد فيه ..

.. في هذا الخط أيضاً يجب أن يفهم الجانب الغيبي من علم علي بن أبي طالب عليه السلام .

علم ما يتطلبه قيام الحق في دين الله –سبحانه– من الغيوب ، ويحتاجه علي عليه السلام نفسه في وفائه الكامل بمسؤولياته الكبرى منه .

ولا غضاضة في هذا ، بعد ان ثبتت اصطفاء الله لولايته الكبرى له، وبعد ان ارتضاه الله (تعالى) لها ، فمن الضروري –حينئذ– ان يمدّه بجميع ما يلزمه في الوفاء بمتطلّباتها ، وتحقيق شرائط الحق فيها ، منذ أدق دقيق فيها ، وحتى اظهر مظهر منها ، وضمن أي جانب من جوانبها .

ولا ريب ان العلم ببعض الغيوب واحد من تلك المتطلبات المفروضة ومن أكبرها أهمية ، لأن دين الإسلام ذاته –والذي اصطفي علي عليه السلام ولياً فيه– ليس إلا صلة رابطة بين الغيب والشهادة .

فالمنتجب للقيام بدور خاص في هذا الدين لا بد أن يرفد من هذا الرصيد بما يمكّنه من أداء دوره هذا ، وإلا قصر عن الغاية ، وهذا محال –كما سبقت الإشارة إليه أكثر من مرة– ..

وعلي عليه السلام لا يفترق عن غيره من أصفياء الله (تعالى) في هذه الناحية ، فهي -على إجمالها هذا- مما لا يتفاوت فيه الأصفياء كافّة ، وان اختلفت التفاصيل في كل منهم ، لاختلافهم في المهمات الموكلة إليهم ، واختلافهم في حدود مسؤولياتهم في هذه المهمات .

ونحن -ومن أجل أن نفهم بوضوح ما يعنيه علم الغيب لدى علي عليه السلام خاصة ، ولدى الأصفياء عليهم السلام عامة- ينبغي لنا ان نقف -بشيء من التدبر- عند بعض النصوص التي عرضت لهذه الناحية صراحة أو ضمناً ، لنستلهم منها بعض الدلالات المطلوبة لنا في هذا السبيل .

والملاحظ -في هذه النصوص- أنها من الاستفاضة والشهرة بدرجة أسمى من ان يرتاب في مضمونها العام منصف ، وإن أمكنت مناقشة بعض الجزئيات فيها ، فهي مع شهرة روايتها ، وتواتر بعضها ، لا تختص روايتها بمصادر خاصة لمذهب معين ، ولا في اتجاه واحد من اتجاهات المعرفة الإسلامية ، فهي قد ملأت مختلف المصادر في الحديث والتفسير والتأريخ والسيرة والملاحم والمناقب وغيرها ، وما على من يريد التثبت من الأمر إلا مراجعة ما يشاء من تلك المصادر ليرى مدى الاستفاضة فيها .

الفصل الأول

التأريخ وعلم علي بالغيب

لكي نستشف فكرة واضحة ، متكاملة الملامح الخطوط عن طبيعة علم علي بالغيب ، يمكننا ان نستعرض طوائف أربعا من النصوص التي حفظتها مصادر السنة وكتب التأريخ ، لكل منها دور بارز في إيضاح جوانب مما نحتاجه في معالم هذه الفكرة ، إضافة إلى بيان ما يعنيه علم الغيب في شخصية علي عليه السلام وعظمتها ، وفي مدى وفائه عليه السلام لمسؤولياته الكبرى في ولايته الإسلامية ، لا في حدود زمان أو مكان معينين ، وإنما في كل زمان ومكان .

الطائفة الأولى :

وهي من الروايات ما جمع فيه الرسول صلى الله عليه وآله هذا الجانب من علم علي عليه السلام بالغيب إلى الجوانب الأخرى من علمه عليه السلام ، والنصوص التي وحّد فيها علوم علي عليه السلام مع علومه صلى الله عليه وآله وعلوم جميع الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، وبيّن أن مصدرها جميعاً إنما هو الله (تعالى) العليم الخبير ...

ونحن قد قرأنا من هذه الطائفة ما قاله الرسول صلى الله عليه وآله في مشهد الغدير نفسه: (فما من علم إلا وقد أحصاه الله فيّ ، ونقلته إليه ..) .

كما قرأنا أقواله صلى الله عليه وآله : (علي عيبه علمي) ، (علي وارث علمي) ،

(علي باب علمي) .

وتتضح دلالة هذه الطائفة على المقصود أكثر ، حين نلتفت إلى ما سبق أن قرأناه من قوله صلى الله عليه وآله : (أوتيت مفاتيح كل شيء إلا الخمس ..).

وإلى ما قاله صلى الله عليه وآله في علي عليه السلام : (يا علي ! أنت وصيي ، ووارثي ، وأبو ولديّ ، وزوج ابنتي . أمرك أمري ، ونهيك نهيي ، أقسم بالله الذي بعثني بالنبوة ، وجعلني خير البرية ، إنك لحجة الله على خلقه ، وأمينه على سرّه وخليفة الله على عباده[1]) .

وما رواه انس بن مالك قال :

(بينما كنّا بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله ، إذ قال : يدخل عليكم من الباب رجل ، وهو سيد الوصيين ، وقائد الغر المحجلين ، وقبلة العارفين، ويعسوب الدين،ووارث علم النبيين ... إلى آخر الحديث[2])، وكان الداخل هو عليا عليه السلام ..

❋ ❋ ❋

الطائفة الثانية :

وهي من النصوص ما ورد عن علي عليه السلام نفسه في إبراز هذا الجانب المهم من علمه عليه السلام ، وبيان الآفاق المعجزة فيه ، ليدل بصائر البشرية إلى ما يعنيه هذا الإعجاز من موقع خاص في دين الله (تعالى) ، وإقامة حجته ، وليلفت العقول إلى ما أعدّه لعلي عليه السلام في قيادة الأمة المسلمة بعد الرسول صلى الله عليه وآله .

فهو عليه السلام كان يستغل كل فرصة مناسبة لإثبات هذا الرصيد

---

(١) إحقاق الحق – ج : ٤ – ص : ٨٢ ، عن كتاب (ينابيع المودة) – ص : ٥٣ – ط : استانبول .

(٢) ن . م – ص : ١٢٢ ، عن كتاب (در بحر المناقب) .

العلمي المعجز من نفسه ، وبيان ما يعنيه من دلالات في كمال شخصيته ، وفي موقعه الخاص عند الله -عزّ وجلّ-، ومهمته الكبرى في دينه القويم ، وفي حياة الأمة المسلمة ..

وطبيعي ان تدرك البشرية هذه الدلائل بوضوح ، فمن بداهة العقول الواضحة : أن مواهب الله -عز وجل- لا تكال جزافا ، أو محاباة ، فحكمة الله (تعالى) اجل وأسمى من ان تتفاوت في أمر ، أو تختلف في شأن .

وقد سبق ان قرأنا العديد من الروايات التي ترد ضمن هذه الطائفة:

(سلوني قبل ان تفقدوني ، فاني لا أسال عن شيء دون العرش إلا أخبرت به) .

(علمني رسول الله صلى الله عليه وآله ألف باب من العلم ، واستنبطت من كل باب الف باب) .

ونضيف إليها هنا -أيضاً- ما رواه الأصبغ بن نباتة .. قال :

(سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول : ان رسول الله صلى الله عليه وآله علمني الف باب، وكل باب يفتح الف باب ، فذلك الف الف باب ، حتى علمت ما كان وما يكون إلى يوم القيامة ... وعلمت علم المنايا والبلايا ، وفصل الخطاب[1]) .

وما قاله (ع): (أنا الذي عندي علم الكتاب ما كان وما يكون[2]).

وقوله عليه السلام كذلك : (أنا الذي عندي مفاتيح الغيب لا يعلمها

---

(١) ن . م - ج : ٧ - ص : ٥٩٧ ، عن (ينابيع المودة) - ص : ٧٧ .

(٢) ن . م - ج : ٧ - ص : ٦٠٨ ، عن كتاب (المناقب المرتضوية) - ص : ١٣٣ - ط بمبي

بعد محمد ﷺ غيري [٣]) .

وقوله عليه السلام : (سلوني عن أسرار الغيوب ، فإني وارث علوم الأنبياء والمرسلين [٢]) .

ومن مشهور أقواله عليه السلام كلمته الخالدة : (لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقينا [٣]) .

ومنها ما ذكره في خطبة له ، اتفق على نقلها كثير من أئمة الحديث:

(أما بعد ، فإني فقأت عين الفتنة ، وإني –وأيم الله– لولا أن تتكلوا فتدعوا العمل لحدثتكم بما سبق على لسان نبيكم .ثم قال عليه السلام : سلوني فإنكم لا تسألوني عن شيء فيما بينكم وبين الساعة إلا أخبرتكم به [٤]) .. إلى غير هذه الأحاديث ، وهي أكثر من أن تحصى .

❁ ❁ ❁

الطائفة الثالثة :

وهي من النصوص ما اخبر فيه علي عليه السلام عن حوادث كانت غيباً تقع في زمانه ، ثم صدّقه الواقع فيما أخبر به .

وهذه النصوص من الكثرة واستفاضة الحديث بدرجة ملأت مصادر الحديث والسيرة والتأريخ الإسلامي كذلك .

وبهذا المعنى يقول ابن أبي الحديد ، في شرحه لكتاب (نهج

---

(١) إحقاق الحق – ج : ٧ عن مصادره .

(٢) إحقاق الحق – ج : ٧ – ص : ٦٣ عن (ينابيع المودة) ص : ٤١٨ .

(٣) ممن نقل هذا الحديث الخطيب الخوارزمي في مناقبه – ص : ٢٦٠ ، وابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة في عدة مواضع .

(٤) نهج البلاغة ، والشرف المؤبد للشيخ يوسف النبهاني – ص : ١١٣ – ط : القاهرة .

البلاغة) -عند بيانه لمعنى قوله عليه السلام- :

(فاسألوني قبل ان تفقدوني ، فوالذي نفسي بيده لا تسألوني عن شيء فيما بينكم وبين الساعة ، ولا عن فئة تهدي مائة وتضل مائة ، إلا أنبأتكم بناعقها وقائدها وسائقها ، ومناخ ركابها ، ومحطّ رحالها ، ومن يقتل من أهلها قتلاً ، ومن يموت موتاً ..)

قال ابن أبي الحديد :

(واعلم أنه عليه السلام قد أقسم في هذا الفصل بالله الذي نفسه بيده ، أنهم لا يسألونه عن أمر يحدث بينهم وبين القيامة إلا أخبرهم به ، وأنه ما صح من طائفة من الناس يهتدي بها مائة من الناس، وتضل بها مائة، إلا وهو مخبرهم -إن سألوه- برعاتها وقائدها وسائقها ، ومواضع نزول ركابها وخيولها ، ومن يقتل منها قتلا ، ومن يموت منها موتاً ..

(وهذه الدعوى ليست منه ادعاء الربوبية ، ولا ادعاء النبوة ، ولكنه كان يقول : إن رسول الله صلى الله عليه وآله أخبره بذلك ، وقد امتحنا إخباره فوجدناه موافقا ، فاستدللنا بذلك على صدق الدعوى المذكورة ، كإخباره عن الضربة التي يضرب بها في رأسه فتخضب لحيته [1] ..

---

(١) يشير إلى ما تواتر نقله عن علي (ع) ، كما رواه الهيثمي في مجمع الزوائد - ج : ٩ - ص : ١٣٨ عن أبي الطفيل قال : (دعا علي عليه السلام إلى البيعة ، فجاء عبد الرحمن بن ملجم المرادي ، وكان قد رآه قبل ذلك مرتين ، ثم قال : ما يحبس أشقاها ، والذي نفسي بيده لتخضبن هذه من هذه - يعني لحيته من رأسه - ثم تمثل بهذين البيتين :

اشدد حيازيمك للموت فان الموت لاقيكا

ولا تجزع من الموت إذا حـــل بناديكا

وأكد عليه السلام هذا المعنى في مواقف أخرى كثيرة أحصى منها في كتاب (إحقاق الحق) - ج :

(وإخباره عن قتل الحسين ابنه عليه السلام، وما قاله في كربلاء حين مر بها[(١)] .

---

٨ – ص : ١٠٩ – ١٤١ أربعة عشر مورداً من غير مصادر الشيعة ، إضافة إلى موارد أخرى أخبر فيها عن أن ابن ملجم هو قاتله ، وموارد ذكر فيها بعض ما يصاحب مقتله من أمور وحوادث .

(١) يشير ابن الحديد بهذا إلى ما رواه المؤرخون مستفيضا عنه عليه السلام في إخباره هذا ، كما نقله نصر بن مزاحم ، في كتاب (صفين) – ص : ١٥٨ – تحقيق عبد السلام محمد هارون – بسنده عن أبي جحيفة ، قال :

جاء عروة البارقي إلى سعد بن وهب ، فسأله –وأنا أسمع–، فقال : حديث حدثتنيه عن علي بن أبي طالب. قال : نعم ، بعثني مخنف بن سليم إلى علي ، فأتيته بكربلاء ، فوجدته يشير بيده ويقول : هاهنا .. هاهنا ، فقال له رجل : وما ذلك يا أمير المؤمنين ؟، فقال : ثقل لآل محمد صلى الله عليه وآله وسلم يترل هاهنا ، فويل لهم منكم ، وويل لكم منهم ، فقال له رجل : ما معنى هذا الكلام يا أمير المؤمنين ؟، قال : ويل لهم منكم تقتلونهم ، وويل لكم منهم يدخلكم الله بقتلهم إلى النار).

ونقل في كتاب صفين أيضا عن هرثمة بن سليم قال :

(غزونا مع علي بن أبي طالب عليه السلام غزوة صفين ، فلما نزلنا بكربلاء صلى بنا صلاة ، فلما سلّم رفع إليه من تربتها فشمها ثم قال : واهاً لك أيتها التربة ، ليحشرنّ منك قوم يدخلون الجنة بغير حساب ..

فلما رجع هرثمة من غزوته إلى امرأته وهي (جرداء بنت نمير) ، وكانت شيعة لعلي ، فقال لها هرثمة : إلا أعجبك من صديقك أبي الحسن !، لما نزلنا كربلاء رفع من تربتها فشمها وقال : واه لك يا تربة ، ليحشرن منك قوم يدخلون الجنة بغير حساب ، وما علمه بالغيب ؟ .

(وإخباره بملك معاوية الأمر من بعده [١] ..

فقالت : دعنا منك –أيها الرجل– فان أمير المؤمنين لم يقل إلا حقاً .

فلما بعث عبيد الله بن زياد البعث الذي بعثه إلى الحسين بن علي عليه السلام وأصحابه .. قال : كنت فيهم ، في الخيل التي بعثت إليهم ، فلما انتهيت إلى القوم ، وحسين وأصحابه ، عرفت المترل الذي نزله فيه ، والبقعة التي رفع إليه من تربتها ، والقول الذي قاله ، فكرهت مسيري ، فأقبلت على فرسي حتى وقفت على الحسين ، فسلمت عليه ، وحدثته بالذي سمعته من أبيه في هذا المترل .

فقال الحسين (ع) : معنا أنت أم علينا ؟ .

فقلت : يا ابن رسول الله ، لا معك ولا عليك . تركت أهلي وولدي أخاف عليهم من ابن زياد .

فقال الحسين (ع) : فولّ هربا حتى لا ترى لنا مقتلا ، فو الذي نفس محمد بيده ، لا يرى مقتلنا رجل ولا يعيننا إلا أدخله النار .

فأقبلت في الأرض هاربا حتى خفي علي مقتله) .. إلى أحاديث أخرى مشابهة ...

(١) يشير بهذا إلى ما رواه عدة من المؤرخين ، منهم ابن الأثير في كتاب (النهاية) – ج : ٢ ص : ١٥ ، قال :

(وفي حديث علي ، سيظهر بعدي عليكم رجل مندحق البطن) ، أي واسعها ، كأن جوانبها قد بعد بعضها عن بعض فاتسعت .

ومنهم السكندري في كتاب (مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح) ، كما نقل عنه في (إحقاق الحق) – ص : ١٦٣ – ج : ٨ :

(ذكر الاخباريون انه ارجف بالكوفة ان معاوية قد مات ، فقال علي (رضي الله عنه) إذ بلغه : (والله ما مات ، ولن يموت حتى يملك تحت قدمي هاتين ، وإنما أراد ابن هند ان يشيع ذلك حتى يستتر علمي فيه) .

(وإخباره عن الحجاج ، وعن يوسف بن عمرو [١] ..

(وما أخبر به أمر الخوارج بالنهروان [٢] ..

.. إلى روايات أخرى ، ويرجع –للاستزادة– كتاب (إحقاق الحق) – ج : ٨ – ص :١٦٢ – ١٦٧ ، حيث يذكر عدة أحاديث في هذا المضمون مع مصادرها .

(١) روى ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة ، ج : ٢ – ص : ٢٨٩ – ط : الأولى – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، عن إسماعيل بن رجاء قال : (قام أعشى باهلة –وهو غلام يومئذ حدث– إلى علي عليه السلام، وهو يخطب ويذكر الملاحم ، فقال : يا أمير المؤمنين ما أشبه هذا الحديث بحديث خرافة !!، فقال علي عليه السلام : ان كنت آثما فيما قلت –يا غلام– فرماك الله بغلام ثقيف ، ثم سكت ، فقام رجال فقالوا : ومن غلام ثقيف يا أمير المؤمنين ؟. قال : غلام يملك بلدتكم هذه ، لا يترك حرمة لا انتهكها يضرب عنق هذا الغلام بسيفه .

فقالوا : كم يملك يا أمير المؤمنين ؟ . قال عليه السلام : عشرين .. ان بلغها .

قالوا : فيقتل قتلا ام يموت موتا ؟ قال : بل يموت حتف أنفه بداء البطن ، يثقب سريره لكثرة ما يخرج من جوفه .

قال إسماعيل بن رجاء : فوالله لقد رأيت بعيني أعشى باهله ، وقد احضر جملة الإسراء الذين اسروا من جيش عبد الرحمن بن الأشعث بين يدي الحجاج ، فقرّعه ووبّخه ، واستنشده شعره الذي يحرّض فيه عبد الرحمن على الحرب . ثم ضرب عنقه في ذلك المجلس) . ويراجع كتاب (إحقاق الحق) – ج : ٨ – ص : ١٦٢– ١٦٧ ، للتعرف على العديد من الروايات الواردة في هذا المضمون مع مصادرها .

(٢) روى ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة – ج : ٢ – ص : ٢٧٧ بسنده عن يزيد بن رويم قال :

قال علي عليه السلام : تقتل اليوم أربعة آلاف من الخوارج ، احدهم ذو الثدية ، فلما طحن القوم ورام استخراج ذا الثدية فاتبعه ، أمرني ان اقطع له أربعة آلاف قصبة ، وركبت بغلة

(وما قدّمه إلى أصحابه بقتل من يقتل منهم ، وصلب من يصلب[1] ..).

ويستطرد ابن أبي الحديد بذكر نماذج كثيرة ، أخبر فيها أمير المؤمنين عليه السلام بأمور غيبية صدّقه فيها التأريخ .. إلى ان يقول : (وكم له من الأخبار في الغيوب الجارية هذا المجرى ، مما لو أردنا استقصاءه لكسرنا

رسول الله صلى الله عليه وآله وقال : اطرح على كل قتيل منهم قصبة ، فلم أزل كذلك وأنا بين يديه ، وهو راكب خلفي ، والناس يتبعونه حتى بقيت في يدي واحدة ، فنظرت إليه وإذا وجهه اربد ، وإذا هو يقول : والله ما كَذبت ولا كُذّبت ، فإذا خرير ماء عند موضع دابته . فقال : فتش هذا ، ففتشته ، فإذا قتيل قد صار في الماء ، وإذا رجله في يدي ، فجذبتها ، وقلت : هذه رجل إنسان فنزل عن البغلة مسرعا ، فجذب الرجل الأخرى ، وجررناه حتى صار على التراب ، فإذا هو المخدج . فكبّر علي عليه السلام بأعلى صوته ، ثم سجد لله ، فكبر الناس كلهم .

كما روى ابن أبي الحديد –أيضا– في ج : ١ – ص : ٢٧٣ من حديث :

(ومال ألف منهم (الخوارج) إلى جهة أبي أيوب الأنصاري ، وكان على ميمنة علي عليه السلام ، فقال علي عليه السلام لأصحابه : احملوا عليهم ، فوالله لا يقتل منكم عشرة ولا يسلم منهم عشرة .

فحمل عليه فطحنهم طحناً ، قتل من أصحابه عليه السلام تسعة ، وافلت من الخوارج ثمانية) .

(١) لرؤية ما قدمه لأصحابه في قتل من يقتل منهم ، وصلب من يصلب ، تراجع سيرة هؤلاء الأزكياء (رضوان الله عليهم) ، كرشيد الهجري ، وميثم التمار ، وكميل بن زياد ، وعمر بن الحمق الخزاعي ، وجويرة بن مسهر العبدي ، وغيرهم ، كما يراجع شرح (نهج البلاغة) – ص: ٢٩٠ – ٢٩٥ .

له كراريس كثيرة, وكتب السير تشتمل عليها مشروحة[١]) .

وما يقوله ابن أبي الحديد في هذه الناحية حق لا ريب فيه .

ونحن نكتفي بهذا المقدار بعد أن اتضح لنا المطلوب .



الطائفة الرابعة :

وهي شهادات أولئك الذين عاصروا علياً عليه السلام من الناس ، بعد ان علموا صدقه في كل ما أخبر به من تلك المغيبات ..

وهي طائفة كبيرة ، لا يحيط بها حصر ، ونحن نقتصر منها على نماذج قليلة كأمثلة سريعة ، منها :

ما رواه في (كنز العمال) قال : (كان علي عليه السلام يخطب ، فقام إليه رجل فقال : يا أمير المؤمنين ؛ أخبرني عن أهل الجماعة ، ومن أهل الفرقة ، ومن أهل السنة ، ومن أهل البدعة ؟ ..

فقال : ويحك ، أما إذا سألتني فافهم عني ، ولا عليك ان تسأل عنها أحدا بعدي ... وساق الحديث إلى ان قال : وتنادى الناس من كل جانب أصبت يا أمير المؤمنين ، أصاب الله بك الرشاد والسداد .

فقام عمار فقال : يا أيها الناس ؛ إنكم –والله– إن اتبعتموه وأطعتموه لم يضل بكم عن منهاج نبيكم قيد شعرة –يعني قدر شعرة–، وكيف لا يكون كذلك ، وقد استودعه رسول الله صلى الله عليه وآله المنايا والوصايا ، وفصل الخطاب على منهاج هارون بن عمران ، إذ قال له رسول الله صلى الله عليه وآله : أنت مني بمنزلة هارون من موسى ، فضلاً خصه الله به إكراما منه

(١) شرح نهج البلاغة – ج : ٧ – ص : ٤٧ – ٥٠ .

لنبيه ﷺ حيث أعطاه ما لم يعط أحدا من خلقه .. الحديث)[١] .

وما نقله في المناقب المرتضوية قال :

(ان عليا عليه السلام كان جالسا عند نخلة مع جمع من أصحابه ، ومنهم رشيد الهجري ، فقال له : إنّك تصلب بعدي على خشبة هذه النخلة ، فكان رشيد بعد شهادته عليه السلام يسقيها كل يوم حتى قطعوها .. فقال رشيد : فأرسل إلي عبيد الله يحضرني ، فلما وصلت إلى داره رأيت خشبة تلك النخلة على بابها . فلما راني عبيد الله قال : هات من أكاذيب أبي الحسن .

فقلت : والله ما كذب قط ، وقد أخبرني أنك تقطع يدي ورجلي ولساني ثم تصلبني ، فقال : إني اقطع يدك ورجلك وأصلبك، ولا اقطع لسانك ، ليظهر كذبه .

فكان رشيد يروي من فضائل أهل البيت عليهم السلام مصلوباً ، ويقول : اكتبوها قبل ان يقطعوا لساني ، فلما وصل ذلك إلى عبيد الله أمر بقطع لسانه)[٢] .. إلى غير هذه الروايات .

ولا تقتصر هذه الشهادات على أتباعه ومريديه من أبناء الأمة الإسلامية فحسب ، بل كثير منها قد صدر من أولئك الذين جانبوا سبيله في الحياة ، أو حتى أولئك الذين جابهوه بالحرب ، وناجزوه القتال . ولم تمنعهم تلك المجانبة وهذه المجابهة من الاعتقاد الجازم والعلم القاطع بصدقه عليه السلام فيما يخبر به من القضايا .

ولهذا فهو عليه السلام حين أخبر أهل الكوفة بملك معاوية لها -كما سبق

---

(١) فضائل الخمسة من الصحاح الستة : ج ٢ ص ٢٣٥ عن كنز العمال : ج ٨ ص ٢١٥.

(٢) إحقاق الحق : ج ٨ ص ١٥٦ عن مناقب المرتضوية ص ٢٦٧ ط بمبئي.

ان قرأناه- علم أهل الكوفة ان هذا حق ، ولا بد من تحققه ، فكاتبوا معاوية سراً، لعلمهم بصيرورة الأمر إليه -كما تنص الرواية التي نقلناها في هامش متقدم- .

بل وكان معاوية بن أبي سفيان نفسه ممن يشهد لعلي عليه السلام بهذا الجانب من العلم ، كما في رواية أخرى للحادثة السابقة تقول :

(ان معاوية قال لجلسائه : كيف يمكن المعرفة بأن علياً يموت قبلي ام لا ؟ ، فقالوا : لا ندري ، فقال : إني أعلمه .. أستعلمه من علي .

فدعا ثلاثة من ثقاته ، وقال لهم : امضوا حتى تصيروا جميعا من الكوفة على مرحلة ، ثم تواطؤوا على أن تنعوني بالكوفة ، وليكن حديثكم واحداً في ذكر العلّة ، واليوم ، والوقت ، وموضع القبر ، ومن تولّى الصلاة عليّ .. وغير ذلك ، حتى لا تختلفوا في شيء .. ثم ليدخل الثاني فليخبر بمثله ، ثم ليدخل الثالث .. وساق الحديث ، إلى ان قال : فلما أكثروا عليه ، قال أمير المؤمنين عليه السلام : كلا ، أو تخضب هذه من هذه (يعني لحيته من هامته) ، ويتلاعب بها ابن آكلة الأكباد .

فرجع الخبر بذلك إلى معاوية)[1] .

❁ ❁ ❁

كما لم تقتصر هذه الشهادات على خصوص أولئك الذين عاصروا عليا من الناس ، وأدركوا صدقه في زمن حياته فقط ، بل هي وردت أيضاً من كثير من الذين تتبعوا تلك الموارد التي أخبر عليه السلام بها عن تلك الحوادث ، وعلموا صدقه فيها .

---

(١) إحقاق الحق - ج : ٨ - ص : ١٢٢ ، عن كتاب (أرجح المطالب) - ص : ٦٧٨ - ط لاهور ، و (المناقب المرتضوية) - ص : ٢٥٣- ط مصر .

وقد قرأنا سابقا ما قاله ابن أبي الحديد في الطائفة الثالثة حول هذا الجانب من علم علي عليه السلام :

(وقد امتحنا إخباره فوجدناه موافقا ، فاستدللنا بذلك على صدق الدعوى المذكورة ..

ويمكن القول بان الإيمان بوجود الجانب الغيبي من علم علي عليه السلام، وتصديقه بما اخبر به من المغيبات هو من المرتكزات العامة لدى المسلمين كافة، في مختلف مشاربهم ومذاهبهم ، بل ولدى غيرهم ممن تتبع حياة علي عليه السلام وكلماته ومواقفه .

ولا ريب ان هذا الارتكاز لم ينشأ دون شهادة من الواقع نفسه بتصديقه فيها أخبر به ..

❁ ❁ ❁

وهنا لابد من الالتفات -ولو بسرعة- إلى بعض الدلالات المهمة فيما تعنيه هذه الحقيقة في علم علي عليه السلام ، وفي كمال شخصيته ، إذ من المحال أن يتحقق له شيء من هذا العلم دون رعاية إلهية خاصة ، تؤهله لأمر عظيم يتناسب وتفرّد الأصفياء في هذه الموهبة ، لأن الفيوض الربانية -وكما قلنا مراراً- لا تكال جزافا لأحد ، فحكمة الله (تعالى) أسمى من ان يتصور في حقها عبث أو مجاملة .

وطبيعي ان يربط الفكر -حينئذ- بين هذا الأمر العظيم ، وإعلان الرسول صلى الله عليه وآله لولاية عليه السلام الكبرى في دين الله ..

.. بين هذا الجانب من علم علي عليه السلام وقول الرسول عليه السلام فيه يوم غدير خم :

(من كنت مولاه فعلي مولاه ..) .

الفصل الثاني

الغيــب والإسلام

هذه طوائف أربع مما عرض للجانب الغيبي من علم علي عليه السلام من الأخبار .. ولفهم هذا الجانب من علم علي عليه السلام -بل وغير علي من أصفياء الله ومنتجبيه عليهم السلام-، واستيضاح مدلوله أكثر ، لا بد من ملاحظته من خلال الرؤية الإسلامية الخالصة فحسب ، لأن أي منطلق آخر لا يمكنه أن يرقى إلى درجة تمكّن الوعي من استيعاب صورة دقيقة عنه ، واضحة الملامح والأبعاد .

وهذه الرؤية تعني أن هذا الجانب من العلم لا يتأتى لأحد إلا من خلال فيوض ربانية خاصة ، وبدهي أن هذه الفيوض لا تضفى إلا على من اقتضت له الحكمة الإلهية ذلك .

ولهذا فحتى لو احتمل في الجانب الأخرى من العلوم أنها مكتسبة ، وأنها وجدت في النجباء نتيجة لمجاهدة ، ومثابرة طاقات عبقرية خلاقة ، كما اتهم بذلك الرسول صلى الله عليه وآله نفسه ، إذ قالوا عنه ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ مما اضطر القرآن أن يجيبهم : ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ ، -كما في سورة النحل : ١٠٣-.

إلا أن الجانب الغيبي -بالخصوص- مما لا يمكن فيه مثل هذه الدعوى ، فالغيب مما استأثر به الله وحده ، ولا يضفى إلا على من ارتضى .

وطبيعي أن ندرك –وبعد الالتفات إلى ما قدمناه من أن فيوض الله لا تكال جزافاً ، وإنما هي ترد ضمن رعاياته –سبحانه– بأوليائه ، وعناياته الخاصة بمنتجبيه ، من أجل أن يحققوا جميع ما انتجبهم له ، واصطفاهم للقيام به من أجل قيام حجته ، وإتمام كلمته .. ولا سيما أن الإسلام ذاته ليس هو إلا أحد الصلات الرابطة بين الغيب والشهادة –كما قلت– .

ولفهم أوضح لهذه النقطة ، يمكننا العودة إلى أمور أساسية وردت في أحاديث سابقة ..

فقد رأينا ان اعتماد الإسلام سمة الحق أساسا في تكوينه الذاتي ، وصبغة عامة في حقائقه كافة ، إنما يعني استقامته المطلقة مع حكمة الله (تعالى) ، وتجلياتها العامة في التكوين والخلق –بشكل عام–، وفي واقع الإنسان –بشكل خاص–، وتطابقه المطلق مع ما رسمته تلك الحكمة للإنسان من دور خاص بين مختلف مظاهر الوجود .

وواضح ان تلك التجليات إنما هي غيبية المصدر ، كما أن مواردها لا تختص بعالم الشهادة فحسب ..

وخصوصا إذا قلنا بان عالم الشهادة لا يعني سوى ما يقع في حدود الرؤية الطبيعية للإنسان ، وضمن مداركه الاعتيادية ..

نعم ، وقد تتسع هذه الرؤية باستخدام الوسائل التي اعتاد الإنسان على الاستعانة بها في الملاحظة والعلم والخبرة ، لتدخل في هذه الوسائل مستحدثات العلوم الطبيعية ومختبراتها , وأشباه ذلك .

وخصوصا إذا اقتصرنا منه على حدود ما استوعبته المعرفة الإنسانية العامة في زمن رسالة محمد ﷺ ، أو في زمان حياة علي عليه السلام

فحسب ، حيث لم تكن تملك البشرية -حينها- من هذه المعرفة -وراء الملاحظات البدائية- إلا قضايا ضيقة الآفاق ، محدودة النتائج .

أما ما وراء تلك القضايا فقد كان غيباً من الغيوب ، وان استطاعت البشرية أن تدرك شيئاً منه فيما بعد ، حيث اتسعت لديها آفاق المعرفة وامتلكت من الوسائل ما هيمنت به على الكثير من ظواهر الطبيعة ، ليكون اتساع المعرفة -بدوره- شاهداً أبدياً ومتنامي الشهادة بتصديق الإسلام وحجته وألسنة تبليغه وكلمته بأنها الحق الذي لا ريب فيه :

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ .﴾[1] .

نعم ، فحكمة الله (تعالى) وهي تتجلى في التكوين إنما تتجلى في واقعه كما هو ، وفي ذات المسيرة التي يمضي بها كل مظهر من مظاهره نحو غاياته التي أرادها الله (تعالى) له ، سواء أدرك الإنسان هذه التجليات أم لا ، أمكنه مثل هذا الإدراك ام لم يمكنه ، وسعتها قابلياته الفكرية والعقلية ام لم تسعها .

فحدود الإنسان -أو غير الإنسان من المخلوقات- أدنى من ان تحدد تلك الحكمة في مورد من الموارد ، وأقل من ان تقصر بها عن أمر تشاؤه من الأمور.

وحين شاء الله (تعالى) لدينه القويم أن يصبح واحداً من تجليات حكمته العليا ، وأحد موارد رحمته في عالم الإنسان ، فمن الطبيعي ان لا يتصور فيه قصور عن هذه الغاية أيضاً ، أو وهن عن تحقيق شيء من مستلزماتها ، في أي حقيقة من حقائقه ، إذ تعالى الله منزله العظيم عن

---

(١) فصلت : ٥٣.

القصور ، أو التفاوت أو العجز .

فالغيب –من خلال هذه الملاحظة– لا يقف –مع دين الله ، ولا مع أصفيائه– عند حوادث معينة ذكرها هذا المصطفى ، أو بيّنها ذلك المرتضى ، –حسبما اقتبسنا منها بعض ما أثر عن أمير المؤمنين عليه السلام– .

كما لا تقتصر الغاية من العلم بهذا الغيب على خصوص لفت الأنظار إلى ما يحمله الشخص المنتجب من سمات رفيعة ، ومميزات معجزة تثبت اتصاله المباشر بالمدد الإلهي الأعظم من الحكمة والكمال دون غيره من الناس ..

بل الغيب –قبل هذا كله– هو الركن الأول الذي يعتمده وجود دين الله نفسه ، والقاعدة الذي يتخذها أساسا في قيام كل بعد من أبعاده، وفي كل حقيقة من حقائقه ، وكل مظهر من مظاهره ، وكل حكم من أحكامه ، وكل غاية من غاياته .. إذ يستحيل على هذا الدين ان يتجرد في أي منها عن مفهوم الغيب ، ما دام يعني انه الحق ، وأنه المعبر عن إرادة الله –سبحانه– وأنه عنوان كلمته العليا ، ومجلى حكمته في واقع الإنسان .

وهي مسألة واضحة كل الوضوح ، ولا سيما بعد ان علمناه مما تعنيه استقامة الإنسان مع مقتضيات حكمة الله (تعالى) من ضرورة في وجوده وحياته ، وتحقيقه لدوره المطلوب في هذه الدنيا .

وبعد أن علمنا أيضاً حدود المدارك الإنسانية في المعرفة ، وقصورها عن ان تنال حقيقة تلك الحكمة ، أو تحيط بجميع تجلّياتها في التكوين ، ومقتضياتها في وجود الإنسان وحياته ، حيث لم تتجاوز هذه المدارك حدود الظواهر القريبة من الحياة الدنيا .

مما يعني -وبكل بساطة- ان تلك الحكمة -سواء في واقعها ، أم في تجلياتها في المخلوقات ، أو حتى في مقتضياتها في السلوك الاختياري للإنسان- لا تعدو عالم الغيب بالنسبة للإنسان .

ولئن استطاع الإنسان أن يدرك بعض مظاهرها القريبة من وعيه وملاحظته ، إلا أنه أعجز من أن يبلغ درجه الإحاطة بها وبجذورها وغاياتها ، ليستطيع -من ثم- التعامل معها من خلال هذا المنطلق الواقعي لها ، ما لم يرفده مدد ربّاني خاص .

ومن هنا كان عجز الإنسان عن أن يشرّع لنفسه منهاج الكمال الحق ..

ومن هنا كانت حاجته في تشريع هذا المنهاج إلى الله (تعالى) وحده، دون من سواه ..

ومن هنا اقتضت الحكمة أن تشرع هذا المنهاج للإنسان بالإسلام دين الله القويم ..

ومن هنا كانت الرعاية الإلهية لهذا الدين شرطاً أساسياً فيه ككل ، وفي كل شأن من شؤونه ، وفي كل أفق من آفاقه . ثم في كل شخصية من شخصياته المصطفاة ، إذ كما تصدق تلك الحاجة على الإسلام بمجموعه تصدق على كل واحد من شؤونه وحقائقه هذه ، وقد علمنا أنه كيان ذو صبغة حيوية ، موحدة الحقائق ، متكاملة المواقع والخطوط ، يستحيل معها التجزئة والتفكيك .

ومن هنا لزم ان تكون سمة العلم في منتجبيه عليهم السلام بعض المظاهر الأساسية لتلك الرعاية الشاملة ، حيث يقصر الإنسان عن نيل تلك الآفاق العليا دون فيوض ربانية خاصة ..

ومن هنا -كذلك- لزم ان يستوعب علم الأصفياء عليهم السلام جميع ما يستوجبه وفاؤهم الأكمل بمسؤولياتهم التي حددها الاصطفاء الإلهي لكل منهم، ضمن موقعه الخاص من دين الله (تعالى) ، وفي دوره المعدّ له في قيام كلمته ، وبلاغ حجته في البشرية ، لما يستوجبه مفهوم الحق من شمولية في الرؤية ، تمتد إلى ما وراء حدود الإنسان .

ومن هنا كان العلم ببعض الغيوب ركناً أساسياً من أركان علم هؤلاء الأصفياء ، إذ ما لم ينهل أولئك المنتجبون من معين الغيب في علومهم تلك ، لا يمكن لأي منهم أن يقوم حتى بأبسط مسؤولياته في إقامة كلمة الله (تعالى) أو التعبير عن حجته ، ورفع مشعل هداه ، في كل قول يصدر منه ، وفي كل فعل يقوم به ، أو موقف يتخذه ، لأن حكمة الله (تعالى) ذاتها ، والتي تعتمدها هذه الكلمة ، وتجلياتها التي يستند إليها هذا الهدى هي من الغيوب ، وما لم ترفدهم رعاية الله (تعالى) بما يحتاجون إليه منها ، لم تتصل كلمتهم وعملهم بمبدئهما الإلهي الأول ، وهذا محال -كما علمنا- لأنه خلاف مقتضى اصطفائهم .

الفصل الثالث

فرق ما بين المنتجب وغيره

وهذه الملاحظة ترشدنا إلى طبيعة الفروق المتصورة في مسؤوليتي الفرد العادي من الناس والمنتجب الإلهي لإقامة دينه القويم .

فمسؤولية الإنسان العادي غير المنتجب في مضمار تقتصر على خصوص اتباع معالمه ، والاعتماد في هذا الاتباع على أوليات الفكر التي فطر عليها في إدراكه وعقله ، وعلى دلالات عالم الشهادة وحاجاته المبدئية في الوجود ، والبقاء ، إلى الخلق والتدبير ، لتنتهي به هذه الدلالات إلى الإيمان بالخالق المدبر ، والتسليم المطلق لأمره ، والانقياد لهداه ، لتستقيم حياته كما تريد لها حكمة ذلك الخالق المدبر (تعالى) أن تستقيم ..

أما مسؤولية حملة الاصطفاء الإلهي في هذا الحق ، فهي تعني انتهال هداه وبصائره من معين الغيب نفسه ، واعتماد دلائل حكمة الله ذاتها في الوجود ، ثم بلورتها في عالم الإنسان ، كلمة ربّانية عليا ، وحجة لله (عز وجل) يقيمونها على العباد ، وبينات واضحة تسترشدها البصائر في كل ما يقولون ، وما يفعلون ، وأنواراً تستضيء بها الألباب ..

إذن فهما مسؤوليتان مختلفتا المبادئ ، متعاكستا الاتجاه في مجال الوفاء الفعلي لهما ، وان التقتا عند نقطة واحدة : هي قيام الحق ، وهي غناء التطلع الإنساني للاستقامة معه ، والتسليم لأمره والانقياد

الكامل لكلمته ، وتجسيده في الحياة ..

بمعنى أن الفرد غير المنتجب إنما يفي بمسؤوليته في اتباعه لدلائل العقل السليم ، ومنهجة ما بلغه الفكر الإنساني من جوانب المعرفة بواقع الموجودات، وكما دلته فطرته المستقيمة ، وما جبلت عليه هذه الفطرة من بداهة أولية ، أو ما استطاع أن يناله من خبرة وفهم للأمور ، ليعلم –من ثم– أن هناك مبدأ أولاً لما يشهده من الموجودات ، وأن هناك قوة أزلية قادرة قاهرة ، لها مطلق الكمال والجلال ، هي المتفردة في خلق المكونات كافة ، والقيّمة على تدبيرها.

وليدرك –بعدئذ– أن هذا الكون ما كان ليتم له أمر لو لم تفض عليه هذه القوة المدبّرة من رحمتها وعنايتها ما يستقيم به أمره ..

وليدرك –بالمقابل– أن هذا الكون ما كان ليوجد ، أو ليستقيم له أمر ، لو لا خضوع كل صغير وكبير فيه ، وكل ظاهرة وباطنة منه ، لما رسمته له تلك القدرة ، وقدرت له –بحكمتها– من سبل وسنن وغايات مضى عليها ذلك التدبير ، إذ لا يستطيع شيء ما ، أن يوجد ، أو ينال كماله الذاتي ، مع الخروج ولو عن بعض تلك السبل ، أو الانحراف عن شيء من تلك السنن ..

وطبيعي أن يدرك العاقل أنه جزء لا يتجزأ من ذلك الكون ، وانه لا يستطيع أن يبلغ ما أعده الله له من الكمال والسعادة الحقيقية في حياته هذه دون انتظامه الاختياري مع السنن التكوينية العامة ، حيث لا يمكنه التفرد في الوجود والبقاء دون امتداد تلك السنن التكوينية في حياته الاختيارية ، ليعلم –بعد هذا– أن حكمة الله –التي آتت كل شيء هداه– لا بد أن تضع للإنسان تلك السنن التي يصل بها إلى كماله

المنشود ، إذ من المحال أن تقصر هذه الحكمة في شيء من أمرها ، أو تتفاوت في شأن من شؤونها، لتهمل الإنسان وحده من بين الموجودات، وتتركه دون منهج يأخذ بيده إلى الغاية التي أعدتها له ، كأي مظهر آخر في هذا الملكوت .

وطبيعي أن ترشده كل هذه المقدمات -التي يدركها الإنسان بفطرته- إلى وجوب التسليم والإذعان لدلائل تلك الحكمة وبيّناتها ، في كلّ موقف يصدر منه ، وفي كلّ حالة اختيارية يكون عليها .

أما ماذا وراء هذه المرحلة ؟ .

إن على الإنسان أن يقف ، وأن ينتظر المدد والفيض والهدى مما وراء الحدود التي يملكها ، لأن أي خطوة من الإنسان يخطوها وراء ذلك الحكم العقلي الواضح -دون التسليم والإذعان- تعني دخوله في متاهات عمياء ، لا يجد فيها هدى ، أو ارتكاسه في مهاو سحيقة من الضلال ليس لها قرار .

وهنا يبرز دور الإسلام دين الله القويم ، كما تبرز مسؤولية منتجبيه الأصفياء عليهم السلام ، وحاملي مشعل أنواره ، ومبلّغي كلمته النجباء .

نعم ، إن الإسلام هو ذلك القبس الهادي الذي أنزل من عالم الغيب ، وقد تجلى مفاهيم وأحكاماً ومناهج وبصائر ، تأخذ بيد الإنسان -بما يتناسب وقابلياته الفكرية والعلمية والسلوكية- إلى غاياته الرفيعة ، التي أعدته لها حكمة التكوين .

ومنتجبوه هم الذين اصطفتهم هذه الحكمة نفسها ، لتجسيد هذا القبس شاهداً قائماً في حياة الإنسان ، وإبلاغ حجة الله إلى العباد ، بكل ما يصدر عنهم من قول أو فعل ..

ولا ريب أن تحقق كل هذه المعاني في دين الله (تعالى) ، أو في منتجبيه عليهم السلام ، مستحيل -كلّ الاستحالة- دون مدد ربّاني من علم الغيب ، يخصّهم الله به ، ليؤهل كلاً منهم إلى الاحاطة بمهماته في الحياة، وإدراك الغاية من دوره الخاص في تجليات حكمة الله -سبحانه- في واقع الحياة الإنسانية ، وما تستوجبه منه في إقامة دينه الحنيف ، دون أدنى خلل أو نشوز في موقف يصدر منهم أو كلمة ينطقونها ..

تماماً كما استحال أن تتحقق منهم هذه المعاني دون إمدادهم بمعين يتناسب وهذه المهمات من العلوم الأخرى ، التي تمكنهم من الإحاطة بمختلف شؤون الحياة ، ومجريات التكوين في عالم الشهادة .

ولما كنا قد علمنا أن التفاوت بين مقتضيات الاصطفاء الإلهي وما تتحقق به في الوجود الفعلي ، فمن الطبيعي أن لا نتصور أي قصور في علوم أولئك الأصفياء ، من أي جهة قد يعيقهم الجهل بها عن أداء أي من مهماتهم تلك ، دون أدنى فرق بين عالم الغيب وعالم الشهادة ، وهي قضية واضحة لنا كل الوضوح ، ولا سيما بعد المقدمات السابقة .

❖ ❖ ❖

وحدة الغيب والشهادة في علوم الأصفياء

ثم إن التدبر في هذه القضية يرشدنا نقطة في غاية الأهمية ، وهي وحدة الغيب والشهادة في علوم المصطفين ، لأن أي كلمة ينطقونها ، وأي عمل يأتونه ، وأي حالة يختارونها ، يمتزج فيها هذان العالمان معاً ، ولا يمكن فصل أحدهما عن الآخر .

لأن الإسلام ذاته إنما هو من ألطاف الغيب ورحمته بالإنسان ، وهذا يعني أن كل حكم منه ، وكل حقيقة ، وكل هدف ليس سوى معين من

ذلك الغيب ليتجلى في عالم الإنسان ، وإن بدا هذا من عالم الشهادة ، فعالم الغيب بالمنظور الإسلامي هو الركن المقوم لعالم الشهادة ، حيث لا يستقل هذا ولا يستغني في أي جانب من جوانبه عن فيوض عن عالم الغيب .

وملاحظة المسألة من هذه الزاوية المبدئية تعني أن كل حكم من أحكام الإسلام ، وكل بينة من بيناته ، وكل حقيقة من حقائقه -وإن لوحظ فيها عالم الشهادة من حياة الإنسان- هي -في مبدئها الأول وواقعها- من لطف الغيب ورحمته .

وهذه القاعدة كما تصدق على الإسلام ككل ، وتصدق على حقائقه وتصوراته الفكرية والمنهجية ، تصدق كذلك على أصفيائه ومنتجبيه من الناس، لأن كل ما يصدر منهم هو من هدى الله وبيناته إلى العباد ، ومن دلائل حكمته في واقع الإنسان ، لأنهم المكلفون بحمل أمانته وإبلاغ حجته في كل ما يقولون وما يفعلون ، وهذا يعني أن ما يقومون به إنما هو من بركات ذلك الغيب وألطافه أيضاً ، وإن تجلى كلمات وأفعالاً اختيارية ظاهرة للعيان .

❁ ❁ ❁

ومن ناحية أخرى : لقد علمنا -ومن خلال أحاديثنا المتقدمة- أن الإسلام كيان واحد ، متكامل الحقائق والأحكام والحجة ، وأن الحيوية هي الصبغة العامة التي تحكم العلاقة بين كل جزء وآخر فيه ، ومن هنا استحال تحقق الكمال فيه كله مع قصور أي من أجزائه ، أو انحرافه عن الغاية الإلهية فيه .

بمعنى أن القصور أو الانحراف في بعض الأجزاء لا يقف عند حدود الجزء الذي وقع فيه ذلك القصور أو الانحراف فحسب ، وإنما

هو يشمل -في آثاره السلبية- جميع كيان الإسلام ، بجميع ما فيه من حقائق وأجزاء ، إذ أن حدية الحق واطراده لا يقتصران على جانب من كيانه دون جانب ، وإنما هما عامان شاملان لكل حقيقة فيه ، ولكل موقع من مواقعه ، وكل مظهر من مظاهره .

فالأثر الذي يتأتى من حكم فرعي من أحكام الشريعة في تنظيم الحياة ، يرد على موضوع معين فيها لا يقل عن الأثر الذي يتأتى من أصل كبير من أصول العقيدة في موضوعه أيضاً ، ولهذا وجب أن تكون له نفس الضرورات التي تكفل استقامته مع الحق ، ومع دلائل حكمة الله (تعالى) فيه .

وهكذا فإن الموقع الذي أعد لكلمة تصدر من الوصي الأخير المرتضى لحمل أمانة الرسالة هو في -كيان هذه الرسالة وتمام حجتها- كموقع كلمة القرآن أو كلمة الرسول ﷺ نفسه فيها ، وكموقع سائر الأوصياء المنتجبين عليهم السلام أيضاً .

وهذا يعني ضرورة أن يؤخذ كيان الرسالة كله في أي حكم يصدره التشريع في أي موقع ، وعلى أي موضوع أو حادثة ، وكذلك في أي كلمة أو عمل يصدر من أي من أولئك النجباء لئلا يحصل شيء من الخلل أو التفاوت بين الأحكام أو الحجج .

لأن أي قصور يتصور في كلمة تصدر من أي مرتضى لإقامة حجة الله ، وأي بعد عن استقامة الحق يرد في حكم شرعي ، لا يقفان في آثارهما السلبية عند حدود تلك الكلمة أو هذا الحكم ، بل ستنعكس هذه الآثار على كيان الرسالة كلّه ، بل وعلى نفس الحكمة الربانية في إنزالها لهذا الدين ، واصطفائها لأوليائه المنتجبين .. وكل هذه

الاحتمالات مستحيلة التصور -كما علمنا-، إذ تعالى الله -سبحانه- عن النقص أو العبث .

والقرآن يلفت العقول البشرية لأن تحاكمه على أساس من استقامة الحق لتجد من وحدته العامة ، وعدم التفاوت في شيء من حقائقه وأحكامه ، منبعاً من منابع الإعجاز الأبدي الذي تتوقد دلالاته وتتنامى مع تطور المعرفة الإنسانية وتناميها ، قال (تعالى) :

﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً.[1]﴾ .

أمّا تمييز مابين حقائق الرسالة في الأهمية ، وما بين أحكامها في التأثير ، وما بين منتجبيها ببعض أوجه التفضيل ، فكل هذا إنما يرد بعد التحفظ على تلك الحقيقة المبدئية الأولى ، التي تعنيها وحدة الحق واستقامته . وهذا أمر آخر غير ما نحن فيه .

---

(١) النساء : ٨٢ .

الفَصْلُ الرَّابعُ

القرآن وعلم الأصفياء بالغيب

هذا بعض ما ينتهي إليه المنطلق الإسلامي من دلالات في ملاحظة الجانب الغيبي من علوم أصفياء الله (تعالى) ومنتجبيه عليهم السلام ، مما لا ينبغي للفكر الحر أن يجهله من نتائج قريبة المنال ، لا تكلف فيها ولا تمحل ، وهو يتابع دلائل الحق في سلسلته الموحدة المترابطة الحلقات .

نعم ، وهذا هو ما يمليه القرآن نفسه -قبل هذا- في هدى الإنسان وهو يؤكد في الكثير من آياته على ملاحظة هذا الجانب من علوم أولئك المنتجبين ، وما تعنيه رعايات الله (تعالى) لهم فيه ، وقد سبق أن قرأنا قوله (تعالى) :

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً . إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً . لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً .﴾[1] .

وهي آيات واضحة الدلالة على المقصود ، ولهذا فلا حاجة للإطالة ببيان ما تعنيه في هذا المجال ..

الله هو (عَالِمُ الْغَيْبِ) ، وهذه هي الحقيقة المسلّمة الأولى ، فهو الغيب الأول ، وبيده وحده مقاليد الغيب والشهادة ، وقد شاء أن يتفرد

(١) الجن : ٢٦ — ٢٨.

في هذا (فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً) ، وهذا هو شأنه (تعالى) ، إذ لا منازعة له في ملكه ، وهو الذي يعطي ما يشاء لمن يشاء ، ويمنع من يشاء ما يشاء .

ولكن حين شاءت حكمته أن يجعل للبشرية هدى تستكمل به وجودها وحياتها ، وحين شاءت أن تصطفي من الناس من يبلّغون هذا الهدى لها ، ويقيمون حجة الله عليها ، فمن الطبيعي أن تمد هؤلاء المصطفين بشيء من معين الغيب ، لأن ذلك الهدى الإلهي نفسه بكل ما فيه من حقائق وأحكام ، وهذا الاصطفاء كذلك ، هما من الغيوب ، هذا -أولاً- ..

وثانياً : إن من مقتضيات الاصطفاء الإلهي -ذاته- أن لا يقصر المصطفى عما أعده الله -سبحانه- له من دور ، وما كلفه به من مسؤولية ، وعليه أن يؤدي رسالته على أكمل وجه وأتمه ، ولهذا فلا بد من أن يمده بكل ما يعينه على تحقيق تلك الغاية دون أدنى نقص أو تفاوت .

ومما لا بد أن يمد به المصطفى للوفاء بمسؤولياته تلك : شيء من معين الغيب يمكنه من الإحاطة بحدود رسالته التي تحمل أمانتها ، وطرق أدائها كما أراده الله لها ، والظروف الموضوعية التي يحتاجها في إقامة حجة الله بها .

ولهذا فمع أنه (تعالى) (لَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً . إلا) أن (مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ) لا بد من يفاض عليه -وبمقتضى حكمة الله ورحمته- شيء من ذلك الغيب ، حيث لا يستطيع تحقيق مهماته بدون ذلك ، وهكذا (فَإِنَّهُ) شاء أن يستثنيه من ذلك العموم الأول ، وأن يمده

بما يستعين به في أداء مسؤوليته ، ويَسْلُكَ (مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً) .

فهو كما يحتاج من معين الغيب لاستيعاب رسالته التي يحملها لأنها هي -وكما قلت سابقاً- بعض ذلك الغيب ، يحتاج من هذا المعين في استقامته الفعلية في الحياة ، حيث أن كل ما يصدر من قول أو فعل إنما هو مظهر من مظاهر تلك الرسالة ، وبينة من بيناتها , وحجة من حججها على العباد .

ولهذا كله كذلك احتاج الرسول في رسالته -إضافة إلى معين الغيب- إلى ما يحفظها من تدخل المتدخلين ، وعبث العابثين .. احتاج إلى ما يرصد كل مقولة ، وكل بينة ، وكل حجة ، قبل أن تصل إلى الرسول وبعد وصولها إليه (فإنه يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً)، إذ لا يجوز أن تقصر الحجة الإلهية عن غايتها ، وبيناته عن سموها وكمالها .

وبهذا الاستثناء من اختصاص علم الغيب بالله (تعالى) وحده ، تتضح جميع التخصيصات والاستثناءات الواردة في مختلف النصوص .

فالله (تعالى) وحده هو عالم الغيب بالذات دون من سواه ، وهو وحده الذي ﴿عِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إلاَّ هُوَ ..﴾ ، ولكن هذا لا يمنع من إمداد بعض الناس بشيء من الغيوب ، حيث تشاء حكمة الله أن تحقق مقتضياتها ، كما في هؤلاء الأصفياء من الرسل الذين ذكرتهم الآيات السابقة ، وكما في الأنبياء الذين أوحي إليهم ولم يكلفوا بتبليغ رسالة ، وكما في بعض من ارتضاهم الله لمهمات معينة تعتمدها بعض غاياته في واقع الناس ، مثل أم موسى (عليه السلام) ، حيث بشرها الله بسلامة

وليدها ، وعودته إليها ، وأنه سيكون من المرسلين ، قال (تعالى) :

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ .[(١)]﴾ .

وكذلك مريم ابنة عمران بالنسبة إلى وليدها عيسى عليه السلام، إذ قال (تعالى) :

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَآئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ .[(٢)]﴾ .

إلى غير ذلك ..

ولكن امتلاك هؤلاء الأصفياء شيئاً من الغيوب لا يعني أنهم تجاوزوا حدود إنسانيتهم ، فنالوا بهذه الفضيلة ما خفي عن الله - سبحانه- ، أو أنهم قد أصبحوا شركاء لله في علمه ، أو أن الغيب قد أصبح أمامهم مفتوحاً في كل أبوابه ، وراء ما أراده الله لهم ..

كلا ، أبداً . فالله إنما أعطى رسله ما أعطاهم من المزايا ، وهيأ لهم من معين الغيب ما هيأ .. إنما كان كل تلك الرعايات الخاصة منه (لِيَعْلَمَ أن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ) ، وبهذه الحدود كانت تلك الإفاضات ، (وَ) لهذا فهو قد (أَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً) .

هذا هو المقصود الواضح والقريب للآيات المباركة السابقة ، ولهذا فلا حاجة بنا للإطالة ببيان جوانب أخرى منها ، وان كانت الجوانب التي عرضت لها هي من الأهمية بمكان .

نعم لا بد لنا من الوقوف باختصار عند نقطتين منها :

---

(١) القصص : ٧.

(٢) آل عمران : ٤٥

❁ ❁ ❁

لا بد للرسل من كل ما يحتاجون إليه

أولاهما : إن الآيات تشير إلى (ان الذي استثني في الآية من الإظهار على الغيب : إظهار الرسول على ما يتوقف عليه تحقيق إبلاغ رسالته ، أعم من أن يكون متن الرسالة ، كالمعارف الاعتقادية ، وشرائع الدين ، والقصص والعبر والحكم والمواعظ ، أو يكون من آيات الرسالة والمعجزات الدالة على صدق الرسول في دعواه ، كالذي حكي عن بعض الرسل من الإخبار بالمغيبات ، كقول صالح عليه السلام لقومه :

﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ .[1]﴾ .

﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ .[2]﴾ .

وقول عيسى عليه السلام لبني إسرائيل :

﴿ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ..[3]﴾ .

وكذلك ما ورد من مواعد الرسل ، وما ورد في الكتاب من الملاحم كل ذلك من إظهارهم على الغيب)[4] .

ولا ريب أن شوهد التصديق هذه للرسل من الآيات والمعجزات تعتبر من متطلبات اصطفائهم ، فهي كذلك مما لا بد من إفاضته عليهم.

❁ ❁ ❁

---

(١) هود: ٦٥.

(٢) هود: ٦٥.

(٣) ال عمران: ٤٩.

(٤) الميزان في تفسير القران : ج ٢٠ ، ص ٥٨ ط ٢ن مؤسسة الاعلمي بيروت سنة ١٣٩٤.

علم الأصفياء بالغيب ليس ذاتياً ولا محيطاً

ثانياً : إن علم الغيب لدى المنتجبين من أصفياء الله تعالى ليس علما ذاتيا ولا محيطا ، -كما هو الشأن في علم الله سبحانه- ، ولا ينبغي لعاقل أن يقول ذلك ، وهو يدرك أن الإنسان -بمن في ذلك الأصفياء المنتجبون- محدود القدرات والطاقات ، وأن ما أفيض على هؤلاء النجباء من معين الغيب لا يؤهلهم لنيل درجة الإطلاق في قدراتهم وطاقاتهم ، أو حتى يمكنهم من تجاوز ما شاءته لهم عناية الله (تعالى) .

ولهذا فليس من حق قائل أن يقول : ان في الاعتقاد بعلم الأصفياء بالغيب نوعاً من الغلو بهؤلاء الأصفياء ، أو هو نوع من الشرك بالله ﷻ ، كما يحلو للبعض ان يقول .

كلا .. أبداً ، فعلم العيب لدى هؤلاء الأصفياء -وكما تشير الآيات السابقة- إنما هو فيض ربّاني يجري معهم مجرى اللطف بهم كحملة لمشعل الحق، والرحمة بالبشر ، وهم المصطفون لهدايتها للخير والكمال ، إذ يستحيل على أي منهم الوفاء بمسؤولياته الإلهية دون ذلك المدد الخاص من الله (تعالى)، كما يستحيل على أي من الناس أن يدرك منابع الحق فيما يصدر عنهم من بصائر ودلائل ، وأن يعلم أنها بصائر الله (تعالى) وبينات دينه القويم ودلائله.

﴿ لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ .

نعم ، فلهذه الغاية وحدها كان علمهم بالغيب ، كما كانت ألطاف الله كافة بهم ، وهذا يعني أن استحقاقهم لهذا العلم كان بسبب اصطفاء الله إياهم لذلك لا بسبب آخر ، وهذا ما تؤكده النصوص الإسلامية الواردة في هذه الناحية ، حيث يقول الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام

لعمار الساباطي حين سأله عن الإمام : يعلم الغيب ؟ :

(لا ، ولكن إذا أراد ان يعلم الشيء أعلمه الله[١]) .

وفي رواية أخرى : كان المفضل عند الإمام أبي عبد الله عليه السلام ، فقال له المفضل :

جعلت فداك ، يفرض الله طاعته على العباد ويحجب عنه خبر السماء ؟ .

قال عليه السلام : لا ، الله أكرم وأرحم وأرأف بعباده من أن يفرض طاعة عبد على العباد ثم يحجب عنه خبر السماء صباحا ومساءا[٢]) .

وعن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام انّه قال -وكان عنده ناس من أصحابه- : (عجبت من قوم يتولّونا ، ويجعلونا أئمة ، ويصفون ان طاعتنا مفترضه عليهم كطاعة رسول الله صلى الله عليه وآله ، ثم يكسرون حجتهم ، ويخصمون أنفسهم بضعف قلوبهم ، فينقصونا حقنا ، ويعيبون ذلك على من أعطاه الله برهان حق معرفتنا ، والتسليم لأمرنا ؛ أترون ان الله -تبارك وتعالى- افترض طاعة أوليائه على عباده ، ثم يخفى عنهم أخبار السماوات والأرض ، ويقطع عنهم موادّ العلم فيما يرد عليهم ، مما فيه قوام دينهم .. الحديث[٣]) .

كما سبق أن قرأنا قول الإمام الصادق عليه السلام لهشام بن الحكم -من حديث- : (ويك يا هشام ؛ لا يحتج الله -تبارك وتعالى- على خلقه بحجة لا يكون عنده كل ما يحتاجون إليه ..) .. إلى أحاديث أخرى .

---

(١) أصول الكافي : ج ١ ، ص ٢٢٦.

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٦١.

(٣) المصدر السابق : ص ٢٦٢.

كما يبدو من تلك الآية الشريفة ﴿لِيَعْلَمَ أن قَدْ أبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ﴾ وهذه الأحاديث المباركة أيضاً : أن علم أولئك الصفوة بالغيب ليسَ علماً محيطاً بكل شيء -وكما هو الشأن في علم الله ﷻ ، وإنما هو محدود بحدود حاجتهم في إقامة هدى الله ، وإبلاغ أمره، حيث اقتضاه ارتضاء الله لهم.

(إذا أراد أن يعلم أعلمه الله) .

(أترون ان الله -تبارك وتعالى- افترض طاعة أوليائه على عباده ثم يخفي عنهم أخبار السماوات والأرض ، ويقطع عنهم موادّ العلم فيما يرد عليهم مما فيه قوام دينهم) .

❁ ❁ ❁

علم الأصفياء من خلال رؤى قاصرة

نعم ها هنا ملاحظة مهمة ينبغي لنا الالتفات إليها ونحن نستشهد بهذه الآيات الكريمة السابقة من سورة الجن .

وهي ما أشار إليه بعض المفسرين الذين شاؤوا -ولأسباب معروفة- أن يقتصروا في نظرتهم لهذه الناحية ، عند حدود هذا السياق المبارك ، ويقصروا استثناء العلم بالغيب في حدود ما ذكرته الآية الكريمة، دون جعل هذه المسألة في إطارها العام ، ولا جعل هذا السياق ضمن الدلائل الإسلامية الأخرى الواردة فيه .

ولهذا قالوا -كما في تفسير الكشاف للزمخشري- :

(«من رسول» تبيين لمن ارتضي ، يعني أن يطلع على الغيب إلا المرتضى الذي هو مصطفى للنبوة خاصة لا كل مرتضى ، وفي هذا إبطال للكرامات ، لأن الذين تضاف إليهم -وإن كانوا أولياء- فليسوا

برسل وقد خص الله الرسل من بين المرتضين بالاطلاع على الغيب)[١].

وهذا غريب ، وتستبين غرابته مع أدنى تأمل فيما سبق من حديث، والنقاط التي أشرنا إليها ، والآيات التي اقتبسناها فيه ، حيث أنها صرحت بإفاضة بعض الغيوب على غير هؤلاء المرسلين ، كأم موسى ، ومريم ابنة عمران ، حيث اقتضت مصلحة الحق ذلك ، وكما سنقرؤه كذلك في الباب القادم من حديث الذي عنده علم من الكتاب مع سليمان عليه السلام إذ قال له ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ ولا شك أن جلبه لعرش بلقيس إليه كان بقوة غيبية ، فالإخبار بها لا بد أن يكون غيبياً كذلك .

ومن الحق أن نتساءل : ما الذي يعنيه الارتضاء بقوله (وإن كانوا أولياء مرتضين) ؟ ، أليس هذا الارتضاء نفسه من معين الغيب ، وكذلك الولاية التي ارتضوا لها ؟ .

ثم -وهنا تبدو الدوافع الحقيقية لهذا الموقف- ما العلاقة بين نفي العلم بالغيب ونفي كل الكرامات ، ليقول : وفي هذا إبطال للكرامات؟، ولنسلم بأن الاستثناء من اختصاص الله بعلم الغيب مختص بالرسل وحدهم ، وأن غيرهم من الأولياء المرتضين لا يعلمون الغيب ، ولكن لأي سبب تنفى عنهم الكرامات الأخرى ، والكل يعلم أن الكرامات لا تختص بعلم الغيب وحده ؟.

نعم إن التخصيص في هذه الآيات مما يستدعيه الموقع المتقدم للرسل عليهم السلام في حمل كلمة الله (تعالى) ، وإبلاغ هداه إلى الناس .

فمعروف ان للرسل موقع الصدارة في تحمّل مسؤولية تلك الكلمة

---

(١) الكشاف — ج : ٢ — ص : ٥١٦ — ط : ٢ — ن : المكتبة التجارية الكبرى — القاهرة — سنة : ١٩٥٣.

وذلك الهدى ، فمن الطبيعي ان يكون لهم القسط الأول في إظهارهم على ما يحتاجونه من الغيب ، ولهم الدور المباشر في الفيوض الربانية منه، كما كانت لهم الأدوار الأولى في الرعايات الإلهية التي تتطلبها الرسالات الإلهية ، ليأتي بعدهم دور الأنبياء الذين لم يكلّفوا بإبلاغ نبوءاتهم إلى غيرهم من الناس ..

أمّا الأوصياء -وهم ورثة الرسل والأنبياء في إقامة الحق ، وحمل مشعل هداه-، فمن الطبيعي أن يكون علمهم بالغيب وراثة عنهم أيضاً، كما يرثون غير هذا الجانب من العلم ، ومن المستلزمات الأخرى التي يحتاجونها في وفائهم بمسؤولياتهم في الوصاية على الرسالات .

وقد سبق ان قرأنا ما قاله الرسول ﷺ في علم وصيه المرتضى علي بن أبي طالب عليه السلام : من أنه عليه السلام وارث علمه ﷺ ، وانّه ما من علم إلا وقد أحصاه الله فيه ﷺ ، وهو الذي نقله إلى علي عليه السلام ، وأن علياً وارث علم النبيين ، وانه عليه السلام وارث علم الأنبياء والمرسلين .

كما سبق أن قرانا ما قاله علي عليه السلام في علم نفسه : (علّمني رسول الله ﷺ ألف باب وكل باب يفتح الف باب) .

وهناك روايات كثيرة أخرى تضفي مزيداً من الإيضاح على هذه الناحية أيضاً ، منها ما أورده السيد الرضي (قدس سره) في (نهج البلاغة) ، عن أمير المؤمنين عليه السلام بعد كلام له يذكر فيه بعض الملاحم - وقد قال له بعض أصحابه : لقد أعطيت يا أمير المؤمنين علم الغيب- .

فضحك عليه السلام وقال للرجل -وكان كلبيّاً- : يا أخا كلب ! ، ليس هو بعلم غيب ، وإنما تعلّم من ذي علم ، وإنما علم الغيب علم الساعة، وما عدّده الله -سبحانه- بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ

الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ .﴾ .

فيعلم الله -سبحانه- ما في الأرحام من ذكر أو أنثى ، وقبيح أو جميل ، سخي أو بخيل ، وشقي أو سعيد ، ومن يكون في النار حطبا أو في الجنان مع النبيين مرافقا ، فهذا علم الغيب الذي لا يعلمه أحد إلا الله ، وما سوى ذلك فعلم علمه الله نبيه فعلمنيه ، ودعا لي بان يعيه صدري ، وتضطمّ عليه جوانحي[1]) .

وطبيعي ان تمتد سلسلة التوارث هذه مع سلسلة الاصطفاء الإلهي للوصاية على الحق ، إذ لا بد أن يحمل كلّ منتجب ما يؤهله للوفاء بمسؤولياته الكبرى في قيام الحق ، واستقامة كيانه في الحياة .

ومن هذه المؤهلات -طبعا- ما تحتاجه مهماتهم تلك من العلم ببعض الغيوب ..

وبهذا المعنى يقول الإمام الرضا عليه السلام من حديث :

(أو ليس انه (تعالى) يقول : ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً. إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ﴾ ؟ ، فرسول الله صلى الله عليه وآله عند الله مرتضى، ونحن ورثة ذلك الرسول الذي أطلعه على ما يشاء من غيبه ، فعلمنا ما كان وما يكون إلى يوم القيامة)[2] .

كما يقول الإمام أبو الحسن الكاظم عليه السلام -من حديث أيضاً- :

(ان الله (تعالى) يقول : ﴿ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا

---

(١) نهج البلاغة . تحقيق الدكتور صبحي الصالح ، ص ١٨٦ . ط بيروت.

(٢) الميزان في تفسير القران : ج ٢٠ ص ٥٨ عن كتاب الخرائج والجرائح.

فِي كِتَابٍ مُبِينٍ .[1]﴾ ، ثم يقول : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ..[2]﴾ ، فنحن الذين اصطفانا الله ﷻ ، وأورثنا هذا الذي فيه تبيان كل شيء)[3] .

إلى أحاديث أخرى كثيرة واردة في نفس المضمون .

وينبغي أن نلتفت إلى ما ذكرناه سابقاً من أننا –ونحن نستشهد بهذه الأحاديث الواردة عن أهل البيت عليهم السلام– لا يرد علينا من أن هذا استدلال بما ورد عن هؤلاء الأوصياء ، فهو مصادرة لأن الشيء لا يثبت نفسه .

فقد قلنا : إن هذه الأحاديث ليست هي التي تثبت اصطفاءهم عليهم السلام ، وإن لهذا الاصطفاء أدلته القطعية الأخرى ، فهذه الروايات هي من باب معالم الحق في هذا الاصطفاء ، إضافة إلى ما في منطقهم عليهم السلام – في هذه الروايات وأشباهها– من تحدّ معجز ، يضعون فيه للبصائر سبل تمييز أصفياء الله الصادقين عمن سواهم من الأدعياء .

---

(١) النحل : ٧٧.

(٢) فاطر : ٢٦.

(٣) أصول الكافي : ج ١ ، ص ٢٢٦.

الفصل الخامس

نتائج هذا المنطلق في فهم علم الأصفياء

من هذا المنطلق الإسلامي الذي ترشد إليه مصادر الإسلام -كما يرشد إليه العقل في بداهته- يجب أن يلحظ علم الغيب لدى أصفياء الله عز وجل ومنتجبيه -بمن فيهم علي بن أبي طالب عليه السلام .

فبهذا المنطلق تتكامل جميع زوايا الملاحظة ، وبه تتضح الرؤية السليمة لهذا العلم ، دون أدنى ثغرة يمكن أن توردها الاتجاهات الأخرى ، التي لا تملك مثل هذا التكامل والوضوح -كما لاحظنا في الفصل السابق- .

كما أن لهذا المنطلق نتائجه المهمة في فهم الإنسان لدلائل المواقف والكلمات التي تصدر من أولئك الصفوة في مختلف الحالات والمناسبات.

فما أكثر المواقف والكلمات التي خلّدها التأريخ عنهم مما لا يستطاع تفسيره إلا من خلال هذا المنطلق ، المتكامل الرؤية والنتائج ، حيث تتداخل علوم الغيب مع علوم الشهادة جميعها في أصولها وبلورتها، وإيضاح غاياتهم الإسلامية الرفيعة منها .

ولهذا المنطلق نتائجه البارزة -كذلك- في فهم الواقع الفعلي المشهود لحجة الله (تعالى) وقيامها على العباد ، وسمو كلمتها في الحياة الإنسانية ، في جميع ما صح عن أولئك الأصفياء عليهم السلام ، من أقوالهم

وأفعالهم ، وما اختاروه لأنفسهم من صفات وأحوال .

بل وفي فهم هذا الخلود المشهود في وضوح هذه الحجة الإلهية ، وقربها من الوعي البشري العام ، بالرغم من مرور هذه الحقب الطويلة من الزمن ، وبالرغم من اختلاف الظروف ، والفوارق الاجتماعية والنفسية والحضارية التي تفصل بين عهودهم عليهم السلام والعهود المتأخرة ، ولا سيما في هذه العصور التي نعيش نحن فيها .

إذ لولا هذا التكافؤ الدقيق بين المدد الرباني من العلم -بما فيه العلم بالغيوب التي يحتاجونها-، وما تقتضيه مسؤولياتهم الكبرى في الرسالة الخاتمة لجميع الرسالات ، والعامة للبشرية كافة ، حيث لم يحدد لخلودها زمان دون نهاية البشرية في هذه الأرض ، ولم يخصص عمومها بمكان أو طائفة من الناس في الوفاء بمسؤولياتهم تلك ..

أقول : لولا هذا التكافؤ بين ذلك المدد وهذه المسؤولية ، لما أمكنهم أن يجعلوا في كلماتهم وأفعالهم ذلك الإشعاع الرباني المشرق الذي بقي حتى الآن، بل وسيبقى حتى الأبد هو النبراس الخالد لدين الله (تعالى) أمام بصائر العباد ، وينبوع حجته على الناس جميعاً .

ولهذا فلم يستطع الزمان ، ولا تمادي القرون ، ولا تطور المجتمعات، أو تفاوت الحضارات وتقدم جوانب المعرفة ، ولا ضغائن الحاقدين أو انحراف المنحرفين .. لم تستطع كل هذه أن تثبت وهناً في كلمة صدرت عن صفي من أصفياء الله (تعالى) ، أو انحرافاً عن الحق في موقف ، أو اختلافاً عنه في علاج .

وبهذه الملاحظة ندرك أنه ما كان لمفهوم الشمولية في دين الله أن يتحقق -وفي مداه الإسلامي المطلوب ، وفي اتجاهاته الزمانية والإنسانية

كافّة- لو لم يكن لدى أصفيائه من أرصدة العلم بالغيب ما يحتاجونه في قيامهم على شؤون هذا الدين ، والإحاطة بما تتطلبه من تجليات الحكمة الربّانية ، ودلائلها في المخلوقات كافّة -بما فيها الإنسان وشؤون حياته الاختيارية-، فقد قلنا : إنّ هذه التجليات غيبية المصدر والنتائج ، وإن برزت بعض مواردها أمام الإدراك الإنساني ، فاستطاع التعرف عليها في بعض ظواهر الوجود ، وأصبحت لديه من عالم الشهادة .

كما ندرك أنه ما كان لهذه الشمولية أن تتحقق ، لو لم يحط هؤلاء الأصفياء بالآفاق والمستويات ، والاتجاهات الفكرية والعلمية والحضارية ، التي ستنالها البشرية ، أو ستهيمن على حياتها -حتى الأبد-، حيث رسم الاصطفاء الإلهي مهمّاتهم ، وحدد مسؤولياتهم في هذه الأرض ، وواضح أنها آفاق ومستويات واتجاهات كانت -ولا تزال- ضمن مجال الغيب ، وإن بدت بعض معالمها كلما مضى الزمان خطوة إلى أمام .

فبوجود هذا الجانب المهم من العلم بقيت كلمات المصطفين ، ومواقفهم وجزئيات حياتهم ، -وستبقى أبد الدهر- هي الروح التي تمد الإنسان بالحياة ، وهي المنار الذي يملأ وعيه بالهدى والرشاد ، مهما بلغ في درجات السمو الحضاري والعلمي ..

وكانت -وستبقى كذلك- هي الشفاء الإلهي ، الذي لم ولن تجد الألباب والقلوب عنه بديلاً ، وان بعدت بها سبل الحياة ، وتمادت بها الاتجاهات .

البَابُ الثَّامِن

علي وخرق النواميس الطبيعية

الفصل الأول

مما يملكه علي من وسائل

وفي هذا الخط الإسلامي العام -أيضاً- يجب أن تفهم صور وحدود الوسائل التي يجب أن يمتلكها علي عليه السلام في أدائه لمهمته الكبرى في الحياة، و قيامه على شأن ولايته الإسلامية العظمى .

إذ كما استوجبت مسؤوليته الإلهية في علي عليه السلام ما استوجبته من مقومات ذاتية في نفسه وحدت شخصيته مع الحق ، حتى أصبح عنواناً يتجلى في كل كلمة نطق بها ، وفي كل موقف اتخذه في الحياة ، وفي كل سمة اختارها ..

وكما اقتضت تلك المسؤولية أن يمتلك علي عليه السلام من العلوم ما يمكّنه من الاحاطة بمستلزماتها كافة ، بدءاً من تجليات حكمة الله عز وجل في الوجود ، وانتهاء بانتظام كل مظهر وجودي مع ما شرعته له تلك الحكمة من سنن ، وما أعدته له من غايات ، مما يحتاجه في مهماته تلك.

فكذلك تستدعي هذه المسؤولية نفسها أن يمتلك علي عليه السلام من الوسائل والقابليات والإمكانات المختلفة ما يعنيه على الوفاء بها أتم الوفاء ، دون أدنى وهن ، لا بلحاظ عصره فحسب ، وإنما بلحاظ ما وسعته حدود اصطفائه من العصور ، وإن تجاوزت هذه الوسائل والإمكانات الحدود الطبيعية لدى الإنسان ، إذ يجب أن تكون هذه الوسائل والامكانات التي لديه -بدورها- بعض مظاهر الرعاية الربانية، الشاملة له ولولايته العظمى أيضا .

فقد تبينا أن هذه الرعاية من شؤون الاصطفاء ذاته ، حيث لا

يستطيع علي أن يحقق دوره المطلوب يدونها ، كما رأينا كذلك أنها بعض مستلزمات الحق في استقامته في دينه القويم ، ومن هذه الوسائل :

١ - الكمال الأعلى في قواه الجسمية والنفسية والعقلية بما يؤهله للتوحد المطلق مع الحق ، وفي قدراته الذاتية على تحمل السراء والضراء بشكل لا يحيد باستقامته التامة تعرضه لأقسى الشدائد وتقلب الأحوال والظروف ، وكماله في قدراته على معالجة الأمور الطارئة بشكل يمكنه من تحقيق جميع ما يحتاجه في مسؤوليته الإلهية تلك ، وإن تجاوزت هذه الأمور فيه حدود المتعارف لدى الإنسان الاعتيادي منها .

٢ - قدرته على التصرف بما حوله من موجودات تتطلبها إقامة الحجة الإلهية أمام البصائر، وإن استوجب هذا التصرف خرقاً للنواميس الطبيعية فيها .

٣ - ضمان الاستجابة الإلهية لدعائه في المهمات ، ولا سيما في موارد بيانه لكلمة الله ﷻ ، وإتمام حجته على الناس .

إلى أمور أخرى من هذا القبيل ...

ولكل من هذه الأمور شواهده المعروفة من حياة علي ﵇ ومواقفه، وقد سبق منا أن قرانا العديد من هذه الشواهد خلال هذا الحديث ، كاستجابة الله (تعالى) لدعائه ﵇ يوم الرحبة ، حينما استشهد من حضر من صحابة رسول الله ﷺ على ما قاله الرسول ﷺ في ولايته ﵇ يوم غدير خم ، فامتنع أنس بن مالك والبراء بن عازب عن الشهادة ، فقال ﵇ : (اللهم أن كان كتماها معاندة فابلهما) .

إذ يذكر التاريخ أن البراء قد عمي ، فكان يسأل عن منزله ، ويقول: (كيف يرشد من أدركته الدعوة) ، وأما أنس فقد برص ، وهناك روايات أخرى تذكر هذا المصير لزيد بن أرقم وآخرين أيضاً.

ومما ورد في القوة الجسدية لعلي عليه السلام ، ما رواه العديد من المؤرخين مستفيضا : (انه حمل باب خيبر يوم افتتحها ، وأنهم جربوه بعد ذلك ، فلم يحمله إلا أربعون رجلا أو سبعون[1]) .

وانه عليه السلام كان يقول : (والله ما قلعت باب خيبر بقوة جسدانية ، وإنما بقوة ربانية [2]) .

أما في تصرفه الخارق للظواهر الطبيعية ، فيقول الإمام علي عليه السلام نفسه : (قال لي النبي صلى الله عليه وآله : اركب ناقتي ثم امض إلى اليمن ، فإذا وردت عقبة أفيق ورقيت عليها رأيت القوم مقبلين يريدونك ، فقل : يا حجر ، يا مدر ، يشجر، رسول الله صلى الله عليه وآله يقرأ عليكم السلام .

قال علي عليه السلام ففعلت ، فلما رقيت العقبة قلت : يا حجر، يا مدر، يا شجر ، رسول الله صلى الله عليه وآله يقرأ عليكم السلام . قال عليه السلام : وارتجّ الافيق ، فقالوا : على رسول الله السلام ، وعليك السلام .

فلما سمع القوم نزلوا فأقبلوا إلي مسلمين [3]) .

ولا نطيل في ذكر شواهد أخرى لهذه النواحي ، كما لا نطيل باستعراض وسائل وامكانات أخرى عرفت عنه من هذا القبيل ، وهي أمور يجدها المتتبع في كتب السير والحديث،مما تناول سيرة الإمام علي عليه السلام أو ذكرت بعض شؤون حياته،وكثرة رواياتها ، واستفاضتها في مختلف المصادر ترفع أي ريب بتحقيق مضمونها العام .

---

(١) فضائل الخمسة من الصحاح الستة – ج : ٢ – ص : ٣٤٤ عن كتاب (تاريخ بغداد) – ج :١١ – ص : ٣٢٤ ، وغيره .

(٢) تفسير الرازي – ج : ٢١ – ص : ٩١ – ط : الأولى – تحقيق التزام عبد الرحمن محمد – القاهرة.

(٣) فضائل الخمسة من الصحاح الستة – ج : ٢ – ص : ١٢٣ ، عن (تاريخ بغداد) – ج : ٧ – ص : ٥٦.

الفصل الثاني

الخوارق ألطاف إلهية

ومن الواضح لنا -ولا سيما بعد هذه المسيرة الطويلة من الحديث- أن لا غرابة في أن يمتلك علي عليه السلام مثل هذه المؤهلات والوسائل، وإن تجاوزت حدود القابليات الإنسانية المعروفة، أو استوجبت خرق النواميس الكونية.

إذ بعد التزام الله عز وجل إياه مرتضى لولايته الكبرى، كان لا بد أن يسنده بما يتوقف عليه قيامه بمهماته فيها، ويدعمه بما يعنيه في الوفاء بمسؤوليته في إقامة الحق، ونشر هداه في البشرية.

وإسناد مثل هذه المؤهلات في أصفياء الله ومنتجبيه، يعتبر من بدائه الإسلام الأولى، ومن مرتكزات عقائده العامة، وفي طول سلسلة رسالاته كافة، منذ رسالته الأولى، وحتى رسالته الخاتمة التي أنزلت على محمد صلى الله عليه وآله، ولا يناقش في هذه الحقيقة مسلم، بل ولا يرتاب فيها ذو لب، وهو يعلم قدرة الله (تعالى)، وهيمنة سلطانه على الخلق، ويعلم أن الله الذي أجرى تلك السنن الكونية -كما أجراها- لأن حكمته شاءت أن تمضي المكونات مع هذه السنن وينتظم بها أمرها، ولا شيء يمنعه من خرق هذه السنن حين تشاء حكمته مثل هذا الخرق.

فهو (تعالى) خالق الكون، وهو منشئ جميع ما فيه، والجاعل لقوانينه، ومشرع سننه، والمالك لتدبيره، فلا يمتنع عليه مظهر من مظاهره، إن شاء أن يستثني منه سنة، أو يغيره إلى مظهر آخر، أو يفنيه

تماما . فكل شيء خاضع له ، محتاج لفيضه ، مستقيم مع أمره .. قال (تعالى) :

﴿لِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .[1]﴾.

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ . وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ . وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .[2]﴾ .

فلا الغرابة حينئذ في أن يجعل الله ﷻ أصفياءه الذين يجتبيهم لحمل أمانته في الخلق بدرجات من الكمال والجلال ما يستشرفون به على جميع الحدود الطبيعية للناس ، أو يملّكهم شيئاً من نواصي المخلوقات ، لتخضع لإرادتهم في بعض المواقف والحالات بإذنه ،حين تقتضي حكمته ذلك في موارد إظهار الحق وبيناته ودلائله للإنسان ، وقيام حجته عليه من هذا السبيل .

نعم ، فالمصطفى يحتاج إلى ما يثبت ارتباطه بتلك القدرة القاهرة المهيمنة، لتؤمن العقول بأن ما يقوله وما يفعله إنما هو من قول الله ﷻ، وعن أمره وإذنه.

والمصطفى يحتاج إلى ما يثبت للناس كرامته عند الله (تعالى) وفضله لديه.

والمصطفى قد يحتاج إلى ما يسمع به كلمته الآذان وما يري حجته

(١) المائدة : ١٢٠.

(٢) القصص :٦٨- ٧٠.

العيون ، وما يفهم بيانه الألباب ، وقد لا تكون الوسائل الطبيعية المتعارفة في التبليغ قادرة على الوفاء بشرائط الحق في موقف من المواقف .. وهكذا .

ومن هنا كان لا بد للنبي أو الرسول من معجز يصدّقه في سفارته عن الله -سبحانه- و يمكنه من تبليغ رسالته إلى العباد .

والقرآن العزيز يفيض في الكثير من سياقاته في استعراض تلك المؤهلات، وهذه الخوارق -التي يسميها بالآيات- حين يستعرض بعض شؤون الأنبياء والرسل عليهم السلام ، حيث يذكر لكل منهم شيئاً مما أفاضته العنايات الربانية عليه منها ، لإسناده في دعوته ، ومواقفه مع قومه ، ويعتبرها بعض شؤون الاصطفاء الإلهي له ، ومتتمات أمره .

وهكذا فهو يذكر مثل هذه المؤهلات في أولي العزم من الرسل : نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد عليهم السلام ، مرورا بغيرهم من الأنبياء و الرسل ، إذ يقول (تعالى) -مثلا- :

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ . فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ . فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاء بِمَاء مُّنْهَمِرٍ . وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاء عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ . وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ . تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاء لِّمَن كَانَ كُفِرَ .[(١)]﴾ .

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارني كَيْفَ تُحْيِـي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ

(١) القمر :٩-١٤.

اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ.[(١)]﴾ .

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى . قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى . قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى. فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى . قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى . وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى. لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى.[(٢)]﴾.

﴿إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَـذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ .

وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوَاْ آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ .

إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُواْ اللّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ .

قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ. قَالَ اللّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَداً

---

(١) البقرة : ٢٦٠.

(٢) طه :١٧- ٢٣.

مِّنَ الْعَالَمِينَ.[(١)]﴾ .

﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ . وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ.[(٢)]﴾ .

إلى نماذج كثيرة أخرى مما ذكره القرآن الكريم من هذه المؤهلات والوسائل التي أفاضتها عناية الله ﷻ على أصفيائه النجباء من الرسل والأنبياء ﷺ ، فاستيعاب ما ذكره القرآن منها أوسع من أن يحاط به في مجال ضيق كالذي نحن فيه .

وتمضي السنة الشريفة في الإفاضة بتفصيل ما أجمله القرآن من هذه الأمور، وذكر الكثير مما لم يرد في آياته المباركة ، ولا سيما فيما كان للرسول محمد ﷺ منها ، وكثير من نصوص السنة في هذا المجال من الشهرة بدرجة تبلغ حد التواتر لدى المسلمين كافة ..

ومن هذه النصوص المشهورة قوله ﷺ : (نصرت بالرعب ، وأوتيت مفاتيح الأرض ..[(٣)]) .

وقوله ﷺ : (إني لأبصر من ورائي كما أبصر من بين يدي ..[(٤)]) .

وقوله ﷺ : (إني لست كهيئتكم ، إني أبيت لي مطعم يطعمني ، وساقٍ يسقيني[(٥)]) .

---

(١) المائدة : ١١٠- ١١٥.

(٢) القمر : ١-٢.

(٣) مسند الإمام احمد بن حنبل – ج : ١ –ص : ٩٨- ط : الأولى – ن : دار صادر – بيروت سنة ١٣٨٩.

(٤) صحيح مسلم – كتاب الصلاة ، باب الأمر بتحسين الصلاة – ج : ٢ – ص : ٢٧- ن : محمد علي صبيح – سنة : ١٣٨٠ .

(٥) صحيح البخاري – كتاب الصوم ، باب صوم الوصال – ج : ٣ – ص : ٤٩- .

وما رواه جابر بن عبد الله قال : (لقد رأيتني مع النبي ﷺ وقد حضرت العصر ، وليس معنا ماء غير فضلة ، فجعل في إناء ، فأتي النبي ﷺ به ، فأدخل يده فيه ، وفرج أصابعه ثم قال : (حي على أهل الوضوء ؛ البركة من الله) ، فلقد رأيت الماء يتفجر من بين أصابعه ، فتوضأ الناس وشربوا ، فجعلت لا آلو ما جعلت في بطني منه فعلمت أنه بركة .

قال الراوي : فقلت لجابر : كم كنتم يومئذ ؟ . قال : ألفا وأربعمائة[1]) .

إلى غير هذه الروايات ..

(١) المصدر المتقدم – كتاب الاشربة – البركة والماء المبارك – ج : ٧ – ص : ١٤٨.

الفصل الثالث

لا اختصاص للرسل بالخوارق

ولم يخصص القرآن الكريم ولا السنة النبوية الشريفة هذه المواهب العليا بالأنبياء والرسل من أصفياء الله فحسب ، بل هما ذكراها لأوصيائهم المصطفين أيضا ، بل وأولياء الله المرتضين كذلك ، حيث يمضي معهم نهج الحق ، وتكتمل بهم رسالات السماء ، ويستتم بهم هدى الله (تعالى) أنواره..

فيقول القرآن -مثلا- في وصي سليمان عليه السلام :

﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ . قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ . قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ..[1] ﴾ .

وفي هذا النوع ترد الروايات الواردة في معاجز وكرامات الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام والمنتجبين من عترته عليهم السلام ، ومنها الروايات السابقة التي قرأناها في بداية هذا الباب ، فلا نطيل باقتباس المزيد منها هنا .

❁ ❁ ❁

---

(١) النمل : ٣٨ - ٤٠.

بل والملاحظ أن آيات الكتاب العزيز ، وصحاح السنة الشريفة ، قد ذكرت نماذج من خرق النواميس الطبيعية ، أو استجابة الدعاء ، أو غيرهما من المواهب التي ذكرناها سابقا قد أجراها الله ﷻ على أيدي غير الأنبياء والأوصياء من الناس ، واعتبرتها من الكرامات التي تفيضها العناية الإلهية على هؤلاء الناس ، لما كان لهم من دور خاص في قيام الحجة الإلهية ، وإتمام أمرها في البشرية ، أو المحافظة عليها، إن لم يبلغوا في أنفسهم إلى درجة الاصطفاء الإلهي.

وقد قرأنا سابقاً ما ذكره القرآن من إخبار الله ﷻ لأم موسى عليه السلام حين ولدته ،وكذلك لمريم ابنة عمران حينما ولدت وليدها عيسى عليه السلام ببعض الغيوب حول مستقبل وليديهما العظيمين ، كما أنه ما من الله به عليهما من خوارق غير اعتيادية في قوة نفسيهما وتحملها ما لا تتحمله النساء الأخريات في مثل ظروفهما ، إضافة إلى قوة في التصرف ببعض الموجودات بما بخرق النواميس الطبيعية ..

وهكذا فهو يقول في أم موسى عليها السلام :

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .[1]﴾ .

كما يقول عن مريم ابنة عمران :

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَـذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ إنَّ اللّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ .[2]﴾ .

ويقول فيها حين ولادتها لوليدها العظيم عليه السلام :

---

(١) القصص : ١٠.

(٢) ال عمران : ٣٧.

﴿فَأَجَاءهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْياً مَّنسِيّاً . فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً. وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً .[1]﴾ .

وأمثلة هذا النوع من الروايات أكثر من أن تحصى ، كالروايات الواردة في حمل آمنة بنت وهب بالنبي ﷺ ، وحمل فاطمة بنت أسد بعلي عليه السلام ، وانشقاق جدار الكعبة لها حين حضور ولادتها له ، وغير هذا مما تذكره كتب السير والتاريخ .

❁ ❁ ❁

ويمضي القرآن الكريم والسنة الشريفة في بيان أن الله –سبحانه– قد يحقق شيئاً من هذه الخوارق في موقف من المواقف ، يحتاج ظهور الحق ، وقيام الحجة الإلهية فيه لمثله ، حيث أن بصائر الناس لا تلتفت إلى موقع هذه الحجة الإلهية ، وما لها من عظمة عند الله (تعالى) إلا بمثل تلك الخوارق ، أو من أجل أن يعتبر الناس بمصير من يقف أمام هدى الله عز وجل ، أو يناجزه الحرب .

وفي هذا المضمار يمكن درج ما جرى في جيش المسلمين يوم واقعة بدر الكبرى إذ يقول (تعالى) :

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ . وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَاء مَاء لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ .[2]﴾ .

---

(١) مريم : ٢٣– ٢٥.

(٢) الأنفال :٩–١١.

وفي هذا النوع يرد ما قرأناه في الرواية الواردة عن سعد بن أبي وقاص، حينما دعا على من كان يشتم عليا عليه السلام بقوله : (اللهم إن هذا يشتم ولياً من أوليائك فلا تفرق هذا الجمع حتى تريهم قدرتك)، إذ يعقّب الراوي قائلا: (فوالله ما تفرقنا حتى ساخت دابته فرمته على هامته في تلك الصخور فانفلق دماغه) .

نعم ، ينبغي الانتباه إلى أن جريان هذه الحوادث الخارقة على أيدي غير المصطفين من الناس في موقف من المواقف ، لا يعني دائماً ارتضاء من الله عز وجل لجميع هؤلاء الأشخاص الذين جرت على أيديهم هذه الحوادث ، وكرامة لهم عليه ، بقدر ما يعني ضرورة أن تقام الحجة الإلهية على الناس ، وأن ترتفع راية الهدى الرباني الذي يعنيه ذلك الموقف .

ولهذا فهي قد تجري مع من لم يكن أهلا لأن تفاض عليه أي كرامة إلهية، بل واستحق من الله كل مهانة وعذاب أليم ،كما يذكر القرآن عن فرعون حين أدركه الغرق :

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ . آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ . فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ .[1] ﴾ .

أو كما يذكره عن السامري حينما قبض قبضة من أثر الرسول فاستطاع أن يجعل خواراً في العجل الذهبي الذي غوى به بني إسرائيل :

---

(١) يونس : ٩٠-٩٢ .

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي .[1] ﴾ .

نعم ، هذه الخوارق هي من موارد الامتحان الإلهي للناس ، وقيام حجة الله على من رأى تلك الأمور وعلم بها ، وكما قال سليمان عليه السلام حينما رأى عرش بلقيس وقد استقر عنده : ﴿ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ .﴾ .

ولا ريب أن من استجاب لها ، وانتظم مع دلالاتها وشكر الله عليها استحق الكرامة على الله والدرجات الرفيعة لديه ، وأصبحت تلك الخوارق -من ثم- من دلائل كرامته على الله عز وجل ، كما قرأناه في أم موسى عليها السلام ، ومريم ابنة عمران :

﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ .

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً﴾ .

أما حيث لا يستقيم من علم بتلك الأمور مع دلائلها ، فلا ريب أنها ستكون -كأي حجة أخرى قامت على الإنسان وانصرف عنها- مدعاة للحساب والعقاب وسوء المنقلب .

﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ .﴾ .

---

(١) طه : ٩٥-٩٦ .

البَابُ التَّاسِعُ

الولايـــة في التـــزام المؤمن

الفصل الأول

حدود مسؤولية المؤمن

أما ولاية علي عليه السلام في التزام المؤمن ، وهو يستمسك بعروة الله الوثقى، ويتبع هداه ، ويستضيء بأنواره ..

.. أما الولاية في التزام المؤمن الحق ، فلا أعتقد أن غموضا قد بقي في شيء من مفهومها ، أو في حدودها ، أو في عمقها المطلوب في ذات الإنسان .

فقد قرأنا في أحاديث مشهد الغدير نفسها أن الرسول صلى الله عليه وآله قد وحّد بين ولايته هو صلى الله عليه وآله وولاية علي بن أبي طالب عليه السلام في المصدر والمفهوم والحدود والغاية ، كما وحدهما في الموقع الخاص لهما في دين الله عز وجل ، وفي النتائج الكبرى المتصورة في إقامة صرحه العظيم .

(إن الله مولاي ، وأنا مولى المؤمنين ، وأنا أولى بهم من أنفسهم .. من كنت مولاه فهذا مولاه ، اللهم وال من والاه ..) .

(ألستم تزعمون أني أولى بالمؤمنين من أنفسهم ؟.. قالوا : بلى ؛ يارسول الله . قال : من كنت مولاه فعلي مولاه ..) .

(أيها الناس ، أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، ليس لهم معي أمر ، وعلي بعدي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ليس لهم معه أمر ..) .

فالله عز وجل هو مصدر ولاية علي عليه السلام كما كان مصدر ولاية الرسول صلى الله عليه وآله :

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ .﴾ .

ومعنى ولاية علي عليه السلام هو نفسه معنى ولاية الرسول صلى الله عليه وآله الذي ليس للمؤمنين معه أمر .

وحدود ولاية علي عليه السلام هي نفس حدود ولاية الرسول صلى الله عليه وآله ، فهي أولوية بالناس من أنفسهم :

﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ .

ولا يتحقق الإيمان بدون أن تغور هذه الأولوية إلى أعماق النفس ، ولا يجد المؤمن معها حرجاً حتى وإن خالفت أحكامها دخائل النفوس :

﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً .﴾ .

كما أن موقع ولاية علي عليه السلام في كيان الإسلام نفس موقع ولاية محمد صلى الله عليه وآله فيه ، وكذلك في النتائج المتصورة لكل منهما :

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ..﴾ .

والرسول صلى الله عليه وآله وكذلك القرآن لم يتركا هذه النتائج للبصائر تستشفها بأنفسها من خلال الشرائط العامة لاصطفاء علي عليه السلام -وإن لهذه النتائج وضوحها كذلك من خلال هذا السبيل أيضاً-، بل هما قد بيّنا -ولا سيما الرسول الكريم صلى الله عليه وآله- وفي هذا المشهد نفسه ، جانبا كبيرا من حدود هذه الولاية ، ومسؤولياتها لدى المؤمن إذ قال صلى الله عليه وآله -في بعض جزئيات الغدير- :

(فان الله نصبه لكم وليّا وإماما ، وفرض طاعته على كل أحد ،

ماض حكمه ، جائز قوله ، ملعون من خالفه ، مرحوم من صدّقه ، اسمعوا وأطيعوا، فان الله مولاكم وعلي إمامكم ؛ فلا تضلوا عنه ، ولا تستنكفوا منه ، فهو الذي يهدي إلى الحق ويعمل به ؛ لن يتوب الله على احد أنكره ، ولن يغفر له، حتما على الله أن يفعل ذلك) .

ويمضي الرسول ﷺ في بيان تلك الحدود ، وتعيين هذه المسؤوليات، وتتواتر الأحاديث الواردة عنه في هذا الخط ، إذ كان ﷺ يغتنم كل فرصة مناسبة لبيان طبيعة تولي علي بن أبي طالب عليه السلام ، وحدوده ومداه الإسلامي المطلوب في مسؤولية المؤمن .

وقد سبق أن لاحظنا الكثير من تلك المواقف ، وقرأنا الأحاديث الواردة فيها ، ونضيف إليها هنا -للوقوف على المزيد من البصائر الإسلامية في تلك الجوانب- ما رواه الحاكم الحسكاني عنه ﷺ وصححه :

(من يريد أن يحيا حياتي ، ويموت موتي ، ويسكن جنة الخلد التي وعدني ربي ، فليتول علي بن أبي طالب ، فإنه لن يخرجكم من هدى ، ولن يدخلكم في ضلالة [(١)]) .

(من أطاعني فقد أطاع الله ، ومن عصاني فقد عصى الله ، ومن أطاع علياً فقد أطاعني ، ومن عصى عليا فقد عصاني [(٢)]) .

وكذلك ما رواه في كتاب (حلية الأولياء) عنه ﷺ :

(من سره أن يحيا حياتي ويموت مماتي ، ويسكن جنة عدن غرسها ربي، فليوال عليا من بعدي ، وليوال وليه ، وليقتد بالأئمة من بعدي ، فإنهم عترتي، خلقوا من طينتي ، رزقوا فهماً وعلماً ، وويل للمكذبين

---

(١) المستدرك على الصحيحين – ج : ٣ – ص : ١٢٨ .

(٢) ن . م – ص : ١٥١.

بفضلهم من أمتي ، القاطعين فهم صلتي ، لا أنالهم الله شفاعتي [(١)]) ..

(ستكون من بعدي فتنة، فإذا كان ذلك فالزموا علي بن أبي طالب، فإنه أول من يراني ، وأول من يصافحني يوم القيامة ، وهو الصدّيق الأكبر ، وهو فاروق هذه الأمة ، يفرق بين الحق والباطل ، وهو يعسوب المؤمنين [(٢)]).

والروايات الواردة في هذا المضمار أكثر من أن تحصى .

ولم يتفرد الرسول صلى الله عليه وآله في بيان هذا المعاني العظمى لولاية علي عليه السلام في دين الله عز وجل ، ولا في جعل هذه الحدود الكبرى في مسؤولية المؤمن ، أو في مدى تولّيه إياه .

فالقران -قبل الرسول صلى الله عليه وآله- هو الذي وحّد بين ولاية الرسول ، وولاية علي عليه السلام ، بل ووحد بينهما وبين ولاية الله (تعالى) نفسه ، وجعل بولاية علي عليه السلام كمال ولايتيهما ، وأناط بتوليه عليه السلام توليهما ، إذ قال (تعالى) -وكما قرأناه سابقاً- :

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ .﴾ .

وقال (تعالى) : ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ .[(٣)]﴾ .

والمراد بالذين آمنوا في هذه الآية الكريمة هو علي بن أبي طالب عليه السلام بنص الرسول صلى الله عليه وآله ، وتأييد التأريخ المتواتر بين المسلمين .

فقد أخرج السيوطي في تفسيره (الدر المنثور) -من حديث-: إذ

---

(١) فضائل الخمسة من الصحاح الستة -ج : ٢- ص: ٢١٤ عن كتاب (حلية الأولياء) -ج : ١-ص:٨٦ .

(٢) أسد الغابة - ج : ٥ - ص : ٣١٧ ومصادر أخرى .

(٣) المائدة : ٥٦ .

نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ : ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ .﴾ ، ونودي بالصلاة ، صلاة الظهر، وخرج رسول الله ﷺ ، فقال للسائل : أعطاك أحد شيئا ؟ ، قال : نعم . قال : من ؟ . قال : ذلك الرجل القائم .

قال : على أي حال اعطاكه ؟ . قال : وهو راكع . قال : وذلك هو علي بن أبي طالب .

فكبر رسول الله ﷺ -وهو يقول- : ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ .﴾ .

والمعنى القريب لتلك الأحاديث الشريفة، وهاتين الآيتين المباركتين، ومثلهما آيتا التبليغ والإكمال ، اللتين قرأناهما في استعراضنا لمشاهد الغدير -وكما أشرنا أكثر من مرة-، هو وحدة ما بين ولاية علي بن أبي طالب عليه السلام وولاية الله (تعالى) وولاية رسوله الكريم محمد ﷺ في مسؤولية المؤمن ، كوحدة ما بينها -جميعاً- في كيان الإسلام ذاته ، وفي استقامة وجوده وأمره .

وأن موقف المسلم تجاه علي بن أبي طالب عليه السلام يجب أن يكون امتداداً لموقفه تجاه بارئه (تعالى) ، وتجاه رسوله ﷺ ، في التبعية والانقياد والطاعة ، وما لم يتم المسلم طاعته لله (تعالى) ولرسوله ﷺ بطاعته لعلي عليه السلام لا يمكنه أن يستكمل إيمانه .. بل ولا إسلامه لله أيضا .

والواقع أن هذا المعنى لولاية علي عليه السلام وتوليه ، وهذه الحدود التي جعلها الله لهما ، وبينها في متواتر حججه وبيناته ، قد أصبحت من الوضوح لدى المسلمين كافة بدرجة لا تخفى على أحد -كما أشرنا سابقاً- ولهذا فهي لا تحتاج منا إلى مزيد من البيان أو التأكيد ، ولا سيما

بعد مسيرتنا الطويلة هذه في الحديث ، إذ كان لكل باب من أبوابه ، ولكل فصل من فصوله ، بل ولكل فقرة من فقراته ، دوره في بيان معالمها ، وتحديد ملامحها .

بل ونحن أدركنا-من خلال ما اقتبسناه من نصوص- أن هذا المعنى الإسلامي الخاص لولاية علي بن أبي طالب عليه السلام ، ووجوب طاعته ، وانقياد الأمة لأمره هو الشائع لدي المسلمين كافة ، وهو من الوضوح لديهم بدرجة لا تخفى على احد منهم ، وإن وقفت دون الاستمساك به، أو حتى الاعتراف الصريح به إحن الضلال ، وضغائن العصبيات ، ومنعت من تحقيقه في السلوك العلمي في الحياة موانع معروفة .

وها هو التأريخ يذكر ما كان يفعله حتى أولئك الخلفاء الذي سبقوا علياً عليه السلام في تسنم مراكز السلطة في الأمة ، ومراجعاتهم المستمرة له في المهمات ، حين تلتبس عليهم الأمور ، فلا يجدون دون الرجوع إليه مناصاً .

وقد سبق أن قرأنا صريح قول الخليفة الثاني من أنه كان يعتبر قول علي عليه السلام من السنة .

كما قرأنا قوله لعبد الله بن عباس : (.. والله ما نقطع أمراً دونه ، ولا تعمل شيئا حتى نستأذنه) .

نعم (نستأذنه) ، أي نطلب الإذن منه ، فهو صاحب الحق ، وإليه يعود الأمر في الواقع ..

وقد تعرضنا -فيما سبق- إلى المأزق الذي أوقع فيه أولئك الذين استكانوا لدواعي الانحراف أنفسهم فيه ، وحاولوا أن يشكّكوا في معنى الولاية والمولى ، وجهدوا في وضع الشبهات أمام البصائر ، اعتماداً على ما لكلمة (المولى) من تعدد في المعنى اللغوي ، واعتبروا هذا التعدد مما

أجمل مراد الرسول ﷺ منه في موقفه يوم الغدير .

ولكننا –في المقابل– رأينا ان الرسول ﷺ كان قد استخدم –بحكمته– كل جزئية في الغدير ، وكل شاردة وواردة ، كقرينة قاطعة تأبى لكلمته إلا معنى واحداً ، هو الولاية الإسلامية : هي ولاية الله ﷻ ، وولايته هو ﷺ من بين كل المعاني المتصورة .

هذا فضلاً عما لاحظناه من سيول النصوص الأخرى التي لا معنى لها كذلك غير هذا المعنى الإسلامي الفريد .

إذن فلا داعي للإفاضة في هذه الناحية بأكثر مما ذكرناه ، كما لا داعي لاقتباس المزيد من أدلتها ، فان الحديث فيها سيصبح تطويلا دون طائل .

الفصل الثاني

عمق المسؤولية تجاه الولاية

أما وقد وصل الحديث إلى هذه المرحلة ، فمن الطبيعي أن نتساءل عن موقع هذا المعنى الإسلامي لتولي علي بن أبي طالب عليه السلام ، وعن المدرك الحقيقي لوجوب طاعته ، والانقياد المطلق إليه ، وعن الأعماق التي ينطلق منها في كيان الإنسان .

والسبب الذي يحدونا لمثل هذا التساؤل :

أولاً -: استكمال مسيرتنا العامة في هذا الحديث ، من خلال المنهج الذي انتهجناه فيه منذ بداياته ، وبنينا عليه جميع النتائج التي توصلنا إليها .

وقد لاحظنا -ومن خلال ما استعرضناه من حقائق الولاية وشؤونها كافة- أن لهذا المنهج ميزات كثيرة ومهمة في علاقة الإنسان بدينه القويم ، فهو يعتبر أقرب الطرق ، وأسهل الوسائل ، لبلوغ العطاء الإسلامي في مختلف حدوده وأبعاده ، وتثبت للوعي الإنساني أن جميع حقائق الإسلام ومفاهيمه تتجاوز حدود الاعتبار والتشريع السلوكي ، إلى إيضاح الأصول الواقعية التي بني عليها كيان الوجود والإنسان .

ومن الطبيعي أن تمتد تلك الأصول إلى هذا التولي ، الذي يجسد -في حقيقته- العلاقة المطلوبة للمؤمن مع تلك الولاية ووليها العظيم عليه السلام .

ثانياً -: إن الحديث في هذا المنهج لا يكتمل كله ، ولا يعطي ثماره المرضية ، دون التعرف على دلالاته في العلاقة مع ولي الله عليه السلام كواقع فعلي في الحياة الإسلامية .

وللوصول إلى الإجابة المطلوبة للسؤال المتقدم لا بد لنا من استحضار -ولو سريع- لبعض النقاط الرئيسية التي سبق أن استعرضناها :

الأولى : قلنا : إن الله -سبحانه- قد خلق الإنسان كما شاءت حكمته المتعالية في تكوينه ، وأنشأته عاقلاً مختاراً مريداً ، وجعلت له موقعه الخاص في هذا الملكوت ، وهيأته -بما ملكته من ملكات وطاقات- لبلوغ هذا الموقع بإرادته، ثم ألقت عليه مسؤولية السعي إليه، لينال كرامته الإلهية -إن شاء- باختياره ، أو ليهبط في دركات الهلاك - إن شاء- باختياره أيضاً ..

وحينئذ فلا بد للإنسان من هذا السعي ، ولا بد له من المثابرة الدائبة لنيل ما أعده الله عز وجل له من الغايات ، ولا بد له من الاستقامة معها في كل خطوة له في الحياة ، فما كان ليحقق لنفسه النتيجة التي يطمح إليها ببصره مع توانيه في المسير ، أو انحرافه عن قويم السبيل .

الثانية : أن هذه الحكمة الإلهية -ولرأفتها بالإنسان ولطفها به- قد أودعت في أعماق فطرته من أرصدة الاستقامة مع مقتضياتها فيه ، ما يمكّنه من نيل تلك المقتضيات حين تتضح أمامه السبل ، وتستبين لديه الحقائق ، إذ بنت عليها أصول عقله وإرادته ووجدانه ، لتصبح عوامل ذاتية عميقة في كيانه ، للأخذ بيده حين يجدّ به السير نحوها ، وتستقيم به السبيل نحوها ، ولهذا كان (كل مولود يولد على الفطرة) كما يقول الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وآله في الحديث المعروف عنه .

الثالثة : إن هذه الحكمة الإلهية -ولرأفتها بالإنسان أيضاً- قد أنزلت له الإسلام ، ليكون -وبما يحويه من حقائق فكرية وأحكام منهجية- هو ذلك السبيل الرشيد ، الذي يصل بالإنسان إلى تلك الغاية الرفيعة ، حيث تقصر به قابلياته وإمكاناته عن الاستقلال برسم مثل هذا السبيل ، وهذا ما تعهدته مصادر الإسلام كافة ، وهي تبني علاقته بالإنسان :

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ..﴾ .

﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدونَ .﴾ .

وهذا يعني -باختصار- أن الإسلام هو الدين الذي يحقق للإنسان ما يصبو إليه -في أعماق ذاته وفي مقومات تكوينه- من الاستقامة مع مقتضيات حكمة الله فيه ، ليكون -من ثم- هو دين الحق ، ودين الفطرة ، ومنهج الأرصدة الذاتية لكيانه وشخصيته في تطلعها إلى الكمال والسعادة الحقيقة .

وبعبارة أخرى : إن الإسلام هو الضرورة التي تستشعرها فطرة الإنسان، وهو ترنو ببصيرتها إليه في أعماقها ، قبل أن يملى عليها كمنهج محدد الملامح والأحكام ، وحقائق مقررة الأصول والفروع .

وهذه السمة ذاتية في الإسلام ، وقد بني عليها كيانه كله ، فمن الطبيعي أن تتجلى حينئذ في كل فكرة من فِكره ، وفي كل حكم من أحكامه، وكل حد من حدوده ، ومن ثم في كل منتجب من منتجبيه الذين ارتضاهم الله (تعالى) شواهد لحجته ، وقائمين على أمره ، وعنوانا لدلائله في عالم الإنسان ، وتشخيص حقائقه وأحكامه في هذه الحياة .

وفي آفاق هذه السمة بالذات حددت مسؤولية أولئك المنتجبين عليهم السلام ، ومن أجل الوفاء بكل مستلزماتها استوجبوا -وكما علمنا- تلك الرعايات الخاصة من الله (تعالى) لهم ولكل جزئية من حياتهم ، ونالوا تلك الخصائص والمميزات الإعجازية التي تميزوا بها بين الناس .

نعم على هذه الأعماق الواقعية بني كيان الإسلام ذاته ، ومن هذه الأعماق الأولى بدأت علاقته بالإنسان ، فمن الطبيعي أن تكون هذه الأعماق نفسها مبدأ علاقة الإنسان بالإسلام كذلك ، وعلى أساسها يجب أن يمضي في تعامله مع مختلف حقائقه وأحكامه ، حين يريد أن ينال بغيته في الحياة .

وهذا يعني أن تكون هذه الأعماق نفسها هي مبدأ علاقته بالمصطفين من شخصيات الإسلام ، وعلى أساس واضح منها كذلك يجب أن يبنى أي تعامل له معهم ، ومع كل أثر من آثارهم ، لأنهم المثل الشاخصة للإسلام ، وآثارهم هي حقائقه المتجسدة ، وحجته القائمة .

فالأصول الأولى التي أقيمت عليها علاقة الإنسان مع هؤلاء الأصفياء عليهم السلام هي نفس الأصول الذاتية التي وثقت ما بين الإنسان وحقائق الإسلام كافة ، كما أنها -في الوقت ذاته- نفس الأصول التي وثقت ما بينه وبين الحق ، الذي بذرت حكمة الله (تعالى) بذرته في أسس وجوده ، وجعلته صبغة عامة في تكوين ذاته كما فطرها الله عز وجل ، وقبل أن تحيد بها صوارف الانحراف في الحياة عن مسارها الصحيح ، كما جعلته اتجاها عميقا ومكيناً في جبلته أيضا ، لتمضي عليه في توجهها الذاتي نحو الكمال ، إذا استطاعت أن تصمد أمام دواعي الأهواء ، ومضلات الشيطان .

ومن هنا أصبح للحق دلائله الواضحة ، ومقاييسه القريبة من وعي

الإنسان، ليستطيع التعرف بها بسهولة -حين يعود إليها- على ما في الأطروحات والمذاهب ومواقف الناس وكلماتهم ، من عناصر الاستقامة مع الحق ، أو الانحراف عنه .

إذن فهناك وحدة قائمة ومكينة بين ركائز الحق في ذات الإنسان -من جهة-، ودين الله (تعالى) كمنهج للوصول إليه -من جهة ثانية-، ومنتجبي هذا الدين كشواهد حية شاخصة لحقائقه وأحكامه -من جهة ثالثة- .

.. تطلع ذاتي عميق في الإنسان إلى النور الذي يضيء له مسالك الحياة، وضمان رباني لهذا النور في دين الإسلام ، وتشخيص قائم له في منتجبيه الأصفياء عليهم السلام .

.. حاجة تكوينية في الإنسان إلى الهدى والرشد ، وتعهد إلهي لهما في كل فكرة أملاها لطف الله (تعالى) في هذا الدين القويم ، وفي كل حقيقة وضعها فيه ، وكل حكم شرعه ، وتحقيق لهما في كل سلوك يصدر من مصطفيه .

.. فاقة شديدة في الإنسان إلى الرشد والسعادة والكمال في الحياة ، والتزام من الله العلي القدير أن يشرع له واضح السبل إلى تصورات وسنن محددة في منهاجه الأقوم ، وأن يجسدها في أوليائه مُثلا قائمة ، تتراءى منهم في كل موقف ، وفي كل كلمة أثرت عنهم ..

نعم ، هذه هي الروح التي وثقت علاقة الإسلام وأصفيائه المطهرين بالإنسان ، كما وثقت علاقة الإنسان بالإسلام ومنتجبيه عليهم السلام أيضاً .

ومن الطبيعي أن تتجلى هذه الروح في جميع الحدود والمفاهيم والأحكام التي ذكرتها النصوص السابقة التي أشارت إلى هذه العلاقة وفصلت شؤونها وأبعدها ، لتصبح هذه الروح -من ثم- هي السمة

البارزة لها ، دون أدنى تفاوت أو خلل .

فالتولي والتبعية والطاعة والانقياد -وأمثالها من المفاهيم التي وردت في المصادر الإسلامية- كلها يجب أن تنطلق من هذه الأصول نفسها ، لتصبح -وبما لها من آفاق- هي أساس وجود المؤمن ، والحاكمة المطلقة في بناء شخصيته، والمهيمنة على جميع توجهاته وأحواله وسلوكه.

والقرآن الكريم يشير إلى هذا المعنى بوضوح في قوله (تعالى) :

﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ .

﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً .﴾ .

ويؤكد الرسول ﷺ هذا المعنى بالنسبة إلى توليه هو ﷺ نفسه ، وتولي وصيه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ، وعترته المطهرين عليهم السلام بقوله -في موقف الغدير نفسه ، كما في غيره من المواقف المشابهة- :

(أيها الناس ، أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، ليس لهم معي أمر ، وعلي من بعدي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ليس لهم معه أمر ، ثم ابني الحسن أولى بالمؤمنين من أنفسهم ليس لهم معه أمر .. إلى آخر الحديث).

والمعنى القريب لهذه الأولوية المطلقة التي يذكرها القرآن ، ويؤكد عليها الرسول ﷺ : أن هؤلاء الأصفياء المرتضين هم مثل الحق في هذا الوجود وهم ألسنته في البشرية ، وأن كل ما يصدر عنهم -من فعل أو قول- هو عنوانه الذي يستهدفه الإنسان في مسعاه ، ويرنو إليه في أعماق ذاته ، فلا غرو حينئذ أن يصبحوا نبراسه في التطلع إلى الكمال ، ونوره الذي يجب أن يهتدي به في الحياة ..

وهكذا يبدو عمق ولاية الأصفياء في كيان الإنسان ، كما تبدو

بعض متطلبات الوفاء بمسؤوليتها الكبرى لدى المؤمن ..

فالتولي لهؤلاء الأصفياء ليس قضية مفروضة على الإنسان يجدها التزامه ببعض الأمور التي يلتزمها في حياته مما هو وراء ذاته .

وهو ليس سلوكا عملياً يجسّد فيه المرء انقياده لتلك الأمور فيما تفرضه عليه .. كلا أبدا .. وإنما هو –قبل هذا وذاك– بعد ذاتي أساس في تكوين الإنسان نفسه ، وركن عميق من أركان وجوده ، ورصيد مبدئي في مكونات شخصيته ، كما فطرها الله على الحق ، وعلى التطلع إليه والاستمساك بهداه..

ومن هنا اختلفت النتائج التي تنعكس على الإنسان في كل جانب من جوانب وجوده وحياته ، جراء موقفه تجاه هؤلاء الأصفياء ، وما يتسم من إيجابية أو سلبية في الاتباع لهديهم ، وفي مدى اتباعه لهديهم أو عدم اتباعه ، وفي طاعته لأمرهم أو عصيانه ..

وهو اختلاف يبرز في أعماق ذاتها، قبل غيرها من جوانب وجوده، وفي مدى استقامة مكونات شخصيته وصحتها وسلامتها ، قبل أن تتراءى آثاره في مجريات حياته ، وسلوكه الفردي والاجتماعي .

ولا محيص عن هذا الاختلاف بعد أن كانت ولاية هؤلاء المصطفين عليهم السلام –وكما هو الأمر في سائر حقائق الإسلام كافة– ذات أرصدة تكوينية ، قبل أن تصبح أحكاما تكليفية تنظم حياة الإنسان وعلاقاته ، أو التزاما فكرياً أو عمليا .

إذن ، فالمؤمن –ولكي يضمن لنفسه بلوغ الغاية المرجوة له في تولّيه لأولئك الأصفياء النجباء عليهم السلام– عليه أن يبدأ من أعماق ذاته فيجعلها محتوى لأنوارهم ، ويبني على رصيد كامل منها جميع مكونات وجوده وشخصيته ، قبل أن ينطلق منها في سلوكه ومواقفه ، وتعامله مع مختلف

جوانب الحياة التي يعيشها ، ويستقيم في سبيل الكمال الذي يطلبه .

وحق للولاية أن تكون إحدى أهم القواعد الأساسية في بنية المؤمن، بل وحق أن تكون هي القاعدة الوحيدة في هذا البناء المحكم - حين تؤخذ بمفهومها الإسلامي ، الذي يمتد في تأثيره وحيويته إلى حقائق الإسلام كافة- وحق أن تصاغ من خلالها جميع مكونات الذات ، وتطبع بطابعها كل ما يصدر عنها من مواقف و تصورات .

إذ علمنا أن أولئك الأولياء النجباء عليهم السلام ، هم المظهر القائم لدين الله (تعالى) في وجود الإنسان ، وشواهد الحية لمعانيه الرفيعة التي يستكمل الإنسان بها وجوده في هذه الحياة ، ككائن رشيد ميّزه الله عز وجل بالعقل والاختيار ، وأعده لخلافته في هذه الأرض .

وسيجد الإنسان -بهذه الولاية الإسلامية وهؤلاء الأولياء المصطفين عليهم السلام- وحدة القيم العليا التي يتطلع إليها في حياته ، فقد شاء الله (تعالى) أن يكون هؤلاء الأصفياء عليهم السلام شواهد كماله الأعلى في الإنسان ، ومجلى عظمته في الخلق ، ودلائل حكمته في الإيجاد و التدبير.

وسيرى أن كل موقف من مواقفهم ، وكل حالة من حالاتهم ، وكل سمة شخصية فيهم ، هي مظهر لذلك الكمال وتلك العظمة والحكمة .

وهكذا يبدو المدلول الحقيقي للأوامر الواردة في النصوص بتولي أولئك الأصفياء ، وطاعتهم ، والاقتداء بهم .

كما يبدو المدلول الحقيقي لأمر الله (تعالى) بمودة ذوي القربى ، وحب أهل البيت عليهم السلام عامة ، وحب علي بن أبي طالب عليه السلام خاصة ، حيث تؤكده نصوص الإسلام في كل مناسبة .

كما تبدو العوامل التي من أجلها جعل الله (تعالى) لتلك المودة

وهذا الحب أهميتها الكبرى ، ونتائجها المصيرية التي ذكرتها مصادر الإسلام في سلامة الإنسان ، وسعادته في حياته الدنيا و الآخرة ، مقابل النتائج والآثار السلبية التي سيقع فيها مع تنكبه تلك المودة وذلك الحب في حياته ، أو مع بغضه لأولئك النجباء ..

﴿ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ .

وعن أبي بكر قال : رأيت رسول الله ﷺ خيم خيمة وهو متكئ على قوس عربية وفي الخيمة علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام فقال: (معشر المسلمين ؛ أنا سلم لمن سالم أهل هذه الخيمة، حرب لمن حاربهم، ولي لمن والاهم ، لا يحبهم إلا سعيد الجد طيب المولد ، ولا يبغضهم إلا شقي الجد رديء الولادة) .

قال رسول الله ﷺ -وقد أخذ بيد حسن وحسين- : (من أحب هذين وأباهما وأمهما كان معي في درجتي يوم القيامة) .

(يا أيها الناس ! أوصيكم بحب ذي أقربها : أخي وابن عمي علي بن أبي طالب ، فإنه لا يحبه إلا مؤمن ، ولا يبغضه إلا منافق . من أحبه فقد أحبني ، ومن أبغضه فقد أبغضني ، ومن أبغضني عذبه الله عز وجل[1]) ..

(يا علي ؛ أنت سيد في الدنيا وسيد في الآخرة ، حبيبك حبيبي ، وحبيبي حبيب الله ، وعدوك عدوي وعدوي عدو الله ، والويل لمن أبغضك بعدي[2]) .

(وإني رسول الله إليكم ، غير محاب لقرابتي ، هذا جبرئيل يخبرني أن السعيد -حق السعيد- من أحب علياً في حياته وبعد موته ، وأن

---

(١) فضائل الخمسة من الصحاح الستة – ج : ٢– ص : ١٩٩،عن كنز العمال – ج : ٧– ص : ١٤٠.

(٢) المستدرك على الصحيحين – ج :٣ –ص : ١٢٧ – ١٢٨.

الشقي -كل الشقي- من أبغض عليا في حياته وبعد موته [١]) .

(عنوان صحيفة المؤمن حب علي بن أبي طالب [٢]) .

(حب علي حسنة لا تضر معها سيئة ... [٣]) .

(ما ثبّت الله حب علي في قلب مؤمن فزلت به قدم ، إلا ثبّت الله قدميه يوم القيامة على الصراط [٤]) .

(حب علي يأكل الذنوب كما تأكل النار الحطب [٥]) .

نعم ، و صدق رسول الله ﷺ ..

وواضح -حينئذ- أنه ليس ذلك الحب الذي لا يتجاوز آفاق العاطفة من نفس الإنسان ، وإنما هو الحب الذي تبنى عليه جوانح الإنسان كافة ، ليصبح أساسا لوجودها ، ومحوراً لما يصدر منها في الجوارح ، من تصورات وإرادات ومواقف وكلمات وأحوال .. إلى آخره .

وإنما هو النور الذي تضيء به جميع آفاق شخصية الإنسان ، فلا يرى ، ولا يسمع ، ولا يمضي ، إلا حيث هدى الله ﷻ ، وإلا حيث رشده ، وبصائره في الحياة ..

وطبيعي أن تتخذ الولاية حينئذ موقعها في قيادة الإنسان ، وتقوم بدورها في الأخذ بيده إلى حيث رسمه الله (تعالى) له ، من استقامة مع الحق ، وكمال في سبيله ، فهي المظهر السامي للطف الله ﷻ ، ورحمته

---

(١) مجمع الزوائد – ج : ٩ – ص : ١٣٢ .

(٢) فضائل الخمسة من الصحاح الستة – ج : ٢– ص : ٢١٨ عن تاريخ بغداد – ج : ٤– ص : ٤١٠.

(٣) المصدر السابق – ج : ٢– ص : ٢١٩ – عن كنوز الحقائق – ص : ٦٢.

(٤) المصدر السابق – ص : ٢٢٠ عن كنز العمال – ج : ٦ –ص : ١٥٨.

(٥) المصدر السابق – ص : ٢١٩ عن الرياض النضرة – ج : ٢ – ص : ٢١٥.

بالعباد ..

وسلام على أولياء الله ومنتجبيه ..

والحمد لله على إكمال الدين ، وإتمام النعمة ، ورضا الرب ، وجعلنا من المتمسكين بولاية محمد وعلي وأبنائهما الطاهرين ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ..

من مصادر البحث

من مصادر البحث

١ - القرآن الكريم .
٢ - الإسلام : ينابعه . مناهجه . غاياته - الشيخ محمد أمين زين الدين - ط : ٢ - مطبعة الآداب - النجف الأشرف .
٣ - إحقاق الحق وإزهاق الباطل - القاضي التستري - تحقيق وتعليق السيد شهاب الدين المرعشي النجفي - ن : المكتبة الإسلامية - طهران .
٤ - أسد الغابة في معرفة الصحابة - علي عبد الكريم الجزري ، المعروف بابن الأثير - ط : أوفسيت - ن : المكتبة الإسلامية - طهران .
٥ - أصول الكافي - الشيخ محمد بن يعقوب الكليني - ن : مكتبة الصدوق - طهران - سنة : ١٣٨١ .
٦ - البداية و النهاية - ابن كثير - ن : مطبعة السعادة - مصر .
٧ - تهذيب التهذيب - أحمد بن حجر العسقلاني -ط : أوفسيت على مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية - الهند - حيدر آباد الدكن - سنة : ١٣٢٦ - ن : دار صادر - بيروت .
٨ - تاج العروس - السيد مرتضى الزبيدي- ط : أوفيست على الطبعة الاولى - المطبعة الخيرية المنشاة بجمالية مصر - سنة : ١٣٠٦هـ ، ن : دار ليبيا للنشر والتوزيع - بنغازي .
٩ - التفسير الكبير - أبي بكر الرازي - ط : الاولى - ن : التزام عبد الرحمن محمد - القاهرة .

١٠ - تأريخ الأمم والملوك - محمد بن جرير الطبري - ط : ٢ - ن: مطبعة الاستقامة - القاهرة - سنة : ١٣٥٢هـ .
١١ - حق اليقين في معرفة أصول الدين - السيد عبد الله شبّر - مطبعة العرفان - صيدا - سنة : ١٣٥٢ هـ .
١٢ _ الدر المنثور في التفسير بالمأثور - جلال الدين السيوطي - ن : المكتبة الجعفرية والمكتبة الإسلامية - طهران - سنة : ١٣٧٧هـ .
١٣ - دلائل الصدق - الشيخ محمد حسن المظفر - ن : مطبعة ثابان -طهران .
١٤ - ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى - محب الدين احمد بن عبد الله الطبرى - ن : مكتبة القدسي - القاهرة - سنة : ١٣٥٦هـ .
١٥ - شرح نهج البلاغة - ابن أبي الحديد - تحقيق : محمد ابو الفضل ابراهيم - ن : دار إحياء الكتب العربية - مصر- سنة : ١٩٥٩م.
١٦ - شواهد التنزيل لقواعد التفضيل - عبيد الله بن عبد الله بن احمد المعروف بالحاكم الحسكاني الحذاء الحنفي النيسابوري - ط : الاولى - تحقيق: محمد باقر المحمودي - ن : مؤسسة الأعلمي - بيروت - سنة : ١٣٩٣ هـ .
١٧ - صحيح البخاري - ن : مصطفى البابي الحلبي - القاهرة - سنة: ١٣٧٧ هـ .
١٨ - صحيح الترمذي - تحقيق ابراهيم عطوة - ن : شركة البابي الحلبي- سنة : ١٣٨٥ هـ .
١٩ - صحيح مسلم - ن: محمد علي صبيح - القاهرة - سنة : ١٣٨٠هـ.

٢٠ - الطبقات الكبرى – ابن سعد –ن : دار صادر – دار بيروت – سنة: ١٣٨٠ هـ .

٢١ - الغدير في الكتاب والسنة والأدب – الشيخ عبد الحسن الأميني – ط: الاولى - مطبعة الغري - النجف - سنة : ١٣٦٤ هـ .

٢٢ - فضائل الخمسة من الصحاح الستة وغيرها من الكتب المعتبرة عند أهل السنة والجماعة – السيد مرتضى الفيروزآبادي – ن : دار الكتب الإسلامية - النجف - سنة : ١٣٨٤ هـ .

٢٣ - كتاب سليم بن قيس – ن : المطبعة الحيدرية – النجف .

٢٤ - مجمع الزوائد – علي بن ابي بكر الهيثمي – ن : مكتبة القدسي –القاهرة - سنة : ١٣٥٢هـ .

٢٥ - مسند الامام أحمد بن حنبل - ط : الأولى – دار صادر – بيروت – سنة : ١٣٨٩ هـ .

٢٦ - المستدرك على الصحيحين – أبو عبد الله محمد المعروف بالحاكم النيسابوري – ن : مكتبة النصر الحديثة – الرياض - سنة : ١٩٦٨م .

٢٧ - الميزان في تفسير القرآن – السيد محمد حسين الطباطبائي – ط: الاولى – ن : دار الكتب الإسلامية – طهران .

٢٨ - نهج البلاغة – تحقيق الدكتور صبحي الصالح – بيروت – سنة : ١٣٨٧ هـ .

٢٩ - النهاية في غريب الحديث والأثر – مجد الدين بن محمد بن محمد الجزري المعروف بابن الأثير - المطبعة العثمانية – مصر – سنة : ١٣١٢هـ .

٣٠ -وسائل الشيعة – الشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي – تحقيق: الشيخ محمد الرازي – ن : المكتبة الإسلامية – طهران -سنة : ١٣٨٨هـ.
٣١ - وقعة صفين – نصر بن مزاحم - تحقيق عبد السلام محمد هارون – ط : الاولى – القاهرة .
٣٢ - ينابيع المودة – الشيخ سليمان الحسيني البلخي القندوزي – ط: الثانية – مكتبة العرفان – صيدا .
٣٣ - الصراط المستقيم إلى من حقه التقديم - ابو محمد علي بن يونس العاملي البياضي – ن : المكتبة المرتضوية - سنة : ١٣٨٤.

المُحتَوَيَاتُ

المحتويات



هذا الكتاب:

إن احياء المناسبات والذكريات ظاهرة ملموسة في كل الأمم والشعوب والمجتمعات. وان كانت هذه الأمم تختلف في مفردات مناسباتها فإن المعيار الحقيقي لقياس مستوى عناية هذه الأمم إنما يقاس بطريقة الاحتفال والاحتفاء بها.

من هذا المنطلق كانت فكرة المهرجان العالمي للامام علي (ع) بمناسبة الذكرى المئوية الرابعة عشرة ليوم الغدير الخالد والذي تكاملت الجهود الخيرة لاقامته في صباح يوم السبت ١٩ ذي الحجة ١٤١٠ هجرية الموافق ١٢ تموز ١٩٩٠ في مدينة الضباب لندن - بريطانيا

تألف المهرجان من عدة فقرات وعلى مدى ثلاثة ايام تكونت من المؤتمر العلمي والأمسيات الفنية والأدبية ومعرض الكتاب ومسابقة تأليف الكتاب والمعرض الفني حيث تمّت استضافة عدد كبير من العلماء والمفكرين والفنانين والأدباء من شتى أنحاء العالم للمشاركة في فعالياته مثّلوا مختلف الطوائف الاسلامية بالإضافة الى ضيوف غير مسلمين

هذا الكتاب الذي بين يديكم هو نتاج احدى فقرات هذا المهرجان الخالد وهي مسابقة تأليف أحسن كتاب في المناسبة حيث حاز على الجائزة الأولى في هذه المسابقة حيث فازت خمسة كتب وزعت على ثلاثة جوائز فيما حاز على الجائزة الثانية كتابان بالمناصفة وكذلك الجائزة الثالثة.

مؤلّف هذا الكتاب سماحة حجة الاسلام الشيخ ضياء الدين نجل المرحوم المرجع الديني آية الله الشيخ محمد أمين زين الدين ترعرع في حضن النجف الديني الثقافي وعلى حبّ صاحب المدينة التي عرفها الرسول (ص) بقوله (أنا مدينة العلم وعلي بابها)..

واحسب ان القارىء الكريم حين يتم قراءة هذا الكتاب سوف يقف الى صف اللجنة في حكمها السليم بأحقية الفوز بالجائزة الأولى.. أملنا من العلي القدير أن يتقبل هذا العمل بالأجر والثواب

د. السيد محمّد بحر العلوم



ص.ب. 10444 الكرادة - بغداد - العراق
هاتف : 009647801220268 - فاكس: 00448452800048
e-mail:zaidpublishing@gmail.com



بيروت - لبنان - حارة حريك - شارع المقداد - بناية الهدى
هاتف: ٠٠٩٦١ ٣ ٧٢٧٧٦٤ - ٠٠٩٦١ ١ ٥٥٤٠٩٤
e-mail: najaf_86@yahoo.com